الحضارة الإسلامية

في

القرن الرابع الهجري

الحضارة الإسلامية

في

القرن الرابع الهجري

أو

عصر النهضة في الإسلام

تأليف

الأستاذ آدم متز

أستاذ اللغات الشرقية

بجامعة «بازل» بسويسره

نقله إلى العربية

محمد عبد الهادي أبو ريده

بكلية الآداب بجامعة القاهرة

أعد فهارسه

رفعت البدراوي

المجلد الأول

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الخامسة

مزيدة بفهارس الأعلام والأماكن والمدن

دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت سنتر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢/٨٠٠٨١١/٨٠٥٤٧٨

تلكس: ٤٠١٣٩ L.E. كتاب برقيا: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان

مقدّمة الناشر

« الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ، أو « عصر النهضة في الاسلام » ، كتاب أشهر من أن يُعَرَّف ، وأقيم من أن يقرظ أو يمدح ..

واذا ذكر هذا الكتاب ، لم يذكر إلا مقرونا باسم الاستاذ « محمد عبد الهادي أبو ريدة » ، فهو صاحب الفضل الأكبر في نقل هذه الصورة المشرقة لنهضة العالم الاسلامي في القرن الرابع الهجري إلى ملايين القراء في العالم العربي ، المتطلعين دائما الى الاطلاع على أسباب الحضارة ومظاهر النهضة التي تجلّت وتوطّدت في ذلك العصر ... وهو صاحب الجهد العظيم الذي لا يقل عن جهد المؤلف الاستاذ « آدم متز » بل قد يفوقه . فلم يكن الأمر أمر ترجمة للكتاب فحسب ، بل كان بحثا مضنيا عن مصادره الأصلية المتفرقة في مختلف المدن والأقطار ، وعن أصول النصوص التي أوردها المؤلف وتصحيح ما قد يكون فات المؤلف في ألفاظها ومعانيها لجهله باللغة العربية ؛ ثم كان مراجعة شاملة دقيقة لصحة ما ورد من المعلومات في النصوص والمراجع ذاتها ومقابلتها بنصوص ومراجع أكثر دقة وشمولا .. ثم ، ولعل هذا هو أهم ما يستلفت النظر ، كان تنظيما شاملا للمراجع واستكمالا لأسماء الأعلام ، التي لم يتمكن المؤلف من ضبطها ..

ولم يكتف الاستاذ أبو ريدة ، بكل هذا التدقيق والتمحيص ،

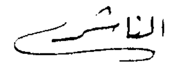
بل أراد ، وهو الحريص على الحقيقة ، أن يوضح ما غَمُضَ على المؤلف ، وأن يصحح بعض وجهات نظرٍ له لا تطابق الحقيقة ، فأضاف تعليقات جمّة أضفت على الكتاب المزيد من الدقة والوضوح .

والكتاب في جزءين ، يضمان تسعة وعشرين فصلا ، لم يترك ناحية من نواحي البحث فيما يتعلق بالحياة في ذلك العصر ، وفي جميع أجزاء الدولة الاسلامية العظمى إلا وفصلها ، حتى جاء أشمل صورة ممكنة عما كانت عليه حال الدولة . خلفاء وأمراء وقوادا وشعبا ، جماعات وأحزابا وأفرادا ، علما وأدبا ، فكرا ومعتقدا واجتهادا ... حتى ليحس القارىء وكأنه ينتقل من عصره الحاضر إلى ذلك العصر ، يشارك أهله حياتهم بجميع دقائقها وتفاصيلها .

.. مثل هذا السِّفر القيِّم ، لا تكتمل فائدته إلا بفهارس الأعلام والمدن والأماكن ، التي تسهّل للباحث الاهتداء إلى ما يود الرجوع إليه حين دراسة الشخصيات الإسلامية والأحداث التاريخية وأماكن وقوعها ؛ هذه الفهارس التي تحتاج في إعدادها وترتيبها ، إلى مجهود ودقة وصبر ، بذلناها عن طيب خاطر في سبيل استكمال الفائدة المرجوّة من الكتاب .

وإننا إذ نقدم هذا الكتاب القيم ، في مجلدين فاخرين ، لنشعر بأننا نؤدي لملايين الأدباء وطلاب البحث والقراء في العالم العربي ، خدمة ، هي جزء من رسالة دارنا التي تأمل دائما أن تنشر كل ما يوطد دعائم النهضة الثقافية العربية الاسلامية .

والله الموفق .



تصدير

هذا كتاب في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، وهو العصر الذي بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها .

ألفه الأستاذ « متز » باللغة الألمانية ، وقد لفت نظري إليه فصول كانت تنشر في مجلة (الثقافة الإسلامية) Islamic Culture التي تصدر في حيدر أباد باللغة الإنجليزية ، وكان يقوم بترجمتها من الألمانية إلى الإنجليزية المرحوم خدابخش ، فأعجبني منها دقة البحث وحسن الاستقصاء ، والاعتماد على المصادر الكثيرة المتنوعة اعتماداً يدعو إلى الدهش ، ويستخرج العجب ، من الصبر على البحث ، والدأب في العثور على مادة الموضوع .

وقد أحاط المؤلف بنواحي الحضارة الإسلامية من سكان ومال وادارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع ، وكشف ببحثه عن نواحٍ غامضة أخذ يعالجها في صبر وأناة حتى جلاّها ؛ وكانت طريقة معالجته تكاد تقتصر على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر .

وقد يؤخذ عليه أنه أحياناً يعسر عليه النص ، فيفهمه على غير وجهه، وأحياناً يبتر النص ، وقد كان الإتيان به كاملا يوضح رأيه أو يخالف

وجهة نظره ؛ كما يؤخذ عليه أنه يستدل في بعض المسائل على رأي بنص واحد ، ولو عرضت النصوص كلها لخرج الباحث منهـا برأي يخالف رأيه ؛ وأحياناً نراه بحكم عقيدته ونشأته واعتماده على النصوص فقط ؛ دون الروح والذوق الفني والجو الإسلامي والوسط العربي ، يشرد في رأيه ، ويخطىء في نظره • ولكن هذا كله لا يذهب بعظم قيمة الكتاب وفائدته للباحثين الإسلاميين ؛ فالكتاب يعلمنا طرق البحث العلمي ، ويقدم لنا درساً قيماً في صبر العلماء على معاناة البحث ، والاستناد إلى أكبر عدد من المصادر وغربلتها وأخذ خير ما فيها ، ويكشف لنا عن نواح من الحضارة مجهولة •

ولعل كثيراً من المآخذ التيعددناها يرجع إلى أن المؤلف قد عاجلته منيّته والكتاب في مسوداته لم يبيضها ، ولم يضعها في شكلها الأخير •

* * *

رأيت الكتاب قـد ترجم من الألمانيـة إلى الإنجليزية ثم ترجم إلى الإسبانية ، فقلت إن الأولى أن يترجم إلى العربية ، فأهلها هم وارثو الحضارة الإسلامية ، وهم أولى أن يطلعوا على كل ما كتب فيها •

فلما سنحت لي الفرصة لترجمته برغبة بيت المغرب في نشر كتب قيمة في هذا الموضوع وأمثاله ، انتدبت له الأستاذ محمد عبد الهادي أبا ريدة ، كما انتدبته من قبل لترجمة كتاب الفلسفة الإسلامية للأستاذ دي بور ، فأبلى فيه بلاء حسناً •

وعرفت أن كتابنا هذا يتطلب من مترجمه صبراً من جنس صبر المؤلف ، فكل صفحة منه تتضمن عدة مصادر،واشترطت أن تنقل عبارات هذه المصادر بنص مؤلفها لا بمعناها • وبعض هـذه المصادر مخطوط

بألمانيا وبعضها مخطوط بهولندا ، وبعضها مخطوط بفرنسا إلى غير ذلك، فتقبل الأستاذ أبو ريدة القيام بهذا الجهد كله بنفس طيبة تحب العلم ، وتصبر على الجهد ، وتستلذ العناء في سبيل علم تنشره أو خير تقدمه ؛ وليس يعلم مقدار ما عانى في ذلك إلا الله ومن شاهده أثناء ترجمته وبحثه .

وكان من حسن حظه وحظ الكتاب وحظ القراء أن أُرسل إلى بعثة في فرنسا ، فأتاحت له هذه البعثة فرصة طيبة للاطلاع على المصادر في المكاتب الفرنسية ، ومكنت له من أن يسافر إلى برلين ، ويتصل بهولندا ليقوم بترجمة هذه المصادر كلها ؛ فله الشكر الجزيل على ما عانى، وعلى ما قدم لقراء العربية من خير ، ولبيت المغرب الشكر على ما أنفق ، وعلى ما اتجه إليه من خدمة العلم .

احمد امين

كلمة المترجم

للطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى سائر الأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية لكتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » ، يسرني أن أُقدّمها للقراء والباحثين ، بعد أن لقي الكتاب من التقدير له والانتفاع به في مختلف ميادين البحث ما شجّع على نشره من جديد .

وإني لتعود بي الذاكرة،عند مراجعتي للكتاب من جديد والإشراف بنفسي على طبعه ، إلى سنة ١٩٣٩م حين أعددتُ أصولَه ونصوصه وترجمت هذا الجزء الأول ، والعالم يتأهب للحرب ، وخصوصاً إلى عام ١٩٤٠م حيث أتممتُ ترجمة الجزء الثاني في باريس ومدريد ، والحرب قائمة تذيق أوروبا الويلات وتبلبل قلبَ الغريب بها ، وتقلق روحه ، فلا يستطيع أن يتسلى عن ذلك إلا بالعمل . وقد استطعت أن أرسل ترجمة الجزء الثاني ، رغم وقوف المواصلات البريدية ، مفرقةً مع أحد زملائي الأفاضل في البعثة ، وهو الدكتور يحيى الخشاب ومع (صاحب

السعادة) كامل البنداري (باشا) ، وزيرنا المفوض في بروكسل آنذاك، فلهما اليومَ الشكرُ الذي لم أستطع أن أبلّغه إليهما في تلك الأيام •

وقد شاء القدر العجيب ، في أثناء الحرب وتقلباتها ومفاجآتها أن أُتِمَّ دراستي،بعد انقطاعها بباريس،في جامعة بازل بسويسرة، حيث كان مؤلف الكتاب أستاذا قبل عشرين عاما،وأن أتتلمذ على تلميذه وخليفته في منصبه ، وهو أستاذي الكريم الفاضل العلاّمة المتواضع الأستاذ الدكتور رودلف تشودي (Rudolf Tschudi) • وكان الكتاب أحيانا موضع حديثنا ، فأُحِب أن أُنبّه القارىء إلى أن المؤلف كان يقصد من كتابه أن يسجّل حضارة الإسلام في القرنين الثالث والرابع مع العناية الخاصة بالقرن الرابع ، ليكون كتابه مقابلا ومشابها لما كتب عن حضارة عصر النهضة في أوروبا،خصوصا ما كتبه ياكوب بوركهارت Jacob Burckhardt السويسري البازلي عن عصر النهضة في أوروبا وفي إيطاليا • ولعل هذا هو السبب في تسمية المؤلف لكتابه باسم Die Renaissance Des Islams أي « نهضة الإسلام » ؛ وهي عبارة مختصرة للدلالة على حضارة عصر النهضة في الإسلام • وكما أن حضارة عصر النهضة في أوروبا كانت قائمةً على إحياء الحضارة القديمة في نواحٍ كثيرة ومقترنةً بميلاد القوميات وتجزّؤ الدولة الواحدة التي قام عليها بناءُ العصر الوسيط في أوروبا إلى دول صغيرة ، فكذلك كانت حضارة الإسلام بوجه عام متصلة بإحياء ثقافات وحضارات متقدمة عليها ، وزاد على ذلك في العصر الذي يتكلم عنه المؤلف ، وهو القرن الرابع الهجري ، انحلالُ دولة الخلافة الكبرى إلى دول صغرى • فلا غرابة أن يُؤخذ المؤلف بهذا التشابه وأن يجعل له شأناً في وضعه اسم كتابه ، بل كأنه يؤكد ذلك بأن يشير في كثير من الأحيان وفي مواضع متفرقة[1] إلى أنه في القرن الثالث ، وخصوصا

(١) انظر مثلا أول الفصل الرابع عشر واول الفصل الثامن عشر ، وخصوصا الفصل التاسع عشر في مواضع كثيرة وغير ذلك .

في القرن الرابع ، ظهرت بين المسلمين أفكار" ونظم ومذاهب وأساليب في الحياة وعادات كانت موجودة قبل الإسلام عند أمم أخرى ، ثم عادت إلى الظهور من جديد ؛ ولعل هذا هو الدعامة الكبرى التي تستند إليها هذه التسمية التي لم يجد المؤلف ما يرضيه غيرُها •

وثم نقط أخرى أحب أن أنبّه على بعضها ؛ فمن ذلك ما لاحظته في مواضع كثيرة جداً من عدالة هذا المؤلف في حكمه ؛ فهو لا يعـرف التعصب ، ويذكر الأمثلة من الحضارة العربية ومن غيرها ؛ بل يبين أن بعض ما نجده في تاريخ العرب أحياناً من قسوة ننفر منها قد أخذه العرب عن غيرهم كالبوزنطيين • وهو يؤكـد ، في مواضع شتى ، خصائص الطبيعة العربية مبرِّئاً إياها أحياناً مما يظهر في تاريخها من مساوىء دخيلة عليها ، وهو منصف" أيضاً في تصوره للنظم الإسلامية وفي مقارنته معاملة العرب لغيرهم بمعاملة غيرهم لهم • وإن مقارناته المتنوعة واتزانه وعدم مبالغته في تقدير الوقائع الجزئية لمن الصفات التي يجب أن يربي الباحثُ نفسَه عليها •

هذا إلى أني توخياً للدقة قد صححتُ الترجمة في مواضع متفرقة ، وذلك بفضل ما تيسر لي أثناء دراستي في جامعة بازل من إتقان اللغة التي كُتب بها الكتاب ، كما أني زدت تعليقات جديدة دون الإكثار منها •

والنصوص التي في الكتاب هي كما في مصادرها ؛ فإن كان فيها شيء غير واضح ، خصوصا فيما هو مأخوذ من مصادر مخطوطة ، فلا حيلة لي في ذلك ، لأن المصادر ليست كلها تحت يدي ، فالنصوص التي جمعتها لاتزال في أوروبا ، وأيضاً لأن الأصول الأولى التي كتبتُها بيدي تلفت بعد طبع الكتاب في غيبتي • ولكن هذا كله لا شيء إلى جانب المصادر والمادة القيمة التي يضعها الكتاب بين يدي الباحث •

ويحتاج هذا الكتاب ، نظراً لكثرة ما فيه من موضوعات في الفصل الواحد ولكثرة أسماء الأعلام ، إلى فهرس كبير[1] ، أرجو إن شاء الله أن أُلحقه بالجزء الثاني الذي قد بدأنا طبعته الثانية .

وأخيراً فإن قراءتي للكتاب من جديد بعد سبع سنين قد أتاحت لي اللذة التي ذقتها مرة في ترجمته ، كما ذكرتني بظروف هذه الترجمة وما كان فيها من عناء .

وأني لأرجو أن ينال القارىء ثمرة ما بُذل من جهد ، وأن تكون هذه الثمرة له نافعة ، وما التوفيق إلا بالله .

محمد عبد الهادي ابو ريدة
مدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة

القاهرة في ٦ ذي القعدة ١٣٦٦
٢١ سبتمبر ١٩٤٧

(١) استكمالا للفائدة المرجوّة من هذا الكتاب ، أضفنا إلى كلٍّ من جزءيه الأول والثاني فهرست خاص للأعلام والأماكن .

(الناشر)

كلمة المترجم

للطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يكافىء مزيدَ نعمه وجزيلَ إحسانه ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد :

فهذا كتاب يتناول الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، من حيث أصلُها وتطورُها ، اختاره أستاذنا الجليل أحمد أمين بك ، وشرفني بإسناد ترجمته إليَّ ، ليكون جزءاً من النشاط العلمي المحمود الذي يبعثه بيت المغرب . ولقد قبلت هذه المهمة متهيِّباً مُشفقا ، بعد أن بَلَوْتُ الترجمةَ مراراً ، ولقيت منها ما لقيت .

غير أن الذى حبَّب إليَّ القيام بهذا العمل ، أنه ليس في كتب المستشرقين على كثرة تآليفهم إلا كتب قليلة جداً تبحث في تاريخ الحضارة الإسلامية[1] على هذا النحو الذي سلكه مؤلف هذا الكتاب ، « آدم متز » المتوفي عام ١٩١٧ ميلادية . كان هذا العالم أستاذاً للغات الشرقية بجامعة بازل (Basel) في سويسرة ويدل هذا الكتاب الذي أقدمه لقراء العربية على سعة اطلاع مؤلفه وتعمّقه في موضوع البحث ؛ فقد تناول

---

(١) مثل الكتاب القديم الذي الفه فون كريمر (A. Von Kremer) بعنوان Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Wien, 1875-9.

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري من جميع نواحيها العقليـة والمادية بعد أن راجع المصادر العربية وغير العربية مراجعة واسعة النطاق، حتى لتَعَدّ مراجعه بالمئات ؛ وقد بلغ عدد المرات التي أشار إليها في الباب الواحد مئاتٍ أيضاً في بعض الأحيان ؛ ومن جملة مصادره مخطوطات" أربت على الأربعين موجودة في مكاتب برلين وباريس وليدن وليبتزج وميونخ وفينّا ولندن ؛ وبعض هذه المخطوطات لم يُنشر حتى الآن ، مع عظم قيمته ؛ كما أن المؤلف رجع إلى عدد كبير جدا من المجلات العلمية والأدبية التي تبحث في شئون الشرق •

غير أن الأجل أدركه ، وكتـابه مكتوب بالآلة الكاتبة ، دون أن يتمكن من مراجعته مراجعة أخيرة تُهيّئه للطبع ومن غير أن يضع له مقدمة • إلا أن قيمة هذا الكتاب كانت سببا في إظهاره للباحثين ؛ فنشره الأستاذ ريكندورف (Reckendorf) عام ١٩٢٢م باسمه الذي اختاره المؤلف له ، وهو : « عصر النهضة في الإسلام »[١] ؛ ثم ترجمه إلى اللغة الأسبانية سلفادور فيلا (Salvador Vila) ونشره عام ١٩٣٦م؛ وترجمه كذلك إلى اللغة الإنجليزية المرحوم صلاح الدين خُدابَخش الهندي الذي كان أستاذاً بجامعة كلكتا ؛ ومات قبل أن يتم الترجمة ، فأتمها الأستاذ مرجوليوث بجامعة أكسفورد ، ونشرت كاملة سنة ١٩٣٦ م •

هذه الظروف في مجموعها جعلت الترجمة شاقة كل المشقة ، لأن المراجع تُذكر بحيث لا يسهل الرجوع إليها ؛ فقد يُذكر الكتاب أحياناً من غير ذكر مؤلفه ولا ذكر المكان الذي يرجع الباحث إليه للمقارنة ، أو قد يُذكر المؤلف دون ذكر كتابه ؛ وفي كلتا الحالتين كان يندر أن يُذكر زمان الطبع أو مكانه أو رقم الكتاب في المكتبة التي هو فيها ، إن كان

(١) Die Renaissance des Islam. Heidelberg 1922, Carl Winters Universitaetsbuchhandlung.

مخطوطاً . لذلك كان لا بد من البحث عن هذه المصادر في فهارس المكاتب الأوروبية للمطبوعات والمخطوطات ومراجعة ذلك . وقد استطعت أن أحصل على المواضع التي أشار إليها المؤلف في المخطوطات، وذلك بطلب تصويرها من مختلف مكاتب أوروبا ، كما راجعت بعضها بنفسي في باريس وبرلين أثناء العام الماضي .

كما استطعت بعد مراجعة الأصول العربية أن أُصحح أخطاء كثيرة في النصوص أحياناً وفي المراجع في أغلب الأحيان ؛ كما أني زدت المراجع إيضاحا يسهّل الرجوعَ إليها ، وبقيت أشياء يسيرة جدا وضعت علامة استفهام إلى جانبها ليحاول معالجتها من شاء . وكذلك وسّعت بعض النصوص وبيّنت مناسبتها ، لتكون مفهومة للقارىء العربي ومشبعة لحاجته ، وذكرت أسماء الأعلام كاملة ، وعلّقت تعليقات قليلة جدا يتطلبها المقام .

على أني راجعت كل شيء تقريباً على الأصول التي ذكرها المؤلف مراجعة دقيقة طلباً للدقة والضبط ، وراعيت فيما يتعلق بالمراجع العربية أن يكون الأسلوب متمشياً مع الأصل العربي الذي أشار إليه المؤلف ، لتكون بين يدي القارىء حضارة القرن الرابع بلغة القرن الرابع ولغة رجاله ومؤلفيه .

وإذا كان القارىء يرى في بعض الأحيان ما يشبه التفكك في العرض ، فمرجع ذلك إلى أن الكتاب كتاب" علمي يُعنى بضبط الوقائع وإحصائها والاستنباط منها .

وقد ترجمت القسم الأول من هذا الكتاب وعرضته على الأستاذ أحمد أمين بك ، فتفضل بقراءته من أوله إلى آخره قراءة دقيقة استنفدت

كثيراً من وقته الثمين ، وأبدى ملاحظات قيّمة كان لها أكبر الفضل في إخراج الكتاب على هذا النمط .

ولا يفوتني أن أعبر عن شكري العظيم للأستاذ بول كراوس المدرس بكلية الآداب لمعاونتي في فهم كثير من النقط الغامضة في الأصل الألماني .

لقد كان أستاذنا الجليل أحمد أمين موفقاً كل التوفيق في اختيار هذا الكتاب للترجمة ، لكي ينشره بيت المغرب في جملة النشرات القيمة التي يخدم بها الثقافة العربية . وأرجو أن أكون قد وُفقت أنا أيضاً في القيام بهذا العمل على الوجه الذي يحقق النفع ، مع علمي بأن كل جهد فهو دون الكمال .

وإني لأرجو أن أتمكن من ترجمة القسم الثاني وإكماله بالفهارس اللازمة للكتاب ، وإضافة ثَبْتٍ للمراجع خدمةً للقارىء .

كما أرجو أن يسدَّ هذا الكتاب فراغا كبيراً في تاريخ الحضارة الإسلامية وأن يحرك هِمَمَ الباحثين إلى العناية بتاريخ هذه الحضارة وبذل ما تستحقه من جهود .

والله وليّ التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

باريس في { أول المحرم سنة ١٣٥٩ / ٩ فبراير سنة ١٩٤٠ }

محمد عبد الهادي أبو ريدة

بكلية الآداب وعضو بعثة جامعة فؤاد الأول بباريس

الفصل الاول

المملكة الاسلامية

في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عادت المملكة الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح العربي ؛ ونشأت فيها دولٌ صغيرة منفصل بعضها عن بعض ، كما كان الحال دائما في تاريخ الشرق ، إذا استثنينا فترات قصيرة . وقد تمّ هذا الانقسام حوالي سنة ٣٢٤هـ — ٩٣٥م .

وشرع المؤرخون يبيّنون الأجزاء التي آلت إليها المملكة ، كأنهم يصفّون حسابها، وهم يعتمدون في إحصائهم على مصدرٍ واحد،كما يدلّ على ذلك ترتيبُهم لهذه الأجزاء : تغلّب كل رئيس على ناحيته ، وانفرد بها ، فصارت فارس والريّ وأصبهان والجبل في أيدي بني بُوَيه ، وكرمان في يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مُضر في أيدي بني حمدان ، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طُغْج الأخشيد ، والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين ، والأندلس في يد عبدالرحمن الناصر الأموي ، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني ، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريديين ، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ؛ ولم يبق في يد الخليفة إلا بغدادُ وأعمالها[1] . ويشبِّه المسعودي في عام ٣٣٢هـ —

(١) تجارب الامم لابن مسكويه ج ٥ ص ٥٥٣ — ٥٥٤ ؛ تاريخ ابن الأثير ، الطبعة الاوروبية ج ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٢ ؛ تاريخ أبي الفدا تحت سنة ٣٢٤ هـ (ج ٢ ص ٣٩٨ =

٩٤٤م فعلَ أصحاب الأطراف ، وتغلبَ كل واحد منهم على الصقع الذي هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الإسكندر[1] .

على أن شبحاً لسيادة الخليفة ببغداد ظلّ وَهْماً ماثلا في الأذهان؛ والمسعودي نفسه يتكلم عن « عمل » أمير المؤمنين ، وينقل عن الفزاري أنه « من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، ومن باب الأبواب إلى جدّة ستمائة فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ثلاثمائة فرسخ ، ومن مكة إلى جدّة اثنان وثلاثون ميلا »[2] .

على أن أصحاب الأطراف أو ملوك الطوائف كانوا يعترفون بالسيادة العليا للدولة ، ويقدّمون للخليفة الدعاء في المساجد ، ويشترون منه ألقابهم ، ويرسلون إليه الهدايا في كل عام ؛ فمن ذلك أنه لما تمّ لعضد الدولة ابن بُويه فتحُ كرمان في سنة ٣٥٧ هـ ، أُنفِذ إليه من الحضرة ببغداد عهدُ الخليفة وخِلَعُهُ والعقدُ على أعمال كرمان كلها[3] . وكان مظهرُ سلطان الخليفة منصبَه الجليل فحسب ، وهو يشبه في ذلك قيصراً من قياصرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا ، يحكم الأمة الألمانية وليس له عليها إلا سلطان قليل . ولكن فكرة الدولة لم تَفتقِد، رغم هذا ، ما كان لها من القوة والسلطان ، حتى إن بني أمية في الأندلس لم يتخذوا لأنفسهم لقب الخليفة أو التسمية باسم « أمير المؤمنين » ، بل كانوا يسمون أنفسهم « بني الخلائف » . ثم جاء الفاطميون فكانوا أول من خرج على هذه القاعدة ، فلم يكتفوا بأن يكونوا أمراء ذوي سلطة

= من الطبعة الاوروبية) ؛ المنتظم في تاريخ الامم لابن الجوزي مخطوط رقم ٩٤٣٦ بالمكتبة الاهلية ببرلين ص ٥٨ ا ؛ الجزء الرابع من كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ايضا رقم ٩٤٩١ ص ١٥٤ ب – ١٥٥ ا .

(١) مروج الذهب للمسعودي ، الطبعة الاوروبية ج ١ ص ٣٠٦ ، ج ٢ ص ٧٣ والصفحات التالية .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٣٧ – ٣٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٣٢٣ .

دنيوية فقط، بل أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبيّ (عليه الصلاة والسلام)،فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان في سنة٢٩٧هـ ـ ٩٠٩م[1] • ثم أسرعت قيمة هذا اللقب إلى الهبوط حتى نجد حاكم سجلماسة ، جنوبي جبال أطلس ، وكان حاكما سنّيّاً صغيراً ، يسمّي نفسه بأمير المؤمنين في سنة ٣٤٢هـ ـ ٩٥٣م وهو اللقب الذي كان من قبل يبعث في النفس رهبةً عظيمة[2] •

ولما علم عبد الرحمن بالأندلس أن العلويين بإفريقية تلقّبوا بأمير المؤمنين اتخذ لنفسه أيضا لقب الخلافة ، وتسمَّى بأمير المؤمنين في سنة ٣٥٠هـ ـ ٩٦١م[3] •

ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام وتعدّد أمراء المؤمنين أن يؤدي إلى ضيق في معنى الإسلام أو في الوطن الإسلامي ، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة ، سميت مملكة الإسلام ـ وهو الاصطلاح الذي لم يستعمله المسعودي ـ تمييزاً لها عن مملكة الكفر ، وقامت وحدة" إسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة • وهذا عكس ما نشأ عن اتحاد الإمبراطورية الألمانية في القرن التاسع عشر[4] •

---

(١) كتاب العيون ص ١٧٠ نقلا عن ابن الجزار المؤرخ المغربي المتوفى عام ٣٩٥ هـ ١٠٠٤ م.

(٢) كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز البكري ، طبعة الجزائر عام ١٨٥٧ ص ١٥١ .

(٣) أبو الفدا تحت عام ٣٥٠ هـ ، نفح الطيب للمقري ج ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٤) وربما يقصد المؤلف أن حركة الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر كان غرضها الوحدة ، ولكنها اقتصرت على بعض الألمان ، فلم تشمل النمسا وغيرها : وترك اهل هذه البلاد كأنهم اجانب ، وكانوا يعاملون في ألمانيا معاملة الاجانب . وهذا خلاف ما نشأ عن انقسام الدولة الاسلامية كما سيأتي . على أن كلام المؤلف ينطبق على الوحدة الالمانية في القرن التاسع عشر ؛ أما في عهد هتلر فقد اتجهت فكرة الوحدة الالمانية إلى إنشاء ما يسمى ألمانيا الكبرى على اساس الجنس واللغة ، وقد ضمت النمسا وغيرها وبقيت اقليات صغيرة كان ضمها من أسباب الحرب الماضية . (المترجم)

يعتبر المقدسي أن مملكة الإسلام تمتد من كاشغر في أقصى المشرق إلى السوس الأقصى في المغرب ، وأنها تُقْطَع في نحو عشرة أشهر[1] . أما عند ابن حوقل فحدود مملكة الإسلام هي : شرقيها أرض الهند وبحر فارس ، وغربيها مملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي وشماليها بلاد الروم وما يتصل بها من الأرمن واللان والران والخزر والبلغار والصقالبة والترك والصين ، وجنوبيها بحر فارس[2] .

وكان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه وتحت رايته ، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده ، ويصلّون كما يصلّي ، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفاً واحداً ، وعادات واحدة . وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حقّ المواطن، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية أن يمسّها أحد" ، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترقّه على أي صورة من الصور[3] . وقد طوّف ناصر خسرو في هذه البلاد كلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دون أن يلاقي من المضايقات ما كان يلاقيه الألماني الذي كان ينتقل في ألمانيا في القرن الثامن عشر بعد المسيح (عليه السلام) .

وكان الخليفة الفاطمي على أشد ما يكون من المنافسة لبني العباس ، فكان يُخْطَب له في اليمن والشام زيادة على إفريقية ومصر ، وكان لمذهب الفاطميين « دعاة منبثون في كل صقع وناحية »[4] ؛ وتدلنا هذه الحكاية الصغيرة على أن الخليفة الفاطمي كان يُنسب له فعلُ كل

---

(١) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة ليدن ١٨٧٧ ص ٦٤ .
(٢) المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٧٢ ص ١٠ — ١١ .
(٣) لا يقول بغير هذا القول إلا بعض شرار الفرق كالقرامطة .
(٤) كتاب الفهرست لابن النديم ، الطبعة الاوروبية ص ١٨٩ .

شيء : كان على صدر زبزب للسلطان عضد الدولة صورةٌ لسبع من الفضة ، فسُرق ؛ وعجب الناس كيف كان هذا مع هيبة عضد الدولة المفرطة ، وكونه شديدَ المعاقبة على أقلّ جناية ؛ ثم قـُلبت الأرض في البحث عن السارق ، فلم يوقـَف له على خبر ؛ فقيل عند ذلك إن صاحب مصر ، يعني الخليفة الفاطمي ، دسَّ من فعل هذا[1] . وفي عام ٤٠١ هـ بلغ من جراءة قرواش بن المقلّد ، أمير بني عقيل ، أنه خطب للحاكم بأمر الله في أعماله كلها ، وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، وذلك تحت سمع العباسيين وبصرهم ، حتى أرسل الخليفة القادر إلى بهاء الدولة فسيَّر إليه جيشاً ؛ فبعث قرواشُ يعتذر ، وقطع الخطبة للعلويين ، وأعادها للقادر[2] . وكان الخليفة في بغداد يجد بعض العزاء عما ضاع من سلطانه حين يرى مثلا أن السلطان محموداً صاحب غزنة ، وهو الأمير الذي أخذ نجمه في الصعود ، يـُظهر له احتراماً عظيما ، ويوقفه على انتصاراته ، ويشكو إليه ما يجد ؛ وفي سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) مثلاً أرسل الحاكم بأمر الله إلى السلطان محمود كتاباً يدعوه فيه إلى طاعته ، فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة القادر بعد أن خرّقه وبصق في وسطه[3] .

وكان النزاع على أشد ما يكون فيما يتعلق بمكة والمدينة من بين الأراضي المقدسة ، لأن امتلاكهما أصبح له شأنٌ أكبر من ذي قبل ؛ فلم تكن توجد من قبل مناسبةٌ للبحث في علامة الخليفة الحقيقي ؛ أما الآن فقد ظهرت من ثنايا النزاع حول هذا المنصب نظريةٌ جديدة ، هي

---

(١) المنتظم ص ١١٨ ا .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٦ — ١٥٧ ؛ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، نشرة W. Popper بكلفورنيا ص ١٠٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٤ .

أن أمير المؤمنين الحقيقي هو من كان مَلِكا للحرمين[1] • وهذه هي النظرية التي يستند إليها اليوم في إثبات حق العثمانيين في الخلافة[2] •

وكان العلويون في هذا النزاع على الأراضي المقدسة هم الخصم الثالث الذي يأتي آخراً فيفوز بالغنيمة ، وكان الحسنيّون منهم يتمتعون دائما حول المدينة بمال وجاه عظيم ، ولذلك استطاعوا أن يفتحوا مكة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، دون أن يعترض عليهم الطرفان الآخران ، وهما العباسيون والفاطميون • ونرى في أواخر هذا القرن في البلاد المقدسة الحالة التي نراها اليوم : فالمدينة هي مركز الحركة السياسي ــ وقد كانت العاصمة السياسية قديماً ــ ومنها يسير التيار السياسي إلى مكة ، وكذلك نجد الأشراف سادة الحرمين[3] •

وفي هذا العصر نجد مملكة الإسلام تعود من الناحية الجغرافية إلى حدودها الأولى ، وتفقد ممتلكاتها في الغرب ، وكان البحر الأبيض المتوسط بعد عصر شارلمان قد أصبح بحراً عربيا ؛ واستطاع العباسيون منذ أوائل القرن الرابع أن يحافظوا على حدودهم الغربية من اعتداء البوزنطيين ، وكانت أخبار الانتصارات تقرأ من أعلى المنابر ببغداد • وفي عام ٢٩٣ هـ ــ ٩٠٤ م أخذ قرصان المسلمين مدينة سالونيقي ، ثانية مدن الدولة البوزنطية ، وهـي مدينة كبيرة محصّنة بأسوار وحصون وأبراج ، وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً[4] •

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) والآن قد تغير هذا الموقف بعد إلغاء العثمانيين للخلافة منذ عام ١٩٢٤ . (المترجم)

(٣) Snouck-Hurgronje, Mekka 1.59 ، وقد تغير الموقف اليوم في الحجاز تغيراً كبيراً . (المترجم)

(٤) Joannes Cameniata, Corpus script. historiae byzant., Bonnae' وكان هذا المؤلف إذ ذاك من بين الأسرى .

غير أن زحف الروم بدأ سنة ٣١٤ هـ ـــ ٩٢٦ م باستيلائهم على مدينة ملطيّة[1] . وفي عام ٣٣١ هـ ـــ ٩٤٢ م وافت جيوش الروم إلى ديار بكر ، وبلغوا قرب نصيبين ، وطلبوا من أهل الرُّها أن يدفعوا إليهم المنديل الذي كان المسيح عليه السلام مسح به وجهه ، وصارت صورة وجهه فيه ، وذلك في مقابل إطلاق عدد من أسرى المسلمين ؛ وكوتب الخليفةُ المتّقي في ذلك فاستحضر الوجوه من أهل مملكته لأخذ رأيهم ، وقام جدال عظيم بينهم ، فذكر البعض أن هذا المنديل منذ الدهر الطويل في كنيسة الرُّها ، لم يلتمسه ملكٌ من ملوك الروم ، وأن في دفعه إليهم غضاضةً على الإسلام ، لأن المسلمين أحق بمنديل عيسى عليه السلام ، وفيه صورته . فقال عليّ بن عيسى ، وهو الوزير المسِنّ إذ ذاك : إن خلاص المسلمين من الأسر ، واخراجهم من دار الكفر ، مع ما يقاسونه من الضنك والضرّ أوجب وأحق ، ووافقه جماعةٌ ممن حضر على قوله ، وسُلّم المنديل إلى الروم ، فحملوه إلى القسطنطينية ، وخرج البطريك وكبار رجال الدولة لاستقباله ، ومشى أهل الدولة بأجمعهم بين يديه بالشمع الكثير ، وحُمِل إلى الكنيسة العظمى أجنيا صوفيا ، ومنها إلى البلاط[2] .

ويشكو المسعودي من « ضعف الإسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس وتغلّبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد مضيّ الإسكندر ... ولم يزل

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٢) تاريخ سعيد بن البطريق ، يليه تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي مخطوط رقم ٢٩١ بالمكتبة الاهلية بباريس ص ٨٥ ا ــ ب ، على ان المؤلف يشير احيانا إلى نسخة مطبوعة لعلها التي ذكرها بروكلمان في ملحق كتابه : تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٢٢٨ من طبعة ليدن ١٩٣٧ ؛ وقد وحدت الاشارة فجعلتها كلها بحسب مخطوط باريس لصعوبة الحصول على النسخة المطبوعة . (المترجم)

الإسلام مستظهراً إلى هذا الوقت ، فتداعت دعائمه ، ووهى أسّه ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، في خلافة أبي إسحاق إبراهيم المتّقي لله أمير المؤمنين ، والله المستعان على ما نحن فيه »[1] .

أما الإمبراطورية البوزنطية فقد أسعدها الحظ في هذا القرن بثلاثة قوّاد ذوي كفاية نادرة ، تعاقبوا على عرشها ، وهم نقفور فوكاس (Nikephoros Phokas) وزيمسكيس (Zimiskes) ، وباسيليوس (Basilios) . وقد مكث آخرهم وأكفؤهم على رأسها خمساً وخمسين سنة . وفي سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م فتح نقفور جزيرة أقريطيش بعد حصار دام ثمانية أشهر[2] ، وكانت هذه الجزيرة أكبر عش للقرصان المسلمين . وبعد خمس سنين سقطت قبرص في يد الروم ، فلم تعد للمسلمين السيادة المطلقة التي كانت لهم في البحر الأبيض المتوسط . وفي سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ورد نقفور حلب ، وفي سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م فتحت مدينة المصيصة[3] ، وأخيراً وقعت طرسوس ، مع ما سُجّل لأهلها من شجاعة ، وكانت أكبر حصن للإسلام في وجه المغيرين عليه ؛ وقد أخذها الروم بعد أن عظُم بها الغلاء والوباء حتى بلغ الأمر بالناس إلى أكل الميْتة . وفي عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م فتح نقفور حماة وحمصا ، وأخذ من حمص رأس القديس يوحنا المعمداني ، وكذلك فتح مدينة اللاذقية . وفي الشتاء التالي سقطت مدينة أنطاكية بعد أن كان يُخيّل للناس أنها لن تُغلَب[4] .

ولما أغار الروم في سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م على الرُّها ونواحيها . وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ودخلوا ديار بكر ، فغنموا

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٣ والتي تليها .
(٢) يحيى بن سعيد ص ٩٢ ب .
(٣) نفس المصدر ص ٩٤ ب .
(٤) نفس المصدر ص ٩٥ ب ؛ Michael Syrus, S. 551.

واستباحوا وقتلوا وسبوا وخرّبوا البلاد ، قصد بغدادَ من نجا من أهل تلك البلاد مُسْتَنْفِرين ، واجتمع معهم أهلُ بغداد في الجوامع ، وأصابهم جميعاً غضبُ اليائسين ، فكسّروا المنابر ، ومنعوا الخُطَب ، وقصدوا دار الخليفة ، فحاولوا الهجوم عليه ، واقتلعوا بعض شبابيك دار الخلافة ، وخاطبوا الخليفة بالتعنيف ، فرماهم الغلمان بالنشاب من الرواشن[1] . وقد اجتمع من استنفار العامة للغُزاة جمعٌ عظيم من العامة والأجلاد يبلغ زهاء ستين ألفاً ؛ فطلب عزُّ الدولة بختيار بن بويه من الخليفة المطيع لله أن يبعث له مالاً يُخرجه للغُزاة ، فامتنع الخليفة بحجة أن الأموال لا تُجبى إليه ، فلا تلزمه النفقةُ على الغزاة ، وهدّد بالاعتزال ، وتردّدت الرسائل بينه وبين بختيار ، حتى بلغ الأمر التهديد ، فبذل المطيع أربعمائة ألف درهم ، واحتاج في ذلك إلى بيع ثيابه وأنقاض داره من ساج ورصاص ، وشاع بين الحجّاج أن الخليفة قد صودر » . ثم تحزّب الغُزاة إلى سنّيّين وشيعة ، ووثب بعضهم على بعض ، وأعرضوا عن ذكر الروم جانباً ، ولما قبض بختيارُ المال صرفه في مصالحه ، وبطل حديث الغُزاة[2] .

وفي عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م فتحت بعلبك وبيروت ، وأُخذت من بيروت صورة المسيح التي تنسب إليها الخوارق ، ونقلت إلى الكنيسة التي أسسها زيمسكيس في قصر البرنز بالقسطنطينية . أما أهل دمشق فقد اضطروا إلى أن يفتدوا أنفسهم بدفع ستين ألف دينار ، يحملونها للروم في كل عام[3] .

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ ا ، والمنتظم ص ١٠٤ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ ، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن بن تغري بردي ، طبعة ليدن ١٨٥٥ ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ويحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، وابو المحاسن في نفس المصدر ج ٢ ص ٤٣٦ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٠٢ ب ، Jean Ebersolt, Le grand palais de Constantinople, Paris, 1910, p. 22.

أما في جنوب المملكة الإسلامية فقد حافظ المسلمون على الحدود التي كانت للرومان قديماً ، وصدّوا هجمات النوبة . ويحدثنا المسعودي وهو بمصر في عام ٣٣٢ هـ ـــ ٩٤٣ م أن النوبة كانوا قد صولحوا منذ ولاية عبد الله بن سعد على رؤوس من السَّبْي معلومة ، وأن هذا السبي صار سنّة جارية في كل سنة إلى عهده ؛ ويُدعى هذا السبْي بأرض مصر والنوبة بالبَقْط ، ويقبضه نائب أمير مصر المقيم ببلاد أسوان[1] . وفي عام ٣٤٥ هـ ـــ ٩٥٦ م سار عسكر مصر وفتحوا مدينة أبريم ، وهي آخر حصون النوبة مما يلي مصر[2] . وفي أقصى الجنوب الغربي دخلت في الإسلام مدينة أودغشت ، وهي المدينة التجارية الكبرى في غرب الصحراء الإفريقية ، فصارت هذه المدينة أقصى نقطة للإمبراطورية الإسلامية من ناحية وسط إفريقية[3] .

على أنه إذا كان سلطان الإسلام كان ينحسر عن بلاد في الغرب ، فقد كان يقابل ذلك تقدُّمُه المستمر في الشرق . ففي عام ٣١٣ هـ ـــ ٩٢٥ م فتحت بلوخستان ، وكانت حتى ذلك الحين على الوثنية[4] . وفي سنة ٣٤٩ هـ ـــ ٩٦٠ م أسلم من الأتراك نحوٌ من مائتي ألف خركاة[5] : وعلى حين أنه في أواخر القرن الثالث الهجري كانت

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩ ـــ ٤٠ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٩١ ب ؛ وكتاب الخطط للمقريزي طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) وقد ذكر المهلبي الذي كتب في عام ٣٧٠ هـ . أن ملك كوكو بالسودان كان يظاهر رعيته بالاسلام وأكثرهم يظاهر به (معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٣٢٩ من الطبعة الاوروبية) ، ولكن البكري وابن سعيد قالا فيما بعد إنهم وثنيون (انظر J. Marquart, Beninsammlung, S. XCVII.

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٠ ، وكتاب العيون ص ٢٦٩ ا .

أسبيجاب[١] آخر مدينة للمسلمين مما يلي الترك ، فإن دخول بغراخان في سلك أمراء المسلمين جعل حدود المملكة الإسلامية تمتد إلى حوض نهر التاريم . ويعتبر المقدسي أن مملكة الإسلام تنتهي حدودها إلى كاشغر[٢] . وفي عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٦ م كان أهل بلاد خُتَن مسلمين[٣] . وفي ذلك الوقت شمَّر السلطان محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، وأخضع بلاداً واسعة من بلاد الهند لسلطان الإسلام ، وكانت علامة الثقة عند ملوك الهند أنهم يقطعون أصابعهم ، « وكان عند السلطان محمود من أصابع من هادنه الكثير »[٤] .

ولا نريد أن نتعرض هنا للبحث فيما إذا كان انقسام دولة بني العباس من دلائل التدهور ، إذا نظرنا في هذه المسألة بمنظار هذا العصر الذي نعيش فيه والذي يحكم في مثل هذه الأحوال على أساس الكمّ وعلى أساس ما يسمونه بالوحدة ؛ على أننا نستطيع أن نقول إن الإمبراطوريات العالمية الكبرى ترتكز دائماً إما على شخص زعيم عبقري

---

(١) كتاب البلدان لليعقوبي طبعة ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٢٩٥ . وقد قال احد الفرس المتاخرين إن اسبيجاب هي مدينة صيرم التي تقع على مسافة سبعة عشر كيلومتراً شرقي كَنكِنت ، وهذا يتفق مع تعيين ابن خرداذبة لمكانها . وقد وافق على هذا أيضاً ليفي (Levih : Archaeological Journey to Turkestan, p. 35.) وجرينار : (Grenard JA, 1900, t. 15. S. 27, Anm. 4.) ؛ ولكن هذا غير محقق ، لان السمعاني (المتوفى عام ٥٦٢ هـ — ١١٦٧ م) ، وكان يعرف آسيا الوسطى جيداً ، يتكلم عن اسبيجاب باعتبارها مدينة كبرى (انظر كتاب تقويم البلدان لابي الفدا طبعة باريس ١٨٤٠ ص ٤٩٤ أ) ؛ ويصرح ياقوت في معجم البلدان (ج ١ ص ٢٥٠) بأن اسبيجاب خربها التتر عام ٦١٦ هـ — ١٢١٩ م ، ولكن الرحالة تشاوتشنج (Caucung) يحكي انه في نوفمبر سنة ١٢٢١ م نزل بمدينة تسمى ساي — لان :(انظر .Bretschneider, Mediaeval Researches. 1. S. 74)

(٢) المقدسي ص ٦٤ .

(٣) J. Marquart, Guwainis Bericht über die Bekehrung der Uiguren, SBBA, 1912, S. 496.

(٤) المنتظم ص ١٨١ ا — ب .

وإما بنوع خاص على وجود طائفة من أهل الخشونة والقوة الوحشية ؛ ووجود هذه الإمبراطوريات على كلتا الحالتين وجود غير طبيعي . على أننا لا نجد في مصر على عهد الإخشيد وكافور والفاطميين ما يدل على تأخرها ، بل هي قد كانت منيعة الجانب ، وافرة العدة ، عظيمة الخيرات ؛ وكذلك يشهد الرحالون بمناقب السامانيين وعدلهم وشريف أعمالهم وما كان لمملكتهم من عظمة ومَنَعَة[1] . أما بغداد فهي التي قد تنكَّرت لها الأيام ، وذلك منذ عام ٣١٥ هـ ــ ٩٢٧ م حين أرهَجها العيَّارون ، وعاثوا فيها فساداً ، وأعملوا فيها النهب[2] لأول مرة ؛ ثم صار أمرهم يتفاقم كلما ضعفت الحكومة وكانت أسوأ أيامها السنوات التي أفلت فيها الزمام من يد الحكومة فيما بين مقتل بجكم ودخول بني بويه ، أي ما بين عامي ٣٢٩ هـ و ٣٣٤ هـ = ٩٤٠ ــ ٩٤٥ م ؛ وكأنما كان سقوط رأس القبة الخضراء التي في قصر المنصور بمدينة السلام عام ٣٢٩ هـ ــ ٩٤٠ م إرهاصا بأفول نجم بني العباس ، وكانت تلك القبة « تاج بغداد وعلَم البلد » ؛ وكان ليلة سقوطها مطرٌ عظيم ورعد وبرق شديد[3] . وفي سنة ٣٣١ هـ ــ ٩٤٢ م استطاع ابن حمدي ، وهو لص ظهر ببغداد على رأس جماعة من أصحابه ؛ أن ينتهب أموال أهل بغداد ، وكان قد أعيى السلطانَ أمرُه ، وخلع عليه ابنُ شيرزاد ، ووافقه على أن يصحِّح في كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو وأصحابه ؛ فكان يستوفيها ويأخذ البراءات وروزات الجهبذ بما يؤديه أولاً فأولا .

وكان ابن شيرزاد في ذلك الوقت كاتباً للقائد التركي المسمى توزون ، فكان أمرُ الحكومة في يديه ، ومضى على الناس في أيام ابن

---

(١) ابن حوقل ص ٣٤١ والصفحات التالية .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٦ .

(٣) المنتظم ص ٦٧ ا ، وكتاب العيون ص ١٩١ ب .

محمدي وقت" تحارسوا فيه بالبوقات في الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفا من كبسات هذا اللص وأصحابه[1] • وخلت المنازل ببغداد من أهلها ، وصاروا يطلبون من يسكن الدار بأجرة يُعطاها ليحفظَها ، وأُغلقت عدة حمامات ، وتعطلت أسواق ومساجد[2] ، وأضيف إلى هذا ما كان بين السنيِّين والشيعة من نزاع دائم ، فكانوا يُلقون النار بعضهم على بعض دائما • وفي سنة ٣٦١ هـ — ٩٧١ م قامت بالكرخ فتنة" ، فأرسل الوزير حاجبه لقتال العامة ، وكان شديد العصبية للسنَّة ، فاضطر إلى إلقاء النار في أماكن كثيرة ليقضي على الفتنة ، فاحترق الكرخ حريقاً عظيما ، وكان عدة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان ، وثلاثمائة دكان ، وثلاثة وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال ما لا يُحصى • وبدأ الناس ينتقلون من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ، ولا يزال هذا الجانب إلى اليوم أعمر وأكثر سكاناً[3] • وفي عام ٣٣٢ هـ — ٩٧٢ م تولى ابن شيرزاد القيادة بعد موت توزون ، فأخذ في المصادرات ، وقسَّط على العمال والكتاب والتجار وسائر الناس ببغداد مالاً لأرزاق الجند ، وكثرت الضرائب حتى تهارب الناس من بغداد وفسد الأمن ، وكثرت كبَسات اللصوص ، حتى إنهم دخلوا دار أحد القضاة ، فتسلق حائطاً لينجو منه ، فوقع ومات[4] •

وفي هذا العصر يصف المقدسي بغداد فيقول إنها « كانت أحسن شيء للمسلمين ، وأجلّ بلد ، وفوق ما وصفنا ، حتى ضعُف أمر الخلافة ، فاختلّت ، وخفّ أهلها ، فأما المدينة فخراب ، والجامع فيها يُعمر في

---

(١) كتاب العيون ص ٢٠٦ ب •

(٢) المنتظم ص ٧٢ ا

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ب — ١٠١ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٦٢ •

(٤) كتاب العيون ص ٢٢٩ ب — ٢٣٠ ا •

الجـَمـَع ، ثم يتخلـّلها بعد ذلك الخراب ••• وهي في كل يوم إلى ورا ، وأخشى أنها تعود كسامرّا ، مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان[1] » • ويذكر الصابي عن جماعة من الناس أنهم في عام ٣٩٢ هـ ـ ١٠٠١ م شاهدوا صينيـّة الكرخ فيما بين طرفي الحذ ّائين والبز ّازين ، والفواخت والعصافر تمشي في أرضها انتصافَ النهار ، وفي الوقت الذي جرت العادة بازدحام الناس فيه بهذا المكان ؛ وذلك لأن البلد كان قد خربَ ، وانتقل أهله عنه[2] • ولأجل هذا نجد المقدسي يشيد بذكر مدينة الفسطاط بمصر ، ويقول إنها « ناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجلّ من مدينة السلام »[3] • ولقد ظلت عاصمة مصر منذ ذلك الحين أكبر مدن الإسلام •

*

(١) المقدسي ص ١٢٠ •

(٢) كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلال بن المحسّن بن إبراهيم الصابي ، نشرة أمدروز ببيروت سنة ١٩٠٤ ، ص ٤٣٩ •

(٣) المقدسي ص ١٩٧ •

الفصل الثاني

الخلفاء

لما ثقلت العلة على الخليفة المكتفي في عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م كان الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن راكباً من داره يوماً ومعه ، كما جرت العادة ، أحد الكتاب الأربعة الذين يتولون الدواوين ؛ فشاوره فيمن يترشح للخلافة بعد المكتفي ، وكان الوزير يميل إلى ابن المعتز ، فأجابه الكاتب ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات الذي صار وزيراً فيما بعد ، أنه يجب ألا يولى في هذا الأمر من عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور وحنكته التجارب ؛ فقال الوزير : صدقت والله يا أبا الحسن ، فمن نقلد ؟ فأشار ابن الفرات بتقليد جعفر بن المعتضد (الخليفة المقتدر)، «فإنه صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب» ، فمالت نفس الوزير إلى ذلك وعمل على تقليد المقتدر ، وكان صبيا في الثالثة عشرة[1] .

ونظراً لأن المقتدر كان صغيراً ، فقد كان انتخابه للخلافة انتخاباً غير شرعي ، ولقد ذبح أحد القضاة ، لأنه أطاع ضميره حين قالوا له : تبايع للمقتدر ، فقال : هو صبي ، ولا تجوز المبايعة له[2] .

(١) كتاب العيون ص ٥٩ ب ، وكتاب الوزراء ص ١١٤ — ١١٦ .

(٢) صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعيد القرطبي ، طبعة دي غوي ، ليدن ١٨٩٧ ص ٢٨ .

ولكن الجماعة المتآمرين أخطأوا التقدير ، فإن أمّ المقتدر ، وهي أمُ ولد رومية ، قبضت على زمام الأمر هي وأولياؤها بيد القوة والحزم؛ فكانت تُولّي وتعزِل ، وحالت بين القوم وبين انتهاب ما في بيت المال . ومما يدل على قوة عزيمتها وبعد نظرها طريقتُها في العناية بمراقبة ما كان يقرؤه أبناؤها : يحدثنا الصولي أنه كان يوماً عند الراضي ، يقرأ عليه شيئاً من شعر بشّار ، وبين يدي الراضي كتبُ لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خدمٌ من خدم السيدة جدته ، وهي شغب أم المقتدر ، فأخذوا جميع ما بين أيديهما من الكتب ، فجعلوه في منديل أبيض كان معهم ومضوا ؛ فوجم الراضي واغتاظ ، فسكَّن منه أستاذُه ، وأفهمه أنهم أرادوا أن يمتحنوا الكتب ، ولما مضت ساعتان أو نحو ذلك ردّوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراضي : قولوا لمن أمركم بهذا : قد رأيت هذه الكتب ، وإنما هي حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء ، ومن كمّله الله بالنظر في مثلها ، وينفعه بها ، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد والسُنور والفأر ؛ فخاف الصولي أن يؤدّي الخدمُ قوله ، فيقال : من كان عنده ؟ فيذكرونه ، ويلحقه من ذلك مكروهٌ ؛ فقام إلى الخدم ، فسألهم ألا يعيدوا قوله ، فقالوا : والله ما نحفظه ، فكيف نعيده[1] ؟ وقد لبث المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاماً ، تحت جناحي أمّه ، وقد خلع في أثناء هذه المدة مرتين ، فكان يثور عليه بعض قواده ويزيلونه عن سرير مُلكه يوماً أو يومين ، ثم يعود إليه ؛ ولم يخرج في جيش ليقاتل إلا مرة واحدة ، وقد قُتل فيها ؛ وذلك أن قوّاده طلبوا منه أن يخرج معهم لمحاربة مؤنس ، فأبى ؛ وما زالوا به حتى خرج كارهاً ؛ وقد جَهِدَت به أمّه ألا يخرج ، وكشفت عن ثدييها ، وبكت ، ولكن غلب القضاء ،

---

(١) كتاب الأوراق للصولي ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٨٣٦ ص ٨ — ٩ .

فخرج وعليه البُردة النبوية التي يتوارثها الخلفاء ؛ ووافى أصحابُ مؤنس ، فضربه رجلٌ منهم من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض ، فأضجعه وذبحه بالسيف ؛ وسُلبت ثيابه والبُردة فيها حتى سراويله ؛ وتُرك مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجلٌ من الأكَرَة ، فستر عورته بحشيش ، وكان المقتدر رَبْع القامة ، إلى القصر أقرب ، دُرّيّ اللون، صغير العينين : أحور ، حسن الوجه واللحية أصهبهما[1] ؛ وكل ما يحكى عنه يدل على الهدوء وحب الخير وسلامة الصدر : كان الوزير أبو الحسن علي بن عيسى يُطلِق في كل شهر في جملة نفقات المطبخ لثمن المسك نحو ثلاثمائة دينار ؛ وكان يوماً عند الخليفة فدار بينهما الحديث ، وعلم الوزير من سياق الكلام أن الخليفة لا يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يُطرح له من المسك إلا اليسير في الخشكنانج ؛ ثم نهض الوزير ومشى للخروج، فأمر المقتدر بالله برده ، وقال له : أظنكَ تنصرف الساعةَ ، وتفتتح نظرك باحتضار المتولّي للمطبخ وموافقته على ما جرى بيننا في أمر المسك ، وتُسقِطه ، فقال : كذلك هو يا أمير المؤمنين ! فضحك الخليفة وقال : أحب ألاّ تفعل ذلك ، فلعل هذه الدنانير تنصرف في أقوات ونفقات قوم ، ولا أريد قطعَها عنهم[2] ؛ وكان المقتدر كثير الشراب[3] .

ثم انتُخب أخوه القاهرُ خليفةً بعده ؛ وكان القوم قد أتعَّظوا بحكم المقتدر فعيّنوا القاهر ، وقالوا : هو كهل ، ولا أمَّ له ، فنرجو أن تستقيم أمورنا معه[4] . وكان القاهر أيضا مربوعا ، حسن الجسم ،

---

(١) التنبيه والاشراف للمسعودي طبعة دي غوي سنة ١٨٩٤ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ؛ ومسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ ؛ وعريب ص ١٧٦ والصفحات التالية ؛ وكتاب العيون ص ١٣٠ ا .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٣) تاريخ الاسلام للذهبي ؛ انظر المقدمة الانجليزية التي كتبها امدروز لكتاب الوزراء المتقدم ، ص ١١ .

(٤) عريب ص ١٨١ .

أبيض ، تعلوه حمرة ، أعين ، وافر اللحية ، ألثغ[1] . وفي سنة ٣١٧هـ ـــ ٩٢٩م قامت ثورة قُصِد منها خلعُ المقتدر وتنصيب أخيه القاهر مكانه فأُخمدت ، وحُمِل القاهر إلى أخيه فاستدناه ، وجعل يُهدِّئ من روعه ، ويلتمس له العذرَ ، ويُبَرِّئه من إثم المؤامرة ، وهو يقول : نفسي نفسي ، الله الله يا أمير المؤمنين! يرجو أخاه أن يُبقي على حياته[2] .
وكان القاهر أهوج ، شديد الإقدام على سفك الدماء ، محبا للمال ، قبيح السياسة ، قليل الرغبة في اصطناع الرجال ، غير مفكر في عواقب الأمور ؛ وكان مولعاً بالشراب ، لا يكاد يصحو من السكر ، وكان يسمع الغناء ، ومع ذلك حرّم على الناس الخمر والقيان[3] ، ولكنه وُفّق إلى القضاء على مؤنس القائد رغم ما كان لمؤنس هذا من سلطان عظيم[4] ، كما أنه وفّر كثيراً من المال ؛ ولما طُلب منه أن يشهد على نفسه بالخلع أبى أن يُحِلَّ الطالبين من بيعته ، فخُلع وسُمِلت عيناه ، ولم يُسْمَل قبله أحد من الخلفاء وملوك الإسلام[5] . وسَمل الأعين هذا عادة أخذها المسلمون عن البوزنطيين ، ثم عاش القاهر بعد خلعه سبعة عشر عاماً في دار الخلافة ؛ حتى نقله المستكفي منها ، وكان قد بلغ به الضرّ والفقر إلى أن كان مُلْتَفاً بقطن جُبَّة ، وفي رجله قبقاب خشب[6] . وقد خرج في يوم جمعة إلى جامع المنصور وغطى وجهه، ووقف فعرّف الناسَ نفسه وسألهم أن يتصدّقوا عليه ، فقام إليه أحد الهاشميين فأعطاه ألف درهم وردّه إلى داره .

ولما عُيِّنَ الراضي (٣٢٢ ـــ ٣٢٩هـ = ٩٣٣ ـــ ٩٤٠م) ابن أخي

---

(١) التنبيه للمسعودي ص ٣٨٨ ؛ وكتاب العيون ص ١٤٢ ب .
(٢) كتاب العيون ص ١٢٤ ب .
(٣) مسكويه ، ج ٥ ص ٢٤ ؛ التنبيه ص ٣٨٨ ؛ عريب ١٨٥ .
(٤) مسكويه ، ج ٤ ص ٤١٩ (؟) .
(٥) التنبيه ص ٣٨٨ .
(٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٣٢ ـــ ٣٣٣ .

القاهر خليفةَ كان له من العمر خمسةٌ وعشرون سنة . وكان أسمر ، أعين ، دون الأقنى ، مسنون الوجه ، خفيف العارضين واللحية ، دحداحاً نحيفاً[1] . وكان محبا للشعر والإنشاد ، ومن أحسن الناس علماً بالشعر ونقداً له ، كما ينقده العلماء ؛ وكان من أطبع ملوك بني العباس في الشعر ومن أكثرهم قولاً له ؛ وقد ترك لنا من ذلك ديواناً مكتوباً . وكان مولعاً بجمع البلّور حتى يقول الصولي : ما رأيت البلور عند ملك أكثر منه عند الراضي ، ولا عمل مَلكٌ منه ما عمل ، ولا بذل في أثمانه ما بذل ، حتى اجتمع له من آلته ما لم يجتمع لملك قط[2] وقد أُولع بهدم القصور في دار الخلافة وبناء غيرها أو تصييرها بساتين[3] . وكان الراضي سمحاً ، عظيم العطاء ، واسع النفس ، ينفق ما وجد ؛ ويحكى أنه دخل عليه جماعةٌ من الجلساء ، وهو يهدم شيئاً ويبني شيئاً ، وكان جالساً على آجرّة حِيال الصناع ، فأمرهم بالجلوس في حضرته ، فأخذ كل واحد منهم آجرّة فجلس عليها ؛ فلما قاموا أمر أن توزن آجُرة كل واحد منهم ويُدفع إليه وزنُها دراهم أو دنانير[4] . وكان ابن الأنباري يتردد إلى أولاد الراضي ؛ ويُحكى عنه أنه مضى يوماً إلى سوق النخاسين، وجاريةٌ تُعرَض حسنةٌ كاملةُ الوصف ، فوقعت في قلبه ؛ ثم مضى إلى دار أمير المؤمنين الراضي ، فقال له : أين كنت فعرّفه ، فأمر بشراء الجارية له ، وحملها إلى منزله ؛ فلما جاء إليه وجدها هناك[5] . ولم يجد أصحاب الراضي فيه من العيب إلا أنه كان يؤثر لذته وشهوته على رأيه ، وأنه كان، رغم مرضه ، لا يحتمي ، وكان إذا وصف له أطباؤه شيئاً لا يستعمله ،

---

(١) كتاب العيون ص ١٨٤ ب ، والتنبيه للمسعودي ص ٣٨٨ .

(٢) الأوراق للصولي ص ٢٧ . (٣) المنتظم ص ٥١ ا .

(٤) نفس المصدر ص ٥١ ا ــ ب نقلا عن الصولي .

(٥) المنتظم ص ٦٥ ب .

وإذا أكل الشيء الضار لم يُعْلِهم[1] ؛ ومات وهو في الثانية والثلاثين من العمر[2] . وفي آخر علّته أخذ في قضاء ديونه ، وتقدّم بعمل المُغْتَسَل والتابوت ، واختار لنفسه ثياباً لكفنه ، وعزلها في سفط ، وكتب رقعة فيها : هذه جهاز الآخرة[3] . ولكن عهده لم يَسْلَم من سفك الدماء ؛ فقد احتال على الوزير ابن مقلة بعد تركه الوزارة ، حتى قبض عليه وسجنه . وقبض على جماعة من أهله وأقاربه ممن سعى في تقليد الأمر لنفسه وبايعه الناس عليه ، فمنهم من قتله ، ومنهم من ضربه وسجنه ، فمات في سجنه ، ومنهم من استتر طول مدته[4] .

ثم ارتقى عرشَ الخلافة بعده أخوه المتّقي ، وهو في السادسة والعشرين من العمر ؛ وكان رَبْعَةً دُرِّيّ اللون ، حسن الوجه ، أبيض ، أشهل ، مستدير العينين ، مقرون الحاجبين ، قصير الأنف ؛ في شعره شُقْرَة وجُعودة[5] . ولم يشرب النبيذ قط ، وكان يتعبّد ويصوم ؛ ولم يتخذ جلساء له ، وكان يقول : المصحف نديمي ولا أريد جليساً غيره[6] ؛ ولكنه كان رجلا لم يفارقه البؤس ، فلم يزل فيه إلى أن مات ؛ فمن ذلك أنه لما أريد أن يُعْذَر له ، وهو صغير ، عُمل له كلُّ شيء حسن ؛ فكان فيما أُعِدَّ له عشرُ وصائف للمِذَبَّات وكيزان الماء ،

---

(١) الأوراق للصولي ص ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١٨٢ ب ، نقلا عن ذُكاء ، مولى الراضي ، وذلك من طريق الفرغاني الذي كان ذكاء يحكي له بعض الحكايات . انظر مثلا ص ٢١٥ ا ــ ٢١٥ ب .

(٢) كتاب العيون ص ١٨٤ ا .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٣ ا .

(٤) نفس المصدر ١٦١ ب ، ١٨٤ ب ــ ١٨٥ ا ، وكتاب الأوراق ص ١٤٨ ــ ١٤٩ .

(٥) كتاب العيون ص ٢٢١ ا ، وكتاب التنبيه ص ٣٩٧ ، والمنتظم ص ٦٦ ب .

(٦) المنتظم ص ٦٦ ب .

وأُمِر بأن ينظّفوهن ويزيّنوهن ، فأدخلوا قبل أن يُعذَر له بليلة الحمَّام ، فسقط عليهن ، فما أفلتت منهن واحدة ، فكان هو يُختَن وأولئك يُدفَنّ ؛ ويقال إنه منذ نشأ ما جُعل برسمه خادم لحضانته إلا مات ، فكان الخدم إذا عُرضت خدمته عليهم استعفوا ؛ وقد ركب مع ابن رائق يوماً في رحبة الجسر ، فاجتمع الناس يدعون له وازدحموا للنظر إليه ، فانقطع الكرسي وسقطوا إلى دجلة ، وهي زائدة ، فهلك في ذلك اليوم عالمٌ عظيم من الأولياء والنساء والصبيان[1] . وظل البؤس حليفاً له بعد ارتقائه العرش ، فهو أول خليفة ترك « مدينة السلام » خوفا وطلباً للنجاة ، ولحق بالحمدانيين ، وظل ينتقل معهم في الجزيرة ، وهم يُهزَمون مرة بعد أخرى ؛ وقد أشار عليه الإخشيد محمد بن طُغج ، بعد أن كتب إليه يستقدمه ، بأن يسير معه إلى مصر والشام ، ويكون بين يديه ، فلم يفعل[2] . وقد اطمأن إلى مواثيق القائد التركي توزون ، وأَمِن جانبه بعد أن استوثق منه مرة بعد أخرى؛ولكن توزون غدر به لأجل ستمائة ألف دينار أخذها من أحد طالبي عرش الخلافة ، فقبض عليه وخلعه ، وأمر بإحضار الجارية الشيرازية حُسْن ، فتولت سَمْلَه بيد غلامها السندي وعاش المتقي بعد خلعه أربعا وعشرين سنة، ومات بداره[3] .

ثم خلفه المستكفي بعد أن تآمر عليه مع توزون ، وسفرت بينهما حُسن الجارية الشيرازية ، فارتقى المستكفي عرشَ الخلافة بعار هذه المؤامرة ؛ وكانت أمه أُمّ رومية تسمى غُصْن[4] ؛ وكان أبيض اللون،

---

(1) كتاب العيون ص ٢٢٢ ا ـ ب .
(2) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ، ٣١٢ ـ ٣١٣ .
(3) كتاب العيون ص ٢٢٠ ب ، ويحيى بن سعيد ص ٨٥ ب ـ ٨٦ ا .
(4) كتاب العيون ص ٢٢٣ ب ، وكتاب التنبيه ص ٣٩٨ .

صغير الفم ، حسن الوجه والجسم ، بديناً ، أعين ، طويل الأنف ، وافر اللحية ، رَبْعَة ، إلى الطول أقرب ، وقد وخطه الشيب[1] ؛ ونادراً ما كانت تقرّ عينه بمنصبه ، وهو بين امرأة جشعة رفعته بدسائسها إلى منصب الخلافة ، وبين الترك الذين أصبحوا سادة بغداد . وأخيراً جاء بنو بُوَيْه ، فكان أولُ ما طلبه أحمد بن بويه من المستكفي أن يستكتب ابن شيرزاد ؛ وكان المستكفي قد حلف ألا يتصرَّف ابنُ شيرزاد في أيامه ودولته ؛ ولما ألحّ عليه ابنُ بويه أجابه إلى ما طلب على كُرْه منه ؛ قال ذكاء مولى الراضي : وكنت حاضراً ، فأجابه المستكفي على كُرْه منه ، ورأيت عينيه وقد تغرغرتا بالدموع ، لعِظم ما ورد عليه من سؤال ابن بويه[2] . ولما جاءوا إليه ليخلعوه رضي أن يخلع نفسه ؛ ولكنه شرط عليهم أن يقطعوا شيئاً من أعضائه[3] . غير أن المطيع أخا المتقي هو الذي خلف المستكفي ، فأمر أن يُسْمل انتقاماً لأخيه ؛ وطلب من يَسْمِله،فلم يتقدم على ذلك أحد إلا خادمٌ صقلبي كان المستكفي قد استخدمه،ثم وَجِد عليه في بعض أوقاته فضربه مائتي سوط وحبسه؛ فكان هذا الخادم حَنِقا عليه ، فقال للمطيع : أنا أكحله ، وقام بهذه المهمة[4] .

أما الخلفاء المتأخرون فلم يكن لهم عمل بالفعل في إدارة الدولة ، فطال لذلك حكمهم ؛ فأما المطيع فإنه خلع نفسه غيرَ مُسْتَكْرَهٍ ، وترك ولاية الخلافة لابنه الطائع ؛ وذلك أن المطيع كان قد ناله فالجٌ قديماً ، وكان يَستره ؛ فظهر وتعذَّرت عليه الحركةُ . وثقل لسانه ، فترك ولاية الخلافة لابنه[5] : ثم خُلع الطائع بعد ثمان عشرة سنةً من

(1) كتاب العيون ص ٢٣٩ ب ، والتنبيه للمسعودي ص ٣٩٩ .
(2) كتاب العيون ص ٢٣٢ ب .
(3) نفس المصدر ص ٢٣٨ ب .
(4) نفس المصدر ص ٢٣٩ ا ــ ب .
(5) المنتظم ص ١٠٦ ا .

حكمه ، وقبض عليه . واعتقل عند الخليفة القادر مكرّما ، حتى مات بعد اثنتي عشرة سنة[1] ؛ ولا نعرف كثيراً عن هؤلاء الخلفاء ؛ فأما المطيع فكانت أمّه أمّ ولد صقلبية،وكانت أشهر منه؛ وتعرف بالصفّارة، لأنها كانت تأخذ من ورق السوسن وغيره الشيء اليسير ، وتجعله في فمها ، وتصفر به صفيراً لم يُسمع بمثله ، تحكي به كل طائر أو غيره[2].

وأما الطائع فكانت عليه ملامحُ الجنس الشمالي ؛ فقد كان أبيض أشقر ، حسن الجسم شديد القوة ؛ ويُحكى أنه كان في دار الخلافة أَيِلٌ عظيم يقتل بقرنه الدوابّ ، ولا يتمكن أحد من مقاومته ؛ فاحتال الطائع حتى أمسك قرنيه بيديه ، فلم يقدر أن يخلّصهما منه ؛ واستدعى النجار ، فركّب المنشارَ عليهما ، ولما بقيا على يسير قطعهما بيديه[3] .

وكان القادر من أهل الستر والديانة وإدامة التهجّد بالليل وكثر البرّ والصدقات ؛ وكان يأخذ ثلثي الطعام الذي يُهيّأُ لإفطاره ويقسمه بين جامعيْن كبيرين[4] . وكان يخضب لحيته الطويلة الكثّة ، ويلبس زيّ العوامّ ،ويقصد الأماكن المعروفة بالبركة مثل قبر معروف الكرخي، وتربة ابن بشّار ؛ وكان يتخفّى ويغيّر زيّه ، ويخرج ليتعرف أحوال رعيته ؛ وكان صحيح الاعتقاد ، ويحكى أنه صنّف كتاباً في الأصول على مذهب أصحاب الحديث ؛ وكان هذا الكتاب يُقرأ كلَّ جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ، ويحضر الناسُ سماعَه[5] .

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٠ ا ــ ب ، ١٤٩ ا .
(٢) كتاب العيون ص ٢٤١ ا .
(٣) كتاب المنتظم ١٠٦ ا .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٢ ب .
(٥) نفس المصدر ص ١٣٢ ا ، وطبقات السبكي ، طبعة القاهرة ، ج ٣ ص ٢ .

هذه صورة لبعض خلفـاء بني العباس أيام إدبار دولتهم ؛ وهي تخالف صورة خلفاء الفاطميين الذين أخذ نجمهم إذ ذاك في الارتفاع . ويدّعي الفاطميون أن الإمامة أو الأفضلية صفة خاصة تنتقل من الوالد إلى الولد ، فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونة التنازع على عرش الخلافة ؛ ويضاف إلى هذا هدوءُ السياسة الحازمة وطمأنينتُها في عهدهم ؛ فمن أمثلة ذلك أن والي الشام كتب مرة إلى المعز لدين الله (٣٤١ ــ ٣٦٥هـ = ٩٥٢ ــ ٩٧٥م) مباشرةً وتخطّى من دونه ، فمنع الخليفةُ من ذلك ، وأعاد الكتاب إلى الوالي من غير أن تُفَضّ أختامه . وكان العزيز (٣٦٥ ــ ٣٨٦هـ = ٩٧٥ ــ ٩٩٦م) أعظم هؤلاء الخلفاء ؛ وكان أسمر ، طويلا ، أصهب الشعر أزرق العينين كبيرهما ، عريض المنكبين ، عارفاً بالخيل والجوهر[1] ، وكان صيّاداً جريئاً ماهراً ؛ وقد ضرب أول مثـل للفروسية العربية بما تنطوي عليه من العفو وكِبَر القلب ، وهي التي أثّرت فيما بعد تأثيراً كبيراً في الغرب ؛ فقد حدث أن أحد القواد الأتراك خرج على طاعة جوهر عام ٣٦٥هـ ــ ٩٧٥م وهزم جوهراً ؛ فالتجأ هذا إلى عسقلان ، فأدركه التركي وحاصره مدة طويلة حتى طلب الصلح ؛ فأجابه ، وعلّق التركي سيفاً مجرّداً على باب حصن عسقلان ، وخرج جوهر وأصحابه من تحت السيف ، ثم دخلوا إلى مصر ، فلم يرْضَ العزيزُ بالصلح ، وسار بنفسه لمحاربة التركي ؛ فهزمه وأسره ، واستنقذه من بين يدي آسريه ، بعد أن كاد يموت ضرباً ولكماً ؛ وأمّنه على نفسه ، ودفع إليه خاتمه ؛ واستسقى التركي ماء ، فأمر العزيز بإحضار قدح شراب جلاّب ، فلما أتى بالقدح توقّف التركي على الشرب خوفاً من أن يكون في القدح سمٌّ قاتل ؛ وتبيَّن العزيز ذلك ، فأخذ القدح وشرب منه ، ثم أعطاه ليشرب ؛ وأفرد له خيمة ، وتقدّم بأن يُحمل إليه جميعُ

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨١ .

ما يحتاج إليه ، وحمله على دوابّه ، وأمره بالركوب على مركبه ؛ وسأله عن أناس ممن يأنسَ بهم ، فالتمس إحضار قوم من أصحابه ، فأتى إليه بهم من بين الأسارى ، ولما رجع العزيز إلى مصر تقدم إلى وجوه دولته وقواده وأمرائه بإكرام التركي وإجلاله[1] .

وأخيراً جاء الحاكم بأمر الله ، وهو الشخصية النادرة المتناقضة ؛ كان الحاكم رجلاً غريباً في أطواره ؛ فمن ذلك أنه أقام سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ، ثم عنّ له أن يجلس في الظلمة ، فجلس فيها مدة[2] . وكان أحياناً يواصل الركوب ليلا ونهاراً من غير فتور ولا سكون ؛ وكان يركب في نفر من خاصته ليلا ، فتقدّم أصحابُ الأعمـال بمصر إلى التجار أن يوقدوا القناديل على حوانيتهم ودورهم ، وأن يبتاعوا بالليل، فصارت الشوارع والأسواق في الليل بمنزلة النهـار في العمارة[3] . وتقدّم بقتل سائر ما في مصر من الكلاب إلا كلاب الصيد ، لأنها كانت تنبح بالليل إذا عبر الشوارع[4]،ولما اعتلّ وضعُف عن الركوب اتخذت له مِحَفَّةً يجلس فيها ويستلقي عليها ، ويحملها أربعة من رجاله ، ثم يدور الليل والنهار[5] ؛ وفي مثل هذه الأحوال كان يأخذ الرقاع والمظالم بشرط ألا يُكتب فيها إلا سطرٌ واحد على وجه واحد ، ويأمر صاحب الرقعة أن يأتي له من على يمينه ، وكان يأمرهم بالمصير إلى مكان يعيّنه لهم في اليوم التالي ، وكان يضع توقيعاته وعطاياه في كُمّه ، ويعطيها لهم يداً بيـد . وكان الحاكم ينفق ما استطاع ، ويجزل العطاء لرعيتـه ، « وأظهر من العدل ما لم يُسمع بمثله،ولعمري إن أهل مملكته لا يزالون

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٠٤ ا ــ ب .
(٢) ابن تغري بردي ، طبعة كلفورنيا ص ٦٢ ــ ٦٣ .
(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٥ ا .
(٤) نفس المصدر ص ١١٦ ا .
(٥) نفس المصدر ص ١٢٧ ا ــ ب .

في أيامه آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم ، ولم تمتدّ يدُه قط إلى أخذ مال أحد ، بل كان له جودٌ عظيم وعطايا جزيلة »[1] . أما رؤساء دولته فلم يكن أحد منهم آمناً على نفسه ؛ فكان يفاجيء أعز أصحابه ، ويثب عليه وثوبَ المجنون ؛ فمن أمثلة ذلك أنه قرَّب عَيْناً الخادمَ الأسودَ ، ثم نَقَم عليه ، فقطع يده اليمنى ؛ ثم اختصّ به بعد ذلك أعظم اختصاص ، ولقّبه « قائد القواد ، وأستاذ الأستاذين » ، وكنّاه وقدّمه على سائر أهل دولته ، وكثر ميله إليه وشغفه به ، وبعد مدة تنكّر له ، وقطع لسانه ؛ ثم أعقب ذلك بالزيادة في عطاياه بالإنعام عليه[2] . وسنتكلم في غير هذا المقام عن مثل هذا التصرف الذي لا ضابط له فيما يتعلق بمعاملته لليهود والنصارى ، وعن زهده ورغبته في الورع ؛ ذلك أنه في آخر الأمر ربَّى شعره حتى طال على أكتافه ، وامتنع من تقصيصه ، ومن تقليم أظافره ، وغيّر الثيابَ الصوف البيضاء بملابس سوداء ، واستبدل بالعمامة الزرقاء عمامةً سوداء ، وصار يلبس الكسوة الواحدة المدة الطويلة إلى أن تتلبّد بما ينالها ويتداولها من العرق الدائم ، ويعلوها من الغبار المتّصل ؛ وواصل تدوير الصحاري والفيافي ؛ وقصد جبل المقطم حيث كان ينفرد بنفسه ؛ لذلك نجد العالم المسيحي يحيى بن سعيد ، يقول إن حاله صارت غير بعيدة من حال بختنصر ملك بابل الذي صارت البراري مأوى له كالوحوش ؛ وزادت أظافيره ، فأشبهت مخاليب العقاب ، وطال شعره كالأسد جزعاً على إبادته هيكل الرب الأورشليمي ؛ ولذلك أصاب يحيى حين شخّص مرض الحاكم بأنه صِنْف من سوء المزاج اليابس المُمْرِض في دماغه أحدث له ضرباً من ضروب الماليخوليا وفساد الفكر ، فاحتاج في مداواته منه إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به[3] .

(١) نفس المصدر ص ١٢٣ ا . (٢) نفس المصدر ص ١٢٤ ا .
(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٧ ب — ١٢٨ ا .

الفصل الثالث

الأمراء

بهذا الاسم كان يُسمَّى وُلاة البلاد ــ وكذلك أبناء بيت الخلافة ــ إلاّ كافوراً بمصر ، فإنه امتنع من التسمِّي بالإمارة ، ورأى تواضعاً أن يجري على رسمه في المخاطبة بالأستاذية[1] . أما لقب « أمير الأمراء » في بلاط الخلافة فلا شأن له في الأصل بولاية الحكم ؛ فهو لا يعدو أن يكون لقباً لأكبر رجل بيده الأمر ، كما أن « وزير الوزراء » لقبٌ لأكبر الوزراء ؛ وقد كان مؤنس القائد صاحب الجيش يحمل لقب أمير الأمراء ، وإن لم يكن يشعر في نفسه بأنه يلي حكم ولاية ما .

ولم يكن لأمراء المملكة الإسلامية علامةٌ تميِّزهم من الجهة الرسمية ؛ فكان يُدعى لهم في كل جهة مع الدعاء لحاكمها ، وذلك بعد الدعاء للخليفة . أما في العراق فقط حيث كان أمير المؤمنين هو الذي يدير أمورها بنفسه من غير والٍ فكان لا يُذكر أحدٌ مع الخليفة في الخطبة ، لأن ذلك كان يُشعر بشيء من الانتقاص لمنصب الخليفة ، وقد

(١) يحيى بن سعيد ص ١٩٥ . كان لقب الأستاذ في المشرق لقباً للوزراء ؛ فكان ابن العميد يلقب بذلك (مسكويه ج ٦ ص ٢١٩ ــ ٢٢٠) ، وكان يلقب به غير ابن العميد (ابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ٣٤) ، واليوم يطلق هذا الاسم في القاهرة على الحوذي . (ولكن الواقع أن لفظ الأستاذ اليوم يطلق على المدرس بوجه عام وعلى المثقف أيضاً،وإن كان العامة لا يزالون يستعملونه فيما يتعلق بالشيخ المتزيي بزي المشايخ).(المترجم)

حدث أن أُسندت الحجبة ورئاسة الجيش لمحمد بن ياقوت في عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م فأدخل يده في تدبير كل شيء ، ونظر فيما ينظر فيه الوزير ، وطالب أصحاب الدواوين بحضور مجلسه ، وألا يقبلوا توقيعاً في سائر الأحوال إلا بعد أن يوقّع فيه بخطه ، واضطر الوزير إلى أن يحضر مجلسه ، وصار كالمتعطّل ملازماً لمنزله لا يعمل شيئاً[1] ؛ ولكن لما دعا الأئمةُ له في الجانب الشرقي والغربي ببغداد ، بعد دعائهم للخليفة الراضي ، وقرَظوه أنكر الراضي ذلك ، وأمر أن يقلّد مكانَ الأئمة جميعا أئمةٌ من بني العباس[2] . غير أن الراضي اضطر في العام التالي أن يرضى بذكر ابن رائق بعده في الخطبة ، ومعنى هذا أنه اعترف بأمير دونه في العراق[3] .

وكان بنو حمدان ، من بين سائر أمراء البلاد أسوأ من يمثل خصال البدو . ومن أمثلة طباعهم البدوية أنه لما التقى عليّ بن عبد الله بن حمدان مع المتقي وابن رائق في الموصل نزل المتقي دارَ ابن فهد الموصلي ، ونزل ابن رائق في دار بالقرب منه ؛ أما عليّ بن حمدان ، فإنه نزل بدير الأعلى في خيمة أقامها . وكان عليّ هذا قد أنس بابن رائق ، وكان يدعوه للشراب ، فكان إذا عمل الشراب فيه وصف نفسه

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) الأوراق للصولي ص ٨٣ .

(٣) كان لقب السلطان لا يطلق في ذلك الوقت إلا على الخليفة ، وكان يقال دار السلطان ببغداد أي دار الخليفة ؛ أما ما يقوله ابن خلدون (كتاب العبر طبعة بولاق ج ٣ ص ٤٢٠) من أن معز الدولة ملك بغداد واختص باسم السلطان فهو غير صحيح . ويقول أبو المحاسن المؤلف المصري المتأخر (النجوم الزاهرة ، ليدن ج ٢ ص ٢٥٢) إن فرعون لقب ملك مصر قديما والسلطان لقبهم حديثاً ، وكذلك يرى الظاهري (من علماء القرن التاسع الهجري) أن الحاكم الوحيد الذي يسمى السلطان بحق هو حاكم مصر . وهذا يتفق مع ما جرى عليه الأوروبيون في العصور الوسطى من استعمال كلمة سلطان دائماً فيما يتعلق بمصر . ويظهر أن الحكام المتأخرين ببغداد لم تكن تقام لهم الدعوة بعد الخليفة في الصلاة ، حتى أكرم عضد الدولة بهذا الشرف عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٩ م ، وهو ما اختص به « دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها » (مسكويه ج ٦ ص ٤٩٩ — ٥٠٠) .

بالشهامة والرجولة وازدرى بني حمدان وقال لعليّ : وأي شيء تَسْوون أنتم ، وأي يوم كان لكم ، وهل أنتم إلا أعراب ! ؟[1] وسنتكلم في غير هذا المقام عن سوء سيرة الحمدانيين في الحكم ونهبهم أموال الرعية وأملاكهم ، وجورهم على الزراع وعداوتهم للعمارة وللأشجار ، وتخريبهم ، ونقضهم الدائم للعهود التي يقطعونها ؛ ومن أمثلة غدرهم أن الحسين بن حمدان ، وهو رأس أسرتهم ، قتل العباس بن الحسن الوزير في عام ٢٩٦ هـ ــ ٩٠٨ م ، وهو راكب يوما إلى بستانه ؛ وذلك أنه أعرضه وعلاه بالسيف ، فقتله[2] ؛ وكذلك فعل ناصرُ الدولة أبو محمد بن حمدان بابن رائق ، فقتله وهو ضيفٌ عنده في خيمته قتل غدر وخيانة[3] . وكان النزاع وعدم رعاية حقوق الطاعة سائدين في بيت بني حمدان ، ولا سيما في فرعهم بالجزيرة[4] . وكذلك كان الحال في فرعهم بالشام حيث قتل أبو المعالي بن سيف الدولة بن حمدان خاله أبا فراس ؛ فقد لحقه وقتله رغم استئمانه ، ثم أخذ رأسه وترك جثته في البرّيّة[5] . ولم يظهر أحدٌ من الحمدانيين بشيء من الفروسية والأعمال العظيمة إلا سيف الدولة . على أننا نلاحظ أنه كان في حربه مع الروم يقع دائما في نفس الفخّ ، ولذلك يقول أبو الفدا : « وكان سيف الدولة مُعْجَبا بنفسه ، يحب أن يستبدّ ، ولا يشاور أحداً ، لئلا يُقال إنه أصاب برأي غيره »[6] . وكثيرا ما صبّ القائدان التركيان ، توزون وبجكم ، على رأسه الهزائم .

---

(١) كتاب العيون ص ١٩٣ ب ـ ١٩٤ ا .

(٢) نفس المصدر ص ٦١ ا ـ ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٦٠ ـ ٦١ وكتاب العيون ص ١٩٨ ا ـ ب .

(٤) انظر مثلا مسكويه ج ٦ ص ٢٢٤ لترى ما كان يقع بين ناصر الدولة وبين أولاده .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣٤ ، وانظر ما حكاه ابن خلكان نقلا عن ثابت بن سنان (الوفيات طبعة ١٢٩٩ هـ ، ج ١ ص ١٥٩) وانظر Dvorak : Abû Firâs, Leiden, 1895, S. 114 ff.

(٦) تاريخ أبي الفدا ج ٢ ص ٤٦٨ تحت عام ٣٤٩ هـ .

وكذلك يرجع أصلُ البريديين إلى الدولة الإسلامية الأولى ، فقد كانوا حكاماً للعراق زماناً طويلا ، وكانوا في أول أمرهم كتاباً أصحاب دراريع[1] أكثر مما كانوا قوّادا . ومع هذا فقد خاضوا غمار كثير من المواقع وقاتلوا قتال البواسل ؛ ولكنهم من قصر النظر والجشع لم ينزلوا لبني حمدان عن شيء . وقد بدأ عهد الفساد الحقيقي ببغداد عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م ، وهو العام الذي فتح فيه البريديُّ بغداد وفرّ فيه الخليفة إلى الموصل ؛ وذلك أن البريدي ظلم الناس ظلمَه المعروف ، وافتتح الخراج في آزار وخبط أصحاب الأراضي وخبط أهلَ الذمة ووظّف على كل كرّ من الحنطة سبعين درهما ، وأخذ جزءاً من مال التجار غصبا[2] . وفرّ آخر البريديين إلى القرامطة في جنوب جزيرة العرب ، ولكنه بعد ذلك كتب إلى معز الدولة يلتمس الأمان ليصير إلى حضرته ، فأعطاه من التوثقة ما أحب ، فوافاه وقبَّل الأرض بين يديه ؛ وأكرمه معزُّ الدولة ، وأقطعه الضياع ، ورسمه بمنادمته[3] .

ولو أننا قارنا بين هؤلاء الأمراء الذين يقترن حكمهم بالنهب وبين القواد الذين جاءوا من الشمال وأقاموا ملكهم في داخل بلاد الإسلام ، لوجدنا أن هؤلاء الأخيرين أحسن سيرة في الحكم وأشبه بآباء لرعيتهم . ومنهم السامانيون الذين أرادوا أن ينشئوا بينهم وبين الفرس نسبا ، وأن يُرجعوا أصلهم لملوك بني ساسان . وقد بلغوا أوج عزتهم في أواخر القرن الثالث الهجري حيث كانت بلاد ما وراء النهر والجبل وإيران كلها إلى كرمان تحت سلطانهم ؛ بل كان في داخل حدود دولتهم الكبيرة ولايات" تكاد تكون مستقلة ، مثل بلاد سجستان التي يحكمها

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٥٥٦ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥٨ ، وكتاب العيون ص ١٩٣ ا .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ١٥٤ ، وكتاب العيون ص ٢٤٧ ب .

بنو الصفّار ؛ وهؤلاء وإن كانوا يخطبون لصاحب بخارى فلم يكن له عليهم إلاّ حملُ أموال وهدايا ؛ بل اضطر السامانيون نظراً لسعة أرجاء دولتهم إلى إنشاء ما يشبه منصب « نائب الملك » ، فكانوا هم مثلاً يقيمون في بخارى على حين أن صاحب جيشهم كان يقيم في نيسابور التي جعلها الظاهريون قصبة خراسان . أما عن حكمهم فالمقدسي يمتدح سيرتهم في الحكم ، ويقول إنهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالا للعلم وأهله ؛ فقد كان من رسومهم مثلا أنهم لا يكلّفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم ، ويذكر المقدسي أن في أمثال الناس : « لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست » ، ويقول : ألا ترى إلى عضد الدولة وتجبُّره وتمكّنه ، وكمال دولته ، وقوة أمره ! قد فُتِحت له البلاد طوْعا ، ومَلك ما ملك ، فلما تعرَّض لآل سامان وطلب خراسان أهلكه الله ، وشتّت جمعه ، وفرّق جيوشه ، ومكّن أعداءه من ممالكه ، فتباً لمن عاند آل سامان[1] . ولعل هذا الإطراء من جانب المقدسي كان لأسباب شخصية ؛ فالحقيقة أن الديلم أخذوا من السامانيين إيران كلها ، وإن كان ذلك لم يتم لهم إلاّ بعد نضال طويل ، حتى كان سبكتكين قائد معزّ الدولة ببغداد يضطر إلى الإسراع للري في كل عام تقريبا لمعاونة أخي معز الدولة في محاربته للسامانيين ؛ ولم يمض أكثر من عشرين سنة على مبالغة المقدسي في مدح آل سامان حتى اجتاح الترك دولتهم من الشمال والجنوب ، وقُتل آخر ملوكهم هارباً . على أن ملوك السامانيين كانوا دائما يظهرون ولاءهم للخليفة في بغداد وتعلّقهم به ، وكانوا دائما يبعثون إليه الهدايا ، بل نجد أحمد بن إسماعيل يرسل في سنة ٣٠١ هـ ــ ٩١٣ م إلى الخليفة ببغداد شيخاً يستحمد إليه ما فعله من ردّ غارة الترك على المسلمين وقَتْله كثيراً منهم ، ويخطب

(١) مقدسي ص ٣٣٧ – ٣٣٩ .

إليه شرطة بغداد ، بعد أن خلا منصب صاحب الشرطة بوفاة من كان يشغله من بني طاهر[1] ؛ وكذلك نجد نصراً الساماني يرسل للخليفة عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م هدية كبيرة ، ومعها رأس أحد ثوّار الديلم ، فكأن نصراً قد رضي أن يضع نفسه في موضع والٍ من ولاة الخليفة[2] .

وكان المستقبل للشعوب التي تسكن جبال الألب الآسيوية في شمال فارس ، والتي كانت حتى ذلك الحين بمثابة قوّاد مدّخرين لوقت يظهرون فيه . وقد استطاعوا أن يخضعوا لحكمهم بلاداً أوسع كثيراً من البلاد التي أخضعها نظراؤهم السويسريون الذين يسكنون جبال الألب الأوروبية حين بلغوا ذروة قوّتهم ؛ وكان القائد مرداويج الديلمي أكبر من استرعى نظر المؤرخين من بين قواد الجبل الذين حكموا إيران الغربية بعد موت يوسف بن أبي الساج . ولم يكن الإسلام عميقاً في قلب هذا القائد ، فقد فعل بأبناء المسلمين وبناتهم فعلَ الكفار ، فأعمل فيهم السَبْيَ ، حتى قيل إنه تملك من الغلمان والجواري في قول المقل خمسين ألفاً ، وفي قول المكثِر مائة ألف ؛ وأعمل السيف والنار في أهل همدان كأنهم كافرون[3] ؛ حتى إن أهل فارس شغبوا في سنة ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أمام دار الخليفة ببغداد واعترضوا على فرض الحكومة للضرائب في حين أنها لا تقف إلى جانب المسلمين لتحميهم . وبعث مرداويج بقائد من قواده إلى مدينة الدينور ، فدخلها بالسيف ، وقتل من أهلها آلافاً كثيرة ؛ « فخرج إليه في مستوري أهل البلد وصوفيّتها وزهادها رجل يقال له ابن مشاده وبيده مصحف قد نشره ، فقال للقائد : اتق الله ، وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين ، فلا ذنب لهم ولا جناية يستحقون

---

(١) عريب ص ٤٣ .
(٢) كتاب العيون ص ١٩١ ب .
(٣) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٣ وما بعدها .

بها ما قد نزل بهم ، فأمر بأخذ المصحف من يده فضُرب به وجهُه ، ثم أمر به فذُبح »[1] .

كان مرداويج رجلاً متفائلاً عريض الآمال والمشروعات ؛ فقد زعم أن يردّ دولة العجم ويبطل دولة العرب[2] ؛ وسأل عن تيجان الفرس وهيئتها ، فمُثلّت له ، فاختار صفة تاج كسرى ، فعُمِل له تاجٌ من الذهب جُمعت فيه أنواع الجواهر ، وضُرب له سريرٌ من الذهب رُصِّع بالجواهر ، فجلس عليه ، وجعل عليه منصّةً عظيمة ، وجعل أمامه سريراً من الفضة عليه فرش مبسوط ، ودون ذلك كراسي مذهّبة ليرتّب أصحاب الأقدار مراتبَهم في الإجلاس ؛ وكان ينوي قصد بغداد وتشعيث الدولة ؛ وكتب إلى عامل له أن يُعِدّ له إيوان كسرى منزلا ، ويعمره كهيئته قبل الإسلام . وقد طاف به بعض شياطين الدهاة فزخرفوا له صورةَ ملك سيظهر ، وتُجْبَى له كنوز الأرض ، فمال إلى ذلك ، وأظهر أنه ذلك الملك الذي يملك الأرض فأراد أن يسير إلى مدينة السلام ويقبض على الخليفة ويولّي أصحابه مدن الإسلام بأسرها في شرق الأرض وغربها ، مما في يد ولد العباس وغيرهم ؛ واسترسل في مثل هذا الخيال[3] ؛ وكان جنوده يخشون سطوته وغدره وكبرياءه . ولما حضرت ليلة الوقود في أصفهان (انظر فصل الأعياد) جُمِعت الأحطاب من الجبال والنواحي البعيدة ، وأُعدت الشموع العظام ، وعُمِل بمجلسه الخاص تماثيلُ وأساطين كبيرة من الشمع ، وحُشِد على رؤوس الجبال واليفاعات ما له تَجْرِ العادة بمثله ؛ فلما خرج وطاف بذلك استحقره كله واستصغره ، « قال وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد في فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه

---

(١) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٤ – ٢٥ .

(٢) الأوراق للصولي ص ٨١ ، ومسكويه ج ٥ ص ٤٨٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٧ – ٢٩ ؛ ومسكويه ج ٥ ص ٤٨٩ – ٤٩٠ .

الأشياء المصنوعة استحقرها . وإنْ كانت عظيمة » ، واغتاظ وسكت ودخل إلى خيمته واضطجع والتف بكسائه ، وحوّل وجهه إلى خلاف الباب لئلا يكلمه أحد ؛ ولم يجسر القواد والأمراء على مخاطبته ؛ ثم أقنعه الوزير بعد كدّ أن يظهر للناس ، فركب كارهاً متحاملاً بعد لجاج وإباء ، فطاف مغضبا مغتاظا ، وانصرف إلى موضعه ، ولزم حالته الأولى[1] .

وكان له أربعة آلاف من المماليك الأتراك[2] إلى جانب خمسين ألفاً من الديلم ، وقد استخلص من هؤلاء الأتراك نفراً اختص بهم ، فوَجِد الديلم من ذلك[3] ، ورغم أنه كان يؤثر الغلمان الأتراك فقد اتفق يوما أن شَغَبَت دوابُّهم ، وارتفعت أصواتها وأصوات من يزجرها ، فانتبه مرداويج مذعوراً على هذه الأصوات الهائلة المنكرة ، فأمر أن تحَطّ السروج عن الدواب ، وتُجْعَل على ظهور الغلمان الأتراك مع جميع آلتها ، وأن يقودوا الدوابّ بأنفسهم من أرسانها إلى الإصطبلات ؛ وكانت الصورة قبيحة ، وقد حَقِد عليه الغلمان لذلك ثم اتفقوا على الفتك به ، فهجموا عليه وهو في الحمّام وقتلوه[4] . وقد استطاع أخوه وشمكير وابنه قابوس أن يحتفظا بإمارة صغيرة في أقصى الشمال من إيران ؛ ثم آل ميراثهم إلى بني بُوَيْه ، وهم قواد مرتزقة من بلاد الجبل بفارس .

وكان بنو بُوَيْه بعيدين عن الثقافة العربية ، حتى إن معز الدولة لما جاء إلى بغداد وملَكها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير علي بن عيسى[5] ؛ وقد رفع بنو بويه أنفسهم بالدهاء والمكر والمهارة الجندية ؛

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ – ٤٨٢ .

(٢) مروج الذهب ج ٩ ص ٢٦ – ٢٨ .

(٣) الاوراق للصولي ص ٨٠ – ٨١ .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٨٢ – ٤٨٥ .

(٥) تاريخ الهمداني مخطوط رقم ١٤٦٩ بباريس ص ١٠٠ ب والمقدمة الانجليزية لكتاب الوزراء ص ٧ .

وكانوا لا يترددون ولا يخجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أكثر من الأول ؛ فمن ذلك أنه لما هـُزم ما كان بن كاكي الديلمي ، وكان معه أبو الحسن علي بن بويه وأخوه أبو علي الحسن ، استأذناه في الانحياز إلى مرداويج ، وقالا لما كان : « الأصلحُ لك مفارقتـُنا إياك ، لتخفّ عنك مؤونتـُنا ، ويقع كَلـّنا على غيرك ، فإذا تمكَّنت عاودناك » ، فأذن لهما[1] ، وكان من أكبر الصفات التي ظهرت فيها مقدرة بني بويه أنهم كانوا يستطيعون جمعَ المال من كل وجه ، وأن يدّخروه حتى يكون بين أيديهم المالُ دائماً ؛ وقد ساعدهم الحظ في ذلك بأمور هي من عجيب الاتفاقات ؛ فيُحكى مثلا أن علي بن بويه لما دخل شيراز اجتمع أصحابه وطالبوه بالمال ، ولم يكن معه ما يرضيهم ، فأشرف أمره على الانحلال ، واشتغل قلبه واغتمّ غما شديداً ، فبينما هو مستلقٍ على ظهره ، وقد خلا للفكر والتدبير ، إذ رأى حيَّة قد خرجت من سقف المجلس الذي كان فيه من موضع ودخلت موضعاً آخر ؛ وخاف أن تسقط عليه ، وهو نائم ، فأمر الفراشين بإخراجها ، فوجدوا السقف يفضي إلى غرفة بين سقفين ، فأمرهم بفتحها ، فوجدوا فيها عدة صناديق من المال وغيره ، فأنفق ذلك في رجاله بعد أن أشفى أمره على الانحلال[2] .

وكان السبب في ارتفاع عليّ بن بويه سماحته وشجاعته وسعة صدره وحسن سياسته ؛ فمن ذلك أنه كان في الريّ وشمكير وأبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد ، ولم يزل علي بن بويه بأبي عبد الله هذا يلاطفه بالهدايا ، حتى غمره بالبرّ ، فكتم كتابا من مرداويج إلى وشمكير بمنع عليّ من الخروج ، واسرّ لعليّ بالخروج ، ففاز

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٣٥ .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

بالولاية ، ولما وصل إلى الكرج أحسن إلى الرجال ، ولاطف عامل البلد ، فكان يكتب بشكره وضبطه الناحية ؛ واتفق أن افتتح قلاعاً كانت في أيدي الخُرَّميّة في تلك الأطراف ، ووقع بين أصحابها خلاف ، فانحاز بعضهم إليه ، وأطلعه على ذخائر جليلة أخذها وصرفها كلها في استمالة الرجال واستعطاف القلوب ؛ ولاطف قواد مرداويج ، وأفضل عليهم ، حتى أوجبوا طاعته ، وكان ذا فضل يتسامع به الناس فيميلون إليه[1] .
فلا عجب إذن أن يسهل عليه الانتصار على جيش الخليفة حتى استولى على جنوب إيران . وكان بنو بويه إلى جانب هذا يحسنون معاملة الأسرى ، ويعفون عنهم ، ويؤمّنونهم من جميع ما يكرهون ، حتى يطمئنوا إليهم ، على حين كان أعداؤهم يعدّون للأسرى قيوداً وبرانس ليشهروهم بها ؛ ولقد ظفر عليّ بن بويه بأعداء له معهم هذه الآلات فعدل عن العقاب إلى العفو ، وابتعد عن الطغيان[2] .

كان ركن الدولة صاحب الري « لا يستجيب إلى عمارة نواحيه ، خوفا من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت »[3] .

وقد جمع عضد الدولة بما كان فيه من حرص ثروة هائلة ، وكذلك ترك فخرُ الدولة (المتوفي عام ٣٨٧ هـ ــ ٩٩٧ م) في العصور الأخيرة ، التي لم تكن عصور الغنى العظيم ، مالا كثيراً ؛ فقد ذكر ابن الصابي أنه خلّف ٢،٨٧٥،٢٨٤ ديناراً ومن الورق والنقد والفضة ١٠٠،٨٦٠،٧٩٠ درهما ، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلّور والسلاح وضروب المتاع شيئاً كثيراً ؛ وكان شحيحاً حتى كانت مفاتيح خزائنه

(١) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٣٦ ــ ٤٣٩ .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٤ ــ ٤٤٥ .
(٣) مسكويه ج ٨ ص ٣٥٧ .

في الكيس الحديد مسمّراً بالمسامير لا يفارقه[1] . وكذلك يقول ابن الجوزي إن بهاء الدولة جمع من الأموال ما لم يجمعه أحد من بني بويه ، وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات[2] .

والصفة الثانية الكبرى مما اتصف به بنو بُوَيْه التضافر الوثيق والطاعة التامة ، وذلك في أجيالهم الأولى على الأقل ؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى الصفات العظيمة التي توفرت لعلي بن بويه الذي لقب فيما بعد بعماد الدولة ، وهو الذي يرجع إليه الفضل فيما بلغه بيت بني بويه من قوة وعزة . ومن أمثلة طاعتهم والتزامهم النظام أن معز الدولة ، وهو أصغر الإخوة الثلاثة ، وكان حاكما على العراق إذ ذاك ، لما لقي أخاه عماد الدولة بأرّجان عام ٣٦٣ هـ قبَّل الأرض بين يديه ؛ وكان يقف قائما عنده ، فيأمره بالجلوس فلا يفعل[3] . ولما مات الأخ الأكبر انتقلت الرياسة إلى أخيه الثاني ركن الدولة في الريّ ، فكان معز الدولة لا يخالف له أمراً ، وكان ركن الدولة يأمره بإنفاذ الجيوش فيفعل[4] . ولما أيقن معز الدولة بالتلف وصَّى ابنه ، وهو على سرير الموت ، بطاعة ركن الدولة ، واستشارته في كل ما يعرض له من مُهمّ ، وكذلك ابن عمه عضد الدولة لأنه أسنّ منه وأقوم بالسياسة[5] .

ولما أراد عضد الدولة هذا أن يأخذ العراق من يد ابن عمه معز الدولة بعد ما أظهر من عدم الكفاية ، وسمع أبوه حالَ أولاد أخيه من القبض عليهم ، رمى بنفسه عن سريره ، وأقبل يتمرّغ ويَزْبد ، ويمتنع

(١) ابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ٨٢ — ٨٣ .
(٢) المنتظم ص ١٥٩ ب .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٥٣ .
(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٦ .
(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٨ .

من الأكل والشرب أياماً ؛ ومرض من ذلك مرضاً لم يستقلّ منه باقي حياته ؛ وكان يقول : إني أرى أخي معز الدولة متمثلاً إزائي يعضّ على أنامله ، ويقول : « يا أخي هكذا ضمنت لي أن تخلفني في أهلي وولدي ! » ، وقد غضب والد عضد الدولة على ابنه ، وأمره أن يخرج من بغداد ويسلمها لأبناء عمه ، فخرج منها طاعةً لأبيه ، بعد أن كان قد أقام بها ، واتخذ لنفسه بها داراً[1] .

أما عماد الدولة فلم يكن رجلاً يمثل خصال السيد الحاكم ، بل كان أشبه بتاجر مخادع ؛ وكانت له مواهب الأكرة الأذكياء العمليين ؛ فمن ذلك أنه تقلد من الخليفة الراضي أعمالَ فارس على أن يحمل له في كل سنة بعد جميع المؤن والنفقات مائة ألف ألف درهم ؛ فأرسل إليه الوزير ابن مقلة الخِلَع واللواء ، ورسم للرسول ألا يسلم اللواء والخِلَع إلا بعد تسليم المال الذي استقر عليه الاتفاق . فلما قرُب الرسول من البلد تلقاه علي بن بويه على بُعد ، وسار معه وطالبه أن يسلّم إليه اللواء والخِلَع ؛ فعرّفه ما رسمه له الوزير ، فخاشنه عليّ بن بويه ، وأرهبه حتى سلّم الخِلَع ، فلبسها ودخل بها شيراز وبين يديه اللواء ، وأقام الرسول مدةً يطالب بالمال ، فلم يدفع عليّ إليه شيئاً ، حتى اعتلّ الرسول ومات بشيراز[2] .

وأما ركن الدولة فقد كان حليما ، واسع الكرم ، حسن السياسة لرعاياه وجُنده ، رؤوفاً بهم ، بعيد الهمة ، يتحرّج من الظلم ، ويمنع أصحابه منه ، وقد أثنى المؤرخون على عدله وكرمه[3] .

ومن أمثلة ذلك أن إبراهيم السلاّر انهزم من بين يدي عدوّ له ،

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤٤٤ – ٤٤٦ .
(٢) كتاب العيون ص ١٤٧ ا – ب .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٣ .

وورد حضرة ركن الدولة « بدابّته وسوطه » ؛ فأكرمه ركن الدولة ، وبالغ في إعطائه ، وحمل له من كل صنف يكون عند الملوك ؛ وكان المؤرّخ ابن مسكويه حاضراً بالريّ ، فركب للنظر إلى الهدايا المحمولة إلى إبراهيم ، وكانت كثيرة لم يَرَ ابن مسكويه مثلها[1] ؛ وقد اقترح الأستاذ ابن العميد وزير ركن الدولة ، بعد ما رأى سوء تدبير إبراهيم واشتغاله بالنساء واللعب والسكر الدائم ، وبعد أن شاهد طمع الناس فيه ، أن يدبّر ركنُ الدولة الناحيةَ لنفسه ، حتى لا يضيع سَعْيُه في إرجاعها لصاحبها ، ويعوّض إبراهيمَ بشيء آخر حتى يجلس آمناً فارغ البال ، ويشتغل بما يؤثره من صحبة المغنين والمساخر ، « فأبى عليه ركن الدولة وفكّر في شيء يفكر فيه مثله من أصحاب الهمم الكبار وقال : يتحدث الناس أني افتتحت البلاد لرجل لجأ إليّ ؛ ثم طمعتُ فيه ! »[2].
ولقد قاسى ابنُ العميد الكثير في خدمته ؛ وكان ابن العميد وزيراً جيّد التدبير عليما بصناعة الملك وإصلاح ما فسد من أموره ، ولكن ركن الدولة كان مغلوباً على أمره لا يرى النظر في العواقب ، ولا يستمع إلى آراء ابن العميد مع جودتها ، حتى إن ابن مسكويه يذكر ضعف ركن الدولة وفساد الأحوال في حكومته ، ويذكر كفاية ابن العميد وحسن تدبيره ثم يقول : « فما حيلة وزيره ومدبّره ! » ، وكان ركن الدولة مع فضله على أقرانه من الديلم على طريقة الجند المتغلّبين ، ينعم بما يتعجّل له ، ولا يرى النظر في عواقب أمره وعواقب أمور رعيته » ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ، وكان يوسّع عليهم في الإقطاعات ؛ وكانوا يتواعدون من الليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ؛ وربما خرجوا إلى الصحراء ، واجتمعوا على ظهور دوابّهم ، « وثنوا أرجلهم على أعناقها بقدر ما يدبّرون الرأي في وجه الحيلة ،

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٠ – ٢٨١ ؛ و Amedroz : Der Islam, III, 385 .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٢ – ٢٩٣ ؛ و Amedroz : Der Islam, III, 336 .

فإذا تمّ لهم تدبير يومهم فهو عيدُهم ونشاطهم » . وكان ركن الدولة يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد ، فكان لذلك لا يمنعهم من العبث ولا يطلق يدَ حُماة الأطراف في قصدهم ، « ويرضى أن يقال له قُطعت القافلة ، وسِيقَتِ المواشي ، فيقول : لأن هؤلاء أيضاً ، يعني الأكراد ، يحتاجون إلى القوت[1] » .

وكان الأمير معزّ الدولة ، أمير العراق ، حديداً سريع الغضب بذيء اللسان ، يُكثر سَبَّ وزرائه والمحتشمين من حشمه ، وكان يلحق المهلبيَّ من فحشه وشتمه ما لا صبر لأحد عليه ؛ بل كان يضربه بالمقرعة[2] . ولكن معز الدولة كان خوّاراً في أمراضه ، فكان كلما اشتدت عليه العلّة ، وأيقن بالتلف (كان مريضاً بامتناع البول وبرمل في مثانته) بكى وندب على نفسه على عادة الديلم[3] . وكان أيضاً « سريعَ الدمعة » ، وكاد ينهزم في إحدى المواقع ، فبكى بين أيدي غلمانه ، ثم سألهم أن يجتمعوا ، ويحملوا على العدوّ ، وهو في أولهم ، فإما أن يظفر وإما أن يكون أوّل من يُقتل[4] . وكان لا يعرف للخليفة قدرَه ، فقد وثب عليه ، وهو تحت سلطانه ، وثبة الجندي المرتزق الغليظ القلب ؛ ولما مات وزيره أبو محمد المهلبي بعد أن ولي الوزارة له ثلاث عشرة سنة قبض معز الدولة أموالَه وذخائرَه ، وأخذ المالَ من أهله وأصحابه وحواشيه ، حتى مِن ملاّحه ومَنْ خدمه يوماً واحداً ؛ فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه[5] . وبنى لنفسه داراً جديدة في شمال بغداد ، فكان جملة ما خرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ولم يتردد

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٥٤ – ٣٥٧ .
(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٢ – ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٠ – ٢٤١ .
(٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٧ .
(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٥ .

في أن يصادر بسبب ذلك جماعة من أصحابه[1] . وكان لا يأبه كثيراً لحقوق رعيته ، فاضطر إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها ، وأقطع قوّاده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان وغيرها ، وكان يسامح الوزراء المقطعين ، ويقبل منهم الرشى ؛ واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجندُ إقطاعاتهم ، ثم يردُّوها ، ويعتاضوا عنها بما يختارون ، ويتوصلوا إلى حصول الفضل والفوز بالربح . ورقّت أحوال الرعية ، فمن هارب جالٍ ، إلى مظلومٍ صابر ، إلى مستريح لتسليم ضيعته إلى المقطَع ليأمن شرّه وبوائقه ؛ وقلَّ حَفْلُ الناظرين في الأعمال تعويلا على أخذ ما صفا ، وترْك ما كَدُرَ ، والرجوع على السلطان بالمطالبة . وفوّض معز الدولة تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم ، فاتخذوها مسكناً وطُعْمَة ، والتحف عليهم المتصرّفون الخوَنة ، فبطلت العمارةُ ، وخربت البلادُ ، واعتاض العمال عما يذهب من أموالهم بالمصادرة والحيف على الرعية ، وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان[2] . ولكن معز الدولة كان يُعنى بسدّ البثوق في سدود الأنهار ، حتى خرج بنفسه مرة لسد بَثْق بادوريا ، وحمل التراب في طرف قبائه ، ففعل جميع العسكر مثل فعله ، وكذلك خرج إلى النهروانات فسدَّ بَثْقَها ، فعَمِرت هذه الأجزاء بعد خرابها ، وعم الرخاء ، حتى مالت العامة ببغداد إلى أيام معز الدولة وأحبوه[3] .

أما ابنه بَختيار الملقب بعزّ الدولة فقد وُهب قوةً جسدية عظيمة، وكان شجاعاً ، وبلغ من قوته أنه كان يمسك الثور العظيم من قرنيه فلا يتحرك[4] . ولكنه فيما عدا ذلك فشل فشلا يُرثى له ؛ « وكان يحب أن

(1) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٨ ، ومسكويه ج ٦ ص ١٩٣ ، ويقول ابن الجوزي (المنتظم ص ٩٠ ١) إن معز الدولة انفق على البناء إلى ان مات مائة الف الف دينار .

(2) مسكويه ج ٦ ص ١٣٥ — ١٣٨ .

(3) مسكويه ج ٦ ص ٢١٨ — ٢١٩ ب .

(4) ابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ١٩ .

يقضي أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاخ ؛ فإذا وقفت أمورُه قبض على وزيره واستبدل به »[1] . ويقول بعض أصحابه إنه كان من ملذاته دفاترُ عزيزة يضن بها ، وجوارٍ صوانع لا يسمح بهنّ ، وخيلٌ عِرَاب" كان يستأثر بها ويحب أن يشتريها من البادية[2] ؛ وقد اتفق مرة أن أُسِرَ له في موقعة بالأهواز غلامٌ تركي ، فجُنَّ عليه جنوناً ، وتسلّى عن كل شيء خرج عن يده إلا عنه ، « وامتنع عن الطعام والشراب وانقطع إلى النحيب والشهيق والعويل ... وتضجّر بالجيش ، وتبرّم بحضورهم ، واطّرح التدبير ... ثم إذا وصل إليه وزيره وقوّاده وكتّابه وخواصّه في المهمّ قطعهم عن ذلك بالشكوى بما حلّ به والبَوح بما في نفسه ، وتقضّت أوقاته ومجالسه بهذا الخطب الجليل عنده ... فخف ميزانه عند الناس وسَقط من عيونهم »[3] .

وكان عضد الدولة (المتوفي عام ٣٧٢ هـ ـــ ٩٨٢ م) ، دون سائر أعضاء أسرته ، هو الذي يمثل السيدَ الحاكم تمثيلاً حقيقياً ؛ وقد خضعت لسلطانه ، في آخر أمره ، البلادُ الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان وعمان ؛ فلا بدع أن يُلقّب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام[4] ، بعد أن كان هذا اللقب يُشْعِر من قبل بالتجرؤ على مقام الألوهية؛ وقد ظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بني بُوَيْه[5]، فكان أيضاً إحياء لرسوم الشرق القديمة .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٩ .
(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٤١٩ .
(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٥٩ ـ ٤٧٠ .
(٤) المنتظم ص ١١٩ ب .
(٥) كتاب الوزراء ص ٣٨٨ ؛ وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (وهو معجم الأدباء) لياقوت طبعة مرجليوث ج ٢ ص ١٢٠ .

كان عضد الدولة يحمل طابعَ أهل الشمال ، فكان أزرق العينين ، أشقر ، أصهب الشعر[1] . وكان الوزير ابن بقيَّة يسميه أبا بكر الغُدَدي تشبيهاً له برجل أشقر أزرق أنمش يسمى أبا بكر كان يبيع الغدد برسم السنانير ببغداد[2] . وكان عضد الدولة رجلا قاسياً ، وقد بلغه عن الوزير ابن بقية أمورٌ ساءته ، فطلب من بختيار بن معز الدولة أن يسلِّمه إليه ، فسلمه إليه مسمولا ؛ فطرحه عضدُ الدولة إلى الفِيَلة ، وأضْرِيَتْ عليه ، فقتلته شر قتلة؛ وهذه العقوبة هي الأولى من نوعها في الإسلام[3] . وقد بلغ من هيبته وخوف عماله منه أن الوزير المطهَّر بن عبد الله خرج من مدينة السلام لطلب أحد الخارجين على عضد الدولة ، فالتاث على المطهَّر الأمرُ وخاف تغيُّر عضد الدولة عليه ، فقتل نفسه[4] ؛ ولكن عضد الدولة كان أيضاً قاسياً على نفسه ، فيُحكى أن جارية كانت له شَغَلَتْ قَلْبَهُ بميله إليها عن تدبير المملكة ، فأمر بتغريقها[5] . وكان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة وصولها ، شأن كل من يريد أن يحكم دولة

---

(١) الارشاد ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة أوربا ١٨٣٩ ، ترجمة ابن بقية رقم ٧٢٠ ، نقلا عن عيون السير للهمداني .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ و ٤٨١ .

(٤) نفس المصدر ص ٥١١ ــ ٥١٤ : على أنه قد نُسب إلى عضد الدولة أشياء كثيرة من الظلم لم يفعلها حقيقة ؛ فيحكي ابن تغري بردي (طبعة كليفورنيا ص ١٥ ــ ١٦) أنه خطب الأميرة جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان ، فامتنعت عليه ، فاغتاظ من ذلك ؛ وحين وقعت في يده استولى على أموالها ، ولم يدع لها شيئاً إلى أن احتاجت وافتقرت . وفي رواية أحدث عهداً أنه ما زال يعسف بها في المطالبة حتى عرّاها وهتكها ، ثم ألزمها إما أن تصحّح ما عليها من المال ، وإما أن تختلف إلى دار القحاب ، فتكسب فيها ما تؤديه من المال المفروض عليها ؛ ولما ضاق بها الأمر ، وأشرفت على الفضيحة انتهزت غفلة الموكلين بها وغرّقت نفسها في نهر دجلة (مطالع البدور للغزولي ، طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج ٢ ص ٤٨) . والحقيقة أن جميلة فرت مع أخيها أبي تغلب عدو عضد الدولة ؛ فلما مات اعتقلها عضد الدولة في بعض الحجر في داره مع جواريه ونسائه (مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧) .

(٥) المنتظم ص ١٢٠ ا .

كبيرة حكما صحيحاً ؛ فكان يسأل عن الأخبار الواردة ، فإن تأخرت عن وقتها قامت قيامته ، وسأل عن سبب التعويق ؛ فإن كان من غير عذر أنزل البلايا على أصحاب الأخبار ؛ وكانت الأخبار تصل من شيراز إلى بغداد في سبعة أيام ؛ أي أنها تقطع كل يوم ما يزيد على مائة وخمسين كيلو متراً[١] .

وقد أحكم نظام الجاسوسية ؛ « وكان يبحث عن أشراف الملوك ؛ وينقب عن سرائرهم ؛ وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر رقي إليه ذلك ؛ حتى إن رجلا بمصر ذكره بكلمة ، فاحتال حتى جاء به ووبّخه عليها ، ثم ردّه ؛ فكان الناس يحترزون في كلامهم وأفعالهم من نسائهم وغلمانهم » . وقد طهّر السبل من اللصوص ، ومحا أثر العابثين الذين كانوا يقطعون الطريق ؛ ويحكى أنه دسّ على اللصوص في إحدى القوافل بغلا يحمل حلوى شِيبَتْ بالسمّ ، فأكلوا منها فهلكوا ؛ وكانت هذه مكيدة عجيبة[٣] . وأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب وإلى صحراء كرمان ، وكانت أشهر بمخاوفها ، حتى رُفعت الجباية عن قوافل الحج ، وزال ما كان يجري عليها من القبائح وضروب العسف ؛ وأقام للحجاج السواقي في الطريق واحتفر لهم الآبار ، واستفاض الينابيع وأدار السور على مدينة الرسول[٤] ؛ وأمر بعمارة بغداد وأسواقها ، وكانت مختلّة قد أُحرق بعضها ، وخرب البعض ؛ وابتدأ بالمساجد الجامعة ، وكانت في نهاية الخراب ،وهدم ما كان مستهدما من بنيانها ، وأعاد بناءها ، وألزم أرباب العقارات بالعمارة ، فمن قصرت يَدُه عن ذلك اقترض من

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر ص ١١٩ ب - ١٢٠ ا .
(٣) كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٣٨ الباب الحادي عشر نقلا عن تاريخ الهمداني .
(٤) المنتظم ص ١١٩ ا - ب .

بيت المال ؛ وأمر من كانت له دار على الشط من الأولياء والحاشية أن يجتهد في عمارتها وتحسينها . وكان الناس قد استطابوا هدم المنازل وبيع أنقاضها ، فأبطل هذه السنة وأعاد عمارة بستان عرصة دار العباس ابن الحسين وغيره ، فامتلأت الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة ، « بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والأقذار » ؛ وجلبت إليها الغروس من فارس وسائر البلاد ؛ وكانت الأنهار ببغداد قد دُفنت مجاريها وعَفَت رسومها ، ونشأ جيل من الناس لا يعرفها ؛ فأمر بحفر عمداتها ورواضعها ؛ وقد كانت على الأنهار قناطر قد تهدّمت وأُهمل أمرها ، « فلم تكن تخلو من أن يجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسمطون ، فبُنيت كلها جديدة وثيقة ، وعُملت عملا محكما ؛ وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد ، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عيه ؛ فاختيرت له السفن الكبار المتقنة ، وعُرّض حتى صار كالشوارع الفسيحة وحُصّن بالدرابزينات ... وأعيد كثير من قناطر أفواه الأنهار »[1] ؛ وحول من البادية قوما فأسكنهم فارس وكرمان فزرعوا وعمروا البرية[2] . ومع هذا فلم تكن العراق مركز الدولة ، بل كان مركز الدولة في فارس حيث كان يقيم قاضي القضاة أيضاً ، ويستخلف له أربعة خلفاء على أرباع بغداد[3] . وكان عضد الدولة كثير الغضّ من أهل بغداد والازدراء لهم ، حتى قال : ما وقعت عيني في هذا البلد على أحد يستحق اسم الفضل أو أن يسمى برجل غير نفسين ؛ فلما تأملت

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ - ٥١٠ .

(٢) المنتظم ص ١١٩ ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٢ .

وجدتهما ليسا من أهل بغداد ، وأصلهما من الكوفة[1] ؛ وعمل سوقا للبزازين ، وقف عليه وقوفا كثيرة[2] . وكان ينقل إلى بلاده ما لا يوجد بها من الأصناف ؛ فمما نقله إلى كرمان حب النيل[3] ؛ وبنى بشيراز داراً عظيمة تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة[4] ، ووسّع الدار الكبيرة التي كانت للقائد سبكتكين ببغداد ، والتي تركها بعد وفاته ، وأجرى إلى بستانه الماء في مجرى عالٍ يخترق الصحراء والأرباض ؛ واستخدم الفيلة في نقض هذه الدور ، ورَمْي حيطانها ، وفي دَكّ الأرض ، وكان أول من استعمل الفيول في القتال[5] ؛ وكان عازما على القيام بمشروعات بناء غير ما تقدم فمات قبـل ذلك[6] . وكانت عادته أن يبـاكر دخول الحمام ، فإذا خرج وصلى الفجر دخل إليه خواصّه ، فإذا ترجل النهـار سأل عن الأخبار الواردة ؛ ثم يتغدّى ، والطبيب قائم ، وهو يسأله عن منافع الأطعمة ومضارّها . ثم ينام إلى الظهر ، فإذا انتبه صلى الظهر وخرج إلى مجلس النّدماء والراحة وسماع الغناء إلى أن يمضي من الليل صدر ثم يأوي إلى فراشه[7] . وكان قد تعلّم على أحسن المعلمين ، وكان يفتخر بمعلميه[8] ؛ وكان يحب العلم والعلماء ، ويجري الجرايات على الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحسّاب والمهندسين[9] . وسنتكلم عن مكتبته وتربيتهـا وإعدادها في غير هذا المكان ، (انظر الفصل الخاص بالعلماء) . على أن

---

(١) ملحق اخبار القضاة طبعة (Guest) ، ليدن ١٩١٢ ص ٥٧٤ .
(٢) المنتظم ص ١١٩ ب .
(٣) نفس المصدر ، ومسكويه ص ٥٠٨ .
(٤) المقدسي ٤٤٩ .
(٥) مسكويه ص ٥٠٨ .
(٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة سلمون (Salmon) ص ٥٦ وما يليها .
(٧) المنتظم ص ١٢٠ ا .
(٨) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي طبعة ليبزج سنة ١٣٢٠هـ-١٩٠٣م ص ٢٢٦ .
(٩) المنتظم ص ١٢ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .

عضد الدولة كان يتشاغل بالعلم ويتفرّغ للأدب في أيام دولته ؛ وقد وُجد له في تذكرة : إذا فرغنا من حل إقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ؛ وإذا فرغنا من كتاب أبي علي النحوي تصدقت بخمسين ألف درهم ؛ وكان يحب الشعر ويعطي الشعراء ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء[1] ؛ وكان يقول الشعر وينشده ، ويحكم على معانيه بعد التقدير له[2] . وقد ذكر له الثعالبي شعراً عربيا ينسب إليه،وهو لا يعدو أن يكون كلاماً موزوناً رديئاً[3] . ولكن هذا كله لم يمنع عضد الدولة من إساءة معاملة الصابي ، مع أنه كان سيد الكتّاب في ذلك العصر . وقد أفرد عضد الدولة في داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة موضعاً يقترب من مجلسه ، فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة . وأمر بإدرار الأرزاق على قُوّام المساجد والمؤذنين والأئمة والقرّاء فيها ، وإقامة الجرايات لمن يأوى إليها من الغرباء والضعفاء[4] . وبنى مارستاناً كبيراً ببغداد . وقد وُجد في تذكرة له : وكل ابن يولد لنا كما نحب نتصدق بعشرة آلاف درهم ، فإن كان من فلانة فبخمسين ألف درهم ؛ وكل بنت فبخمسة آلاف ، فإن كان منها فبثلاثين ألفا[5] ؛ وتجاوزت صدقاته أهل الملّة إلى أهل الذمّة ، فأذن للوزير نصر بن هارون في عمارة البيَع والديرة ، وإطلاق الأموال لفقراء أهل الذمّة[6] .

---

(١) يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر للثعالبي طبعة دمشق ج ٢ ص ٢ ، والمنتظم ص ١٢١ أ .

(٢) الارشاد ج ٨ ص ٢٨٦ وكتاب الاذكياء لابن الجوزي ص ٣٨ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣ وما بعدها .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ، ٥١٠ – ٥١١ .

(٥) المنتظم ص ١٢٠ أ .

(٦) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ ، وابن الاثير ج ٨ ص ٥١٨ .

غير أن عضد الدولة لم يكن أباً لرعيته ، بل ظل الحاكم الأجنبي عنهم ؛ وهو كالراعي الذي يحسن العناية بغنمه لينتفع منها بأكبر نصيب ؛ وفي آخر أيامه أحدث رسوماً جائرة ، وزاد الرسوم القديمة ؛ وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق[1] . وفي آخر عمره كان دخله في السنة ثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم ، فأراد أن يبلغ به ثلاثمائة وستين ألف ألف ، ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، « وكان مع صدقاته وإيصاله ينظر في الدينار ويناقش في القيراط[2] » .

والحكم الأخير الذي انتهى إليه مسكويه في كلامه عن عضدالدولة أنه قال : « فلولا خِلالٌ كانت في عضد الدولة يسيرة ، لا أستحسن ذكرها ، مع كثرة فضائله لبلغ من الدنيا مناه ورجوتُ له من الآخرة رضاه ، والله ينفعه بما قدَّمه من العمل الصالح ، ويغفر له ما وراء ذلك »[3] .

وتتجلى مواهب عضد الدولة السياسية في اختياره لولاته : فقد ولّى على الجبل وهمذان والدينور ونهاوند وأسد آباد وغيرها بدرَ بن حسنويه الكردي (المتوفي عام ٤٠٥هـ — ١٠١٤م) ؛ وقد قامت هيبته بالشجاعة والعدل والسياسة وكثرة الصدقة...وكانت جراياته وصدقاته متصلة على الفقهاء والأشراف والقضاة والشهود والأيتام والضعفاء ؛ وكان يصرف كل سنة ألف دينار إلى عشرين رجلا يحجون عن والدته وعن عضد الدولة . وكان يتصدق كل جمعة بعشرة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل ، ويصرف كل سنة ثلاثة آلاف دينار إلى الأساكفة والحذائين بين همذان وبغداد ليقيموا المنقطعين من الحاج بالأحذية . وكان يصرف

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .

(٢) المنتظم ص ١٢٠ ب .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ ، وهذا المؤرخ كان ممن عرف عضد الدولة وخدمه بنفسه .

إلى تكفين الموتى كل شهر عشرين ألف درهم؛ وعمَّر القناطر؛ واستحدث في أعماله ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء ؛ ولم يمرَّ بماء جارٍ إلا بنى عنده قرية ؛ وكان ينفذ كل سنة في الصدقات على أهل الحرمين وحفظ الطرق ومصالحها مائة ألف دينار ؛ وكان ينفق على عمارة المصانع وتنقية الآبار وجمع العلوفة في الطريق ، ويعطي سكان المنازل رسوماً لقيامهم ، وعمل إلى الحرمين والكوفة وبغداد ما يُفرق على الأشراف والفقهاء والقراء والفقراء وأهل البيوتات[1] .

وقد تَخَرَّج على يدي عضد الدولة القائدُ أمير الجيوش (المتوفي عام ٤٠١هـ ـ ١٠١٠م) ، وهو الذي ولاّه بهاء الدولة تدبير العراق لإعادة النظام إليها ، فقدم بغداد عام ٣٩٢هـ ـ ١٠٠٢م ، والفتن قائمة ؛ فقتل وصلب وغرّق ، حتى بلغ من هيبته أنه أعطى غلاماً له صينية فضة فيها دنانير ؛ وأمره أن يأخذها على رأسه ويسير من أول بغداد إلى آخرها علّ أحداً يعترضه ، فعاد وقد انتصف الليل دون أن يعترضه أحد[2] .

ولم يُخرج بيت بني بويه بعد عضد الدولة جيلاً يصلح للحكم ؛ واضمحلّت في أواخر الأمر مواردهم المالية ، واختلت المملكة أيام جلال الدولة ، وقُطعت عنه المادة حتى أخرج ثيابه وآلاته وباعها في الأسواق ، وخلت داره من حاجب وفراش وبواب ، وصار أكثر الأبواب مغلقاً ، وانقطع ضَرْبُ الطبل له في أكثر الأيام لانقطاع الطبّالين[3] .

---

(١) المنتظم ص ١٦١ ب .

(٢) المنتظم ص ١٥٦ ب وابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ١١١ .

(٣) المنتظم ص ١٨٤ ب .

وأما أمراء الترك فيمثلهم بجكم والإخشيد ، وكل منهما جندي ماهر وحاكم قدير ، وإن كان مظهرهما الخارجي لم يكن بشيء •

أما بجكم ففيه خصال قائد الجند المرتزقة كلها،فقد انتقل من خدمة ماكان الديلمي إلى خدمة مرداويج ؛ وبعد قتل مرداويج ــ ويقال إنه كانت لبجكم يد" في قتله ــ ذهب مع مئات قليلة من الترك والفرس إلى ابن رائق ؛ وظل غلمان مرداويج تحت إمرة بجكم[1] ، ولم يكن عددهم عظيما ؛ فيقول مسكويه إنهم كانوا ثلاثمائة غلام استأمنوا إليه[2] ؛ ثم تقدم ابن رائق إلى بجكم بأن يكاتب كل من بالجبل من الأتراك والديلم بالمصير إليه ، فكاتبهم وصار إليه عدة" وافرة منهم[3] ثم استقل" بجكم بدوره السياسي الخاص ؛ فأزال اسـم ابن رائق عـن أعلامه ، وترك الانتساب إليه[4] ، وحاربه حتى أخرجه من بغداد ، وصار هو أميراً على العراق ؛ وكان معه في ذلك الوقت سبعمائة من الترك وخمسمائة من العجم[5] • وكان الخليفة الراضي يحب بجكم أكثر من حبه لابن رائق ، وقد خلع عليه خِلَع المنادمة ، وجعله أمير الأمراء[6] • وبعد موت الراضي طمع بجكم في جماعة من ندمائه ، وظن أنه ينتفع مع عجمته بآدابهم ؛ فلما نظر لم يجد منهم من يفهِّمه ما ينتفع به إلا الطبيب سنان بن ثابت ، فوصله وأكرمه ، وطلب منه أن يداويه من غلبة الغضب والغيظ وإذا

(١) كتاب العيون ص ١٤٨ ا ــ ب .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٧ ، وفي كتاب العيون ص ١٥٥ ب أنهم كانوا مائتين وتسعين غلاما .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٥٠٨ ، وكتاب العيون ص ١٤٨ ا ــ ب .

(٤) كتاب العيون ص ١٦٣ ا .

(٥) كتاب العيون ص ١٦٤ ا .

(٦) الأوراق للصولي ص ٥٣ ــ ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١٦٧ ا .

عرف له عيباً ألا يحتشم من ذكره له،ثم يرشده إلى علاجه ليزول عنه[1].

وكان بجكم ذا شجاعة نادرة ، فقد لقي عشرة آلاف من عسكر البريدي بأتمّ عدة وأكمل سلاح ، ولم يكن معه إلا مائتان وتسعون من الأتراك ، فهزم عسكر البريدي ؛ وفي إحدى المواقع طرح بجكم نفسه مع جماعة من الأتراك في ديالي ، وسبحوا وعبروا إلى الأرض التي عليها العدو ، وذلك أمام عينه ؛ وعبر الديلم في الطيارات وبعضهم عبر سباحة؛ وقاتل العدو ، وهو يظن أنه منه في أمان ، حتى هـُزموا وانصرفوا بين يديه[2] ؛ وخرج ابن رائق من بغداد ، ولم يـَتـَكـَشـَّف بجكم منه ، فلما كان مع الراضي في سُرَّ من رأى ، وورد الخبر بخروج ابن رائق إلى باب الأنبار استأذن بجكم الخليفة في أن يعبر من سُر من رأى إلى هيت مجتازاً الصحراء ليأخذ على ابن رائق الطريق فلا يفوته ، فلم يأذن له الراضي وقال : هذا لا يصح ، لأنه رجل قد أمّنتـُه ، وإذا فعلنا ذلك بعد الأمان كان قبيحاً[3] . وقد غلب بجكم هذا سيفَ الدولة صاحب الانتصارات المشهورة على الروم كلما نزل سيف الدولة لمحاربته .

ولما جاء بجكم إلى بغداد حمل معه كثيراً من ضروب الغلظة التي اقترنت بحياته الجندية ؛ وعندما دخل واسط طالب أهلها بالمال واشتدّ في تعذيبهم حتى كان يضع على بطن الرجل منهم طستاً فيه جمر ؛ فنبـّهه البعض إلى أنه يفعل ما كان يفعل مرداويج بأهل الجبل ، وذكـّره بأنه في بغداد ودار الخلافة لا الريّ وأصبهان ، ولا تحتمل بغداد هذه

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٦ والصفحات التالية .

(٢) كتاب العيون ص ١٥٥ ا ـ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٦ ا .

الأخلاق[1] . وقد أبغض أهلُ بغداد بجكم لقبح سيرته ، فلما ظهر ابن رائق سُرُّوا به ، وأظهروا ما في أنفسهم من بغض بجكم ، فكان العيّارون والصبيان يهزأون ببجكم ورجاله ويقولون : بجكم حلقوا نصف سباله ؛ فإذا رأوا تركيا عليه قلنسوة صاحوا به : قلنسوةُ طيري! ليس أميرنا بجكم[2] .

على أن بجكم كان أميراً محبا لعمارة البلاد ، حتى إنه رأى قصور الأكاسرة الخربة في المدائن،فعمّر مواضع كبيرة في تلك الناحية وأنشأها، وأجرى إليها الأنهار ، وغرس بها غروساً[3] . وكان يدفن أمواله في الصحراء ويأخذ معه رجالا ليعاونوه ، فيطبق عليهم الصناديق ، ويحملهم على بغال إلى جوف الصحراء ؛ وبعد أن يدفن المال يطبق عليهم الصناديق ويعود بهم فلا يدرون إلى أين ذهبوا من أرض الله ولا من أين جاءوا . وكان هو يتخذ لنفسه علامات يهتدي بها[4] . وأصل هذا التصرف راجع إلى بساطة بجكم وتخبُّطه فيما يجهله من الأمور غير العسكرية .

أما محمد بن طغج فأصله من أولاد ملوك فرغانة ، وكان جده قد جاء من التركستان في عهد الخليفة المعتصم ؛ وكان هذا الخليفة أول من جلب الكثير من الجنود الأتراك واستخدمهم ؛ أما أبوه فقد ارتقى حتى صار واليا على دمشق ، ولكنه عُزل وسُجن هو وابنه محمد ، فذاق هذا الأخير من الحياة حلوها ومرّها ؛ وخدم ابنُ طغج قواداً كثيرين ، حتى إنه كان مرّة بازياراً لعامل الشام يخرج معه للصيد ويحمل معه الجوارح ؛

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٥٧٠ ؛ وانظر اواخر الفصل الخاص بالمالية فيما يأتي .

(٢) كتاب العيون ص ١٧٥ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٠ ا .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣٩ — ٤١ ؛ وانظر أيضاً الفصل الخاص بالمالية فيما يأتي .

وقد أتيحت له فرصة لإظهار شجاعته عند حاكم مصر مما رفعه إلى منصب والي مصر ، ثم صار أميرها المستقل ، وامتد حكمه أخيراً على بلاد تساوي في المساحة أكبر رقعة حكمها ملوك الفراعنة ، فكانت له مصر والشام واليمن ومكة والمدينة وغيرها[1] ، فلا عجب إذاً أن نرى الخليفة المستكفي يكتب إلى الإخشيد ويعرض عليه إمارة بغداد بعد موت توزون ، ويضمن له القيام بالأمر ، فلا ينشط لذلك ، وكان الإخشيد أزرق بطيناً[2] ، وكان شديد القوة لا يقدر على أن يجرّ قوسَه غيرُه ، ولكنه كان قد ثار به طرف من سوداء مرّة ، فكان يعتاده فيخلط[3] ، وقد حَسُنَ حالُ مصر على يديه ، وعني بالنظام فيها ، وأمر بضرب الدينار الإخشيدي على عيار كامل ، وصلحت النقود في عهده بعد فسادها[4] . وكان جيشه أعظم جيوش عصره ، فلما استدعاه المتقي في عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، واقترب من الرقّة والرافقة أشرف أهلهما على السواحل والأسوار ونظروا من عظم العسكر وحسن عدّته ما لم يشاهدوا مثله[5] .

وقد التقت في الإخشيد خصلتان : السذاجة وحب التملك ، فكان اجتماعهما طريفاً ، وقد بدأ بمصادرة جميع العمال الأغنياء ، أصدقاءً كانوا أم أعداءً ، وأخذ أموالهم في هدوء من جانبه وبرود ، وكثير منهم كان يستحق هذا . وقد اشتهرت عنه محبته للعنبر ، فكان أكثر ما يُهدى إليه ، وكان إذا جاءت الأوقات التي يُهدى اليه فيها أخرج من خزائنه العنبر وباعه إلى التجار ، فيشتريه الذين يهدونه إليه ، فيحصل

---

(١) انظر ترجمة محمد بن طفج في كتاب وفيات الاعيان ج ٣ ص ٦٤ — ٥٥ ، وكتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد طبعة ليدن ١٨٩٨ من ص ٤ إلى ص ٢٠ .

(٢) كتاب المغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

(٤) كتاب العيون ص ٢٠٩ ب .

(٥) نفس المصدر ص ٢١٣ ب .

له الثمنُ الوافر ، ثم يعود العنبر إليه[1] . وتحكى عنه حكايات تدل على أنه كان لا يأنف أن يأخذ ما يعجبه إذا وجده عند أحد من أصحابه[2] .

ولكن كان الغالب على الإخشيد الحياء ورقّة الوجه ، وكان إذا صادر أحداً لم يعذّبه ولم يضربه ، ولم يضيّق عليه ، ولم يَرَه حتى تنتهي المصادرة ، وكان رسمه ألا يتعرّض للحُرَم[3] ، وكان يحب الصالحين ويكرمهم ويركب إليهم ويطلب دعاءهم . يقول ابن سعيد[4] : « وحدثني مسلم بن عبد الله الحسيني قال : وصفت للأخشيد رجلاً صالحا بالقرافة يعرف بابن المسيَّب ، فركب معي إليه ، وسأله الدعاء ، ثم انصرف . فقال لي : تعالَ أُريك أنا أيضاً رجلاً صالحا ؛ فمضيت معه إلى أبي سليمان بن يونس ، فرأيت شيخاً أديباً جالساً على حصر سامان مُبَطَّن ، فقام فتلقّى الإخشيد وأقعده على الحصير ؛ ثم قال له يا أبا سهل : اقرأ عليَّ ! فإن الريح آذتني الساعة في الصحراء ؛ فأدخل يده تحت الحصير فأخرج منه منديلا نظيفاً مطويا فغطاه على يده وقرأ عليه » . وكان الإخشيد يحب قراءة القرآن ويبكي عند سماعها[5] .

وقد وقع له مرةً أمرٌ عجيب ؛ وذلك أن رجلا من أهل العراق صعد فوق زمزم بمكة وصاح : معاشر الناس ! أنا رجل غريب ، ورأيت

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٥ – ٣٦ .
(٢) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات .
(٣) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ٣٧ .
(٤) المغرب ص ٣٤ – ٣٥ ، ص ٣٩ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٧ .

البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لي : سِرْ إلى مصر ، والْقَ محمد بن طغج ، وقل له عنّي يطلق محمد بن علي المادراي ، فقد أضرّ بولدي . ثم سارت القافلة إلى مصر ، وسار الرجل ووصل إلى مصر وبلغ الإخشيدَ خَبَرُه ، فأحضره ، وقال إيش رأيت ؟ فأخبره ، فقال : كم أنفقت في مسيرك إلى مصر ؟ قال : مائة دينار ، فقال : هذه مائة دينار من عندي ، وعُدْ إلى مكة ، ونَمْ في الموضع الذي رَأيتَ فيه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رأيتَهُ فقل لرسول الله : قد بلّغتُ رسالتك إلى محمد بن طغج ، فقال : بقي لي عنده كذا وكذا ، وذكر شيئاً كثيراً ، فإذا دفعه إليّ أطلقته ؛ فقال له الرجل : ليس في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هَزْلٌ ، وأنا أخرج إلى المدينة ، وأنفق من مالي وأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأقف بين يديه يقظان بغير منام ، وأقول : يا رسول الله أدّيتُ رسالتك إلى محمد بن طغج ، فقال لي كذا وكذا ، وقام الرجل ؛ فأمسكه ، وقال : حصلنا في الجد ؛ إنما ظَنَنّا بك ظناً ، والآن فما تَبْرَحُ حتى أطلقه ، فأرسل إليه الإخشيد من توسّط في أمره وأطلقه[1] .

وفي سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ورد الخبر من دمياط إلى مصر بأن رجلا أقطع اليد قديماً ، ممن قد أُخذ مع قوم اتهموا بقطع الطريق ، غاب عن البلد زمانا ثم عاد ويده صحيحة . وقد ادّعى أنها كانت مقطوعة وأنها كانت عند أهله ؛ وقال إنه كان في مسجد يتعبّد فيه وأن يده عادت صحيحة ؛ فافتتن الناس به وكثر القول فيه ؛ فوجّه الإخشيد من أحضره إلى داره ، وسأله عن قصّته فقال : رأيت في النوم كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إليّ منه ثلاثة أنفس : النبي وجبريل وعليٌّ عليهم

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٥ .

السلام ؛ فسألتُ النبيَّ رَدَّ يدي ، فَرَدَّها إليّ ، وانتبهتُ ، وقد عادت . وورد من دمياط كتاب بأن جماعة من المستورين رأوه مقطوع اليد ، فأوصله الإخشيد إليه وأكبره ، واستعظم قدرة الله تعالى فيه ، ثم قيل إن هذا الرجل دلّس وكذب ، وزالت الفتنة والله أعلم[1] .

*

(١) كتاب العيون ص ٢٠٩ ب ـ ٢١٠ ا .

الفصل الرابع

اليهود والنصارى

إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى وجودُ عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ، وأولئك هم « أهل الذمّة » الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلا بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية . وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة ، واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما مُنحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين ؛ وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل « دار الإسلام » دائماً غير تامة التكوين ، حتى إن المسلمين ظلوا دائماً يشعرون أنهم أجانب منتصرون لا أهل وطن ، وحتى إن الفكرة الإقطاعية لم تمت ؛ بل كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مبادىء التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون . وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعاً من التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى ؛ ومظهر هذا التسامح نشوءُ علم مقارنة الأديان ، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والإقبالُ على هذا العلم بشغف عظيم .

وكان تغيير الدين لا يجوز إلا إذا كان دخولاً في الإسلام ؛ فكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وكان المسلم إذا ارتد عن الإسلام عوقب بالقتل ، كما أن قانون الدولة البوزنطية كان يقضي بقتل المسيحي إذا غيَّر دينه[1] .

---

(1) ولا بد أن يكون قد سبق هذا التشريع محاولات إلى الارتداد عن الاسلام ، وقد حدث في اوائل عهد الفاطميين انه : « رفع إلى محمد بن النعمان القاضي (٣٤٥ هـ — ٣٨٩ هـ) أن نصرانيا اسلم ، ثم ارتد ، وقد جاوز الثمانين ، فاستتيب فأبى ، فانهي أمره إلى العزيز ، فسلمه لوالي الشرطة ، وارسل إلى القاضي ان يرسل اربعة من الشهود ليستتيبوه ، فإن تاب ضمن له عنه مائة دينار ، وإن أصر فليقتل ؛ فعرض عليه الاسلام فأبى ، فقتل ، ثم أمر بتغريقه في النيل » (ملحق اخبار القضاة للكندي طبعة Guest ، ليدن ١٩١٢ ص ٥٩٣) ؛ وقد حدث في بلدة سروج بالعراق في القرن الثالث الهجري أن رجلا من المتشددين في الاسلام عذب نصارى ارتدوا بعد إسلامهم بصروف العذاب ليعيدهم إلى الاسلام ، فأمر به القاضي فضرب وسجن (Michael Syrus, S. 535) ، ويقول ابو العلاء المعري (المتوفي عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) :

وقد اسلم الرجلُ النصران مرتغبا ... وليس ذلك من حب لاسلام
أو شاء تزويج مثل الظبي معلمةٍ ... للناظرين بأسوار وعلاّم

(اللزوميات طبعة بمباي ص ٢٥٠) .

ومن كبار رجال الدين المسيحيين من دخل الاسلام، فصبّ عليه مؤرخو الكنيسة لعنتهم؛ ففي أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) اتهم رئيس الاساقفة النسطوريين بمدينة مرو باللواط اتهاما علنيا ، فاعتنق الاسلام ؛ وكان يحط من شأن المسيحيين لدى البلاط (Barhebraeus, Chron. Eccles. III. 171 ff.) ؛ وحوالي عام ٣٦٠ هـ — ٩٨٠ م اعتنق اسقف اذربيجان الاسلام بعد ان قبض عليه يزني بامرأة مسلمة (نفس المصدر ص ٢٤٧) ، وفي سنة ٤٠٧ هـ — ١٠١٦ م هدد رئيس اساقفة مدينة تكريت بالخلع بسبب ارتكابه للزنا ، فدخل الاسلام وتسمى بأبي مسلم ، وتزوج كثيراً من النساء ؛ ويحكي المؤرخون المسيحيون مسرورين انه لم ينل من التشريف عند الخلفاء ما كان يناله وهو رئيس لابناء دينه ، وانه في آخر حياته كان يعيش من التكفف (Elias Nisibenus. S. 226, Barhebr. Chron. Eccles III, 287 ff.) ؛ وكذلك في الاندلس خلع أحد الأساقفة الكبار ، وهو صموئيل اسقف مدينة البيرا Elvira لسوء سيرته ، فاعتنق الاسلام (Graf Baudissin, Eulogius Und alvar, 1872, S. 162) . ولقد تمثل ابو العيناء بمثل فريد في بابه في القرن الثالث الهجري ، وذلك انه استأذن يوماً على الوزير صاعد بن مخلد ، فقال له الحاجب : الوزير مشغول ، فانتظر ؛ فلما أبطأ إذنه قال للحاجب : ما صنع الوزير ؟ قال : يصلي ، قال : صدقت ، لكل جديدة لذة ؛ يعيِّره بأنه حديث عهد بالاسلام (مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٢٢ — ١٢٣) .

ولم يكن ثَمّ تزاوجٌ بين المسلمين وغير المسلمين ، وذلك لأن القانون المسيحي لم يكن يجيز للمرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصراني ، لئلا تنتقل هي وأولادها إلى غير المذهب ، ولا كان يجوز للنصراني بحسب قانون الكنيسة أن يتزوج بغير نصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النصرانية[١] .

أما زواج المسيحي من مسلمة فكان مستحيلا . على أنه كان في الدولة الإسلامية ما يضمن لكل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانَها الخاص ، فكان لا يجوز للمسيحي أن يتهوّد ، ولا لليهودي أن يتنصر ؛ ولا يكون تغيير الدين إلا إذا كان ذلك دخولاً في الإسلام ؛ ولم يكن النصرانيُّ يرث اليهوديَّ ولا العكس ، كما لم يكن اليهوديُّ أو النصرانيُّ يــرث المسلم ولا المسلمُ غَــير المسلم يهودياً كان أو نصرانياً[٢] . وقد أصدر الخليفة المقتدر في سنة ٣١١ هـ ـــ ٩٢٣ م كتاباً في المواريث أمر فيه بأن « تَرَدَّ تركة من مات من أهل الذمة ، ولم يخلف وارثاً ، على أهل ملّته » ، على حين أن تركة المسلم كانت ترَدّ إلى بيت المال[٣] .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري صدر منشور كُتب

---

(١) Sachau :Syriche Rechtsbücher, II, S. 75, 170, 192.

(٢) كتاب الخراج وصنعة الكتاب لقدامة بن جعفر ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ بالمكتبة الأهلية بباريس ص ١٣ ب ، حيث ورد في عهد لقاضٍ بولاية الحكم الا يورّث أهلَ ملتين .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٤٨ ؛ (ويظهر أن الحال كانت قبل عهد المقتدر فيما يتعلق بالمسلمين أن تؤخذ تركة من لا وارث له إلى بيت المال ، وكذلك ما يفضل عن السهام المفروضة في القرآن ، إن لم يكن المتوفي عصبة تحوز باقي ميراثه ؛ وكان لذلك عمال يسمون عمال المواريث ، وقد اشتطوا حتى شكى منهم الناس . والمفهوم من نص كتاب المقتدر أنه أمر بصرف عمال المواريث في سائر النواحي ، وأمر برد ما يفضل من السهام المفروضة على أصحاب السهام من القربة وبجعل تركة من يتوفى ، ولا عصبة له ، لذوي رحمه ، إن لم يكن له وارث سواهم ؛ وهذا رأي عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم . على أن الكتاب لم يتعرض لتركة المسلم الذي يموت ولا يكون له وارث ولا رحم ــ المترجم) .

للصابئين عن أمير المؤمنين ، أمَرَ فيه ، إلى جانب صيانتهم وحراستهم والذبّ عن حريمهم ورفع الظلم عنهم ونحو ذلك ، بالتخلية بينهم وبين مواريثهم ، وترك مداخلتهم ومشاركتهم فيها ، لأن أمير المؤمنين يرى في مواريث الصابئين وغيرهم من المخالفين رَأْيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول في الأثر الثابت عنه : « لا يتوارث أهلُ ملّتَيْن »[1] .

وفي أثناء القرن الرابع الهجري اعتُرف للمجوس بأنهم أهل ذمّة ، إلى جانب اليهود والنصارى ؛ وكان لهم ، كاليهود والنصارى ، رئيسٌ يمثلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة ؛ ولكن كان بين هذه الطوائف الثلاث فروق ؛ فأما اليهود فإنهم استطاعوا أن يستنقذوا مركزهم السياسي من خلال الاتحاد المفكك الذي كان للامبراطورية البابلية رغم ما تعرضوا له من مخاطر وتقلّبات ؛ وأما المجوس فهم بقية لعدو باسل مستقل لم يتمّ التغلب عليه في مواطنه البعيدة المنال ؛ أما النصارى فقد كانوا من قبل يخضعون لحكم الساسانيين على ما يشبه حال أهل الذمة ، وكانت الظروف التي عاشوا فيها أقسى عليهم من غيرهم وأقل حفظاً لمصالحهم من اليهود أو من شعوب الولايات التي أُخذت من الروم[2] ؛ « وكانت الرياسة في المجوس واليهود وراثية ، وكان يلقب رؤساؤهم بلقب المَلِك ، وكانوا يدفعون الضرائب لرؤسائهم ، خلافا لما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى »[3] ، وقد قال بطريرك اليعاقبة في مجلس له مع الخليفة : إن رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون ، وإنه هو رئيس

---

(١) رسائل الصابي مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن بهولندة ص ٢١١ ا ــ ب .

(٢) Nöldeke : Taburiübersetzung, S. 68. Anm. .

(٣) Michael Syrus, ed. Chabot, S. 519. ؛ وكان اهل الذمة في الموصل يدفع كل واحد منهم ديناراً ؛ وكان نصف ما يحصل من اليهود يعطى لرئيسهم ونصفه الآخر للحكومة (R. Petachjâ, S. 275) .

روحي ، ولا يستطيع إلا فرض العقوبة الروحية ، كأن يحكم بإزالة القسس والأساقفة عن مناصبهم أو بمنع العلمانيين من حضور البيعة[1].
وصار الجاثليق النسطوري ، رئيس المسيحيين الشرقيين ، بعد أن انتقل مركز الدولة الإسلامية إلى الشرق ، هو الرئيس الأكبر للنصرانية ، وكانت تنتخبه الكنيسة ويصادق الخليفة على انتخابه ، ويكتب له عهداً كما يكتب لكبار العمال والمتصرِّفين ، وقد وَرَدَ في نسخة عهد الجاثليق عام ٥٣٣ هـ ـ ١١٣٩ م[2] ، « ولما أنهَيْتَ حالك إلى أمير المؤمنين ، وأنك أمثَلُ أهل ملّتك طريقةً ، وأقربهم إلى الصلاح مذهباً ... وحضر جماعةٌ من النصارى الذين يُرجع إليهم في استعلام سيرة أمثالك ... فاتفقوا باجتماع من آرائهم وأهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شؤونهم وتدبير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بينهم ، قويّهم وضعيفهم ، وسألوا أيضاً نَصْبَك عليهم بالإذن الذي به تثبت قواعده ... وبرز الإذن الإمامي الأشرف لا زالت أوامرُه معضودةً بالتوفيق بترتيبك جاثليقاً لنسطوريي النصارى بمدينة السلام ومن تضمنته ديار الإسلام وزعيما لهم ومن عداهم من الروم واليعاقبة والمَلَكيِّة في جميع البلاد وكل حاضر في هذه الطوائف وبادٍ وانفرادك عن كافة أهل ملتك بتقمص أهبة الجثلقة المتعارفة في أماكن صلواتكم ومجامع عباداتكم غيرَ مشارك في هذا لإنسان ولا مفسح في التحلّي به لمطران أو أسقف أو شماس[3] حطّاً لهم عن رتبتك ووقوفاً بهم

(1) Dionys, von Tellmachre. ed. Chabot, 148, Barhebraeus, Chronicon ecclesiasticum, ed. Abbeloos et Lamy 1,372

(2) نقلا عن تذكرة ابن حمدون التي نشرها أمدروز Amedroz JRAS, 1908, 467 ff.

(3) كانت علامة الجاثليق ، كما يقول الجاحظ ، برطلّة وعصا (ولعل البرطلة آتية من الكلمة اليونانية hyperbole ـ انظر البيان والتبيين طبعة مصر ١٣١١ هـ ج ٢ ص ٧٦) . على أنه يحكي عن أحد أصحاب الضياع المسلمين في القرن الثالث الهجري أنه كان يطوف على ضياعه وعلى راسه برطلة خوص ، انظر كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي ؛ الطبعة الاوروبية (نشرها Friedrich Schwally) عام ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ ص ٥٦٦ .

دون محلك ؛ وإن ولج أحد في باب المجادلة ... وأبى النزول على حكمك ... كانت العقوبة به حائقة حتى تعتدل قناته ... وأمر بحملك على مقتضى الأمثلة الإمامية في حق من تقدمك من الجثالقة ... والحياطة لك ولأهل ملتك في الأنفس والأموال والحراسة للكافة بصلاح الأحوال واتباع العادة المستمرة في مواراة أمواتكم وحماية بِيَعِكم ودياراتكم ... وأن يُقتَصَر في استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء والواجدين من رجالكم[1] ، دون النساء ومن لم يبلغ الحُلُم من أطفالكم ، ويكون استيفاؤها نوبةً واحدة في كل سنة من غير عدول في قبضها عن قبضة الشرع المستحسنة ، وفَسُح (هكذا في النص) في أن تتوسط طوائف النصارى في محاكماتها فتأخذ النصفَ من القويّ للمستضعف » .

وكذلك كان يُكتب لبطريق اليعاقبة عهدٌ ، فكان لا بد له أن يذهب إلى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد[2] . ولكن الخليفة منعه حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م من أن يتخذ بغداد مقراً له[3] . وكان للنصارى النوبيين دون سائر النصارى مركزٌ خاص ممتاز في المملكة الإسلامية ، فكانوا يدفعون الضرائب لملكهم ، وكان للضرائب عامل من قِبَله في بلاد الإسلام ، وقد حدث أن واحداً منهم اعتنق الإسلام ، وكان ابن ملك النوبة ببغداد زائراً ، فأمر باعتقاله وغلّه بالقيود[4] .

ولا يتكلم المؤرخون المسلمون كثيراً عن رئيس اليهود ؛ ويقول

---

(١) إن تخمين امدروز لا ضرورة له ، فإن الجاثليق لم يكن يقبض الجزية بل الذي كان يقبضها عامل الخراج .

(٢) Michael Syrus, S. 519

(٣) Barhebraeus, Chron. Eccles. III, 275, Aum. 1.

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٤ ، و Michael Syrus, S. 532.

مؤرخو اليهود إنه عانى في القرن الرابع أياما شديدة[١] ؛ وقد تكلم عنه بنيامين (Benjamin von Tudela) وبتاحيا (Petachjâ von Regensburg) في القرن السادس الهجري . وقد كان انقسام الإسلام إلى خلافة ببغداد وأخرى بالقاهرة مما أثر في تنظيم المجتمع اليهودي ، ولذلك نجد ببغداد رأس الجالوت الذي لقبه المسلمون بسيدنا ، ولكن كلمته كانت لا تسري إلا شرقي الفرات[٢] ؛ ونجد في القاهرة رئيساً آخر يلقّب سر هسّاريم (أي أمير الأمراء) ، وكان يعيّن أحبارَ اليهود في الشام ومصر ، أي في حدود مملكة الفاطميين[٣] . ولا بد أن يكون الفاطميون قد تكلّفوا إيجاد هذه الطائفة الخاصة من الأمراء (ناجيد ــ أمير) بالقاهرة رغبة منهم في معارضة كل ما هو بغدادي ؛ فعندنا من القرن الثاني عشر الميلادي ، أي بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة ، كتابٌ لرئيس الطائفة اليهودية بمصر موجّه إلى بغداد يشكو فيه من إمام غير مقبول أُرسل من بغداد[٤] ؛ ويقدّر ربّي بنيامين (وهو رحالة سافر عام ١١٦٥ م) اليهود الذين في المملكة الإسلامية ــ بعد صرف النظر عن المغرب ــ بنحو ثلاثمائة ألف يهودي ، على حين أن ربّي بتاحيا ــ وقد سافر بعد صاحبه بعشرين عاما ــ يقدر أن عدد اليهود في العراق

---

(١) H. Graetz, Geschichte der Juden, V, 4. Aufl. S. 276 ff. وفيما يتعلق بالمراجع العربية التي تكلمت عن راس الجالوت انظر : Goldziher : Revue des études juives, VIII, 121 ff. ؛ وقد نقل جولدزيهر عن مؤلف عربي مجهول : والجالوت رئيسهم ، ويزعم عامتهم انه لا يراس (حتى يكون طويل الباع) حتى تكون أنامل يديه تبلغ ركبتيه ، انظر ايضا مفاتيح العلوم لابي عبد الله الخوارزمي طبعة ليدن ١٨٩٥ ص ٣٥ . انظر فصل « الاشراف » .

(٢) Benjamin. S. 61 . وعند بتاحيا ان امره نافذ في دمشق وعكا .

(٣) Benjamin, S. 98.

(٤) Mitteil. Samml. Erzh. Rainer, V, 130.

وحدها يبلغ ستمائة ألف[1] . ولا تنطبق هذه الأرقام على الشام في القرن الرابع الهجري لأن السياسة التي جرى عليها قواد الصليبيين إزاء اليهود كادت تفني الطائفة الإسرائيلية ؛ ويقدّر بنيامين عددَ سكان الحي الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس[2] ؛ ولم يجد بتاحيا هنـــاك إلا شخصاً واحداً . ويقـــول بايلومارسيليوس جورجيوس (Bailo Marsilius Georgius) في خبر يرجع تاريخه إلى اكتوبر ١٢٤٣م إنه لم يكن في الحي الخاص بالبندقيين في صور إلا تسعة من شبان اليهود[3] . أما بنيامين فيقول إنه كان يسكن دمشق ثلاثة آلاف يهودي تحت حكم المسلمين ــ وعند بتاحيا عشرة آلاف ــ وفي حلب خمسة آلاف يهودي . أما على نهري دجلة والفرات فكان اليهود مجتمعين بكثرة كما كانوا بألمانيا في ذلك الوقت على نهري الرين والموزل . وقد كانوا كثيرين على نهر دجلة بنوع خاص ، يقول ربّي بتاحيا[4] : « وثَمّ يهود" في جميع المدن والقرى التي بين نينوى ودجلة » . وكان في جزيرة ابن عمر أربعة آلاف ، وفي الموصل سبعة آلاف (وعند بتاحيا ستة آلاف) ، وفي مدينة حربة بأقصى الشمال في العراق خمسة عشر ألفا ، وفي عكبرى وواسط عشرة آلاف ، ولكن من العجيب أنه لم يكن يوجد ببغداد إلا ألف يهودي[5] ؛ وكانت المدن التي بها يهود كثيرون على

(١) Petachjâ, S. 289.

(٢) ويذكر أن عددهم مائتان ، وذلك في مخطوط واحد .

(٣) Tafel und Thomas, Urkunden zur älteren Handels-und Staatsgeschichte der Republik Venedig Wien, 1856, II, S. 359.

(٤) ص ٢٧٩ .

(٥) Benjamin S. 19. وكذلك Petachjâ, S. 280. ويقال إن بها اليوم أكثر من اربعين الف يهودي ، لهم إحدى وعشرون بيعة ؛ انظر كتاب Obermeyer, Modernes Judentum, Wien, 1907. S. 23. ، وفي الطبعة الأخيرة لكتاب بنيامين أربعون ألفا ، وهذا لا يتفق مع ما يقوله بتاحيا ، ولا مع ما كان يتحصل من الجزية (انظر ص ١١) .

الفرات هي مدينة الحلّة ، وكان بها عشرة آلاف ، والكوفة ، وكان بها سبعة آلاف ، والبصرة وكان بها ألفان ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري كان اليهود هم أكثر أهل مدينتي سورا ونهر ملك من بين أجزاء العراق الأخرى[1] . وكلما تقدمنا شرقا زاد عدد اليهود ، فكان بهمذان ثلاثون ألفاً ، وبأصفهان خمسة عشر ألفاً ، وبشيراز عشرة آلاف ، وبغزنة ثمانون ألفاً ، وبسمرقند ثلاثون ألفاً[2] . ويقول المقدسي في القرن الرابع ما يؤيد هذا فيذكر أن بخراسان يهوداً كثيرين ونصارى قليلين[3] ، وأن بالجبل يهوداً أكثير من النصارى[4] ؛ وكان بالمشرق أيضاً المدينتان الوحيدتان اللتان أطلق عليهما اسم اليهودية : إحداهما قرب أصفهان والأخرى شرقي مرو . وكذلك وجد المقدسي إقليم خوزستان « قليل النصارى غير كثير اليهود أو المجوس » (ص ٤١٤) ، وكذلك في فارس وجد « المجوس أكثر من اليهود ، وبه نصارى قليل » (ص ٤٣٩)[5] . وكذلك الحال في جزيرة العرب ، فاليهود أكثر من النصارى (مقدسي ص ٩٥) ، وهم الغالب على مدينة قرْح ، ثانية مدن الحجاز عمارةً وتجارة (مقدسي ص ٨٣ ـــ ٨٤) . أما مصر فالأرقام التي ذكرها بنيامين أقل مما تقدم بكثير[6] : فكان بالقاهرة سبعة آلاف وبالإسكندرية ثلاثة آلاف ،

---

(١) اخبار الحكماء للقفطي الطبعة الاوربية ص ١٩٤ .

(٢) هذه الارقام تقريبية لان بنيامين لم يزر المشرق ، ويقال إنه كان في مدينة خيبر ، وهي مدينة صغيرة بجزيرة العرب ، خمسون الفاً من اليهود ، وهذا عجيب .

(٣) المقدسي ص ٣٢٣ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٩٤ .

(٥) ويقول احد مؤلفي القرن الرابع عشر الميلادي إن مدينة ابرقوة بفارس تمتاز بأن ابناء اليهود فيها لا يعيشون اكثر من أربعين يوماً ، انظر Hamdallah Mustawfi von G. Le Strange. 1903 S. 65.

(٦) وهو يتفق مع المقدسي حيث يقول (ص ٢٠٢) : « ويهود قليل » . ويقال إن اليهود كانوا في العصور القديمة يؤلفون اكثر من ثمن السكان (Caro, Wirtschaftsegeschichte der Juden, I, 27).

وبمدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف، وثَمّ ستمائة في المدن التجارية بالصعيد.

أما عدد النصارى فلا يمكن تعيينه إلا تعيينا تقريبا ناقصا جدا ؛ وفي عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان عدد الذين دفعوا الجزية خمسمائة ألف إنسان[1] ، ومعنى هذا أن أهل الذمة بلغوا خمسمائة ألف منهم اليهود[2] ؛ ويدل إحصاء سكان مصر في القرن الثاني الهجري على أنه كان بها خمسة ملايين من القبط يدفعون الجزية[3] ، وهذا يدل على أنه كان بمصر زهاء خمسة عشر مليوناً من النصارى الأقباط[4] ؛ وبلغ مقدار الجزية ببغداد في أول القرن الثالث الهجري مائة ألف وثلاثين ألف درهم[5] ، وفي أوائل القرن الرابع بلغت مائة وستين ألف درهم[6] ؛ ويدل هذان الرقمان على أنه كان ببغداد نحو" من خمسة عشر ألفا من أهل الذمة يدفعون الجزية ، ويجب أن نسقط منهم ألف يهودي . ونستطيع أن نقول بشيء من اليقين إنه كان ببغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصراني ، والمدينتان الوحيدتان فيما بين الفرات ودجلة اللتان يقول ابن حوقل إن أكثر أهلهما نصارى هما الرُّها وتكريت ؛ إنها مدينة قديمة البناء ، وتجمع سائر فرق النصارى ، وبها من البيع والأديرة القديمة التي

---

(١) كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، طبعة ليدن ص ١٤ .

(٢) ولكن يجب أن يراعى أن الجزية لم تكن تؤخذ من جميع أهل الذمة . (المترجم)

(٣) Führer durch die Samml. Rainer, S. 152.

(٤) يبلغ سكان مصر بحسب إحصاء ١٩٠٧ اثني عشر مليوناً ، (والآن (١٩٥٦) يزيدون على اثنين وعشرين مليوناً — المترجم) .

(٥) ابن خرداذبة ص ١٢٠ ؛ ويقول قدامة بن جعفر في كتاب الخراج (طبعة ليدن ص ٢٥١) إن جزية أهل الذمة بلغت مائتي ألف درهم عام ٢٠٤ هـ .

(٦) Kremer : Einnahmebudget der Abbasiden, DWA. 36, S. 313.

تقارب عهد عيسي عليه السلام والحواريين ، لم تتغير أبنيتها وثاقةً وجَلَداً[1] .

أما المجوس فكانوا كثيرين بالعراق[2] ، وأكثر ما كانوا في جنوب فارس . وفي سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين عامة شيراز من المسلمين ؛ ونهبت في هذه الفتنة دور المجوس ، وضربوا ، فسمع عضد الدولة الخبر وجمع كل من له أَثَر في ذلك وبالغ في تأديبهم وزجرهم[3] ؛ ولكن شيراز كانت مدينة هادئة في العادة ، وقد عجب المقدسي من أنه لم يرَ فيها على مجوسي غياراً يميّزه ومن أن الأسواق تزيَّن في أعياد الكفار . وفيعام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م مات أحد كبار الصوفية ، فمشى في جنازته المسلمون واليهود والنصارى . وكانت تقع في المفازة التي بشرق فارس مدينة القرنين ، وأهلها مجوس ، وكسبهم من كري حميرهم ، يضربون عليها إلى الآفاق[4] .

أما الصابئة فكان آخر عهد ازدهر أمرهم فيه أواخر القرن الثاني ، في عهد الخليفة الأمين ؛ ففي ذلك العصر « عاد شأنُ الوثنية بحرّان إلى الظهور ، وقِيدَتْ الثيران في جميع الشوارع مزيَّنَةً بغالي الثياب والورود والرياحين وبالأجراس على قرونها ، وسار خلفها الرجال بالمزامير[5] » . وفي حوالي عام ٣٢٠ هـ استفتى الخليفةُ القاهرُ أبا سعيد الأصطخري محتسب بغداد في الصابئين ، فأفتاه بقتلهم ، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى ويعبدون الكواكب؛فعزم الخليفة على ذلك حتى جمعوا من بينهم مالاً كثيراً فكفّ عنهم[6] . وقد صدر

---

(١) ابن حوقل ص ١٥٦ .
(٢) المقدسي ص ١٢٦ .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٢٢ .
(٤) كتاب الخراج وصنعة الكتاب لقدامة بن جعفر طبعة ليدن ١٨٨٩ ص ٢٠٦ .
(٥) Michael Syrus S. 497.
(٦) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٩٣ .

حوالي منتصف القرن الرابع الهجري منشور" كُتب للصابئين المقيمين بحرّان والرقّة وديار مضر أمَرَ فيه الخليفةُ بصيانتهم وحراستهم[١] ؛ ولكنهم انقرضوا حوالي عام ٤٠٠ هـ ــ ١٠٠٩ م ، حتى إن ابن حزم يقول إنهم في جميع الأرض لا يبلغون أربعين نفساً[٢] .

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يُغلق دون أهل الذمّة أيّ باب من أبواب الأعمال ؛ وكان قدمُهم راسخاً في الصنائع التي تُدِرّ الأرباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطبّاء[٣] ؛ بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلاً يهوداً ، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى[٤] . وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة ، وكان رؤساء اليهود وجهابذتَهم عنده[٥] . وكان أصغر دافعي الضرائب هم اليهود الخيّاطون

---

(١) وسائل الصابي مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن ص ٢١١ ا ــ ب .

(٢) كتاب الفصل لابن حزم ج ١ ص ١١٥ طبعة مصر عام ١٣١٧ هـ .

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف القاضي ، طبعة بولاق ص ٦٩ .

(٤) المقدسي ص ١٨٣ .

(٥) وفي عام ٢١٠ هـ ــ ٨٢٥ م مثلا ، قام الطبيب جبريل وزميله ميخائيل باختيار الجاثليق النسطوري (Barhebraeus, Chron. Eccles., III. 187) ، ويقول ابو نواس (ديوانه طبعة القاهرة سنة ١٨٩٨ ص ٣٥٦) :

سألتُ اخي ابا عيسى	وجبريل ، لـه عقـل
فقلت : الراح تعجبني	فقـال : كثيرها قتـل
فقلت له : فقدّر لي	فقـال ، وقوله فصـل
رايـت طبائـعَ الانسا	ن اربعةٌ ، هي الأصل
فـأربعـــة لأربعـــة	لكـل طبيعـة رطـل

ويقول شاعر نيسابوري في الفصد :

لـمـا رايت الجسم ذا اعتلال	ودبّـــت الالام في اوصـــال
دعوت شيخاً من بني الجوالي	بطريـق عـم جاثليـق خـال
فسلّ سيفـاً ليس للقتـال	ومرهفاً ليس مـن الصوالي

إلى آخر القصيدة ، (انظر يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٠٦) .

والصبّاغون والأساكفة والخرّازون ومن إليهم[1] . وقد وجد بنيامين (ص ٣٥) في القدس في القرن الثاني عشر الميلادي أن اليهود يحتكرون صنعة الصباغة ، وكذلك الاثني عشر يهوديا الذين وجدهم في بيت لحم ؛ فقد كانوا جميعاً صبّاغين (ص ٤٠) ، لأن اليهودي ولو كان واحداً في بلد فإنه يشتغل بهذه الصناعة (بنيامين ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٩) .

أما حياة الذمّيّ فإنها عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافيء حياةَ المسلم ، ودِيَتُه دِيَةُ المسلم ؛ وهي مسألة مهمة جداً من حيث المبدأ . أما عند مالك فَدِيَةُ اليهودي أو النصراني نصف دية المسلم ، وعند الشافعي ثلثها ؛ أما المجوسي فَدِيَتُهُ جزء من خمسة عشر جزءاً من دية المسلم . ومما كان يستحق التأديب ، لا الحدّ ، عند فقهاء المسلمين أن يُقال للمسلم : يا يهودي أو يا نصراني أو ما جرى هذا المجرى[2] .

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمّة ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر

---

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٦٩ ؛ والمقدسي ص ١٧٣ ؛ وقد جاء في كتاب حكاية أبي القاسم البغدادي تأليف محمد بن علي المطهر الازدي ، طبعة متز بهيدلبرج سنة ١٩٠٢ ص ٤٢ : « كأنها نعل كنباتي تصرّ من دكان ابن عدره اليهودي » . وفي كتاب ذكر أخبار أصفهان لأبي نعيم (مخطوط رقم ٥٦٨ بمكتبة ليدن ص ١١ أ) ، (ولهذا الكتاب نسخة مطبوعة نشرها الدكتور سفين ديدرنج Drr. Sven Dedering بليدن سنة ١٩٣١) : وسكنتها اليهود مقبلين على صناعتهم القذرة كالحجامة والقصاره والقصابة .

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي ، طبعة ليدن ١٨٩٥ ص ٥٥ : حكي أن رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الكتاب فرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أحق من وفى بذمّة ، ثم أمر به فقتل ؛ وعن عبد الله بن مسعود قال : من كان له عهد أو ذمّة فديته دية المسلم : انظر أيضاً كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ٢٩ ب ، وانظر Sachau : Muhammedanisches Recht, 1897, S. 787، وفي بلاد الغال بفرنسا مثلا كانت دية الفرنجي الحرّ دية الروماني مرتين .

بصياناتهم[١] ؛ وفي حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب « يسير فيها النصارى ، وعلى رأسهم الأسقف ، واليهود ومعهم النافخون في الأبواق[٢] » ؛ وكذلك ازدهرت الأديرة في هدوء ؛ فمن ذلك الدير المسمى دير قُنّي ، وهذا الدير كان « يقع على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد ، منحدراً في الجانب الشرقي ، بينه وبين دجلة ميل ونصف ، وهو دير حسن نزهٌ عامر ، وفيه مائةُ قلاّية لرهبانه والمتبتّلين فيه ، لكل راهب قلاّية ؛ وهم يبتاعون هذه القلالي بينهم من ألف دينار إلى مائتي دينار إلى خمسين ديناراً[٣] ، وحول كل قلاية بستان فيه من جميع الثمار والنخل والزيتون ، وتباع غلّته من مائتي دينار إلى خمسين ديناراً ، وعليه سور عظيم يحيط به ، وفي وسطه ، نهرٌ جارٍ ؛ وعيده الذي تجتمع الناس إليه عيد الصليب[٤] » .

وكان أكبر الأديرة بمصر الدير المعروف بدير أنطانيوس ، وبينه وبين النيل ثلاثة أيام في البرّية ؛ وهو يقع شرقي إطفيح من قبلي مصر ، وهو على جبل عالٍ ، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة ، وعليه حصن دائر ، وداخل الحصن بستان كبير ، وفيه نخيل مثمر ، وأشجار تفاح وكمثرى ورمان وغيرُ ذلك ، وأرضه مزروعة بالبقول ، وله ثلاثة عيون

---

(١) لم يكن يجوز للنصارى من حيث المبدأ ان يحملوا في مواكبهم رايات أو صلبانا او مشاعل ، او يخرجوا بسلاح (كتاب الخراج لأبي يوسف طبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ ص ٨٠ وما بعدها) ؛ ولكن هذا لم يكن ينفذ عمليا . راجع ايضاً الفصل الخاص بالأعياد .

(٢) Dionys. von Tellmachre, S. 176.

(٣) وحوالي عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م كان الرجل يبتاع لابنه قلاية في الدير إذا أحب الرهبنة ومال إليها (الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٤) .

(٤) كتاب الديارات للشابشتي مخطوط رقم ٨٣٢١ بمكتبة برلين ص ١١٥ ب ـ ١١٦ ا ، (ولهذا المخطوط صورة شمسية بدار الكتب المصرية) ، أنظر أيضاً Streck, S. 284 : ومن اراد معرفة حياة الرهبان في العراق حتى القرن الثالث الهجري فلينظر : Budge : Book of Governors I. S. CXLCII ff.

ماء تجري دائما ويسقى منها البستان ؛ ومن جملة البستان فدان وسدس كرم عنب ، وقيل إن عِدّة نخيله ألف رأس نخل ، وبه جوسق كبير وقلالٍ للرهبان مطلة على البستان ، وله بإطفيح أيضاً أملاك وبساتين ، وليس مثله في سائر الديارات التي يسكنها رهبان المصريين[1] .

على أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية الشرقية قد ذهبت في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة ؛ فلما أعاد الإمبراطور نقفور افتتاح بلاد الشام في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ كان مما وعد به أهل الشام وأمّنهم به أن يحميهم من مضايقة كنيسة الدولة ، ولكنه رغم هذا الأمان ، لم يَألُ جهداً في مضايقة اليعقوبيين ، فاضطرهم مثلا إلى الخروج من أنطاكية ، ولذلك نجد مؤرخي اليعقوبيين يصفون البطارقة التي عينتهم الدولة في أنطاكية بأنهم أضلّ من فرعون وأشد كفراً بالله من بختنصّر ؛ ولما أعيد فتح ملطيّة أخذ بطريرك اليعاقبة وسبعةٌ من كبار أساقفتهم إلى القسطنطينية وسُجنوا هناك ، ووضع الملكانيون أيديهم على الكنيسة الكبرى بملطية[2] ؛ فأما البطريرك فإنه مات منفيّا على حدود بلغاريا ، وكذلك مات أحد أصحابه في السجن ، ورُجم الثالث أمام قصر الإمبراطور ، ورجع ثلاثة عن المذهب اليعقوبي ، وأعيد تعميدهم ، ولكنهم لم يجدوا السكينة التي يرجونها ، وصاروا موضع السخرية كأنهم شياطين . وأخيراً لم يستطع رؤساء الكنيسة السريانية أن يقيموا في مقر بطريقهم بعد دخول المذهب الملكاني ، « وبعد أن

---

(١) تاريخ الشيخ ابي صالح الارمني ، طبعة اكسفورد سنة ١٨٩٤ ص ٥٤ ا ـ ب ؛ ولما كانت قوانين الرهبنة بمصر تحتم الفقر في طالبيها فإن أديرة مصر كانت تنشأ على نظام يخالف نظام أديرة الشام كل المخالفة .

(٢) Michael Syrus, S. 556 ff.

أعيدت أنطاكية إلى المسيحية » ، كما يقول الملكانيون ، فاضطروا إلى الانتقال إلى آمد طلباً لتسامح أكثر في بلاد الكفار[1] • ولقد منعت الكنيسة الرسمية نصارى أرمينية من استعمال النواقيس[2] ؛ وكثيراً ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق النصرانية لمنعهم من المشاجرات ، حتى عين حاكم أنطاكية في القرن الثالث الهجري رجلاً يتقاضى ثلاثين ديناراً من النصارى في الشهر ، وكان مقره قرب المذبح ، وعمله أن يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً[3] • وفي سنة ٣٢٢ هـ مات أسقف تنّيس ، وكان بينه وبين البطريرك وَحْشَة ، فلما مات انقسم أهل مصر وأهل تنيس حزبين ، أحدهم مع البطريرك والآخر عليه ، « وقام لكل حزب من الحزبين غرض في نصرة هواه ، حتى كان الأبُ لا يكلم ابنه ولا المرأةُ تخاطب بَعْلَها » ؛ وكان كل فريق يستعين بالسلطان على الآخر ، حتى خرج جماعة من النافرين عن البطريرك ، وذهبوا إلى الإخشيد محمد بن طغج ، فوجَّه معهم من ختم الكنيسة الجامعة التي كان الأسقف نازلا بها ومنع الصلاة فيها وقبض على الأسقف والبطريرك[4] • وفي سنة ٢٠٠ هـ ــ ٨١٥ م أراد الخليفة المأمون أن يصدر كتابا لأهل الذمّة يضمن لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم ، بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم ، ولو كانوا عشرة أنفس ، أن يختاروا بطريقهم ، ويُعترف له بذلك ، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا وأحدثوا

(١) Barhebraeus Chron. Eccles., I, 432 ff. ولعله يقصد بالكفار هنا المسلمين.

(٢) انظر Schlumberger : Epopée Byzantine S. 168. ، وهكذا فعلت الكنيسة الانجليزية مع الكاثوليك حتى القرن التاسع عشر ، وكما لا تزال اسبانيا وصقلية تفعلان حتى اليوم مع البروتستانت .

(٣) Michael Syrus. 536.

(٤) يحيي بن سعيد ص ٨٣ ب .

شغبا ، فعدل المأمون عن إصدار الكتاب[1] .

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس فلم تكن الدولة الساسانية من قبل تسير على خطة ثابتة في ذلك ، (فكانت تسمح ببنائها أحيانا) ، على حين أن القانون الروماني في العهد الأخير كان يحرّم على اليهود أن ينشئوا كنائس جديدة لهم ، ولا يسمح لهم إلا بإصلاح ما تهدّم منها[2] . أما في الإسلام فنجد سياسة الدولة تجمع في أوقات متتابعة بين تسامح الفرس وتعصب الرومان ، فكان يُسمح للنصارى أحياناً ببناء كنائس جديدة ، وأحياناً كانوا يُمنعون حتى من إصلاح الكنائس القديمة[3] ؛ ففيما بين عامي ١٦٩ و ١٧١ هـ ـــ ٧٨٥ و ٧٨٧ م هدم علي بن سليمان والي مصر من قبل الرشيد الكنائسَ المُحْدَثة بمصر ، وبُذِل له خمسون ألف دينار ليترك الهدم ، فامتنع ؛ ثم جاء بعده والٍ آخر ، فأذن للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها علي بن سليمان ، فبُنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، وقالا : هو من عمارة البلاد ، واحتجّا بأن عامة الكنائس التي بمصر لم تُبْنَ إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين[4] . وفي عام ٣٠٠ هـ ـــ ٩١٢ م ثار المسلمون فهدموا كنيسة بناها النصارى في تِنّيس ، فأعان السلطانُ النصارى حتى بنوا الكنيسة[5] . وفي سنة ٣٢٦ هـ ـــ ٩٣٨ م انهدمت قطعة من كنيسة أبي شنودة بمصر ، فبذل النصارى للإخشيد مالا ليطلق عمارتها ، فقال :

---

(١) Michael Syrus, 517.

(٢) Sachau, Von den rechtlichen Verhältnissen der Christen im Sasanidenreiche, Mitteil des Sem. für Orientalische Sprachen, X, 2, S. 78 f.

(٣) يجد القارىء كثيراً من الآراء في هذه المسألة عند Gottheil, Dhimmis and Moslems in Egypt, S. 353 ff.

(٤) كتاب تاريخ مصر وولاتها للكندي طبعة ليدن سنة ١٩١٢ ص ١٣١ .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٨١ ا .

خذوا فتوى الفقهاء ؛ فأما ابن الحداد فأفتى بألا تعمَّر ، وأفتى بذلك أصحابُ مالك ، وأفتى محمد بن علي بأن لهم أن يرمّوها ويعمروها ، واشتهر ذلك عنه ، فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله ، فاستتر وندم على فتياه . وشغبت الرعية وأغلقت الدروب وأحاطت بالكنيسة ؛ فأرسل الإخشيد عسكراً كبيرا ، فزحفت عليهم الرعية ورموهم بالحجارة؛ فدعا الإخشيد بأبي بكر بن الحداد الفقيه ، وقال له : إركب إلى الكنيسة ، فإن كانت تبقى فاتركها على حالها ، وإن كانت مَخوفةً فاهدمها إلى لعنة الله ... فأخذ ابنُ الحداد معه مهندساً ، فدخلها وأخذ بيده شمعة ، فطاف بها وعاد إلى أبي بكر ، وقال له : تبقى هكذا خمس عشرة سنة ، ثم يسقط منها موضع ، ثم تقيم إلى تمام الأربعين ويسقط جميعها ؛ فانصرف أبو بكر إلى الإخشيد وعرّفه ، فتركها ، ولم يعمرها ، وكان أمرها كما قال المهندس ؛ فعمرت سنة ست وستين قبل تمام أربعين سنة ، ولو تركت لسقطت[1] .

وكان أهل الذمة يُعاملون في مارستانات بغداد معاملة المسلمين ، ولكن حدث وباءٌ في أوائل القرن الرابع ؛ فوقّع الوزير علي بن عيسى إلى سنان بن ثابت طبيب الخليفة ، وهو الذي كان يتولى المعالجة وإعطاء الأدوية للمرضى خارج بغداد ، بأن يعالج المسلمين قبل أهل الذمة[2] .

وكان موتى المسلمين وأهل الذمة يدفنون كلٌ على حدة ، ولكن يحكى أنه في عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م جاء إلى تكريت سَيْلٌ كبير ، فغرّق منها أربعمائة دار وغرّق خلقاً كثيراً من الناس ، ودُفن المسلمون

---

(١) كتاب المغرب لابن سعيد ص ٣٢ — ٣٣ ؛ وملحق أخبار الولاة والقضاة للكندي ص ٥٥٤ — ٥٥٥ ؛ وراجع Tallquist, 32 f. .

(٢) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٩٤ من الطبعة الأوربية .

والنصارى مجتمعين لا يعرف بعضهم من بعض[1] .

ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها ، وإن آثر أهلُ كل دين أن يعيشوا متقاربين . وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية .

ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين فقد خلّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ؛ والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كَنَسِيَّة ، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً ؛ وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون . ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائلَ الميراث وأكثرَ المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به . على أنه كان يجوز للذمي أن يلجأ للمحاكم الإسلامية ؛ ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا ، ولذلك ألّف الجاثليق تيموتيوس (Timotheus) حوالي عام ٢٠٠ هـ ـــ ٨٠٠ م كتاباً في الأحكام القضائية المسيحية « لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية »[2] ؛ وفي الفصلين الثاني عشر والثالث عشر من هذا الكتاب فرض تيموتيوس على من يذهب طائعاً إلى المحاكم الإسلامية أن يتوب ويتصدّق ، ويقوم على المسح والرماد[3] . ثم جاء خليفته فقرّر أن النصارى إذا خرجوا إلى الأحكام

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٤ .

(٢) Sachau : Syrische Rechtsbücher, II, 57.

(٣) نفس المصدر ص ٦٧ ، ١٩١ .

البرانية فإنهم يؤدَّبون على قدر جرمهم ، ويُمنَعون من البيعة إلى حين[1] .

وفي عام ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م ولي قضاء مصر خَيْرُ بن نعيم ، فكان يقضي في المسجد بين المسلمين ، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج ، فيقضي بين النصارى[2] . ثم خصص القضاةُ للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضي محمد بن مسروق الذي ولي قضاء مصر عام ١٧٧ هـ ، فكان أول من أدخل النصارى في المسجد ليحكم بينهم[3] . وعلى أي حال فإن بعض فقهاء الإسلام أجازوا تقليد الذمي القضاء بين أهل دينه ، وهذا ، وإن كان العرف به جارياً ، فهو تقليد زعامة ورياسة وليس بتقليد حكم وقضاء ؛ وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ، وإذا امتنعوا من التحاكم إليه يُجبَروا على ذلك ؛ فإذا رجعوا إلى قاضي الإسلام فإنه يقضي بينهم بحكم الإسلام ، لأنه يكون عليهم أنفَذَ ولهم ألزم[4] .

ولا نجد فيما انتهى إلينا من القوانين التي وضعتها البطارقة سوى عقوبات دينية كَنَسِيَّة ؛ فمنها التوبيخ أمام الناس ، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة ، ودفع كفارة مالية للبيعة ، والمنع من حضورها ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت ومن الدفن على الطريقة النصرانية[5] ؛ ومن أمثلة العقوبة أن النصراني الذي يضرب آخر يُمنَع

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٩ ، ٢٠٤ .
(٢) كتاب الولاة والقضاة للكندي ص ٣٥١ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٩٠ .
(٤) كتاب الاحكام السلطانية لابي الحسن الماوردي طبعة بون (Bonn) بألمانيا ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، وهكذا جاء ايضا في نسخة عهد لقاض بولاية القضاء ، كتبت بعد عام ٣١٦ هـ ـ ٩٢٨ م . انظر قدامة ابن جعفر مخطوط باريس ص ١٣ ب .
(٥) Sachau : Syrische Rechtsbücher II, S. VI .

من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيس شهرين ، ويقف كلَّ يومِ أحَدٍ على المسح والرماد ، وعليــه أن يتصدّق على الفقراء بحسب قدرته[1] .

أما في الأندلس فعندنا من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضي إلا في مسائل القتل ؛ فكانوا يقدمون المتهم إليه ويعرضون أدلتهم ، فإذا قال القاضي « حَسَن » ، قُتِل المجرم[2] . ويقول ربّي بتاحيا إن رؤساء اليهود في الموصل كانوا هم الذين يعاقبون مرءوسيهم ، حتى ولو كان أحد طرفي الخصومة مسلماً ؛ وكان بالموصل سجن يسجن فيه اليهود[3] .

وأكبر ما كان يُحرَم منه أهل الذمّة ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً أنه لم يكن يُسمح بالتقدم للشهادة أمام القضاء ، كأنهم عبيد . وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا يُقبل شهادتُهم على أهل دينهم ، وذهب البعض مذهباً آخر[4] . أما المحاكم النصرانية فإنها كانت تقبل شهادة المسلم على النصراني على كرْه منها لذلك بالطبع . وكل ما كانت تطلبه هو أن يكون الشاهد تقيّاً يخاف الله غيرَ مطعون في ذمته ، وهذه هي الشروط التي كان القاضي المسلم يحتّم توفرَها في الشاهد[5] .

---

(١) نفس المصدر ص ٦٨ والتي تليها .

(٢) Graf Baudissin : Eulogius und Alvar, S. 13 Anm. 6 .

(٣) Petachjâ, 275 .

(٤) Sachau, muhammedanisches Recht, S. 739 . وكان القاضي محمد ابن مسروق الذي ولي القضاء عام ١٧٧ هـ يقبل شهادة النصارى واليهود بعضهم على بعض ، ويسأل عن عدالتهم في أهل دينهم ؛ وفي عهد لقاض بولاية القضاء أن يقبل شهادة بعض أهل الملل على بعض ، انظر الكندي ص ٣٥١ ، وقدامة مخطوط باريس ص ١٣ ب .

(٥) Sachau : Syrische Rechtsbücher, II, 107 .

وكان أهل الذمة ، بحكم ما كانوا يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم لهم ، يدفعون الجزية ، كل واحد منهم بحسب قدرته ؛ وكانوا ثلاث طبقات : تدفع الدنيا منها اثني عشر درهما ، والوسطى أربعة وعشرين ، والعليا ثمانية وأربعين درهما في السنة ، أو ديناراً أو دينارين أو ثلاثة في البلاد التي عملتها الذهب ؛ وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني ، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ، ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار"[1] . ويحكي ابن خرداذبه[2] أن الروم كانوا يأخذون من اليهود والمجوس ديناراً في السنة ؛ وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم[3] . على أن غالبية دافعي الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى ، حتى أن بنيامين يقول : « إن اليهود في كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً »[4] . وكذلك يقول بتاحيا : « إن اليهود في العراق لا يدفعون شيئاً للخليفة ، وإنما يدفع الواحد منهم في كل عام ديناراً واحداً لرأس الجالوت[5]» . ويحكي بَيْلومرسيليوس جورجيوس (Bailo Marsilius Georgius) في اكتوبر سنة ١٢٤٣ م ، وهو في مدينة صور ، أن « كل يهودي متى بلغ الخامسة

---

(١) يذكر بنيامين (ص ٧٧) ومرسيليوس (انظر ما يلي) انه كان يُعفى منها من تقل سنه عن خمس عشرة سنة . وفي الدولة الفارسية كان لا يدفعها إلا من بلغ العشرين انظر Nöldeke, Tabariübers., S. 247.

(٢) المسالك والممالك ص ١١١ .

(٣) ابن حوقل ص ١٢٧ ؛ ولما اخذ باسيل الامبراطور مدينة حلب عام ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م تقرر الأمر بين امروم وبين أهل حلب على أمور منها ان يُدفع دينار عن كل رجل حالم - يحيي بن سعيد ص ٩٨ ب .

(٤) Benjamin, 77. ، وقارن ما حكاه الرحالة الصيني عن الجزية عند الفرس Nöldeke : Tabariüberectzung, 246, Anm. 2.

(٥) Petachjâ, 288, 275.

عشرة يدفع في كل عام ديناراً بوزنطياً لعاملنا، وذلك في عيد القدّيسين[1] .

وقد ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذي فرَضَتْه الشريعةُ . وإنما كانت تتغير تغيراً يسيراً بحسب تغير العملة . وكانت الحكومة في مصر في أول القرن الثالث الهجري تكتفي بأخذ نصف دينار ؛ ولكن في سنة ٣٩٠ هـ ـــ ١٠٠٠ م اضطر البطريرك جورجيوس المصري أن يدفع ديناراً ونصف دينار ، بعد أن كان يدفع ديناراً واحداً[2] ؛ وكذلك يخبرنا البطريرك ديونيسيوس ، وكان بمصر زائراً ، حوالي عام ٢٠٠ هـ ـــ ٨١٥ م عن مدينة تنّيس المشهورة بصناعة النسيج ، فيقول : « ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس ، فإني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها ؛ وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني : إن مدينتنا مُحَاطة بالماء فلا نستطيع زرعا ولا تربيةَ ماشيةٍ ؛ والماء الذي نشربه يُجْلب لنا من بعيد ، ونشتري الجرّة منه بأربعة دراهم ؛ ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه، ونُعطى على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ؛ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير ، وفي ذلك نُضرب ونُسجن ونُلزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن ، فيُلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار ؛ ولو ولدت عندهم امرأةٌ طفلاً فإنهم يأخذون قَسَمَنا بأن لا نطالب به ؛ وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء » . فأجابهم البطريرك أنه بحسب قانون العراق عليهم متى طلبت منهم الجزية أن يدفع الغني منهم

(1) Tafel und Thomas : Urkunden..., II, 359.

(2) Tafel und Thomas : Urkunden..., II, 359.

ثمانية وأربعين درهما والمتوسط أربعـة وعشرين والفقير اثني عشر درهما[١] • وكانت الجزية تؤخذ مقسَّطة على ستة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة[٢] أو اثنين[٣] ؛ وقد فرضت في أول الأمر بالعراق في كل شهر[٤] ، وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون مرتباتهم في كل شهر؛ وكذلك كان الحال في الأندلس في القرن الثالث الهجري[٥] • ولكن في عام ٣٦٦ هـ ــ ٩٧٦ م صدر أمرٌ الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في المحرم من كل سنة بحسب منازلهم ، وألا تؤخذ من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذي سنٍّ عالية ولا ذي عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتِّل[٦] • وكانت العادة جارية بإعطاء براءة لمن يدفع الجزية ، وفي العصور السيئة كانت تعلق على رقبة أهل

(١) Michael Syrus, S. 516 ، وقد صار يفرض على الخنازير بالشام فيما بعد ضرائب خاصة بالنسبة للنصارى ، فيحدثنا بايلو البندقي وهو بصور أنه حتى ذلك الحين يجب على كل من أراد أن يذبح خنزيراً أو يشتري خنزيراً أن يدفع للسلطان أربعة دنانير ، وقد ألغى البندقيون ذلك ؛ انظر : Tafel und Thomas, Urkunden, II. 360. .

(٢) كما كان الحال في الامبراطورية الفارسية (Nöldeke, Tabari. S. 342) ، وانظر ما قاله كرباجك Karabacek في Sammel. Rainer II/III, 176 f.، وكذلك أيضا ما حكاه ديونيسيوس Dionysius, ed. Chabot, S. 61. .

(٣) Mitteil. II/III, 163. .

(٤) كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٥٦ .

(٥) Leovilgildus, De habitu clericorum (Esp. sagr. XI) : vectigal, quod omni lunari mense pro Christi nomine solvere cogimur. Eulogius Memoriale I, 247 : quod lunariter solvimus cum eravi moerore tributum. انظر Graf Baudissin, Eulogius und Alvar S. 10.

(٦) رسائل الصابي طبعة مدينة بعبدا (بلبنان) سنة ١٨٩٨ ص ١١٢ ، انظر أيضا عهد الجاثليق الذي تقدمت صورته .

الذمة علامة البراءة ، وتـُختم أيديهم[1] •

وهذه العادة قديمة ترجع إلى عصر الأشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوباً عليها اسم العبد واسم سيده[2] • وكان اليهود في عهد التلمود يعلـّمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب[3] • وفي عام ٥٠٠ م كان حاكم مدينة الرُّها يعلق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون رطل خبز كل يوم قطعـة مـن الرصاص مختومة[4] • على أن الفقهاء القدماء ، مثل أبي يوسف ويحيى بن آدم لم يقولوا شيئاً في هذا الباب ؛ ويظهر أن هذا الأمر نادراً ما كان يقع • ويقول ديونيسيوس إنه كان من التجارب المؤلمة لحصر أهل الذمة ومعرفة عددهم « أن يـُرسل مع عمال الضرائب ختـّامون يختمون كل واحد باسم بلده واسم قريته ، فكانوا يطبعون على يده اليمنى اسم البلد وعلى اليسرى اسم العراق ، ويعلـّقون على رقبة كل رجل حلقتين على إحداهما اسم البلد وعلى الأخرى اسم القسم ، وكانوا يقيدون اسم الشخص وأوصافه الجسمية ومسكنه • وكان ينشأ عن هذا اضطراب كبير ؛ لأنه كان يؤدي إلى القبض على كثير من الغرَباء،فيذكرون أسماء مساكن لهم فتـُقيـَّد ، ولا تكون لهم هذه المساكن في الحقيقة • ولو أن هذا النظام اتـّبع إلى آخر ما يؤدي إليه لأحدث من الفساد أكثر من كل ما تقدمه من

---

(١) فمثلا في أواخر العهد الاموي في مصر وُسمت أيدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه ، وجعل على كل نصراني وسَم ، وصورة أسد على ايديهم ، انظر الخطط للمقريزي طبعة بولاق ج ٢ ص ٤٩٢ – ٤٩٣ •

(٢) مجلة المشرق المجلد الخامس ص ٦٥١ •

(٣) Krauss : Talmudische Achaeologie, II, S. 89.

(٤) Josua Stylites, ed. Wright, S. 42. ، وكذلك في مدينة استراسبرج في القرن الرابع عشر الميلادي كان يحمل فقراء البلد علامة ظاهرة (Brucker, Strassburger Zunft-und Polizeiverordnungen, S. 6 f. • وفي القرن التاسع كان النساء المثبتات في ديوان الزواني بالصين واللاتي يدفعن ضريبة البغاء يحملن خاتما من النحاس مطبوعا بخاتم الملك ويعلقنه في أعناقهن • (انظر Renaud, Relation des Voyages, S. 69.) •

الأنظمة ، وإذا وجد العامل أن ما لديه من عمل لا يكفيه فإنه يذهب إلى أي جهة تصادفه ، ويقبض على الغادين والرائحين ، وقد يطوف بالمكان الواحد أكثر من عشرين مرة ، ولا يهدأ له بال حتى يصل إلى تقييد جميع السكان بحيث لا يفلت منهم أحد ، وهكذا وقع ما قاله النبي دانيال والرسول يوحنا : « كل الناس طُبعوا بطابع هذا الحيوان على أيديهم وصدورهم وظهورهم[1] » . ومن الواضح أن البطريرك ديونيسيوس لا يتكلم هنا عن الختم والعلامات باعتبارها شيئاً عاديا . على أن شاعراً بصريا من العصر العباسي الأول يقول :

ختم الحبُّ لهـا في عنقي   موضع الخاتم من أهل الذمم[2]

وقد حكى الجاحظ المتوفي عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م عن أحد الثقات الذين يُعتَمَدُ عليهم أن من تمام آلة الخمَّار أن يكون ذمِّيّاً مختوم العنق[3] ، وقد وُجدت حول مدينة همذان علامة من هذا النوع يرجع تاريخها إلى السنة الأولى من القرن الرابع[4] . وعندنا نصٌ صريح على أنه كانت تكتب لأهل الذمة في الربع الأول من القرن الرابع براءةٌ مختومة عند أدائهم للجزية[5] . ولم يكن المترهِّبون المسيحيون يُعفون من الجزية إلا إذا كانوا مساكين يُتَصَدَّق عليهم كباقي المساكين[6] ؛ وهذا كان من حيث المبدأ العام والوجهة النظرية ، ذلك أنه في مصر عام

---

(١) Dionys v. Tellmachre, ed Chabot, S. 148 f.

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٦ ؛ وهذا البيت لبشار بن برد .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٤١ . انظر ما يلي :

(٤) Mitteil. aus der Samml. Rainer II/III, S. 176 .

(٥) المروج للمسعودي ج ٩ ص ١٤ — ١٥ .

(٦) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧٠ .

٣١٢ هـ — ٩٢٤ م « أخذ الرهبانُ والأساقفةُ بأداء الجزية ، فأُخذت الجزية منهم ، ومن الضعفاء والمساكين ومن جميع الديارات بأسفل مصر والصعيد ، ومن رهبان طور سيناء ؛ وسافر قوم من الرهبان إلى العراق واستغاثوا بالمقتدر ، فكتب لهم ألا تؤخَذَ الجزيةُ من الرهبان ولا من الأساقفة ... وأن يجري أمرهم على ما كانوا عليه »[١] على أنه في عام ١٦٦٤ م كان يُعفى من الجزية بمصر : « جميعُ الأوربيّين والرهبان المتبتّلين من المسيحيين والبطريرك وجميع الأتراك (أي المسلمين) »[٢]. ولم يكن أخذ الجزية أرحم من غيرها من الضرائب ، وإن كانت الشريعة الإسلامية قد أمرت بعدم القسوة في تحصيلها ، فقد نُهي في الإسلام عن اتباع الأساليب القديمة القاسية ، من تعذيب ، أو تكليف أصحابها ما لا يطيقون ، أو إقامتهم في الشمس وصبّ الزيت على رؤوسهم ونحو ذلك؛ وإنما أجاز الفقهاء حبس أهل الذمة حتى يؤدوها[٣] .

وقد وُجدت في بلاد الإسلام من أول الأمر تعليمات خاصة باللباس ؛ فقد أمر هارون الرشيد عام ١٩١ هـ — ٨٠٧ م بأن يُؤخذ أهلُ الذمة في مدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم، فأُخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنّارات مثل الخيط ، وبأن تكون قلانسهم مضرّبة ، وأن يجعلوا شراك نعالهم مَثْنيِيَّة ، وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وتُمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، ولا يركبنّ يهودي ولا نصراني على سرج ، بل على أكاف[٤] . وكان اليهود في القرن الثاني (الثامن الميلادي) يلبسون

---

(١) يحيي بن سعيد ص ١٨١ .

(٢) M. Wanslebs : Beschreibung von Aegypten, S. 57.

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧١ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٧١٣ ، كتاب الخراج ص ٧٥ .

براطيل طويلة شبّهها بعض الشعراء بالأميال الطوال أو بالمقاعيد علـى رؤوس القرود[1] . وكان النصارى في ذلك الوقت يلبسون البرانس ، ولكن لما صارت القلانس الطوال عند المسلمين لباساً قديماً لبسها النصارى وبقيت خاصة بهم[2] . أما اللون فلم يصلنا في التعليمات القديمة أن أحداً أُلزم باتخاذ لون معين ؛ ويظهر أن هذه المسألة تُركت للعادات المحليّة ، ويصف الجاحظ (المتوفي عام ٢٥٥هـ ــ ٨٦٩م) عادة العراقيين فيقول : « من تمام آلة الخمّار أن يكون ذِمّيّاً ، ويكون اسمه آذين أو مازبادا أو أزدانقاذا أو ميشا أو شلوما ، ويكون أرقط الثياب مختوم العنق »[3] . وقد حدث في عهد هارون الرشيد أن ولي القضاء محمد بن مسروق ، فتحامل على أهل مصر ، فأساءوا عليه الذكر والثناء ، ودعوا عليه في المسجد الجامع ، فوقف على باب المقصورة غير خائف ، وقال بأعلى صوته : « أين أصحاب الأكسيةِ العسليّة ؟ أين بنو البغايا ؟ لم لا يتكلم متكلمهم بما شاء حتى يرى ويسمع؟فما تكلم أحد بكلمة»[4]، وقد صدر أمر المتوكل في عام ٢٣٥ هـ ــ ٨٤٩ م بأخذ النصارى وأهل الذمّة بلبس هذه الطيالسة العسلية ؛ ومن أراد لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين فَلْيَجْعَلْ عليها زِرّين ؛ وكذلك أُمروا بأن يجعلوا على ما ظهر من لباس مماليكهم رقعتين ، لونهما يخالف لون الثوب الظاهر ، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره ، والأخرى خلف ظهره ،

---

(١) الكندي ص ٤٢٤ ، وكان لباس الرأس عند اليهود يسمى بمصر بُرطُلّة ، وكانت هذه في المشرق جزءاً من أهبة الجاثليق . وفي سنة ١٥٣ هـ ألزم المنصور رعيته بلبس القلانس الطوال فشبهها أبو دلامة بدنان اليهود . (كتاب الأوائل لعلي دده مخطوط برلين ٩٣٧٢ ص ١٥٨ ا) .

(٢) انظر المستطرف ، على هامش مفيد العلوم طبعة مصر ١٣١٠ ص ٢٠٠ .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٤١ .

(٤) الكندي ص ٣٩٠ .

وأن تكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونها عسليًا ، وكذلك أمر بمنع مماليكهم من لبس المناطق وأمرهم بلبس الزنانير ؛ وبأن يُجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين[1] ، وفي عام ٢٣٩ هـ ــ ٨٥٣ م أمر المتوكل أن يقتصر أهل الذمة في مراكبهم على البغال والحمر ، دون الخيل والبراذين[2] .

على أن هذه الأوامر المضحكة لم تثمر إلا قليلا ؛ وكان أهل الذمّة يأبون الخضوع لها بشجاعة ، وفي سنة ٢٧٢ هـ ــ ٨٨٥ م ثار عامة بغداد على النصارى لأنهم خالفوا وركبوا الخيل ، وهُدمت في هذا الشغب كنيسة كليل يشو[3] (إكليل يسوع) ؛ وكذلك نجد الشاعر ابن المعتز يشكو حوالي عام ٢٩٠ هـ من مغالاة النصارى في البغال والسروج ، ومن تحكّمهم في المسلمين ؛ ويعتبر هذا من علامات ظهور المسيح الدجّال[4] . وقبل أول القرن الرابع بأربع سنين عادت القوانين الخاصة باللباس إلى الظهور ، وشُدِّدَ في أمرها ، ثم لم نسمع عن مثلها شيئا في القرن الرابع كله ؛ فقد نامت ولم تظهر إلا عندما قوي أمر أهل السنّة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث عادت بشكل

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٨٩ وما بعدها . انظر المقريزي (الخطط) ج ٢ ص ٤٩٤ حيث يقول : على دراريعهم بدلا من على ذراريهم . (أبو المحاسن ج ٢ ص ١٧٤ ــ ١٧٥) . وكان للصابئة ايضا لباس ذو لون خاص (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٥) . وقد حدث لأول مرة في الغرب عام ١٢١٥ م في مؤتمر لاتيران أن طُلب إيجاد علامة خاصة لليهود ، ولعل هذا أتى من معرفة الغربيين بأنظمة الشرق .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤١٩ ، ويحكي بنيامين (ص ٢٤) أن اليهود كانوا يمنعون في القرن الثاني عشر الميلادي من ركوب الخيل بالقسطنطينية .

(٣) Elias Nisibenus, S. 188. ؛ ويحكي الطبري تهديم العامة للبيع في حوادث سنة ٢٧٢ هـ .

(٤) ديوان ابن المعتز طبعة مصر ١٨٩١ ج ٢ ص ٩ ، قارن النجوم الزاهرة طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ .

جدي • وفي عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م صدر توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة ملابس يُعرفون بها عند المشاهدة ، واستدعي لذلك جاثليق النصارى ، ورأس جالوت اليهود في جمع حافل من الأشراف والوجوه ، فقالوا : السمعَ والطاعةَ[١] •

وظهر في هذا العصر لأول مرة منعُ أهل الذمة من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين ؛ فإن ملكوا بيوتا عالية أُقِرُّوا عليها ، ومُنعوا من الإشراف منها على المسلمين وأهل الذمة[٢] • وأول من ذكر هذا فيما أعلم هو أبو الحسن الماوردي المتوفي عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م • وقد سرت هذه الفكرة بعد ذلك إلى الغرب ، فنجد البابا إنّوسِنت الثالث يشكو من أن اليهود بنوا في مدينة سِنس كنيسة لهم تعلو على كنيسة مسيحية مجاورة لها[٣] •

ولم يكن الاستهزاء والبغضاء بين الأديان أقلّ منه بين الأجناس ؛ ومن أمثلة ذلك أن اليهود وُصفوا بأنهم أنتن خلق الله فِناءً[٤] ، وكذلك وُصف النصارى بشدة السكر وخصوصاً غداة عيد الفصح[٥] ، وبأن راهباتهم وشمامستهم ضعفاء الفضيلة • وكذلك يُرمى الصابئة بأن بينهم من المعاداة ما لا يكون بين غيرهم ، وأن بعضهم يسعى في بعض ، ويقبّح عليه ما وجد إلى ذلك سبيلا[٦] • وكان المسلمون المثقّفون يعلمون حقا أن المسيحية قد حثّت على المحبة ورقّة القلب أكثر مما حثت على ذلك جميعُ الديانات ؛ ولكنهم كانوا يرون أن النصارى قلّما

(١) المنتظم ص ١٩٢ ب •

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٢٨ • وقد بين الماوردي أن الأصل في ذلك المنع من الاشراف على منازل الناس •

(٣) انظر .Caro, I, 296

(٤) انظر مثلا أدب الكاتب لابن قتيبة طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ص ٢٦ •

(٥) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٩٧ حيث يتمثل شاعر بسكر النصارى في هذا اليوم •

(٦) أخبار الحكماء للقفطي ص ٣٩٨ من الطبعة الأوربية •

يعملون بذلك ؛ يقول الجاحظ : « وكلُّ خِصاء في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم ؛ ومن العجب أنهم نصارى ، وهم يدّعون من الرحمة والرأفة ورقة القلب والكبد ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف ، وحَسْبُكَ بالخِصاء مُثْلةً وحسبك بصنيع الخاصي قسوةً »[1] ؛ وكذلك تكلّم البيروني في صدد كلامه عن العقوبات والكفّارة عند الهنود عن فلسفة نبيلة بينهم فهو يقول : « مثال الحال فيهم على شبيه بحال النصرانية فإنها مَبْنِيَّة على الخير وكفّ الشر ، من ترك القتل أصلا ، ورمي القميص خلف غاصب الرداء ، وتمكين لاطم الخدّ من الخدّ الأخرى ، والدعاء للعدو بالخير ، والصلوات عليه ؛ وهي لعمري سيرة فاضلة ، ولكن أهل الدنيا ليسوا بفلاسفة كلهم ؛ وإنما أكثرهم جُهّال ضُلاّل ، لا يُقوِّمهم غيرُ السيف والسوط ، ومنذ تنصّر قسطنطينوس المظفّر لم يسترح كلاهما من الحركة ؛ فبغيرهما لا تَتِمُّ السياسة »[2] .

ومن الأمور التي نعجب لها كثرةُ عدد العمال والمتصرّفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية ؛ فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام[3] ؛ والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة[4] ؛ ويحكى عن عُمَرَ بن الخطاب أنه لما عرف أن لأبي موسى الأشعري كاتباً نصرانيا ضرب فخذه ، وقال : ألا اتخَذْتَ رجلاً حنيفاً ، وكان عُمَرُ أيضاً يأبى أن يتخذ الكتّاب من النصارى أو اليهود[5] . وقد قُلّد ديوان جيش المسلمين

(١) كتاب الحيوان طبعة مصر ١٩٠٧ ص ٥٦ .

(٢) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة طبعة سخاو ص ٢٨٠ .

(٣) فيما يتعلق بالشام انظر المقدسي ص ١٨٣ ، وفيما يتعلق بمصر انظر يحيى بن سعيد ص ١٢٢ ا .

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة جوتنجن سنة ١٨٩٦ ص ٩٦ .

(٥) نفس المصدر المتقدم ص ٦٢ .

لرجل نصراني مرتين في أثناء القرن الثالث ، فوجه اللوم للوزير لأنه « جعل أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يديه ويمتثلون أمره »[١] . وكان المتصرفون النصارى واليهود يقسمون اليمين ، شأنهم شأن المسلمين ؛ وقد جاءت في كتاب ديوان الإنشاء الذي ألف عام ٨٤٠ هـ — ١٤٣٦ م صيغة اليمين الذي كان يقسمه اليهود في ذلك العهد ؛ وذكر أيضاً أن أول من استحدث هذه الأيمان لأهل اليهودية الفضل بن الربيع وزير الرشيد ، أحدثها له كاتب عنده ، ومنها استنبطت هذه الألفاظ[٢] .

وكانت الحركات التي يقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولا إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين ، وسيطرة أهل الذمة شيء لا يحتمله المسلم الحق . وفي عام ٢٣٥ هـ — ٨٤٩ م أمر الخليفة المتوكل ألا يستعان بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين[٣] ؛ فمن ذلك أمر بعزل النصارى عن مقياس النيل[٤] ، ولكن هذا الخليفة نفسه بنى بعد ذلك بعشر سنين ، قصره المسمى بالجعفري ، وأجرى إليه نهراً ، وصير النفقة عليه إلى دليل ابن يعقوب النصراني[٥] ؛ وفي عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م كان النصارى قد علا أمرهم وغلبوا على الكتاب ، فأمر المقتدر بما أمر به المتوكل من رفضهم واطراحهم عن الخدمة[٦] ؛ وفي هذه السنة نفسها أمر المقتدر ألا

---

(١) كتاب الوزراء ص ٩٥ .

(٢) كتاب ديوان الانشاء مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩ ص ٣٠٣ ا — ٣٠٤ ا ، وانظر . Fagnan, Rev. Et. juives, 1910 S. 229.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٨٩ — ١٣٩٠ .

(٤) الولاة للكندي ص ٢٠٣ .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤٣٨ .

(٦) عريب ص ٣٠ .

يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا في الطب والجَهْبَذة[1] ، ولكن أمر المقتدر كان ضعيف الأثر إلى درجة مضحكة ؛ فقد كان وزيره أبو الحسن علي بن الفرات يدعو أربعة من النصارى إلى طعامه كل يوم ، وكانوا في جملة الكتّاب التسعة الذين اختص بهم[2] . وكان الكتّاب المسيحيون منتشرين في كل مكان حتى إن محمد بن عبد الله بن طاهر في القرن الثالث اتخذ له قهرماناً نصرانيا[3] ، ولما أراد المقتدر أن يستوزر الحسين بن القاسم عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م راسله في أن يجتهد في إصلاح أعدائه ، فابتدأ ببني رائق ، فكان يمضي إلى كاتبهم النصراني ويضمن له الضمانات ؛ ثم فعل ذلك بأصطفن بن يعقوب كاتب مؤنس ، وقال له : « إن تقلّدْتُ الوزارة فأنت قلّدْتَنِيها » ، وكذلك فعل بغير هؤلاء من كتّاب النصارى[4] . وكان الحسين بن القاسم يسعى دهره في طلب الوزارة ، وكان يتقرب إلى النصارى الكتّاب بأن يقول لهم : « إن أهلي منكم ، وأجدادي من كباركم ، وإن صليباً سقط من يد عبيد الله بن سليمان ، جدّي ، في أيام المعتضد ، فلما رآه الناس قال : هذا شيء تتبرك به عجائزنا ، فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم » تقرّباً إليهم بهذا وشِبْهه[5] .

ولقد كان تقدير هذا الوزير صحيحاً ، ففي عهد المقتدر نفسه ، وهو

---

(١) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ ؛ وكان النصارى في مصر مثلا يستخدمون كثيراً في أعمال الجهبذة ، كما تدل على ذلك أوراق البردي ، وفي عام ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م كان أحدهم يطبع البراءات بختمه الذي عليه الصليب . (انظر Karabacek, Mitteilungen II/III S. 168) .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٣) كتاب الديارات مخطوط برلين المتقدم ص ٥١ ا .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢ .

(٥) عريب ص ١٦٤ .

الذي أراد اطّراح النصارى عن المناصب العامة ، تقلد هذا الرجل الذي كان يتقرّب إلى النصارى ويتملّقهم منصب الوزارة . وإلى جانب ما ذكرنا نجد أن رئيس المتآمرين على مؤنس المظفر كان مفلحاً الأسود الخادم ، وكان الأمر كله ، كما يقول عريب ، لهذا الخادم ولكاتبه النصراني بشر بن عبد الله ، وكان بشر هذا محبوباً[1] . وفي عام ٣٢٤ هـ ــ ٩٣٥م مات أصطفن بن يعقوب النصراني صاحب بيت مال الخاصة[2] . وكذلك ابتدأ عليُّ بن بويه بأن اتخذ له كاتباً نصرانيا من أهل الري[3] . ولما خرج الوزير عز الدولة إلى البصرة عام ٣٥٧ هـ ــ ٩٦٧ م استخلف أبا العلاء صاعد بن ثابت النصراني بالحضرة[4] . وكذلك كان للخليفة الطائع (٣٦٣ ــ ٣٨١ هـ = ٩٧٣ ــ ٩٩١ م) كاتبٌ نصراني[5] . وفي النصف الثاني من القرن الرابع اتخذ كل من عضد الدولة (المتوفي عام ٣٧٢ هـ ــ ٩٨٢ م) في بغداد والخليفة العزيز في القاهرة وزيراً نصرانيا . وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيّدَه في عمارة البيع والديرة وفي إطلاق المال لفقراء النصارى ، فأذن له[6] . وقد أفتى بعض فقهاء الإسلام الكبار بأنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ لا وزير التفويض من أهل الذمة[7] . وقد ولّى المأمون على مدينة بوره بمصر عاملا

---

(١) عريب ص ١١١ ــ ١١٢ .

(٢) الأوراق للصولي ص ٩٦ .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣١٠ .

(٤) ديوان ابن الحجاج ج ١٠ ص ١٨ .

(٦) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ .

(٧) وزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبّر الجيش ؛ اما وزير التفويض فهو الذي يفوض السلطانُ إليه تدبيرَ المملكة برأيه ، وهو يشارك السلطان في حكمه ، وليس وزير التنفيذ إلا سفيراً بين السلطان والرعية . انظر كتاب العقد الفريد لابي سالم محمد بن طلحة المتوفي عام ٦٥٢ هـ ص ١٤٧ من طبعة مصر . (المترجم)

مسيحيا ، فكان إذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة ، وركب برذوناً وقدامه أصحابه ، فإذا وافى باب المسجد وقف ، ودخل خليفته ، وكان مسلماً يصلي بالناس ويخطب للخليفة ، ثم يخرج إليه[1] • وكان لخمارويه وزير نصراني فاجتاز يوماً راكباً فتعرض له بنان الحمال الصوفي وأنزله عن دابته ، وقال له : لا تركب الخيل ، فأمر خمارويه أن يؤخذ بنان ويطرح بين يدي سبع ، فطرح وبقي ليلته ، فلما جاء الصباح وجدوا بناناً قاعداً مستقبلا للقبلة ، والسبع بين يديه[2] • وفي عام ٣٨٩ هـ ــ ٩٩٩ م توفي القاضي محمد بن النعمان، فوجد عليه مال من أموال اليتامى وغيرهم ، فأرسل كاتب نصراني يسمى فهداً ، فاحتاط على القاضي وشرع في تغريم الشهود الذين كان القاضي أودع عندهم الأموال ، وألزم ابن القاضي ببيع ما خلفه أبوه للوفاء بالودائع[3] •

ومن العجيب أنه على الرغم من هذا الوضع الذي لم يكن طبيعياً لا نجد المؤرخين ، حتى المسيحيين منهم ، يذكرون إلا قليلا من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة في القرن الرابع الهجري ، وسأقصها كما ذكروها : في سنة ٣١٢ هـ ــ ٩٢٤ م ثار المسلمون بدمشق وهدموا كنيسة كبيرة ، وأخذوا منها زهاء مائتي ألف دينار من صلبان ذهب وفضة وكؤوس وصوانٍ ونحوها ، ونهبوا دياراتٍ كثيرة ، وكذلك ثاروا بالرملة فهدموا كنيستين للملكية وهدموا كنيسة قيسارية ، فرفع النصارى الأمر إلى المقتدر فوقع لهم ببنيان هذه الكنائس[4] • وكذلك

---

(١) يحيي بن سعيد ص ٧٤ ب .

(٢) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ .

(٣) القضاة للكندي ص ٥٩٥ ، ٥٩٧ .

(٤) يحيي بن سعيد ص ٨١ ا ، والخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٩١ .

ثار المسلمون بعسقلان ، فهدموا كنيسة كبيرة ، ونهبوا ما فيها ، وأحرقوها ؛ وعاضد اليهودُ المسلمين في هدمها ، وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكَر إلى أعلى السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها فتقع العُمُد ، وقد خرج أسقف عسقلان إلى مدينة السلام متوسّلا لردّها ، فلم ينجح له سعي[1] . وفي سنة ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م ثار المسلمون في بيت المقدس ونهبوا بعض الكنائس[2] . وفي سنة ٣٨١ هـ — ٩٩١ م استهزأ رجلان من المسلمين بمنجّم مسيحي لأنه لم يكن يحمل علامات النصارى . فشكا ذلك إلى رئيسه ، فسجنهما فشعثت بعد ذلك كنيستان ؛ وقد هدّأ الجاثليق هذه القصة بعد هدايا كثيرة[3] . ثم هاج المسلمون بعد ذلك ، لأنهم وجدوا رأس خنزير في أحد المساجد ، وظنوا أن النصارى هم الذين رموه[4] . وفي عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م ثار العامة بالنصارى في مدينة السلام لمقتل أحد المسلمين ، ونهبوا بَيْعَةً وأحرقوها ، فسقطت على جماعة من المسلمين رجالا وصبيانا ونساءً ، وكان الأمر عظيما[5] . وفي عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م توفيت بنت أبي نوح الأهوازي الطبيب زوجة أبي نصر ابن إسرائيل كاتب المناصح أبي الهيجاء ؛ فأُخرجت جنازتُها نهاراً ، ومعها الطبول والنوائح والزمور والرهبان والصلبان والشموع ؛ فقام رجل من الهاشميين فأنكر ذلك ، ورَجَم الجنازة ، فوثب أحدُ الغلمان بالهاشمي، فضربه بدبوس على رأسه فشَجّه فسال دمه ؛ وهرب النصارى بالجنازة إلى بيعة باب الروم ؛ فتبعهم المسلمون ، ونهبوا البيعة وأكثر دور

---

(١) يحيي بن سعيد ص ٨٤ ا — ب .

(٢) نفس المصدر ص ٨٢ ا .

(٣) Barhebraeus Chron. eccles. III, 259.

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ص ٢٦٢ ، وما يليها ، كتاب الوزراء ص ٤٤٣ ، والمنتظم لابن الجوزي ص ١٤٧ ب .

النصارى المجاورة لها ؛ وثارت الفتنة بين غلمان أبي الهيجاء وبين العامة ، ورُفعت المصاحف في الأسواق ، وغُلّقت أبواب الجوامع ؛ وقصد الناس إلى دار الخليفة على سبيل الاستنفار ، فطلب الخليفةُ الكاتبَ من المناصح ، فامتنع فغاظ الخليفةَ امتناعُه ، وتقدّم بإصلاح الطيّار للخروج عن البلد ، وجمع الهاشميين إلى داره ، واجتمعت العوامُ في يوم الجمعة ؛ وقصدوا المناصح فدفع غلمانُه رجلاً ذُكر أنه علوي ، فزادت الشناعة ؛ وامتنع الناس من صلاة الجمعة ، وظفرت العامة بقوم من النصارى ، فقتلوهم وتردّدت الرسائلُ بين الخليفة وبين المناصح إلى أن بذلَ الكاتبَ النصراني إلى دار الخلافة ، فكفّ العامة عن ذلك، ثم أُفرج عن الكاتب بعد قليل[1] وهذه الحوادث قليلة جداً بالقياس إلى بلاد المشرق كلها على سعتها . أما في مصر فكانت العلاقات بين المسلمين والنصارى متوترّة ؛ فقد كان في مصر كنيسة" متحدة أمام الإسلام ، وكان بها شعب" له لغته الخاصة وشخصيته أمام العرب ، ولم يبدأ القبط في ترك لغتهم القبطية إلا حوالي أواخر القرن الرابع[2] . وفي القرنين الأوّلين للهجرة لم تنقطع ثورات القبط ؛ بل تتابعت حتى أُخمدت آخرها عام ٢١٦ هـ ــ ٨٣١ م . وفي ذلك الوقت كان كل أهل الطبقة الوسطى بمصر نصارى ؛ وكان بين العرب والقبط من قلة التفاهم

(١) المنتظم ص ١٥٩ ا .

(٢) ولعل أحسن ما يشهد بهذا أن المقدسي ، وقد كان بمصر في أواخر القرن الرابع ، يقول عن أهل مصر : إن ذمّتهم يتحدثون بالقبطية (ص ٢٠٣) ، على حين أن أسقف اشمون بمصر يقول في كتابه سير البطاركة الذي ألفه بعد عام ٤٠٠ هـ ــ ١٠١٠ م بقليل : إنه استعان ببعض المسيحيين الأكفاء على نقل ما وجده من أخبار البطاركة بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي « الذي هو الآن معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم» . (كتاب سير البطاركة لساويرس بن المقفع طبعة بيروت سنة ١٩٠٤ ص ٦) . على أن الشعر القبطي الشعبي الذي عرفناه من القرن العاشر الميلادي هو شعر ديني خالص كما رأيت ذلك من ترجمة العالمين H. Junker, A. Erman لهذا الشعر .

ما كان بين اليونان والمصريين من قبل ، وذلك على الرغم من أن الأقباط قد أدخلوا منذ أول الأمر في الحديث أحاديثَ يوصي فيها النبي بالأقباط خيراً ؛ ومن هذه الأحاديث ما يبيّن بكل جراءة الدورَ الذي يقوم به الكتّاب النصارى في الدولة الإسلامية ، ففي حديث ذكروه : وهم (القبط) أعوانكم على عدوّكم وأعوانكم على دينكم ، قالوا : كيف يكونون أعوانا على ديننا يا رسول الله ؟ قال : يَكْفُونَكم أعمالَ الدنيا ، وتتفرّغون للعبادة »[1] ؛ ولقد قام الأقباط بهذا الدور خير قيام حتى إن أكثر الفتن التي وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تجبُّر المتصرفين الأقباط ؛ ولما جاءت انتصارات الروم على المسلمين حوالي منتصف القرن الرابع الهجري كان لها صداها في مصر ؛ فلما ورد الخبر بأن الروم دخلوا الشام عام ٣٤٩ هـ ــ ٩٦٠ م وقتلوا وخرّبوا ، هاج المسلمون على النصارى ، ووقعت صيحةٌ في الجامع العتيق بعد صلاة الجمعة فهاج الرعاع ونهبوا كنيستين[2] . ولما غزا الإمبراطور نقفور جزيرة أقريطيش في العام التالي ووصل خبرُ ذلك إلى مصر ثار المسلمون وقصدوا كنيسة ميخائيل التي للمَلَكيّة بقصر الشمع فشعثوها وخربوها ، وظلت مغلقة مدة طويلة وأبوابُها مطمورةٌ بالتراب[3] .

وقد أظهر خلفاء الفاطميين الأولون لأهل الذمة تسامحاً نَعْجَب له ؛ إذ لا يُنتظر ذلك من قوم مثلهم ، لهم مذهبٌ خاص انفردوا به ، وخالفوا به جمهور المسلمين ؛ فقد كان للخلفاء الفاطميين أطباءُ من

---

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٤ ــ ٢٥ ، وكتاب تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني ص ٢٨ ب نقلا من كتاب فضائل مصر .

(٢) يحيي بن سعيد ص ٩٢ ا .

(٣) نفس المصدر ص ٩٢ ب .

اليهود ، ولم يَحتَج هؤلاء الأطباء إلى تغيير دينهم[1] ؛ وعَظُم نفوذُهم حتى صار لا يُعمل شيء في بلاط المعز إلا بمعونة اليهود ؛ عرف ذلك الوزيرُ الداهيةُ ابنُ كلّس الذي كان يهوديا ، فأسلم وصار يتحيز إلى إخوانه في الدين من قبل[2] . وكانت النزعة العقلية في مذهب الإسماعيلية واعتقادهم بإمكان إقامة الدليل النظري عليه مما مهّد للمناقشة العلنية بين المسلمين والنصارى لأول مرة في تاريخ الإسلام[3] . وفي عهد العزيز بالله زاد بلاط الخليفة في إكرام النصارى ؛ وذلك أنه كان للعزيز أصهار" مسيحيون منهم أرستس خال السيدة ابنة العزيز بالله ، وقد صُيِّر بطريركا على بيت المقدس ، وصُيِّر أخوه أرمانيوس مطراناً على القاهرة ومصر ، وكان لهما جميعاً محلٌ لطيف عند العزيز وتقدُّم" في مملكته[4] . فلا عجب بعد هذا أن نجد الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي يقول تعريضاً بهذه الحالة :

تنصّرْ ، فالتنصرُ دين حق ... عليه زماننا هـذا يـدلُّ

وقلْ بثلاثة عزُّوا وجلّوا ... وعَطّل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب" وهذا الـعزيز ابن وروح القدس فضل

ولما شكا الفضل إلى العزيز أمرَ هذا الشاعر وطلب معاقبته امتعض منه ، إلاّ أنه قال : أعف عنه ، فعفا عنه ؛ ثم دخل الوزير على العزيز وشكا إليه أيضاً ، فقبض على الشاعر ثم أطلقه[5] . ثم إن هذا

---

(1) Graetz : Gesch. der Juden V. 4. Aufl. S. 266.

(2) De Goeje : ZDMG, 52, S. 77 نقلا عن ابن الجوزي (مخطوط Bodl. Uri. 679 Jahr 380.

(3) Guyard, Grand Maître des Assassins, S. 14.

(4) يحيى بن سعيد ص ١٠٨ ا .

(5) ابن الاثير ج ٩ ص ٨٢ .

الخليفة نفسه استوزر بعد ذلك عيسى بن نسطورس النصراني ، واستناب بالشام يهودياً اسمه منشا ؛ فاعتزّ بهما النصارى واليهود ، وآذوا المسلمين ؛ فكتب أهل مصر رقعة وجعلوها في يد صورة عملوها من الورق ، وأقعدوا الصورة في طريق العزيز والرقعة بيدها ، وفيها : بالذي أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذلّ المسلمين بك إلاّ كشفتَ ظلامتي ! فلما رآها العزيز علم ما أريد ، فقبض على الرجلين وصادرهما[1] . وفي عهد هذا الوزير النصراني وقعت فتنة بين المسيحيين والمسلمين وذلك أنه لما خرج الإمبراطور باسيليوس إلى الشام لفتحها في عام ٣٨٦ هـ ـ ٩٩٦ م برز العزيز في سائر جيوشه وأظهر العزم على غزو بلاد الروم ، وأمر عيسى بن نسطورس بإنشاء أسطول يسير معه ؛ فلما تم إعداده وقعت فيه نار في اليوم الذي عزم فيه العزيز على السير ، واتهم الرعيةُ تجّار الروم الواردين بالبضائع إلى مصر بإحراقه ، فثار العامة وقتلوا منهم مائة وستين رجلا ، ثم تحوّلوا عن الروم إلى نهب كنائس النصارى ، وجُرح في هذا الشغب أسقفُ النسطوريين جراحات مات فيها . وقد أعاد الوزير النظام إلى نصابه واعتقل ثلاثة وستين من النهّابة ، وأمر العزيز بإطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم وقتل ثلثهم ، وذلك بأن كتب رقاعاً على بعضها : تُضرَب ، وعلى بعضها تُقتَل ، وعلى بعضها تُطلَق ؛ وأمر كل واحد من النهّابة أن يأخذ رقعة منها بعد أن وُضعت تحت إزار ، فكان يُعمل به بحسب ما يخرج في يده[2] . وفي عام ٣٩٣ هـ ـ ١٠٠٣ م بدأت علامات العاصفة

---

(١) نفس المصدر ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١١٢ ب ـ ١١٣ ا ، ويحكي المقريزي (الخطط ج ٢ ص ١٩٥ ـ ١٩٦) هذا باختصار ، ولكنه يزيد على ذلك أنه طيف بمن أطلق ، وفي عنق كل واحد رأسُ رجل ممن قتل من الروم . ولا نجد مثلا آخر لهذه العقوبة في القرن الرابع .

التي أثارها تعصب الخليفة الحاكم بأمر الله[1] • ولما رأى العامة أن العنان قد أُرسل لهم ، بدأوا يهدمون الكنائس ، وبنى الخليفة مكانها مساجد ، منها الجامع الأزهر المشهور ؛ ثم أعاد الحاكم قوانين اللباس القديمة على أشد صورها ، فألزم النصارى أن يعلّقوا في أعناقهم صُلبانا من الخشب ؛ ومُنعت مواكبهم العامة ، وحُظِر عليهم ضرب النواقيس؛ وأمر ألا يظهر صليبٌ ولا تقع عليه عينٌ ؛ فنُزِعت الصُلبان من الكنائس وطُمست آثارُها من ظاهر البيع والكنائس•وأُتلفت الكنائس الكبرى مثل كنيسة القبر بالقدس ودير القصير الكبير المبني على سفح جبال المقطم ؛ وقد انتهك المسلمون حرمة المقبرة الكبرى في هذا الدير ؛ ولكن الحاكم لم يُرِدْ ذلك ، وقد أمر بمنعه بمجرد علمه به • ورغم هذا كله استوزر الحاكم منصور بن سعدون النصراني ، واتخذ لنفسه أطباء نصارى طول هذه المدة • وقد تقدم بإثبات أسماء سائر المسلمين المتعطلين والمتصرّفين من الكتّاب الذين يصلحون للخدمة في دواوينه ليستعيض بهم عن النصارى • « وكان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى إلا نفراً يسيراً من الكتّاب » ؛ ثم كثرت الشناعات السيئة في النصارى ، فاجتمع سائر من بمصر من الكتّاب والعمال والأطباء وغيرهم من أساقفتهم وكهنتهم وتوجهوا إلى قصره في يوم الخميس ثاني عشر ربيع الأول سنة ٤٣٠ هـ (١٠١٢ م) ، وكشفوا عن رؤوسهم من باب القاهرة ، ومشوا حُفاةً باكين مستغيثين إليه يسألونه العفو والصفح ، ولم يزالوا في طريقهم يقبّلون التراب إلى أن وصلوا إلى قصره ، وهم

---

(١) أوسع تاريخ للحاكم هو ما حكاه دي ساسي (De Sacy : Exposé de la religion des Druses, CCLXXVIII ff.) ، ولكن دي ساسي لم يرجع إلى تاريخ يحيى ابن سعيد معاصر الحاكم ، وهو الذي أكمل تاريخ يحيي بن البطريق ، وهو مؤرخ ثقة معتدل. ومن هذا الكتاب خاصة نستطيع معرفة الحوادث بحسب ترتيبها التاريخي لأول مرة ، أما ما كتبه المؤرخون المعاصرون الآخرون مثل الأسقف سيفروس (Severus) فهو أشبه بقصص الاتقياء .

على تلك الحال ؛فأنفذ إليهم أحداً أصحابه ، وأخذ منهم رقعة كانوا قد كتبوها يلتمسون فيها عفوه عنهم ؛ ثم عاد الرسول إليهم وردّ عليهم ردّاً جميلا ، ووعدهم بما اطمأنت له قلوبهم ؛ فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر أُمروا بتعظيم الصلبان التي في رقابهم ، وأن يجعلوا طولها ذراعاً ملكياً في عرض مثلها ، وأن يكون سمكها إصبعاً ، وأمر اليهود أن يعلّقوا في أعناقهم أيضا أُكَرَ خشب من خمسة أرطال إشارةً إلى رأس العجل الذي عبدوه سالفاً ؛ وتهدد النصارى ، وكثر الإرجاف بهم ، فأسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرّفين ، وتبعهم خلقٌ من عوامّ النصارى ؛ وتلاحقوا فلم يبق منهم إلا نفر يسير ؛ ولم تزل الطرقات أياماً عدة لا يُرى فيها نصراني • على أن كثيراً ممن أسلموا إنما تظاهروا بالإسلام تَظاهُراً ، ومنهم محسن بن بدوس الذي قتل عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٤ م وهو يلي بيت المال إذ ذاك ، فقد قيل إنه لما قُتل وجد أغلف لأنه كان نصرانياً،وكان قد ظاهر عند إسلامه أنه أحضر الخاتن وختنه ، ولم يكن من ذلك شيء[1] • أما اليهود فإنهم تمسكوا بدينهم ولم يُسْلِمْ منهم إلا نفرٌ يسير ، وكذلك النصارى الذين في بقية البلاد ، فلم يُسْلِمْ منهم في بقية أعمال المملكة إلا قليل ، وهُدمت ألوف كثيرة من الكنائس والأديرة واستُخرِج من المتولّين أمرها من النصارى في كل بلدة ما دُفع إلى الفَعَلة الذين قاموا بهدمها ؛ وأُتي على جميع أديرة المملكة إلا الدير القديم المجاور للإسكندرية والدويرة القريبة منه ، لأن بعض قبائل العرب دافعوا عنها لمنافع لهم فيها • وأُوعز بهدم دير طورسيناء ، وأقطعه الحاكم لرجل توجه إليه ، فكان من حكمه المترهّب فيه أنه أحسن لقاء الرجل وسلّمه جميع آلات الدير ، وتلطّف

(١) انظر حكاية المسبّحي (المتوفي عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) التي ذكرها بكر
C. H. Becker, Beiträge Zur Geschichte Aegyptens, I, S. 61.

في إفهامه أن هدمه يصعب عليه وعلى غيره لحصانته ووثاقة بنيانه ، وأنه يحتاج في هدمه إلى نفقات تفوق ما يحصل له منه،فترك الرجل التعرّض له • ولكن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد ، فلما وصلت إلى أنفه رائحةُ المذهب الدرزي الذي كان قد ظهر حديثاً ومال إليه وأراد أن يُقوّيه على رغم معارضة المتمسكين بأصول الإسلام الأولى لم يعد لديانات أهل الذمة ما كان لها من أثر في نفسه ؛ ففي عام ٤١٠ هـ — ١٠١٩م رُفع إليه عدةمرات أن النصارى يجتمعون في بيوتهم ويقدّسون ويصلون ويحضر معهم جماعة من الذين أسلموا فيشاركونهم في أخذ القربان ، فلم ينكر ذلك,وأعرض عن كلام الساعين • وفي هذا العام نفسه أعاد جميع الأوقاف المقبوضة التي كانت برسم دير طورسيناء ، كما أذن بعمارة دير القصير وأطلق ما كان برسمه من الأوقاف[١] •

وفي عهد الخليفة الظاهر الذي جاء بعد الحاكم عاد كل شيء إلى ما كان عليه ، فعاد النصارى إلى التظاهر بأعيادهم وخروج الباغوث إلى كنائسهم التي في ظاهر المدينة والقاهرة ، والخليفة بمصر يحضر لمشاهدة اجتماعاتهم ويتقدم بصياتهم[٢] • وخفّفوا الغيار الذي كان عليهم ، ولم يبق من ذكر عهد الخليفة المجنون إلا لباسُ زِنار أو عمامة سوداءٍ ، وهي التي يلبسها المسيحيون منذ ذلك الحين[٣] •

وقد ولى الوزارة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦ هـ إلى ٤٣٩ هـ = ١٠٤٤

(١) يحيي بن سعيد ص ١٢١ ب — ١٢٢ ، ص ١٣١ ا — ١٣١ ب •

(٢) انظر الفصل الخاص بالأعياد •

(٣) يحيي بن سعيد ص ١٣٣ ب ، كانت الأوامر الخاصة باللباس لا تزال تتكرر بين حين وآخر ، فمن ذلك أن السلطان الناصر بن قلاوون في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أمر أن يلبس النصارى العمائمَ الزرق ، واليهودُ العمائمَ الصفر ، والسامرة العمائم الحمر (كتاب الأوائل لعلي دده ، مخطوط برلين المتقدم الذكر ص ٥٩ ا) ،ولا يزال السامرة بفلسطين يلبسون العمائم الحمر إلى اليوم •

إلى ١٠٤٧ م أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي ، وكان يهودياً فأسلم ؛ وكان يدبر الدولة معه أبو سعد التستري اليهودي ولذلك قال الشاعر المصري الحسن بن خاقان :

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا   غايةَ آمالهم وقد ملكوا

العزُّ فيهم والمال عندهمو   ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إني نصحت لكم   تهوّدوا ، قد تهوّد الفلك[1]

*

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١١٧ .

الفصل الخامس

الشيعة

لما جاء القرن الرابع الهجري كان حزب الخوارج قد فقد ما كان له من شأن ، بعد أن كان أقدم حزب يناوىء الخلافة الرسمية ؛ وأصبح الخوارج مفرّقين في وسط المملكة الإسلامية ، يؤلّفون جماعات صغيرة صغيرة لها مذهبها الخاص ؛ وكان لهم خروج وحروب بديار ربيعة وعمان وغيرها في أوائل القرن الرابع[1] ؛ ولم تكن لهم قوة" وصَوْلة" إلا في الأطراف : في بلاد سجستان ونواحي هراة[2] ، وكذلك في الغرب ، حيث دخل فيهم البربر المقيمون على شاطىء مضيق جبل طارق[3] . وقد واصل الشيعة المهدية ، القرامطة والفاطميون ، ما كان قد بدأه الخوارج من مكافحة الخلافة ؛ وكان هذا علامة من العلامات التي تنذر بنهاية الأصول الإسلامية الأولى ، ذلك أنه من أكبر ما تمتاز به الحركة الفكرية في القرن الرابع الهجري ظهور مذهب الشيعة يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة ، ويجعلها مكان بعض الأفكار الإسلامية .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٣٢٠ .

(٢) مقدسي ص ٣٢٣ .

(٣) Goldziher, ZDMG, 41, S. 31 ff. ، وكانوا إباضية نكارية ؛ أما في المشرق فكانوا على مذهب الصفرية المتطرفين . ويقول ابن حزم (الفصل ج ٤ ص ١٩٠) : إن فرق الخوارج كلها قد بادت ولم يبق على عهده إلا الاباضية والصفرية . وفي أيامنا هذه لم يبق من الخوارج جماعة" مهمة إلا عرب عُمان ومن تأثر بهم في إفريقية الشمالية .

ولقد أبانت لنا مباحث ڤلهاوزن بصورة أدنى إلى الصواب أن مذهبَ الشيعة ليس ـ كما كان يعتقد البعض ـ ردّ فعل من جانب الروح الأيرانية يخالف الإسلام[1] . ومما يؤيد أبحاث ڤلهاوزن التوزيعُ الجغرافي للشيعة في القرن الرابع ؛ وقد ألمح الخوارزمي في أواخر القرن الرابع إلى أن العراق هو الموطن الأول للتشيّع[2] . وكانت الكوفة ، وبها قبر عليّ (رضي الله عنه) أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد وكان يقال : « من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) ولنيَقل: رحم الله عثمانَ بنَ عفان »[3] . وفي غضون القرن الرابع امتدّ مذهب الشيعة إلى البصرة ، وهي المنافس القديم للكوفة والتي كان يقال عنها في القرن الثالث : أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا إلا القليل ، « وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها عليّ وشيعته »[4] ؛ وفي البصرة اضطر أبو بكر الصولي (المتوفي عام ٣٣٠ هـ ــ ٩٤٢ م) أن يستتر حتى مات لأنه روى خبراً في عليّ (رضي الله عنه) ، فطلبته الخاصة والعامة لتقتله[5] . وفي القرن الخامس الهجري كان في البصرة ما لا يقلّ عن ثلاثة عشر مكاناً تتصل بذكرى عليّ[6] ، وكان يقدسها الشيعة . بل كان يوجد في المسجد الكبير في ذلك الوقت أثرٌ من آثار عليّ يُعرض للناس ، وهو قطعة من الخشب طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها خمسة أشبار وسمكها أربعة

(١) راجع كتاب Julius Wellhausen. Die religiös-politischen Oppositions-parteien im alten Islam, Berlin 1901, S. 91.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي طبعة القسطنطينية عام ١٢٩٧ ص ٤٩ .

(٣) تاريخ بغداد مخطوط رقم ٢١٢٨ بمكتبة باريس الأهلية ص ١٤ ب ، ويقول المقدسي (ص ١٢٦) : إن أهل الكوفة شيعة إلا الكناسة فإنها سنية .

(٤) ثلاث رسائل لأبي عثمان الجاحظ طبعة فان فلوتن بليدن ١٩٠٣ ص ٩ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ١٥٠ .

(٦) ناصر خسرو ص ٨٧ .

أصابع ، يقال إن علياً جاء بها من الهند[1] . وكانت الشام منذ أول الأمر تربةً غير صالحة لدعوة العلويين ؛ ويحكى أن أبا عبد الرحمن النسائي (٢١٥ ــ ٣٠٣) دخل دمشق ، وكان يتشيَّع ، فسُئل عن معاوية وما رُوي من فضائله فقال : أما يرضي معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضَّل ؟ وفي رواية أنه قال : ما أعرف له فضيلة إلا « لا أشبع الله له بطناً » ، فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ثم داسوه،ثم حُمل إلى الرملة ، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدَّوْس[2] وكان أهل طبرية ونصف نابلس وقَدَس وأكثر عمان شيعة[3] ، ولا أدري كيف كان ذلك . ورغم قيام الدولة الفاطمية نلاحظ أن حزب الشيعة لم يتقدم إلا قليلا ؛ وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس في عام ٤٢٨ هـ ــ ١٠٣٧ م شيعة[4] ، فقد جاء ذلك من أن بني عمّار ، وهم إحدى الأسرات الصغيرة الكثيرة على الأطراف ، كانوا هناك على مذهب الشيعة ؛ ويظهر أنهم عملوا بمقتضى القاعدة السيئة التي تجعل للأمير الحق في فرض المذهب الذي يريده[5] ، وهي قاعدة لم ينادِ بها أحدٌ في الإسلام فضلاً عن أن تُطبَّق تطبيقاً شرعيا . وكانت جزيرة العرب شيعة كلها عدا المدن الكبرى مثل مكة وتهامة وصنعاء وقَرح ، وكان للشيعة غلبةٌ في بعض المدن أيضا مثل عمان وهجر وصعدة[6] . وفي بلاد خوزستان التي تلي العراق كان نصف الأهواز ، وهي القصبة ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) الوفيات لابن خلكان طبعة فستنفلد ١٨٣٥ ج ١ ص ٣٧ ، انظر ايضا طبقات السبكي ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) المقدسي ص ١٧٩ .

(٤) ناصر خسرو ص ٤٢ .

(٥) cujus regio, ejus religio ، وهذا ما تم الاتفاق عليه بين الامراء الالمان والامبراطور في آخر القرن السادس عشر ، وهو أن يكون لكل أمير الحق في ان يفرض على أهل إمارته المذهب الذي يراه . (المترجم)

(٦) مقدسي ص ٩٦ .

على مذهب الشيعة[1] ؛ أما في فارس فكان الشيعة كثيرين على السواحل التي تتصل اتصالا وثيقاً بالعراق وخصوصا بالعرب المتشيعين[2] ؛ أما في جميع المشرق فكانت الغلبة لأهل السنّة إلا أهل قـمّ فإنهم كانوا « شيعة غالية ، قد تركوا الجماعات ، وعطلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه »[3] والسبب في تفرّد أهل قمّ بذلك أن هذه المدينة قد احتلها من قبل أصحاب ابن الأشعث ، وكان رئيسهم قد أدّب ابنه في الكوفة ؛ وكان غلوّ أهل قـمّ موضع كثير من النوادر «... ومن ظريف ما يحكى أنه وُلي عليهم والٍ ، وكان سـنّيا متشدّداً ، فبلغه عنهم أنهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم مَن اسمه أبو بكر قط ولا عمر ، فجمعهم يوما وقال لرؤسائهم : بلغني أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنكم لبغضكم إياهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم ، وأنا أُقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ، ويثبت عنـدي أنه اسمه ، لأفعلنّ بكم ولأصنع ؛ فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم ، واجتهدوا ، فلم يروا إلا رجلاً صعلوكاً حافيا عاريا أحوَل أقبح خَلْق الله منظراً ، اسمه أبو بكر ، لأن أباه كان غريبا استوطنها فسمّاه بذلك فجاءوا به ، فشتمهم وقـال : جئتموني بأقبح خلق الله تتنادرون عليّ ! وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ما شئت ، فإن هواء قـمّ لا يجيء منه مَن

---

(١) نفس المصدر ص ٤١٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٣٩ .

(٣) المقدسي ص ٣٩٥ ، وقد تمثل احد الشعراء بذكر نساء قمّ الشيعيات :

فكأنهـا شيعيّة قميّـة — وكأن سيدنا الوزير إمامي

(يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٣٥) ، وكان للشيعة إلى جانب ذلك غلبة في مدينة الرقة إحدى المدن الصغرى بقوهستان (مقدسي ص ٣٢٣) ؛ وقد كان عند رجل جبة وهبها له أحد كبار الشيعة فاشتراها أهل قمّ بثلاثين ألف درهم (الاغاني ج ١٨ ص ٤٣) .

اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا،فغلبه الضحك وعفا عنهم...»[1].

وكان في قم فرقة من الغلاة وهم الغرابية ، ومذهبهم أن المال كله للبنت ، فلما ولي عليهم قاضٍ حكم للبنت بالنصف هددوه بالقتل ؛ « وهم قوم من شرار الروافض يذهبون إلى هذه المقالة لأجل فاطمة رضي الله عنها »[2] . وفي عام ٢٠١ هـ ـــ ٨١٦ م دفنت في قم السيدة فاطمة ابنة الإمام الثامن ، الرضا ، لأن قم كانت في ذلك الوقت أحب مكان يدفن الفرس فيه موتاهم،بعد مشهد . أما أصفهان فقد كان في أهلها بَلَه وغلو في معاوية على عهد المقدسي ؛ ويحكي المقدسي أنه وُصف له رجل بالزهد والتعبد ، فقصده ليسائله ، فرآه يقول إن معاوية نبي مُرْسَل ، فلما أنكر المقدسي عليه ذلك أصبح يشنّع عليه ، ولولا أن القافلة أدركته لبطشوا به[3] . وكانت أصفهان تخالف قم كل المخالفة ؛ ففي عام ٣٤٥ هـ ـــ ٩٥٦ م وقعت بها فتنة كبيرة نشأت عن اختلاف المذاهب ؛ وكان سبب ذلك أنه قيل عن رجل قمّي إنه سبّ بعض الصحابة ، فثار أهل أصفهان ، واجتمع خلق لا يحصون كثرة ، ووقع بينهم قتلى ، ونهب أهل أصفهان أموال التجار من أهل قم[4] . وفي أواخر القرن الرابع الهجري نجد الهمذاني يقول إن خراب نيسابور واضطرابها وما نزل بأهلها من بلاء ، وكذلك ما نزل بقهستان حتى صارت مَأْكَلَةَ الغُصَص ونُجْعَةَ الأكدار ، كل ذلك لفشو مقالة الشيعة فيهما . ويحكي الهمذاني عن صاحب له رجع من هراة ذكر أنه سمع في السوق صبيا يُنْشِد : أن محمداً وعلياً لعنا تيما (منها أبو بكر)

---

(١) كتاب معجم البلدان لياقوت الرومي طبع ليبتزج سنة ١٨٦٩ م ج ٤ ص ١٧٦ .

(٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٩٤ .

(٣) المقدسي ص ٣٩٩ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٨٨ .

وعدياً (منها عمر)[1] ، وفي ذلك العصر لم يكن قد تم لمذهب الشيعة افتتاح البلاد التي يملكها اليوم ، ولكنه كان سائراً في أحسن طريق يوصـــله إلى ذلك ؛ بل كان الاضطهاد مما يساعد هـــذا المذهب على الانتشار .

أما من حيث العقيدة والمذهب فإن الشيعة هم وَرَثَة المعتزلة ؛ ولا بد أن تكون قلة اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة. ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب" كلامي خاص بهم ؛ فنجد مثلا أن عضد الدولة ، وهو من الأمراء المتشيّعين ، يعمل على حسب مذهب المعتزلة[2] . ولم يكن هنـــاك مذهب شيعي إلا للفاطميين ؛ ويصرّح المقدسي بأنهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول[3] . وعلى العكس من هذا نجد الشيعة الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة حتى ينتهيَ إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، ويقولون إن واصلاً أخذ عن محمد ابن علي بن أبي طالب،وإن محمداً أخذ عن أبيه[4] . « والزيدية يوافقون المعتزلة في أصولهم كلها إلا في مسألة الإمامة »[5] . ويدل على العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والشيعة أن الخليفة القادر جمع بينهما حينما نهى في عام ٤٠٨ هـ ــ ١٠١٧ م عن الكلام والمناظرة في الاعتزال والرفض (أي مذهب الشيعة) والمقالات المخالفة للإسلام[6] . ثم إن الطريقة التي سار عليها ابن بابويه القمّي ، أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري ، في

---

(١) رسائل الهمداني ص ٤٢٤ ــ ٤٢٥ ، وابن حوقل ص ٢٦٨ .

(٢) مقدسي ٤٣٩ .

(٣) نفس المصدر ٢٣٨ .

(٤) ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل لأحمد بن يحيى المرتضى طبعة أرنلد بحيدر آباد ١٣١٦ هـ ص ٥ .

(٥) خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٦) المنتظم ص ١٦٥ ب .

كتابه المسمى كتاب العلل تذكّرنا بطريقة علمـاء المعتزلة الذين كانوا يبحثون عن علل كل شيء . وكان في مذهب الشيعة ، كما كان في مذهب المعتزلة ، مكان" لكل ألوان الزندقة ؛ فنجد ابن معاوية منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، يجمع حوله الزنادقة ؛ وقتل أحد هؤلاء لأنه أنكر البعث ، وكان يقول إن الناس تفنى كالنباتات[1] . وفي عام ٣٤١ هـ ـــ ٩٥٢ م ظفر الوزير المهلّبي بقوم من التناسُخِيّة ، فيهم شاب يزعم أن روح عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) انتقلت إليه ؛ وفيهم امرأة تزعم أن روح فاطمة (رضي الله عنها) انتقلت إليها ؛ وفيهم آخر يزعم أنه جبريل ؛ فَضُرِبوا ، فالتجأوا لأهل البيت ، فأمر معزّ الدولة بإطلاقهم لتشيُّعٍ كان فيه[2] . ومثل هذه المقالات ، وخصوصاً القول بالرجعة وبالتناسخ ، يوجد في مذاهب الغنوسطيين المسيحيين[3] . وكثيراً ما نجد في العراق حوالي عام ٣٠٠ هـ ـــ ٩١٢ م من يقول إن اللاهوتية اجتمعت في علي (رضي الله عنه) ، كما اجتمعت في عيسى عليه السلام من قبل (انظر الفصل الخاص بالدين) . وكان أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام ٤٢٠ هـ ـــ ١٠٢٩ م يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مُكلِّم الجمجمة ، ومحيي الأموات ، البشريّ الإلهي ، مُكلِّم فتية أصحاب الكهف ، وغير ذلك من الغلو[4] ؛ ومن هـذا ما يحكى عن

---

(1) Wellhausen, Oppositionsparteien, S. 99.

(٢) أبو المحاسن ، طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٣٣ .

(٣) فليس من الضروري أن نردّ الآراء المتعلقة بظهور المسيح إلى اليهود بجنوب جزيرة العرب ، وهم الذين يعتبرون آباء هذه المقالة (انظر مقالة Friedländer, ZA, 23, S. 24)

(٤) المنتظم ص ١٧٨ ب .

المسيح عليه السلام ؛ وقد ظلت هذه الصفات عند المسلمين مما اختص به المسيح عليه السلام مدة طويلة ، وسرى كثير مما كان يقال لإثارة العواطف في يوم جمعة الآلام عند المسيحيين إلى يوم عاشوراء . يقول القمي (المتوفي) عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م : « إذا نَظَرْتِ السماء حمراء ، كأنها دمٌ عبيطٌ ، ورأيتِ الشمس على الحيطان ، كأنها الملاحف المُعَصْفَرَة ، فاعلمي أن سيد الشهداء الحسين قد قتل »[١] . وكذلك ذهب الشيعة في السيدة فاطمة (رضي الله عنها) إلى ما يشبه صفات السيدة مريم عليها السلام ، فهي قد سُمِّيت البتول مثل مريم ؛ ويَرْوي الشيعةُ عن النبي عليه السلام أنه أجاب من سأله : ما البتول؟ فقال : البتول التي لم ترَ حُمْرَةً قط ، أي لم تَحِضْ ، فإن الحيض مكروهة في بنات الأنبياء[٢] . وكذلك زعم الشيعة أن الحسين (رضي الله عنه) لم يُقْتَلْ ، وأنه شُبِّه للناس ، كعيسى بن مريم عليه السلام[٣] وربما تكون هناك علاقة بين لباس الشيعة وبين اللباس الأبيض الذي اتخذته الفرق الغنوسطية . وكان الشيعة أيضاً في أول الأمر يلبسون البياض ؛ ويقول الشاعر ابن سكرة[٤] :

إن عيد أهل قُمّ وقاشان والكرج
يتلاقى بياضهم بقلوبٍ من السبج

وقال بعض رؤساء الشيعة المخالفين لما عليه جمهورهم ، وقد لبس

---

(١) كتاب العلل لابن بابويه القمي مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١٠٠ ا ، وكان القمي يقول : عند موت الحسين تقطر السماء دما .

(٢) كتاب العلل ص ٧٧ ب .

(٣) كتاب العلل ص ٩٩ ب .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠٦ .

سواداً : بيّض قلبك ، والبَسْ ما شئت[1] . وكانت أعلام القرامطة بيضاء ، وكذلك كانت ملابس خلفاء الفاطميين وخطبائهم[2] . أما اللون الأخضر الذي يتميز به العلويون اليوم فإن أول من أمر باتخاذه سلطان مصر شعبان بن حسين (المتوفي عام ٧٧٨ هـ ــ ١٣٧٦ م)[3] .

وربما يكون الشيء الوحيد الجديد في مذهب الشيعة في هذا العصر أنهم يردّون كل الأخبار والآثار إلى عليّ وأهل بيته . وقد صادف هذا الصنيع أشد استنكار من علماء أهل السنّة[4] ؛ وفي سنة ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م روى رجل" حديثاً وسنده بالسبط والصادق حتى انتهى إلى علي بن أبي طالب ، ونُقل ذلك إلى مجلس فيه ابن راهويه الفقيه ، وكان متّهماً بالنّصب ، فقال : ما هذا الإسناد ؟[5] . وكان وضع الأخبار من جانب الشيعة وخصومهم في هذا الباب من الأمور التي جروا عليها من قديم ، وكانوا لا يجدون في ذلك حرجاً . ويُذكر أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية كان يتشيّع ويقدّم عليا على عثمان ، وكان يدخل في كتابه أشعاراً للشيعة . ويُروى أيضاً أن عوانة بن الحكم (المتوفي عام

---

(١) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ١٣٥ ا .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى صفحات من كتاب العلل ومن كتاب الأوائل والأواخر لعلي دده (لهذا الكتاب ثلاث نسخ بمكتبة برلين) ، ولم أجد في هذه الصفحات ما يقابل كلامه (المترجم) . وقد دخل المأمون بغداد من خراسان عام ٢٠٤ هـ ، فكان لباسه هو واصحابه واعلامهم الخضرة (كتاب بغداد لطيفور طبعة كلر Keller ص ٢) ، وكان ينصب على أعلى النوبهار ببلخ الرماح عليها شقاق الحرير الخضر ، (مروج الذهب ج ٤ ص ٤٨) ، وربما كان هذا اللون شعار خراسان .

(٣) ابن الجوزي مخطوط برلين ص ٣٥ ا ، ولكن لا مقابل لذلك في هذه الصفحة في مخطوط رقم ٩٤٣٦ بمكتبة برلين . (المترجم)

(٤) انظر مثلا ناصر خسرو ص ٤٨ ، وأبا المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

١٤٧ هـ — ٧٦٤ م) كان يضع أخباراً لبني أمية ، وعامة أخبار المدائني مأخوذة عنه[1] ؛ وإذا كان أحد الشعراء حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م يعزو أساطير الشيعة إلى قلة معرفتهم بالأخبار[2] ، فإن المقدسي يحكي لنا أنه كان يوما بجامع واسط ، وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس ، فدنا منه، فإذا هو يروي حديثاً بسنده عن النبي عليه السلام : إن الله يُدْني معاوية يوم القيامة ، فيُجْلِسه إلى جنبه ، ويغلّفه (؟) بيده ، ثم يجلوه على الناس كالعروس ، فقال له المقدسي : بماذا ؟ قال : بمحاربته علياً ، فقال له المقدسي : كذبت يا ضالّ ! فقال : خذوا هذا الرافضي ؛ فأقبل الناس عليه ، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه[3] . وكذلك حكى المقدسي أنه كاديُبطش به لأنه أنكر على رجل من عُبّاد أصفهان قولَه إن معاوية نبيٌّ مرسل[4] . على أن عليا لم يصبح موضع النزاع ، ومضى الوقت الذي نجد فيه خليفة عباسياً مثل المتوكل) ٢٢٣ — ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ — ٨٦١ م) شديد البغض لعليّ ولأهل بيته ، حتى كان من جملة ندمائه رجل يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلع ، ويرقص ، ويقول : قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين ، يعني علياً

(١) الارشاد (معجم الادباء) ج ٦ ص ٩٤ ، ٤٠٠ و Goldziher : «Kultur (?) der Gegenwart».

(٢) هو الشاعر الملقب بالخبز ارزي حيث يقول :

من غابت الأخبار عنه ، ودينه ‏ ‏ دين الامامة ، قال بالأوهام

انظر مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٣) المقدسي ص ١٢٦ ، وكان من اثر هذا النزاع في امر علي ومعاوية أن معاوية صار له شأن ديني ؛ ويحكي المسعودي (المروج ج ٥ ص ١٤) ان قبر معاوية بالباب الصغير بدمشق ، وهو يزار إلى هذا الوقت « وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وعليه بيت مبني يفتح كل يوم اثنين وخميس » .

(٤) المقدسي ص ٣٩٩ ؛ والمنتظم ص ٦٠ ب .

رضي الله عنه ، والمتوكل يشرب ويضحك[1] . وكان أهل السنة في الجملة يذكرون عليا بالإجلال ، ولم يكونوا قط أعـداء له[2] . فالهمذاني (المتوفي عام ٣٩٨ هـ ــ ١٠٠٨ م) مثلا قد شنّع على الشيعة ، ورد على طعن الخوارزمي في عمر[3] ؛ وقد ألف مرثيةً للحسين ، وتحدّث عن مقتله وصنّع بني أمية بأبناء النبي[4] ؛ وكان أشد ما يؤلم نفوس أهل السنة ما أولع به الشيعة من سبّ الصحابة الأولين ، وفي سنة ٤٠٢ هـ ــ ١٠١١ م توفي ببغداد أحد علماء أهل السنة الأكابر ، وكان ديّنا حسن الاعتقاد ، واجتاز يوما بالكرخ ، فسمع سبّ بعض الصحابة ، فجعل على نفسه ألا يمشي في الكرخ ؛ وكان يسكن باب الشام ، فلم يعبر قنطرة الصراة حتى مات[5] ؛ وكانت الحكومة إذا أرادت أن تعاقب شيعيا لمذهبه لم تذكر اسم عليّ ، بل يُجعل سببُ العقوبة أنه شتم أبا بكر وعمر[6] ، وفي عام ٣٥١ هـ ــ ٩٦٢ م كتب عامة الشيعة بأمر معز-الدولة على المساجد ما هذه صورته : لعن الله معاوية بن أبي سفيان ، ولعن من غَصَبَ فاطمةَ فدكاً ، ومن منع الحسن أن يُدفَن عند قبر جَدّه ، ومن نفى أبا ذرّ .. فلما جاء الصباح محاه بعض الناس ؛ فأشار الوزير المهلبي على معز الدولة أن يكتب موضع المحو : لعن الله الظالمين لآل رسول الله ، ولا يذكر أحداً إلا معاوية ، ففعل ذلك[7] .

وقد لجأ كثير من العلويين إلى مصر التي لم تكن تربطها بعرش

---

(١) ابو الفدا تحت عام ٢٣٦ (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٢) W. Sarasin : Das Bild Alis bei den Historikern der Sunnah.

(٣) الديوان : باريس ص ٩٠ وما يليها .

(٤) رسائل الهمذاني طبعة بيروت ١٨٩٠ ص ٥٨ وما يليها .

(٥) المنتظم ص ١٥٨ ا .

(٦) المنتظم مثلا ص ٢٩ ب .

(٧) أبو الفدا ج ٢ ص ٤٧٨ تحت عام ٣٥١ هـ .

الخلافة ببغداد رابطةُ الطاعة التامة . وفي سنة ٢٣٦ هـ ــ ٨٥٠ م كان المتوكل قد حبس الطالبيين في سُر من رأى[١] ، وورد كتابه إلى والي مصر بإخراج الأشراف العلويين وإعطاء الرجل منهم ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً ؛ فقدموا العراق ، ثم أُمروا بالخروج إلى المدينة[٢] ؛ ولكن كثيراً من العلويين استطاعوا أن يفلتوا من هذا النظام ، وسرعان ما ثاروا وبايعوا واحداً منهم ، فورد كتاب المنتصر إلى والي مصر بألا يتقبَّل علويٌ ضيعةً ، ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يُمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين أحد الطالبيين وبين أحد من سائر الناس خصومة فليُقبَلْ قول خصم الطالبي فيه ، ولا يطالب ذلك الخصم ببيِّنة[٣] . فلا عجب إذن أن نرى مصر تشهد حوالي عام ٢٥٠ هـ ثورة للعلويين بعد أخرى ؛ وفي القرن الرابع الهجري بدأت فتن المغرب تستولي على مصر ، فوحّد ذلك بين أغراض العلويين السياسية وبين أغراض الشيعة .

وقد بلغت الفتنة في يوم عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ ــ ٩٦١ م مبلغاً شديداً في العاصمة ، فنشب القتالُ بين الجند السنّيين من السودان والترك وبين الشيعة ؛ وكان الجنود يسألون من يجدونه : من خالك ؟ فإن لم يقل : معاوية ضربوه[٤] . وطاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات ، وهو يصيح : معاوية خال علي ؛ فتابعه العامة ، وأصبحت

---

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١٤١ .

(٢) كتاب الولاة والقضاة للكندي طبعة Guest ، ليدن ص ١٩٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٤) يظهر أن هذه العبارة أصبحت العلامة التي يعرف بها السنّي ، ومن النوادر أن نفطويه (المتوفي عام ٣٢٣ هـ) حكى عن بعض الشيعة أنه قيل له : معاوية خالك ؟ فقال : لا أدري ، أمي نصرانية ، والأمر إليه (الارشاد لياقوت ج ١ ص ٣١٢) .

هذه هي صيحة أهل السنة بمصر حين يريدون قتال الشيعة • وقد حافظت الحكومة على النظام بقدر استطاعتها ؛ وفي عام ٣٥٣ هـ ــ ٩٦٤م ضُرب أحد كبار الشيعة ، وحُبس حتى مات في السجن • وقام على قبره قتال" بين الجند وبين أصحابه •

ولما دخل جوهر" مصر وصارت الحكومة شيعية كانت العامة عند أقل إشارة لهم يصيحون صيحة السنة على الشيعة من نحو : معاوية خال علي • ففي سنة ٣٦١ هـ ــ ٩٧٢ م قُبض على عجوز عمياء تنشد في الطريق ، وحُبست ؛ ففزع جماعة من الرعية ، نادوا بذكر الصحابة ، وصاحوا : « معاوية خال المؤمنين وخال عليّ » ؛ فبعث جوهر" ونادى في الجامع العتيق : « أقلّوا القول ودعوا الفُضول ، فإنا حبسنا العجوز صيانة لها ، فلا ينطقن أحد إلا حلت به العقوبة الموجعة » ، ثم أُطلقت العجوز[1] • بل يحكى أيضا أنه في عام ٣٦٢ هـ ــ ٩٧٣ م شغب جماعة من الصيارفة السنيين وصاحوا : معاوية خال علي بن أبي طالب[2] ، هذا مع أن الصيارفة أهدأ العناصر السياسية •

على أن حكومة الفاطميين كانت تتوخّى جانب الحكمة في الجملة ، ولم تكن حكومة متعصّبة ؛ ولكنها جعلت أحسن المناصب في القضاء والإفتاء للشيعة وحدهم • وقد بلغ من تسامحها أنها لم تمنع العامة في عام ٣٦٢ هـ ــ ٩٧٣ م من الاحتفال بعيد اتخذه أهل السنّة ، بعد عيد الغدير عند الشيعة ، مضاهاةً للشيعة ونكايةً لهم ، وهو اليوم الذي دخل فيه رسول الله عليه السلام الغارَ هو وأبو بكر الصديق ؛ وبالغوا

(١) كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء للمقريزي طبعة القدس ١٩٠٨ ص ٨٧ •

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٠ •

في هذا اليوم في السرور وإظهار الزينة ونصب القباب وإيقاد النيران[1] .

وقد شذ الخليفة الحاكم في هذا أيضاً ؛ ففي عام ٣٩٣ هـ ــ ١٠٠٢م أمر نائبُ دمشق من قِبَل الحاكم برجل مغربي ، فضُرب وطيف به على حمار ، ونودي عليه : هذا جزاء مَن أحبَّ أبا بكر وعمر ؛ ثم أمر به فضربت عنقه[2] . وفي عام ٣٩٥ هـ ــ ١٠٠٥ م بلغ تعصُّب الحاكم للمذهب أقصى حد ، فكان من الأشياء الكثيرة التي أمر بها أن يُكتب على الجوامع والمساجد والحيطان والدروب لعنُ أبي بكر وعثمان ومعاوية وغيرهم من الصحابة ، وكذلك سائر خلفاء بني العباس ؛ وعَظُم ذلك على أهل السنّة[3] . وفي عام ٣٩٦ هـ ــ ١٠٠٥ م أمر بمنع الناس في يوم عاشوراء من الخروج للنوح والبكاء على الحسين في الشوارع ، لأن العامة كانوا يمدون أيديهم إلى أمتعة الباعة ؛ فرفعوا ذلك إلى الحاكم ، فأمر بمنعهم من المرور في الشوارع ، وأن يختص النوح والنشيد بالصحراء[4] . وفي عام ٣٩٩ هـ ــ ١٠٠٩ م عاد الحاكم إلى الأمر بألا يُسبّ أحدٌ من السلف الذين كان أمر بسبهم ، وهذه هي عادته من الأمر بالشيء ثم الأمر بتركه[5] .

على أن مذهب الشيعة لم يستطع أن يجذب إليه الناس ؛ فيحدثنا

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠ .

(٢) أبو المحاسن طبعة كليفورنيا ص ٩١ (عام ٣٩٣ هـ) ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢٦ . ويقول ابن الأثير إنه أخرج عن المدينة فقط ، ولم يقتل .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٦ ا ؛ وفي هذه السنة نفسها وصلت قافلة الحج فأراد العامة حملهم على سب السلف ، فأبوا ، فحل بهم مكروه شديد (خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٤٢) .

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤٣٢ ، وملحق استيفاء أخبار الولاة والقضاة للكندي ص ٦٠٠ .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١١٩ ا .

المقدسي أنه لم يجد الشيعة إلا في أعلى القصبة ، وكذلك أهل صندفا[1] . وكانت في الغرب على الحدود بين الجزائر وتونس توجد أيضاً مدينة نفطة ، وجميع أهلها شيعة ؛ وكانت تسمى الكوفة الصغرى[2] . على أنه بعد التدهور السياسي للفاطميين سرعان ما رجعت موجة هذا التيار الشيعي ، حتى لم يبق له أثر .

وكانت بغداد هي العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقي ؛ وآية ذلك أن جميع الحركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد ؛ وكان بها لجميع المذاهب أنصار . ولكن أكبر حزبين كانا بها في القرن الرابع الهجري هما الحزبان المتشدّدان في التمسك بمذهبهما ، وهما الحنابلة والشيعة[3] ؛ وكان أنصار الشيعة يسكنون بنوع خاص حول سوق الكرخ ، ولم يتعدّوا الجسر الكبير ويحتلّوا باب الطاق إلا في أواخر القرن الرابع الهجري[4] . ولم يستطيعوا التعدي إلى القسم الغربي ، لأن الهاشميين كانوا يكوّنون عصبة قوية هناك ، ولا سيما حول باب البصرة ، وكانوا من أشد أعداء الشيعة[5] . على أن ياقوتا وجد أن أهل محلة باب البصرة ــ بين كرخ بغداد والقبلة ــ كلهم سنّية حنابلة ، وأن عن يسار الكرخ وفي جنوبها سنّية . أما الكرخ فأهلها كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سنّي ألبتة[6] ؛ وإلى جانب ما تقدم

---

(١) المقدسي ص ٢٠٢ .

(٢) المغرب في ذكر بلاد إفريقية في المغرب للبكري طبعة الجزائر ١٨٥٧ ص ٧٥ .

(٣) المقدسي ص ١٢٦ . ويقول المقدسي (ص ٣٧) إن الحنابلة ينكرون النصب (يعني تنصيب علي ، وهذا ما يجعل الشيعة يكرهونهم . المترجم)

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٦ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان تحت كلمة كرخ بغداد (ج ٤ ص ٢٥٥) .

كان باب الشعير غربي شاطىء دجلة من أكبر مراكز أهل السنّة[1] .
ورغم ما قام به المتوكل من تشديد في اضطهاد الشيعة في القرن الثالث الهجري ، نلاحظ أن قوتهم كانت عظيمة حتى إن الخليفة المعتضد عزم في عام ٢٨٤ هـ ـ ٨٩٧ م على لعن معاوية على المنابر ؛ وأمر بإنشاء كتاب في ذلك وصلت إلينا صورته ، فخوفه الوزير من اضطراب العامة ، فقال المعتضد : إن اضطربت العامةُ وضعتُ فيها السيف ؛ فقال له الوزير : فما تصنع بالطالبيين الذين هم في كل ناحية يخرجون ويميل إليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ، وفي هذا الكتاب إطراؤهم ؛ وإذا سمع الناس كانوا إليهم أمْيَل[2] ؟ ويذكر المؤرخون لأول مرة عام ٣١٣ هـ ـ ٩٢٥ م أن الشيعة البغداديين كانوا يجتمعون في مسجد براثا ، فعلم الخليفة بأن قوما منهم يجتمعون فيه لسبّ الصحابة ؛ فأمر بكبسه في يوم جمعة وقت الصلاة ، فوُجد فيه ثلاثون إنسانا يصلّون ؛ فقُبض عليهم وفُتّشوا ، فوجد معهم خواتم من طين أبيض عليها اسم الإمام ، كما كان يفعل دعاة الفاطميين مع من ينتسب إليهم . وقد استصدر الخليفة فتوى بهدم المسجد حتى سُوّي بالأرض ، وعفى رسمه ، ووُصل بالمقبرة التي تليه[3] . وفي سنة ٣٢١ هـ ـ ٩٣٣ م همّ علي بن يَلْبَق ، وهو من القواد الترك ، مرة أخرى بأن يلعن معاوية وابنه يزيد على المنابر ؛ فاضطربت العامة ، وكان البربهاري رئيس الحنابلة يثير الفتن هو وأصحابه[4] . وفي عام ٣٢٣ هـ ـ ٩٣٥ م نودي في جانبي

---

(١) كتاب الوزراء ص ٤٨٣ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٦٤ ـ ٢٢٧٨ .

(٣) المنتظم ص ٢٩ ب ، ٦٧ أ . وكان ببغداد طائفة من المكدّين يدّعون انهم شيعة ويحملون السبح والالواح من الطين ، ويزعمون انها من قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما فيتحفون بها الشيعة . ولا تزال أطباق الطين تباع إلى اليوم ، يشتريها الشيعة ليضعوها امامهم عند الصلاة لكي تقع عليها جباههم كلما سجدوا .

(٤) تجد هذا مفصلا عند مسكويه ج ٥ ص ٤١٣ ، ومختصراً عند ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ، وعند أبي المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

بغداد بألاّ يجتمع من الحنابلة نفسان في موضع واحد ، وكان ذلك لكثرة تشرطهم على الناس وإيقاعهم الفتن المتّصلة ؛ وخرج توقيع الخليفة الراضي بكتاب بَيَّن فيه أخطاء الحنابلة وتوعّدهم بالعقاب ، وقد وصلت إلينا صورة هذا الكتاب[1] ، فهو يتهمهم بالطعن على خيار الأمة وبنسبة شيعة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر ، وإرصادهم بالمكاره في الطرقات والمحالّ وإنكار زيارة قبور الأئمة صلوات الله عليهم ، والتشنيع على زُوّارها بالابتداع ، وأن الحنابلة مع إنكارهم لذلك ، يتلفقون ويجتمعون لقصد رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله صلى الله عليه ، ويأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته ، وفي آخر الكتاب يقسم أمير المؤمنين بالله لئن لم ينصرف الحنابلة عن مذموم مذهبهم ليوسعنّهم ضرباً وتشريداً وليستعملنّ السيفَ في رقابهم والنار في محالّهم ومنازلهم[2] .

ثم أن بجكم أمر بإعادة بناء مسجد براثا في عام ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م وبتوسيعه ليكون مسجداً لأهل السنّة ، وكتب في صدره اسم الراضي بالله ؛ ثم جاء المتّقي بالله فأمر بنصب منبر فيه ، كان في مدينة المنصور معطّلاً مخبوءاً في خزانة المسجد عليه اسم هارون الرشيد ؛ ونُصب هذا المنبر في قبلة المسجد ، وافتُتح هذا المسجد للصلاة في عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م[3] .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤٩٥ — ٤٩٧ .

(٢) وقد اضيف لهذا الكتاب فيما بعد صبغة اعتقادية كلامية ، فذكر ابو الفداء في تاريخه انه قد جاء فيه توبيخ الحنابلة باعتقاد التشبيه : « وانكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم على هيئته وهكذا » — تاريخ ابي الفداء تحت عام ٣٢٣ هـ ج ٢ ص ٣٩٢ من الطبعة الأوروبية .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٦٨ ا ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٢٧٨ ؛ ومسكويه ج ٦ ص ٣٧ ، وهو يذكر الفراغ من المسجد والتجميع فيه من غير زيادة في البيان .

وكان الحمدانيون أول أسرة شيعية تدخلت في أمور بغداد ، وكان هذا التدخل مثيراً للعجب ؛ ذلك أن ابن حمدان على شدة تشيّعه وميله إلى عليّ وأهل بيته سعى في البيعة لابن المعتز على انحرافه عن عليّ وَغُلُوِّه في النّصب[1] . ولكن الأحوال تغيرت لما استولى الديلم على بغداد ، وكانوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين ؛ فلم يكد معز الدولة يدخل بغداد حتى قبض على الخليفة المستكفي وأنزله عن عرشه على صورة مهينة . وكان من الأسباب الظاهرة في ذلك أن المستكفي كان قد قبض على الشافعي رئيس الشيعة[2] . وفي سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصال الفتن ، ولم تُقَمْ الجمعة إلا في مسجد براثا الشيعي[3] . وفي عام ٣٥١ هـ كتب معز الدولة على المساجد لَعْنَ الصحابة ، فمحاه الناس أثناء الليل[4] . وفي العام التالي أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء ، وهو أكبر عيد للشيعة ، وأن يُظهروا الحزن . فأُغلقت الأسواق وعطل البيع والشراء ، ولم يذبح القصّابون ، ولا طبخ الهراسون ، ولا ترك الناس أن يستقوا الماء ، ونصبت القبابُ في الأسواق ، وعُلّقت عليها المسوح ، وخَرَجَتْ النساء مُنَشّرات الشعور مسوّدات الوجوه ، قد شققن ثيابهن يَدُرْن في البلد ويَنُحْن ويَلْطِمْنَ وجوههن على الحسين (رضي الله عنه) . وفي هذا اليوم

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٣ .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ٨٩ ا ؛ وابو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٥١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٧ .

(٤) انظر ما تقدم .

كان يزار قبر الحسن بكربلاء[1] . ويصف البيروني ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح في يوم عاشوراء ، وما كان يظهره الشيعة من حزن ، ثم يقول : « ولذلك كره فيه العامةُ تجديد الأواني والثياب »[2] . وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خمّ) ، فاحتفل به الشيعة ببغداد ، وزعموا أنه اليوم الذي عهد فيه الرسول عليه السلام إلى علي بن أبي طالب واستخلفه[3] ، وفيه أظهروا السرور بأمر معزّ الدولة ، على خلاف صنيعهم في يوم عاشوراء ، فنصبوا القباب وعلّقوا الثياب ، وأظهروا الزينة . وفي ليلته أُشعلت النيران بمجلس الشرطة ، وضربت الدبادب والبوقات ؛ وفي صبيحته نحروا جملاً وبكّروا إلى مقابر قريش[4] . أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور ، « فلبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات ، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم ، وبقي فيهم بعد زواله عنهم » . وقد حاول أهل الحديث أن يظهروا فضل يوم عاشوراء فذكروا ما روي عن النبي عليه السلام من الحضّ على فعل الخير

---

(١) المنتظم ص ٩٣ ب ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٦٤ . ولا نجد قط ذكراً لروايات ألفت لتمجيد الشهداء كالتي نراها اليوم عادة . على أنه من العبارات التي تشبه أن يكون أصلها من قصة تمثيلية قول السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنها «كنت أحسن من السماء وأعذب من الماء» (رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ١٢٩٧ ص ٣٧) ، (وليس في هذا دليل مقبول . المترجم)

(٢) الآثار الباقية للبيروني طبعة أوروبا ص ٣٢٩ .

(٣) المنتظم ص ٩٣ ب ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٧ ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ ، وقد أخطأ أبو المحاسن (٢ ص ٤٢٧) بجعله ذلك عام ٣٦٠ هـ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ ؛ والمنتظم ص ٩٣ ب ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٧ .

فيه[1] . وكانوا يزعمون أن « الاكتحال فيه مانع من الرمد في تلك السنة »[2] . ولذلك يقول القمّي (المتوفي عام ٣٥٥ هـ ـ ٩٦٦ م) مشدّداً فيمن يفرح بيوم عاشوراء : « من ترك السعي في حوائجه يوم عاشواء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة . ومن كان يومُ عاشوراء يومَ مصيبته وحزنه وبكائه يجعل الله عز وجل يومَ القيامة فرحَه وسرورَه ... ومن سمى يوم عاشوراء يوم بركة وادّخر بمنزله شيئا لم يُبارَكْ له فيما ادّخر ، وحُشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار »[3] . ولما زالت الدولة الفاطمية وجاء ملوك بني أيوب اتخذوا يوم عاشوراء ، بعد أن كان يومَ حزن ، يومَ سرور ، جَرْياً على عادة أهل الشام[4] . ثم إن أهل السنّة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء ، فجعلوا بعده بثمانية أيام يوما نسبوه إلى مقتل مُصْعَب بن الزبير ، وزاروا قبره في مسكن ، كما يُزار قبرُ الحسين بكربلاء[5] . وكذلك عملوا بإزاء يوم الغدير بعده بثمانية أيام يوما ادعوا أنه اليوم الذي دخل فيه النبي عليه السلام وأبو بكر (رضي الله عنه) في الغار ، وعملوا في هذا اليوم ما يعمله الشيعة في يوم الغدير . وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك في يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة عام ٣٨٩ هـ ـ ٩٩٩ م[6] . وفي هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من شغب وفتن بين

---

(١) الآثار الباقية للبيروني ص ٣٢٩ .

(٢) عجائب المخلوقات للقزويني ، طبعة أوروبا عام ١٨٤٩ ص ٦٨ .

(٣) كتاب العلل للقمي مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ ب .

(٤) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٩٠ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٧١ ؛ وكذلك عرف ياقوت هذه الأماكن .

(٦) المنتظم ص ١٤٣ ا ـ ١٤٤ ب ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٧١ .

الفريقين ، حتى كان الحكام الأقوياء يمنعون من عملها أحياناً[1] • وقد حدث مرة في فتنة بين أهل السنة والشيعة بأن الشيعة صاحوا : حاكم يا منصور ، إشارة إلى العدو المقيم بالقاهرة ؛ وقد بلغ الخليفةَ ذلك ، فأحفظه ، وأنفذ الحراس الذين على بابه لمعاونة أهل السنة ؛ فهزموا الشيعة ؛ ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة ، فسألوه العفو عما فعله السفهاء فعفا عنهم[2] • وفي عام ٤٢٠ هـ ـ ١٠٢٩ م كان خطيب مسجد براثا ، وكان شيعيا ، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة ويغلو في عليّ ؛ فأمر الخليفة بالقبض عليه ، وعيّن محله خطيباً آخر ؛ فلما صعد المنبر دقّه بِعَقِب سيفه على ما جرت به العادة ، والشيعة ينكرون هذا ، وقصر في الخُطبة عما كان يفعله مَن تقدمه في ذكر علي ابن أبي طالب ، وقال : اللهم اغفر للمسلمين ، ومن زعم أن علياً مولاه ، فرماه العامّةُ حينئذ بالآجُرّ ، فوافاه كالمطر ، وخلع كِتفه ، وكسر أنفه ، وأدمى وجهه ؛ وعرف الخليفة ذلك ، فغاظه وأحفظه ؛ وكتب في الشيعة كتاباً شديداً للوزير ؛ وفي آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ ، وتوجّهوا مع الشريف المرتضي إلى دار الخلافة ، فأحالوا ما جرى على سفهاء الأحداث ، وسألوا الصفح عن هذه الجناية ، وطلبوا إقامة خطيب عملت له نسخة" يعتمدها فيما يخطب ، وتجنّب ما يُحفِظ الشيعة[3] • ومما كان له شأن في ثورات الشيعة المفاجئة في القرن الرابع الهجري أن مشهديهم الكبيرين المقدّسين عندهم كانا بالعراق • على أن موضع قبر عليّ كان موضع شك ؛ وقد بيّن المسعودي ذلك في عام

---

(١) فعل ذلك أبو الحسن المعلم عام ٣٨٢ هـ (المنتظم ص ١٣٤ ا) وعميد الجيوش عامي ٣٩٢ هـ ، ٤٠٦ هـ (كتاب الوزراء ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ ، والمنتظم ص ١٤٧ ب ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٤) .

(٢) المنتظم ص ١٥٢ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٨ ا ـ ١٧٩ ا .

٣٣٢ هـ ـ ٩٤٤ م ، حيث يقول إنه قد تُنوزع في موضع القبر ؛ فذهب قوم إلى أنه دُفن في مسجد الكوفة[١] ؛ وقال آخرون إنه دفن في القصر بالكوفة ؛ وذهب جماعة إلى أنه حُمل إلى المدينة فدُفن عند قبر فاطمة ؛ وقال قوم إنه حُمِلَ في تابوت على جمل وإن الجمل تاه ووقع في بلاد طيء[٢] ؛ ثم يقال إن أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان (المتوفي عام ٣١٧ هـ ـ ٩٢٩ م) شَهَرَ مكاناً بمشهد علي ، كان يقال إنه قبر علي بن أبي طالب ؛ وذلك بأن جعل عليه حصناً منيعا ، وابتنى على القبر قُبَّة عظيمة مربعة الأركان لها باب من كل جانب ، وسترها بفاخر الستور ، وفرشها بثمين الحصر السامانية[٣]. ولما مرض الوزير أبو محمد بن سهلان واشتد عليه المرض نذر ، إن عُوفي ، بناءَ سورٍ على مشهد أمير المؤمنين عليّ ؛ فعوفي ، فأمر ببناء سور عليه عام ٤٠٠ هـ ـ ١٠١٠ م[٤] وأول من دُفن في هذا المشهد من العظماء ، فيما أعلم ، رجلٌ من أهل البصرة عام ٣٤٢ هـ ـ ٩٥٣ م[٥] . وأول من دفن فيه من الأمراء عضدُ الدولة (المتوفي عام ٣٧٢ هـ ـ ٩٨٢ م) فحُمِل إليه بعد أن كان قد دُفن بدار الملك ببغداد[٦] . وعضد الدولة هذا هو الذي أمر بإعادة بناء مشهد الحسين بن علي[٧] ، بعد أن كان الخليفة المتوكل قد أمر في عام ٢٣٦ هـ ـ ٨٥٠ م بهدم قبره وهدم ما حوله من المنازل وبأن يُحرَث ويُبذَر ويُسقى[٨] . وكان يزعم البعض أن رأس الحسين ، « سيّد الشهداء »،

---

(١) انظر أيضا ابن حوقل ص ١٦٣ .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، ج ٥ ص ٦٨ .

(٣) ابن حوقل ص ١٦٣ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٤ .

(٥) نفس المصدر ج ٨ ص ٣٨٠ .

(٦) نفس المصدر ج ٩ ص ١٣ .

(٧) وكذلك بُني قبر فاطمة بقُمّ (رسائل الهمذاني ص ٤٢٥ ؟) .

(٨) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤٠٧ ، ولابن بسّام في المتوكل شعر قاله ، لما أمر بهدم القبر : =

يوجد في رباط صغير قريبا من مدينـــة مرو ، وذلك في القرن الرابـــع الهجري[1] • ويقول المقريزي إن رأس الحسين حـُمل من عسقلان إلى القاهرة ووصل إليها في عام ٥٤٨ هـ ــ ١١٥٣ م[2] • ويرى ابن تيمية أن هذا باطل باتفاق أهل العلم ، وأن أحداً من أهل العلم لم يقل إن رأس الحسين كان بعسقلان[3] ؛ وفي عام ٣٩٩ هـ ــ ١٠٠٩ م توفي أبو العباس الكافي الوزير بالريّ ، وكان قد وصى قبل موته أن يـُدفن في مشهد الحسين ؛ فكتب ابنه إلى العلويين أن يبيعوه تربة بخمسمائة دينار ، فقال الشريف إذ ذاك : هذا رجل التجأ إلى جوار جدّي ، ولا آخذ لتربته ثمناً ؛ وأُعطيَت للرجل تربة" من غير أن يدفع شيئا[4] • ولم يصل إلينا وصف لداخل مشهد الحسين بكربلاء قبل وصف ابن بطوطة له في القرن الثامن الهجري ؛ أما قبل ذلك فيـُذكر أن القبر كان يـُغـَطـَّى بقماش تاريز، وحوله شموع مضاءة[5] • ثم إن عميد الدولة بن بويه بنى على قبر علي الرضا بطوس حصناً ومسجداً لم يكن بخراسان أحسن منه[6] •

*

= تالله إن كانت أميـــة قـــد أتـــت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتـــاه بنـــو أبيه بمثله هـــذا لعمرك قبـــره مهدومـــا
أسفوا على أن لم يكونوا شاركوا في قتلـــه ، فتتبعـــوه رميمـــا

(تاريخ ابي الفداء تحت عام ٣٠٢ هـ) .

(١) المقدسي ص ٤٦ ، ٣٣٣ .

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٢٧ .

(٣) نشرة شرينر .(Schreiner. ZDMG., 53, S. 81)

(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٦٨ .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ ؛ وابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ١٢٣ .

(٦) المقدسي ص ٣٣٣ .

تعليقات[1]

من أراد كلاماً موجزاً عن الشيعة فليرجع إلى كتاب Johannes Hauri Islam, p. 89 ff. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب جولدتزيهر: Goldziher, Vorlesungen über den Islam ؛ وهذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية بعنوان Muhammed and Islam وإلى الفرنسية بعنوان: le Dogme et la loi de l'Islam. وإلى العربية بمصر حديثاً •

يقول جولدتزيهر في صفحة ٢٢٢ من الترجمة الإنجليزية : إن من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين • أهل السنة ، والشيعة ؛ وكان لأهل البيت فريق" يعترف سراً بحقوقهم ، حتى في عهد الخلفاء الثلاثة الأولين،ولكن هذا الفريقلم يكن يجاهر بالخصام• وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من حكم من غير أبناء عليّ ؛ وكانت هذه المعارضة موجهة أول الأمر إلى الأمويين ، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوافر فيهم الشروط التي يوجبها الشيعة في الإمام ؛ وهم حين يبينون وجوه النقص في هؤلاء الحكام يقررون الحقوق الشرعية لأبناء النبي عليه السلام ممثّلة في ذرية عليّ وفاطمة ؛ وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين سرّاً بأنهم مغتصبون ظالمون ، فكذلك عارضوا النظام السياسي في الدولة الإسلامية سراً وجهراً في كل العصور •

(١) هذه التعليقات الملحقة بالفصول هي تلخيص لتعليقات المرحوم العلاّمة خدابخش الهندي على الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب •

وقد أدت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها في صورة تغلب عليها الصبغة الدينية . وعلى حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الإنسانية ، فإنهم يقولون إن الرئيس الشرعي الوحيد من الناحية الروحية والزمنية هو الإمام المعصوم الذي يعيَّن تعييناً ، ويكون من أبناء النبي عليه السلام .

وفي صفحة ٢٣٠ تكلم جولدتزيهر عن الفرق الأساسي بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة .

أوجب أهل السنّة تنصيب خليفة مهمته تنفيذ أحكام الشريعة وفروضها ، وحماية حدود بلاد الإسلام والدفاع عنها ، والإشراف على تعبئة الجيوش ، وأخذ ما فرض على المسلمين في أموالهم ، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل ، وغير ذلك من المهام ؛ وبالاختصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائية والإدارية والحربية ، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه ، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالانتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياستهم ؛ ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين .

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم ، بفضل ما وهبه الله من الصفات ، وبحكم وراثته للنبي عليه السلام ؛ وهو يحكم ويعلّم متلقيا ذلك عن الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة ؛ فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة ؛ وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان . ويزعم الشيعة أن وراثة الإمامة تنقلت من آدم ، حتى انتهت إلى عبد المطلب جد النبي عليه السلام وجد علي رضي الله عنه ؛ ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ، والآخر إلى أخيه عبد المطلب والد علي ؛ ثم سار النور من علي إلى ذريته . وهـذا النور الذي في روح

الإمام يجعله إمام عصره ، ويجعل له قوى روحانية تجاوز حدود القدرة الإنسانية ؛ وروح الإمام أنقى من أرواح سائر الناس ، لأنه مبرّأ من بواعث الشر متحَلٍّ بالفضائل الإلهية وهذه صفات الإمام عند المعتدلين من الشيعة ؛ أما الغلاة منهم فهم يرفعون الإمام إلى الأفق الإلهي .

وفي ص، ٢٥٤ وما بعدها ينبه جولدتزيهر على أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة :

١ ــ يذهب البعض إلى أن الفرق بين مذهب آهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنَّة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن ، وأن الشيعة يرفضون السنة . يقول جولدتزيهر : إن هذا خطأ جوهري في فهم مذهب الشيعة ؛ ومنشؤه اختلاف التسمية بين الفريقين ؛ فليس بين الشيعة من ينكر السنَّة ؛ بل هم يقرون بالسنة التي حمَلَها أهلُ البيت ، ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون في أخذ السنة على الصحابة الغاصبين . وثمّ أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة لا تختلف إلا في السند ؛ والشيعةُ يقبلون الأحاديث التي رواها أهل السنَّة ، والتي تؤيد الشيعة أو على الأقل لا تعارض مذهبهم ؛ ومن أمثلة ذلك أن من الشيعة المتشدّدين مــن يعتمدون على أحاديث البخاري ومسلم ، ويقرؤونها أيامَ الجمَع ، ونستطيع معرفة شــأن السنَّة عندهم من أن كثيراً من قول عليّ في القرآن والسنّة يؤخذ مما رواه الشيعة عن علي ؛ فاحترام السنة من مستلزمات مذهب أهل السنة والشيعة على السواء ؛ ومما يدل أيضاً على اعتداد الشيعة بالسنة النبوية أنهم كتبوا الكثير في السنَّة وما يتعلق بها ، وأنهم وضعوا أحاديث كثيرة وأذاعوها ؛ فالشيعة لا يعارضون أهل السنَّة بصفتهم منكرين للسنة ، بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتازون على العامة الغارقين في بحار العمى والضلال .

٢ ـ ومن الآراء الخاطئة القولُ بأن منشأ التشيُّع يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها في الإسلام ؛ وهذا ناشيء عن خطأ تاريخي ، وقد رفضه ڤلهاوزن في بحث له(هو: Wellhausen. Die Religios-politischen Oppositionsparteien im Alten Islam. وذلك أن حركة التشيع نشأت على تربة عربية خالصة،ولم تنتشر بين غير الساميين إلا بعد ظهور المختار . هذا إلى أن أصول النظرية الإمامية بما تتضمنه من النظر إلى الدولة نظرةً دينية لا دنيوية ، ومن القول بالمهدي ونحوه يمكن أن نرده إلى الأثر اليهودي والمسيحي ، بل إن ما ذهب إليه الشيعة الغالية من تأليه عليّ كان أول من أتى به عبدُ الله بن سبأ قبل تأثير المذاهب الآرية ؛ وكذلك التجسيم عند الشيعة ، يرجع بعضه إلى أصل عربي .

وقد ذهب إلى قول الشيعة أهل النظر العقلي بين العرب ، وكذلك الفرس ، وقد رحّب الفرسُ بمعارضة الشيعة لأهل السنة وأخذوا بمذهب الشيعة ؛ ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند الفرس من تأليه الملوك . ولكن الأصول الأولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أجنبي ، بل هي عربية في صميمها .

٣ ـ أن الشيعة هم أصحاب الفكر الحرّ ، خلافاً لأهل السنة الجامدين ، وهو ما ذهب إليه أخيراً البارون كرادڤو . وهذا الرأي لا يقبله من له علم بمذهب الشيعة ، فمن المؤكد أن تقديس عليّ هو محور الاعتقادات الدينية عند الشيعة ؛ وكل ما عدا هذا فهو ثانوي المرتبة ، وأن الشيعة بتفضيلهم الإمام المعصوم من غير اعتماد على قوة الرأي العام قد نبذوا ما نراه في مذهب أهل السنّة من عناصر التفكير الحر . وعلى هذا فإن خضوع الشيعة لمذهب يتلقونه عن سلطة معصومة لا تقبل معارضة هو ما تتميز به الحياة الدينية عندهم .

أما علاقة الشيعة بالمعتزلة فيقول جولدتزيهر إن الصلة بينهم أمر لا سبيل إلى الشك فيه ، لما ذهب إليه أحد علماء الشيعة من أن القول بالإمام الغائب جزء من قول أصحاب التوحيد والعدل ، وهم المعتزلة . ومن الشيعة فرعُ الزيدية ، وهم أكثر من غيرهم ميلا إلى مذهب المعتزلة.

وقد أثّر مذهبُ المعتزلة في التشيُّع إلى عصرنا ؛ ومن الخطأ قولُ من قال : إن مذهب المعتزلة لم يلعب دوراً كبيراً في الدين والأدب بعد انتصار الأشاعرة . ومما يثبت بطلان هذا الرأي ما انتهى إلينا من كتب كثيرة للشيعة يتجلى فيها تأثير المعتزلة ؛ فمن ذلك أن الشيعة يقسمون كتبهم إلى باب العدل والتوحيد ؛ بل نجد من كبار المعتزلة كالنظّام من قرّر من قبل أن الحجة في قول الإمام المعصوم ؛ وقول الشيعة بضرورة وجود إمام معصوم له اتصال بما اختص به المعتزلة من القول بوجوب هداية أساسها الحكمة والعدل الإلهيّان ؛ فلا بد عند بعض المعتزلة من أن يجعل الله لكل عصر إماماً معصوماً .

وقد نقل جولدتزيهر في آخر الفصل الخاص بالزهد والتصوف من كتابه المتقدم ما ذكره الغزالي في فيصل التفرقة من أن أساس الإيمان الاعتقاد بالأصول ؛ أما الخلاف في فروع العقائد والعبادات ، ولو كان فيه إنكار الخلافة التي يقول بها أهل السنة ، كما فعل الشيعة ، فلا يكفي لاعتبار صاحبه زنديقاً . وقد أوصى الغزالي بإمساك اللسان عن تمزيق أعراض أهل القبلة .

*

الفصل السّادس

الإدارة

كانت دولةُ الخلفاء أشبهَ باتحاد يتألف من ولايات كثيرة ، ويختلف وَثاقةً وتماسكا ؛ ولم تكن علاقة السلطة المركزية بهذه الولايات تشرف عليها دواوين إقليمية ؛ وإنما كان لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شؤونها . وكان كل من هذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الأصل ، وهو يختص بوضع الضرائب وحملها إلى بيت المال[١] ، وبمراقبة الضرائب وتقوية مواردها ، أي أن هذا القسم يختص بالإدارة ؛ وثانيهما الزمام[٢] أو ديوان المال . ولما جاء الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م) ، وهو أقدر حكام القرن الثالث[٣] ، ضم دواوين الولايات كلها ، وألف منها ديواناً سماه ديوان الدار[٤] ، له

(١) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (المتوفي عام ٣٣٧ هـ — ٩٤٨ م) ، مخطوط رقم ٥٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٩ ب — ١٠ ا . وكلمة اصل التي وردت في كتاب الوزراء (ص ١١) لها هذا المعنى .

(٢) انظر في هذا Amedroz, JRAS. 1913, S. 829 ff. ، وايضا مسكويه ج ٦ ص ٣٣٨ ، وكان يُعَيَّن على الزمام عادة رجلٌ من اصحاب المال . ووكذلك كانت الدواوين الصغيرة التي تتولى إدارة ضياع نساء الخلفاء تنقسم إلى الفرعين المتقدمين ، وكان يتقلد كلَّ واحد منهما رئيسٌ .

(٣) جاء في كتاب الوزراء للصابي (ص ١٨٩) أنه لم يجتمع في زمن من الازمنة خليفةٌ ووزيرٌ وصاحبُ ديوان واميرُ جيش مثل المعتضد وابي القاسم عبيد الله بن سليمان وابي العباس بن الفرات وبدر .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٣١ ، ويسمى ايضا ديوان الدار الكبير ، نفس المصدر ص ٢٦٢ .

ثلاثة فروع : ديوان المشرق ؛ وديوان المغرب ؛ وديوان السواد (أي العراق)•وكذلك وضع هذا الخليفة أزمّةهذه الدواوين كلها في يد رئيس واحد[1] ، ثم جعل الأصول كلها في يد رئيس واحد في سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م[2] ، بحيث جاء القرن الرابع الهجري ، وإدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين إحداهما للداخلية ، وهي ديوان الأصول ، والأخرى للمالية وهي ديوان الأزمّة • وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساماً كثيرة تسمى دواوين أيضاً ؛ لأنه كان لكل ناحية ديوانها • ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذي يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه ، فإن كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين للدولة • ولم تصل الإدارة في الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة ، وأستطيع أن أذكر منها :

(١) ديوان الجيش ، وله مجلسان : أحدهما مجلس التقرير ، والثاني مجلس المقابلة • ويجري في الأول أمرُ استحقاقات الرجال ، ومعرفةُ أوقات أَعْطِيَاتهم ، وتقديرُ أرزاقهم ؛ فأما الثاني فيختص بالنظر في السجلات ، وتصفّح الأسماء ، ونحو ذلك • وينقسم كل من المجلسين إلى أقسام خاصة بالعساكر ، مثل العسكر المنسوب إلى الخاصة ، والعسكر المنسوب إلى الخدمة ، وما في النواحي من البعوث[3] •

(٢) ديوان النفقات في بغداد ، وأكبر مهامّه حاجات دار الخلافة • وكان أكثر أرض العراق مضمّناً،فكان على المتضمّنين أن يقوموا بالوفاء بالنفقات • وهذا الديوان ينقسم إلى المجالس الآتية :

---

(١) كتاب الوزراء ص ٧٧ •

(٢) نفس المصدر ص ٢٧١ ، ١٢٤ •

(٣) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ٢ ا — ب •

(ا) مجلس الجاري ، ويختص بأمر استحقاقات الحَشَم .

(ب) مجلس الأنزَال ، وهو الذي يقوم بمحاسبة التجار الذين يقيمون الوظائف من الخبز واللحم والحيوان ، والحلوى والفاكهة ، وغير ذلك من سائر صنوف الإقامات والأنزال .

(جـ) مجلس الكراع ، ويجري فيه أمرُ علوفة الكراع وغيره ، مثل الخيل والشهاري والبراذين والبغال والحمير والإبل وغيره مما يعتلف من الطير والوحش ؛ ويجري فيه أمرُ سياسة الكراع وعلاجه ، وأرزاق القُوّام والرّاضة ونحو ذلك .

(د) مجلس البناء والمرمّة ، وهو مجلس يكبُر ويَصغُر على حسب الخلفاء في الإغراق في البناء أو الاكتفاء بيسيره ؛ ويجري فيه محاسبة الزُرّاع والمهندسين وباعة الجصّ والآجر والنَوْرَة والأسفيداج وأصحاب الساج والنجارين والمزوّقين والمذهّبين وسائر الصناع .

(هـ) مجلس الحوادث ؛ ويجري في أمر النفقات الحادثة (أي غير العادية) في كل وجه من وجوهها .

(و) مجلس الإنشاء والتحرير .

(ز) مجلس النسخ[1] .

(٣) ديوان بيت المال ، وهو في بغداد يشرف على ما يَرِد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والإطلاقات . ويجب أن تَمُرّ به الكتبُ التي فيها حَمْلُ مال ، قبل انتهائها إلى

---

(١) قدامة : نفس المصدر ص ٨ ا ـ ٩ ب .

دواوينها ، لتُثْبَتَ فيه ، وكذلك سائرُ الكتب النافذة إلى صاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك والإطلاقات ، يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها[1] • وفي عام ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م صدر أمرٌ بمطالبة صاحب بيت المال ببغداد بتقديم الروزنامجات في كل أسبوع للوزير ، ليستطيع معرفة ما حلّ وما قبض وما بقي ؛ وكان الرسم إذا عُملت الخَتْمَةَ لم تُرفع إلى الديوان عن الشهر الأول إلا في النصف من الثاني[2] •

(٤) ديوان المصادَرين[3] ، وكانت الوثائق التي يُدفع بمقتضاها في هذا الديوان تُكتب على نسختين ، إحداهما للديوان والأخرى للوزير[4] •

(٥) ديوان الرسائل ، وكان يسمى في مصر على عهد الفاطميين ديوان الإنشاء[5] ، وكان صاحب هذا الديوان بمصر في أوائل القرن الخامس الهجري يتقاضى في كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، عدا ما كان يكتبه من السجلاّت والعهودات وكتب التقليدات ، فقد كان له على ذلك رسومٌ يستوفيها[6] •

(٦) ديوان البريد ، وتأتي لصاحبه الكتب من جميع النواحي ، وهو المُنْفِذُ لها إلى مواضعها ، وهو يتولى عرض كتب أصحاب البريد

---

(١) نفس المصدر ص ٩ ب — ١٠ ا •
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ •
(٣) كتاب الوزراء ص ٣٠٣ ، ٣٠٦ •
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٢٦١ مثلا •
(٥) كانت لفظة الانشاء في المشرق من الالفاظ المستعملة في ديوان الرسائل ، وهو عمل نسخة يعملها الكاتب ، فتعرض على صاحب الديوان ليزيد فيها أو ينقص منها أو ينفذها على حالها (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبعة فان فلوتن ص ٧٨ ، وكتاب الوزراء ص ١٥١) •
(٦) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٢ •

والأخبار في جميع النواحي على الخليفة ، أو يعمل جوامعَ لها ؛ وله النظرُ في أمر المرتبّين في السكك ، وتنجيز أرزاقهم ، وتقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار ، ولا غنى له ، بعد أن يكون ثقةً عند الخليفة ، عن معرفة الطرق والمسالك إلى جميع النواحي ، بحيث يجد عنده الخليفة من المعرفة ما يحتاج إليه عند إنفاذ جيش أو غيره[1] . وكانت معرفةُ الأخبار وإبلاغُها قد بلغت درجة عظيمة من الرقي في الدولة الإسلامية ؛ فقد حُكي أن الخليفة الموفّق أراد أن يشغل قلب أحمد بن طولون ، فدسّ من سرق نَعْلَه من بيت حظيّة له لا يدخله إلا ثقاته ، ثم بعثها إليه ؛ فقال له الرسول : من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذي تعرفه أليس هو بقادر على ، أخذ روحك ؟[2] ؛ وكان صاحب البريد هو صاحب الأخبار الرسمي ، وكان له « عيون » يوافونه بكل جديد ؛ وهذا ميراث أخذه العرب عن البيزنطيين ، ففي عهد قسطنطين الأكبر كان لصاحب البريد أعوانٌ يسمّون باسم Veredarii (وهم نقلة الأخبار الذين يركبون الخيل) ، وكانوا يمدّونه بالأخبار[3] . وكان بعض المتعلمين في ذلك الوقت يعيشون من نقل الأخبار ، كما هو الحال اليوم بالنسبة لمراسلي الصحف ومندوبيها[4] . وجاء في عهد بولاية بريد ما يوجب على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليه

---

(١) كتاب الخراج لقدامة طبعة دي غوي ص ١٨٤ – ١٨٥ ، وقد كتبه قدامة حوالي عام ٣١٥ هـ – ٩٢٧ م .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) J. Burckhardt : Die Zeit Constants des Grossen. 3 Auf. s, 70.

وكان احد اصحاب البريد بمصر في القرن الأول من الحكم الاسلامي يقوم رسميا بتبليغ احوال رجال الشرطة (أنظر ZA. XX, S. 196.) .

(٤) في القرن الثالث الهجري قطع لسان ابن بسام الشاعر بأن وُلّي البريد بجند قنسرين (مروج الذهب ج ٨ ص ٢٧١ والارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٢٢ وما يليها) ؛ وكذلك كوفيء أحد الشعراء المجيدين بأن خيِّر في أعمال البريد ببلاد خراسان (يتيمة الدهر ج ٤ =

أمرهم ، ويتتبع ذلك تتبعاً شافياً ،ويستشفه استشفافاً بليغاً ، وينهيه على حقه وصدقه ••• وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري في أمور الرعية ، فيما يتعاملون به ، من الإنصاف والجور والرفق ، والعسف ، فيكتب به مشروحا ••• وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ••• وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق،وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه ••• وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته ••• وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله ، ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم ، وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم ، وإلى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها ، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتباً بأعيانها ، فيفرد لأخبار القضاة وعمال المعاون (؟) والأحداث ••• والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ، ليجري كل كتاب في موضعه »[1] • ولم يكن صاحب البريد يعنى فقط بالأخبار التي تتعلق بمهام سياسة الدولة ، بل كان عليه أن يبلغ كل ما عدا ذلك من طرائف الأخبار • فقد حدث في

= ص ٦٢) ؛ وكان أبو محمد الواثقي ببخارى يرجو أن يقلد أحد أعمال البريد (يتيمة ج ٤ ص ١١٢) ؛ وكان صاحب بريد نيسابور يملك من الكتب ما لا يملكه أحد في هذه المدينة مع كثرة علمائها . ويعتبر ابن خلدون المغربي أن صاحب البريد من بين أرباب صناعة السيف (المقدمة ج ١ ص ١٩٨ ؟) .

(١) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٨ ب ــ ١٩ . ويرجع تاريخ هذا العهد إلى عام ٣١٥ هـ .

عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م أن ورد كتاب" من صاحب البريد من بلدة الدينور يذكر فيه أن الموكّل بخبر التطواف رفع إليه يذكر أن بغلة لرجل وضعت فَلْوَةً ويصف اجتماعَ الناس لذلك وتعجبهم لما عاينوا منه ، ويقول : « فوجهتُ من أحضر لي البغلة والفلوة ، فوجدت البغلة كَمْتاء خلوقية، والفلوة سويّة الخَلْق ، تامة الأعضاء ، مُنْسَدلة الذنب ، سبحان الملك القدوس ، لا معقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب »[1] .

(٧) ديوان التوقيع ، وإليه تنتهي رقاع من يسأل شيئاً عند الخليفة، بعد أن يراها صاحبُ ديوان الدار ، ويقتصّ المسألة والرقعة ، ويشرح حالَها ، وما لعله يكون جرى فيها ؛ وبعد أن يستطلع صاحبُ ديوان التوقيع رأيَ الخليفة فيها ، ويوقّع عليها بخطه في ديوان التوقيع يرسل إلى صاحب ديوان الدار بنسختها أو اقتصاص ما تضمّنت ؛ ومن ديوان الدار تُرسل إلى صاحب الديوان الذي تجري فيه المسألة (كالخراج أو الضياع أو المال أو النفقات ... الخ)[2] . وكان الفصل في أمر الرقعة يُكتب على الرقعة نفسها توقيعاً من الخليفة أو كاتبه . وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكن أن تبلغه من الاختصار ، والبلاغة ، وإظهار ذكاء موقّعها وقدرته على حسن الفصل وإصابة الغرض . وكان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحيى البرمكي ، الذي كان يلي ديوان التوقيع للرشيد،ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار[3] .

(٨) ديوان الخاتم ، وبه تمرُّ وتُثبَت فيه الكتب التي يُحتاج إلى

---

(١) عريب ص ٣٩ ــ ٤٠ .

(٢) كتاب الخراج لقدامة ص ١٩ ب ــ ٢٠ ا .

(٣) كتاب العبر ج ١ ص ٢٠٦ من طبعة بولاق .

ختمها بخاتم أمير المؤمنين ؛ وذلك بعد أن يمرّ الكتاب على دواوين عدة وبعد المقابلة[1] .

(٩) ديوان الفضّ ، ومنزلة هذا الديوان من الخليفة منزلة مجلس الاسكدار في ديوان الخراج من المتولّي له ، لأن سبيل الكتب التي ترد من العمال في النواحي إلى أمير المؤمنين أن يكون ابتداؤها به وخروجها إلى الدواوين منه ، بعد فضّها وأخذ جوامعها ليقرأها الخليفة ويوقع فيها بما يراه . وكان هذا الرسم جارياً في أول الأمر ، لما كان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في الكتب بأنفسهم ؛ ثم آل ذلك إلى الوزير ، فصار هو المتولّي لفض الكتب وإخراجها الى الدواوين ، وانتقل عملُ ديوان الفض إلى حضرة الوزير ، وصـار المتولّي له كاتبـاً برسـمه في دار الوزير[2] .

وفي حوالي عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م قُلّد ديوان الفض وديوان الخاتم لرجل واحد ، وكان جاريهما أربعمائة دينار ودينار[3] .

(١٠) ديوان الجَهْبَذة ، ويجري فيه من الأموال مالُ الكسور والكفاية والوقاية ، وما يجري مجرى ذلك من توابع أصول الأموال ، ثم ما يزيده شرارُ الجهابذة من الفضول على هذه التوابع بسبب إعنات من عليه مالٌ من أهل الخراج ومن يجري مجراهم في النقود والصروف، وما يرتفقون به من التقديم والتأخير عمن يتعذّر عليه الآداءُ في وقت المطالبة ... فإن بعضهم لما وجد ذلك في بعض النواحي زاد في ضمان

---

(١) قدامة ص ٢٠ ب .

(٢) نفس المصدر ص ٢١ ب ـ ٢٢ أ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٧٨ .

الجهبذة بتلك الناحية على من هو ضامن لها ، ووقع التزايدُ في هذه الوجوه بالظلم والعدوان على الرعية وسائر من يُقام لهم الجاري ، وتُطْلَق لهم النفقة ، حتى توافى مال الجهبذة إلى جملة وافرة أصْلُ أكثرها عدوان"[1] .

(١١) ديوان البِر والصدقات[2] .

وكان أصحاب الدواوين في أوائل القرن الرابع الهجري على ثلاث طبقات[3] . وكان صاحب ديوان السواد يقبض أعلى مرتَّب بين أصحاب الدواوين ، وهو خمسمائة دينار في كل شهر[4] . وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ = ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) بلغت أرزاق أصحاب الدواوين كلها من أكابر الكتّاب إلى الخُزّان والبوّابين والأعوان ، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد أربعة آلاف وسبعمائة دينار في الشهر ، وذلك عدا ما كان يقبضه الوزراء ، وعدا أرزاق كتّاب دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجلس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخُزّان بيت المال ، فإن هؤلاء يأخذون أرزاقهم مما يوفّرونه من أموال الساقطين وغُرَم المخلّين بدوابّهم[5] . فكانت المرتّبات التي يتقاضاها هؤلاء تتوقف على مقدار يقظتهم وعنايتهم . على أن الأرزاق كانت تطلق في الأسبوع الأول من الشهر[6] . وفي أوائل القرن الرابع ظهر رسم" جديد، ثم صار رسماً كثيراً ما لجأ إليه الحكام ، وهو ألا يُعطى أصحاب الأرزاق

---

(١) قدامة ص ٢٣ ١ ـ ب .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٥٧ .
(٣) كتاب الوزراء ص ١٥٦ .
(٤) نفس المصدر ص ٣١٤ .
(٥) كتاب الوزراء ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٦) نفس المصدر ص ٨١ .

أعطياتهم عن السنة كاملة ؛ ففي عام ٣١٤ هـ ــ ٩٢٦ م اقتـُصر في أرزاق معظم العمال على عشرة أشهر في كل سنة ؛ وكان صغار أصحاب الأرزاق أكثرهم عرضة للغبن ، فمثلا اقتـُصر في أرزاق أصحاب البـُرُد والمنفِقين على جاري ثمانية أشهر[1] . وكان يـُستعاض عما يفقده بعض أصحاب الدواوين بتقليده دواوين أخرى ؛ فمثلا في حوالي عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م كان يتولى ديوان الأزمّة والتوقيع وبيت المال رجل واحد[2] .

وكان على رأس كل ولاية رجلان : الأمير (وهو قائد الجيش) ، والعامل ؛ ويسمى هذا الأخير صاحب الخراج ، لأن أكبرَ واجباته حملُ خراج الولاية إلى خزانة الدولة ؛ وهو الذي يتولى الإنفاق على الولاية مما يحصل لديه من الأموال ، لأن خزانة الدولة العامة كانت لا تتولى إلا أمر نفقات دار الخلافة والدواوين وما يتعلق ببغداد[3] . وكان الأمير يخاطب في المراسلة بما يخاطب به العامل ؛ وكانت منشورات الوزير ترسل لكل منهما في وقت واحد[4] . ولكن الأمير كان يمتاز على صاحبه لأن له الصلاة بالناس ، وهذا يجعله رئيس المسلمين جميعاً في ولايته[5] ؛ وإذا تضافر الأمير والعامل استطاعا أن يفعلا بالولاية ما شاءا ، كما حدث في عام ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م من أن العامل والأمير تضافرا بفارس وكرمان على قَطْع حَمْل الأموال إلى الخليفة المقتدر ببغداد مدة طويلة[6] . ولو أن رجلا واحداً قـُلـِّد المنصبين معاً لأصبح كالحاكم المستقل بولايته .

---

(١) نفس المصدر ص ٣١٤ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٧٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١١ والصفحات التالية .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٥) المغرب لابن سعيد ص ١٥ .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ ــ ١٦٦ .

ونظراً لما في اجتماع هذين المنصبين من المزية امتنع بجكم ، القائد التركي الطموح ، من المسير إلى الأهواز لتولي أمورها عام ٣٢٥ هـ ـ ٩٣٧ م إلا أن يكون له الحرب والخراجُ ، فأُجيب إلى ذلك [١] . وقد كانت ولاية مصر على قسمين : والٍ للحرب والصلاة ، وآخر للخراج وتدبير الأموال ، حتى جاء ابن طولون فجمع بين الولايتين ، وكذلك فعل الأخشيد ، وكان كل منهما في الواقع حاكما مستقلا في مصر[٢] .

ويشكو ديونيسيوس Dionysius von Tellmachre المتوفى عام ٢٢٩ هـ ـ ٨٤٣ م في آخر كتابه في التاريخ ، من كثرة عدد العمال ؛ لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل[٣] ؛ ففي مدينة الرقة مثلا ، وهي مدينة صغيرة على نهر الفرات كان يوجد : (١) قاض ، (٢) وكاتب سلعة يعرف بالبندار ، يطالب بالخراج ووجوه المال ، (٣) وصاحب جند ، (٤) وصاحب بريد ينهي أخبار الولاية للخليفة ، (٥) ومتولٍّ للضياع السلطانية (الصوافي) ، (٦) وصاحب معونة[٤] . وكان يوجد مثل هؤلاء الولاة في كل « عَمَل » من اعمال الدولة السامانية[٥] . وكان أكثر هذا العدد الكبير من العمال يخرجون بخروج الوزير الذي عيّنهم ، وعند ذلك يظلون متعطّلين في شوارع بغداد ،

---

(١) نفس المصدر ص ٢٥٢ .

(٢) المغرب ص ١٥ .

(٣) Michael Syrus, S. 538

(٤) نفس المصدر ص ٥٤١ ، وكلام ميخائيل غير واضح لان منصب صاحب المعونة كان يضم عادة إلى صاحب الجند والحرب ، ونجد عند قدامة (مخطوط باريس ص ١٤ ب ـ ١٦ ا) نسخة عهد بولاية المعونة والحرب .

(٥) ابن حوقل ص ٣٠٧ ، ٣٠٩ وكذلك كانت العراق مقسمة إلى أربعة وعشرين طسّوجا . وكل طسّوج اثنا عشر رستاقا ، والرستاق اثنتا عشرة قرية . (كتاب الوزراء ص ٢٥٨) .

يثيرون الفتن حتى يعود حزبهم إلى ولاية الحكم ـ كما كان الحال في أسبانيا وفي الولايات المتحدة منذ عهد غير بعيد ـ وإلاّ شغبوا فعكّروا هدوء البلاد . ويحكى أنه قدم مرة على صاحب أصفهان شيخ من الكتّاب يطلب التصرُّفَ ، ويحمل كتباً من إخوان لصاحب أصفهان ببغداد يوصونه به ؛ فقرأ الحاكم أول كتاب ، ولم يقرأ باقي الكتب ، وضجر وتغيّظ ، وقال : « قد والله بُلينا بكم معاشرَ المتعطّلين ! كل يوم يصير إلينا منكم واحد يريد تصرُّفاً أو برّاً، ولو كانت خزائن الأرض لي لكانت قد نفذت »[1] .

وكان من دهاء عضد الدولة أنه كان يوصل إلى العمال المتعطّلين ما يقوم بهم ، ويحاسبهم به إذا عملوا[2] .

وكان الإخشيد أول من رتّب الرواتب[3] ؛ وقد أقرّ الفاطميون نظامه في جملته ؛ وكانوا ينوون ، فيما يلوح ، أن يقسّموا حكم البلاد بين أوليائهم ؛ والدليل على ذلك أن جوهراً وإن كان قد ترك العمال في مناصبهم ، فإنه لم يَدَعْ عملا إلا جعل فيه مغربيّاً شريكا لمن فيه[4] . ولكن لما ظهر أن هؤلاء المغاربة أكثر إتعاباً للدولة من غيرهم لم يتمّ ما كان مُزْمَعاً من إخراج العمال القدماء ، وهم نصارى في الغالب . أما الأرزاق فلدينا من أخبـار الإدارة الفاطمية أن الوزير كان يتقاضى خمسة آلاف دينار في كل شهر ، وهو مثل مرتب صاحبه ببغداد ؛ أما رواتب أصحاب الدواوين فكانت أقل بكثير مما في بغداد ؛ فكان

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي طبعة مصر ١٩٠٤ ج ٢ ص ٩ ـ ١٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٣٩ ، والخطط للمقريزي ج ١ ص ٩٩ .

(٤) الاتعاظ للمقريزي ص ٧٨ .

صاحب ديوان الإنشاء يأخذ مائة وعشرين ديناراً ، وصاحب بيت المال مائة دينار ، وأصحاب الدواوين الأخرى ما بين سبعين وثلاثين ديناراً في كل شهر . وفي القرن الثالث الهجري عيَّن أحد أصحاب ديوان الرسائل رجلا أتاه يطلب الكتابة ، وكان يعطيه في كل شهر أربعين ديناراً ليقوم بالإجابة على الرسائل التي ترد إلى الديوان[1] .

وعلى حين أننا لا نجد بين قواد الجيش إلا أسماء قوم من الموالي فإن وظائف الدواوين كانت وقفاً على الأحرار ، « وكان الفرس هم شحنة دواوين الخلافة ... فمنهم البرامكة ، وآل ذي الرياستين ، وإلى يومنا هذا منهم المادرائيون والفريابيون[2] . ولما كانت الصبغة الغالبة على عمال الدواوين هي الصبغة الاقتصادية المالية ، فقد كان لا بد للواحد منهم من أن تتوفر لديه بعضُ خصال التاجر ، وكان الفارسي أمهر تاجر في المملكة الإسلامية . ولا تزال الكفايةُ الإدارية موروثةً في الفرس إلى يومنا هذا ؛ فيحدثنا الخبير النمساوي الذي قام بتنظيم البريد في فارس « أن كل فارسي يحسّ من نفسه الصلاحية لكل عمل ، وهو لا يتردّد في أن يدخل اليوم عملا إداريا مدنياً ، ويقوم به ؛ ثم يكون غداً في منصب حربي[3] . وهذه من خصال الفرس القديمة ؛ ويحكى أنه كان لبختيار بن معز الدولة كاتبٌ فارسي ، وكان مستولياً عليه ؛ ثم تحقّق بالجندية ، وادّعى الشجاعة ، وأعاره الناس من ذلك ما لم يكن عنده ، تقرُّباً إليه ؛ ثم عزم أخيراً على تقلد الجيش والتسمية بالاسفهسلار ؛

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) الاصطخري ص ١٤٦ ، وذكر بعض المؤلفين ان الكتّاب خمسة : كاتب رسائل ، وكاتب خراج ، وكاتب قضاء ، وكاتب جند ، وكاتب شرطة ؛ ولكل منهم أشياء ينبغي أن يعرفها . انظر المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٤٨ ، وتجد التفصيل في جمهرة الاسلام للشيرازي مخطوط رقم ٢٨٧ بمكتبة ليدن ص ١٩٩ ا وما يليها .

(٣) Aus Persien, 1882, S. 184 ، (ولم يذكر اسم مؤلف هذا الكتاب ، المترجم).

ولكنه اضطر إلى الفرار من بغداد عام ٣٥٨ هـ ــ ٩٦٩ م[١] . وكان الاشتغال في الدواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الإختلاف ؛ فكان المشتغل بإدارة الدواوين هو ممثل الثقافة الأدبية ، وكان لا يعالج العلوم الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته . أما التمايز الظاهري بينهم فكان يتجلى في أن الكاتب يلبس درّاعة ، على حين أن العالم يلبس الطيلسان[٢] . ويُحكى أن الوزير العتبي أراد أن يلزم أبا عبد الله بن أبي ذهل (المتوفى عام ٣٧٨ هـ ــ ٩٨٨ م) تَقَلّد ديوان الرسائل ، فقال له : هذا قضاء القضاة بكور خراسان ، ولا يخرج عن حد العلم ؛ ولكن ابن أبي ذهل بكى وهدّد بترك البلد ، حتى أعفاه الوزير من ذلك[٣] . على أن الخلفاء كانوا يأبون أن يستوزروا العلماء وأصحاب الطيالس ؛ وقد أشير على الخليفة المقتدر أن يستوزر محمد بن يوسف القاضي فقال: لعمري إنه عالم ثقة،إلا أنني لو فعلتُ ذلك،لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ؛ لأنني أكون بين أمرين : إما أن تُتَصَوّر مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيَصْغُر الأمر في نفوسهم ، أو أنني عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس ، فأُنسب إلى سوء الاختيار[٤] . وهذه الطائفة من الكتّاب أكبر ما يميز الدولة الإسلامية عن أوروبا في أوائل العصور الوسطى ، حيث كان لا يتولى العمل بالدواوين إلا أهل الثقافة الدينية ؛ ولم يكن ذلك من الخير للإسلام ، لأن العمل في الدواوين بما ينقصه من تعمق وما يؤدي إليه من ركود عقلي كان يندر أن ينشيء عقولا تأخذ بحظ في الحركة العقلية ؛ وكان العمل في الدواوين ملجأً ملائما

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٢٦ ــ ٣٢٩ .

(٢) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٣٤ ، والمقدسي ص ٤٤٠ .

(٣) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٦٦ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

للأدباء الذين لم ينشأوا في الأوساط الدينية، وهم المتعلمون الذين صاروا بعملهم في الدواوين مجردين من البواعث الداخلية والخارجية التي تدفع العقل إلى العمل ؛ ولا يزال « الأفندي » الراضي عن نفسه ، بثقافته السطحية وقلة دوافعه إلى التفكير ، عقبةً في طريق التقدم حتى يومنا هذا ، وهو أخطر على التقدم من رجل الدين الضيِّق الأفق والمحدود النظر[1] .

وقد جاء في خبر يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ما يضع القواعد الأساسية لما ينبغي أن يكون عليه العامل . فيحكى عن عمر أنه كان إذا استعمل رجلا اشترط عليه أربعاً : ألا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوبا رقيقاً ، ولا يأكل نقيّا (؟) ، ولا يغلق بابه دون حوائج الناس ولا يتخذ حاجباً[2] . ولكن المال لعب في القرن الثالث الهجري دوراً سيئاً في حياة عمال الدواوين ، وكان لكل شيء ثمن يُبذل وخصوصاً لمناصب الدواوين[3]. وكان العامل متى تقلّد المنصب حاول أن يسترد ما خسره مستعيناً على ذلك بالخيانة ؛ فكان العمال مثلا يعيّنون أرزاقا لقوم لا يحضرون إلى العمل ، وأرزاقا بأسماء قوم لم يُخلقوا ، وكانوا يقيّدون برسم الفقهاء والكتّاب مرتباتٍ بأسماء الغلمان والوكلاء في الحاشية ؛ وكانوا يصرفون الورق والقراطيس ، ثم يبيعونه فيحصل لهم منه مال[4] .

---

(١) ربما يقصد المؤلف ان أهل الدين بحكم ما كانوا عليه من بحث وتعمق وجدال ، اقدر على التفكير وبالتالي على الثورة والاصلاح الاداري ، وكان هذا الاصلاح الزم ما يكون للادارة الاسلامية . (المترجم)

(٢) كتاب الخراج لابي يوسف ص ٦٦ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٦٣ .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٤٤ .

وكان عامل مصر يقبض ثلاثة آلاف دينار في كل شهر ، وهو مبلغ كبير ؛ ولكن كان على العامل أن يسدد نفقات ديوانه ، وكان يعلم أن رزقه لا يكفي نظراً لكثرة الهدايا التي يبعث بها إلى الأمير والوزير والخليفة . وقد شكت إحدى حظايا الخليفة مرة من مماطلة بعض أصحاب الدواوين في تسليم إقطاع وهبه لها الخليفة ، فقال لها : كان الصواب أن تبعثي إليه بثياب وألطاف ، فتستغني عن خطابي ، ففعلت ما نصحها به ، وتم لها ما أرادت[1] . ويصف ابن المعتز الولاة في بعض شعره ، حيث يقول :

أفما ترى بلداً أقمتُ به   أعلى مساكن أهله خُصُّ
وولاته نَبَطٌ زنادقة   ملأى البطون،وأهله خُمْصُ[2]

وكان أهل التقى فيذلك الوقت يعتبرون عمال السلطان والفسّاق فريقاً واحداً ؛ كما جمع العهد الجديد بين المذنبين وآخذي الضرائب الجمركية.ويحكى أنه بلغ من دِين بعض أهل الورع أنه امتنع من نقش فص للأمير ، فزاد في الأجرة حتى بلغت مائة دينار ، فأبى الرجل ؛ ثم جاء إليه بعد ذلك تاجر فأعطاه على نقش بعض الفصوص عشرة دراهم ، فأخذها ، وذلك اجتهاداً منه في ألا يأخذ الحرام[3] . وقد كان يضرب المثل بزهد جعفر بن مبشّر ، وقد أضرّت به الحاجة ، حتى كان يقبل القليل من زكاة إخوانه . وقد أُعجب أحد التجار بحسن كلامه مرة ،

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٢ — ١٨٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١٤ . لم تكن حوائج ابن المعتز تقضى ، ولا معاملاته تمضي عند الوزراء ، لأنه لم يكن محبوبا في قصر الخلافة ؛ وقد ظل ثلاثين سنة يكاتب الوزراء في حاجاته نظما ونثرا ، فلا يجيبونه ، وكان يحاول الوصول إليهم فلا يأذنون له (انظر كتاب الوزراء ص ١١٥) .

(٣) ابن المرتضى : ذكر المعتزلة ص ٦١ .

وعرف مسكنته ، فأرسل إليه خمسمائة دينار ، فردّها فقيل له : قد عذرناك في ردّ مال السلطان للشبهة ، وهذا تاجر مالُه من كسبه ، فلا وجه لردّك له[1] . وحكي أن بعض المتصرّفين احتبس أبا علي الجُبّائي للطعام ، فأجابه ؛ فأنكر رجلٌ ذلك عليه ، فقال له : ألَسْتَ تعلم أن طعامه الذي يقدمه إلينا مما يشتريه ، وأن الغالب أنهم يشترونه لا بعين المال ، أفما تعلم أن ذلك ملكه ، وأنه مما يحلّ له تناوُله[2] . « وكان أحمد بن حرب يوما على طعام مع قوم وفدوا عليه من كبار نيسابور ووجوهها ، إذ دخل ابنه في الغرفة سكران يغنّي ويلعب ، ولم يسلّم على القوم ؛ ولما رأى أحمد دهشتهم سألهم : ما بكم ؟ فقالوا خجلنا من أن يدخل عليك ولدك على هذه الصورة ، فقال لهم أحمد : إنه معذور ، فقد أكلت أنا وزوجتي ليلة من طعام بعثه إلينا جارٌ لنا ، وفي هذه الليلة حُمل بهذا الغلام ، فنمنا ، ولم نصلّ ، فلما كان من اليوم التالي سألنا جارنا : من أين هذا الطعام الذي بعث به إلينا ، فعلمنا أنه من طعام وليمة عرس في دار أحد عمال السلطان »[3] .وكان بعض الناس لا يسلم على عامل السلطان بما تجري به العادة من قول : السلام عليكم، بل كان البعض يقول جادّاً أو مستهزئاً : تُب من عمل السلطان.وقد تاب رجل مرة من عمل السلطان ؛ ثم طُلب لتقليده عملاً جليلاً ، فكسر التوبة ، فسماه الناسُ المرتدّ[4] . ونادراً ما كان الرأي العام يعتبر قلة الأمانة في إدارة الدواوين شيئاً يخلّ بالشرف . ويعجب المؤرخون حين يجدون أحد كبار العمال من أهل الأمانة . ومما يحكى أنه توفي في عام ٣١٤ هـ ــ ٩٢٦ م صاحبُ بيت مال العامة ؛ فأراد الوزير أن يقبض

---

(١) نفس المصدر ص ٤٣ ــ ٤٤.

(٢) نفس المصدر ص ٥٦ ، ٦٠ .

(٣) كشف المحجوب للحجويري (بالفارسية) ص ٣٦٦ .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤ .

أمواله ، واشتد في المطالبة ؛ ولكنه لم يجد شيئاً ، لأن ذلك الرجل كان « صحيح الأمانة »[١] . وكثيراً ما كان يُترك العمال في مناصبهم أو يُعادون إليها بعد تركها مع الشبهة في أمانتهم ؛ وذلك بعد أن يدفعوا ما يقرَّر عليهم . على أن هذا لم يكن يقع دائما .

أما مصادرة العمال فإننا نعرف من مصدر جدير بالثقة أن الأخشيد، صاحب مصر ، وكان رجلا ماليّا ماهراً ، هو أول من نكب عماله وكتّابه مراراً[٢] . فهو مؤسس نظام مصادرة العمال وفرض الأموال عليهم . وكان العامل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له أصحابه ، وجمعوا مالاً للتخفيف عنه[٣] ؛ وقد صادر الحاكم بأمر الله أحد أصحاب الدواوين ، وقطع يديه عام ٤٠٤ هـ — ١٠١٣ م ، ثم أكمل بقية تصرفاته الغريبة ، فقلّده ديوان النفقات عام ٤٠٩هـ — ١٠١٨م ، بل قلده الوزارة عام ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م[٤] .

على أن السنّة الفاسدة التي جرى عليها حال الدواوين في دولة الخلفاء تجلّى أثرها السيء في ظهور مرض لحق بحـرفة الاشتغال في الدواوين ، كما أن لكل حرفة مرضاً ؛ وذلك هو التهافت الشديد عـلى الألقاب ، والتكلف في أساليب المكاتبات . وقد بدأ هذا في القرن الرابع، وبقي إلى اليوم . وفي المكاتبات الرسمية كانت تُوجّه عناية كبيرة إلى العنوانات وتعظيم شأن المخاطَب وإلى الإسهاب في ذلك ؛ على حين كان

---

(١) عريب ص ١٢٨ .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٠٦ — ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٤) Becker, Beiträge zur Geschichte Aegyptens, 1, 34 نقلا عن المسبّحي المتوفي عام ٤٢٠ هـ .

يختم الخطاب ويوقع عليه في إيجاز على خلاف عادة الأوربيين . وقد بدأ هذا منذ القرن الثالث الهجري ، وذلك أن العادة كانت جارية في المكاتبة بين الناس بأن يقال : من فلان إلى فلان أو من أبي فلان إلى أبي فلان ؛ ولم يكن على شيء من العنوانات دعاء ، حتى جاء الفضل بن سهل في خلافة المأمون ، فكتب كتاباً عنوانه : لأبي فلان أبقاه الله من أبي فلان[1] ؛ ثم استعمل الناس بعد ذلك الدعاء على عنوانات الكتب . وقد انتهت إلينا المخاطبات المختلفة التي كان الوزيرُ يخاطب بها العمال على اختلاف درجاتهم في القرن الرابع الهجري . فكان يكتب إلى أمير الشام وأجنادها : أعزّك الله ومدّ في عمرك وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك ؛ وإلى الزُّرّاع والمهندسين : حفظك الله وعافاك ؛ وإلى أصحاب البُرُد ممن يتقلد الأعمال الجليلة : أكرمك الله ومدّ في عمرك ؛ وأتم نعمته عليك ؛ وإلى التجار والمبتاعين للغلاّت إذا جُمعت للواحد منهم أعمال" : عافانا الله وإياك من السوء[2] . وكان الوزراء والكبراء في أول القرن الرابع يخاطَبون بسيدنا أو مولانا ، ويستعمل في ذلك ضمير المخاطب المفرد . وفي عام ٣٧٤ هـ — ٩٨٤ م كان ابنُ سعدان الوزيرُ يخاطب الوزيرَ ابن عباد بالصاحب الجليل . والصاحبُ ابنُ عباد يخاطب ابنَ سعدان بالأستاذ مولاي ورئيسي[3] .

---

(١) تاريخ سعيد بن البطريق (المتوفي عام ٣١٨ هـ — ٩٣٠ م) ص ٧٣ ب من مخطوط باريس رقم ٢٩١ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٥٣ والصفحات التالية .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، طبعة كليفورنيا ص ٣٤ ، وكان عيسى بن نسطورس وزير العزيز بالله في مصر يخاطب بسيدنا الاجل (يحيى بن سعيد ص ١١٢ ا) .

ويقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي[1] (المتوفي عام ٣٨٣ هـ ـ ٩٩٣ م) في هذه الألقاب :

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ... ما كان يرضى به للحش بوابا
قلّ الدراهم في كفي خليفتنا ... هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وفي عام ٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م لُقب قاضي القضاة الماوردي بلقب أقضى القضاة ؛ وجرى من بعض الفقهاء إنكار لهذه التسمية ، وقالوا : لا يجوز أن يسمى به أحد ، هذا بعد أن كتبوا خطوطهم بجوار تلقيب جلال الدولة بملك الملوك الأعظم ، فلم يلتفت إليهم الماوردي ، واستمر له هذا اللقب إلى أن مات ، ثم تلقب به القضاة بعده[2] .

وقد حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يلغي الألقاب ؛ فبعد أن سخا في منح الألقاب ؛ على اختلاف أنواعها ، أسقطها عام ٤٠٨ هـ ـ ١٠١٧ م ما عدا ألقاب تسعة نفر ، هم أكبر حملة الألقاب ، ولكنه أعاد الألقاب بعد قليل[3] ، على عادته الجارية من نقض وإبرام . ويقال إن أبا الحسن كاتب الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ = ٩٩١ ـ ١٠٣١ م) هو مخترع لفظ « الحضرة » في المخاطبة ؛ وفي هذه المسألة الصغيرة أيضاً نجدنا حتى الآن نسير على رسم القرن الرابع . وهذا الكاتب هو مخترع عبارة : الحضرة العالية الوزارية ؛ وهو أول من أخرج عبارة : الحضرة المقدسة النبوية في الكلام عن الخليفة ، وأشرك بذلك عبارة : السدّة

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٤٥ .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٠٧ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٩ ا ـ ب .

النبوية ، ثم كتب عن الخليفة بلفظة غريبة غير مستقيمة الدلالة وهي : « الخدمة » وتصرف في ذلك حتى قال : قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبي الحسن بن أبي الشوارب في ترجمة رقعة : « خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان »[1] . وقد لقَّب الخليفةُ القائم وزيرَه (قتل عام ٤٥٠ هـ ــ ١٠٥٨ م) بألقاب هي : رئيس الرؤساء ، وشرف الوزراء ، وجمال الورى[2] . أما بين القضاة فقد بقي الرسم القديم جارياً ، فكان قاضي القضاة يوقع للقضاة بما يقول فيه : « أبو فلان بن فلان القاضي أيده الله يفعل كذا » ، وإلى قضاة النواحي : « فلان بن فلان الحاكم » ، بغير كنية ولا دعاء ولا ذكر قضاء[3] .

وفي عهد المقتدر كانت تغلق الدواوين في دار الخلافة يومي الجمعة والثلاثاء ، وقد أمر المقتدر (٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ ــ ٩٠٢ م) بذلك « لأن يوم الجمعة يوم صلاة ، وكان يحبه ، لأن مؤدِّبه كان يصرفه فيه عن مكتبه ؛ ولأن الناس يحتاجون في وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر في أمورهم ، والتشاغل بما يخصُّهم »[4] .

*

(١) كتاب الوزراء ص ١٤٨ والصفحات التالية .
(٢) تاريخ بغداد JRAS., 1912, S. 67.
(٣) كتاب الوزراء ص ١٥١ .
(٤) نفس المصدر ص ٢٢ .

الفصل السابع

الوزارة والوزراء

لما انتهى عهدُ الإدارة الإقطاعية ، وجاء عهدُ التنظيم البيروقراطي ظهر منصبُ الوزير في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس . أما في عهد بني أمية فلم تكن الوزارة « مقنّنة القواعد ، ولا مقرّرة القوانين » ؛ وكان ذوو الآراء من مستشاري الملك يقومون مقام الوزراء ، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مُشيراً[1] .

وفي أول القرن الرابع الهجري انتقِص اختصاصُ الوزير ؛ فأخذ الخليفةُ منه الضياعَ العباسية التي كانت إقطاعاً يديره الوزراء ، ويَحصُل منه مائةٌ وسبعون ألف دينار ؛ وأُجري للوزير رزقٌ ثابت قدره خمسة آلاف دينار ، ثم صارت سبعة آلاف في كل شهر[2] . على أنه كان للوزير مكانٌ ممتازٌ بين سائر رجال الدواوين ؛ فكان يُعطى لكل ولد من أولاده خمسمائة دينار في كل شهر ، وهو مبلغ يساوي مرتب وزير[3] .

---

(١) كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، الطبعة الأوربية ص ١٨٠ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ ؛ ومسكويه ج ٥ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٣ . أما في مصر على عهد الفاطميين ، فكان يعطى إخوة الوزير أيضاً من مائتي دينار إلى ثلاثمائة ـ الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٠١ .

وأكبر تغيُّر يسترعي النظر في إدارة الدولة أننا نجد الوزير قد صار مُقَدَّماً على جميع القواد ، مع أنه ليس إلا رئيس الكتاب ، ومع أن الدولة قامت في الأصل على أساس حربي ؛ وكان هذا الوضع الجديد إحياءً لنظـام التدرُّج في المناصب إلى أن تنتهي برئيس أعلى ، وهو النظام القوي الذي كان موجوداً في تاريخ الشرق القديم . على أنه لما عاد القائد مؤنس المظفّر إلى بغداد في عام ٣١٢ هـ — ٩٤٢ م ، ركب الوزير طيَّارَهُ للسلام عليه ، ولتهنئته بمقدمه ؛ وهذا ما لم تَجْرِ به عادة الوزير ، وما لم يفعل مثلَه وزيرٌ من قبل ؛ حتى إن الوزير لما خرج لينصرف خرج معه مؤنس إلى أن نزل في طيَّاره ، وقبّل يَدَه[1] .

وفي أول القرن الرابع كان رسم الوزير في لباسه هو رسم سائر العمال ؛ فكان يلبس دُرّاعةً وقميصاً ومُبَطَّنة وخُفّاً[2] ؛ وكان السواد هو اللباس الرسمي[3] . أما في أيام الاحتفالات الرسمية فكان يرتدي ثياب الموكب، وهي قِبَاء وسيف بمنطقة، ومع هذا عمامة سوداء، وهي الجزء الذي لا ينزعه الوزير من لباسه الذي يلبسه عادة[4] .

(١) كتاب الوزراء ص ٥٠ ؛ ومسكويه ج ٥ ص ٢١٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .

(٣) انظر ما قاله الأصفهاني شعراً يذم به أبا عبد الله البريدي ، في تاريخ الفخري ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

(٤) كتاب الديارات للشابشتي ص ٦٦ ا . ومسكويه ج ٦ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ؛ والارشاد لياقوت ج ٤ ص ٣٥٦ .

وفي عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م خرج الوزير للصلاة وعليه شاشية وسيف بحمائل ، فعجب الناس من ذلك (عريب ص ١٦٥) . وقد انتهى إلينا البرنامج اليومي للوزير صاعد بن مخلد حوالي عام ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م : كان يقوم في آخر الليل ، فلا يزال يصلي إلى طلوع الفجر ، ثم يأذن للناس فيسلمون عليه ، ثم يركب إلى دار الخليفة الموفق ، فيقيم بحضرته اربع ساعات ، ثم ينصرف إلى منزله فينظر في حوائج الناس وأمور الحاضر والغائب إلى الظهر ، ثم يتغذى وينام ، ثم يجلس بالعشي ، فينظر في الأعمال السلطانية إلى العشاء الآخرة ، لا يبرح أو يحصل جميع الأموال ما حُمل منها ، وما أنفق ، وما بقي . ثم ينظر في أمر ضياعه وأسبابه ، ويتقدم إلى وكلائه وخاصته بما يحتاج إليه ، ثم يتشاغل بعد ذلك مع نديم يتشاغل بحديثه ويأنس به ، ثم ينام (الشابشتي ص ١١٨ ب) . وكان ابن العميد وزير بني بويه =

وكان الخليفة يخلع على الوزير هذه الثياب ، التي هي رسم الوزارة ، عند تقليده ؛ فيركب الوزير من داره إلى دار الخلافة ، وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ثم يعود إلى داره ، وهم معه . ويصف المؤرخون ذلك ، ولا يهملون أن يذكروا بعض ما كان يقع من الأمور النادرة ، فيُذكر مثلا أن بعض الوزراء أخذه البول ، وهو في طريقه إلى منزله ، فنزل وهو في خِلَع الخليفة إلى دار أحد عمال الدواوين ، فبال عنده وأمر له بزيادة في رزقه[1] . وإذا وصل الوزير إلى داره حضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة . وكان الخليفة يرسل له مالا وثيابا وطيباً وطعاماً وأشربة وثلجاً[2] .

وكذلك انتهى إلينا العمل اليومي لأحد الوزراء حوالي عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م ، مع الإشارة إلى أن أخلاقه ، وهو وزير ، كانت مثلها وهو صاحب ديوان ؛ « فكان من رسم الوزير (ابن الفرات) أن يغدو إليه الكتاب ، فيواقفهم على الأعمال ، ويسلّم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته به ، ثم يروحون إليه بما يعملونه من أعمالهم ، فيواقفهم عليها ، وعلى ما أخرجوه من الخروج وقضوه من الأمور ، ويقيمون إلى بعض من الليل ؛ وإذا خفّ العمل ، وقد عُرضت عليه في أثنائه الكتبُ بالنفقات والتسبيبات والحسبانات ، نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه[3] » ؛ وفي مثل هذا المجلس كان الكتاب

ـ بالريّ حوالي منتصف القرن الرابع يبكّر إلى دار الامارة ، وكان الرسم أن يحضرها بالمشاعل والشموع قبل الصباح (الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٧) . وكان الوزير نظام الملك في أواخر القرن الخامس يباكر دار السلطان ، ويعود من الديوان إذا أضحى النهار ، فيخلو بنفسه إلى وقت الظهر ، ثم يصلي ويجلس للناس ويحضر عنده الفقهاء والمحدثون (طبقات السبكي ج ٣ ص ١٤١) .

(١) عريب ص ١٦٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣١ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .

يجلسون أمام الوزير ، كلٌ في مكانه ، ومعه دواته ، وكان رئيس هؤلاء الكتاب يجلس متقدماً عليهم[1] .

وكان الوزير يحتفظ بصورة من الوثائق المهمة ، ويضعها في جملة سجلاته ، وكانت هذه ، متى عزل ، تنقل إلى دار من يخلفه في الوزارة. ولما تقلد ابن الفرات الوزارة بعد علي بن عيسى عام ٣٠٤ هـ - ٩١٦ م كادت هذه السجلات أن تبلغ سقف الخزانة التي كانت فيها[2] . ويذكر أن بعض الرقاع الهامة السرية كانت تحفظ في سفط خيزران يكتب عليه بخط الوزير : ما يحتفظ به من المهمات : وكان السفط يختم بختم الوزير[3] .

وكانت دار الوزير حتى عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م هي الدار التي كانت قديماً لسليمان بن وهب على الشاطيء الشرقي لنهر دجلة ، والتي كانت تسمى دار المخرّم ؛ وكان ذرعها يربو على ثلثمائة ألف ذراع . وقد أريد تحصيل مال من هذه الدار الواسعة التي كانت تقع في حيّ من أغلى أحياء بغداد ثمناً ، « فقطّعت وبيعت من جماعة من الناس بمال عظيم ... وصرف ثمنها في مال الصلة لبيعة القاهر بالله[4] » ؛ وأعدت للوزير دار أحد أبناء الخلفاء[5] .

وكان يقف على باب دار الوزير كثيرٌ من الرجال لحراستها ؛ وقد بلغ من كثرتهم أنه كان ربما أخذ منهم ثلاثون رجلا في وقت واحد ، وأنفذوا في أمر مهم[6] . وكان في مجلس الوزير غلمان مسلّحون

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٣٤٢ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٢٠٨ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٥٩ ، ومسكويه ج ٥ ص ٢٣٣ .
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤١٠ ؛ وفي كتاب الوزراء أن مساحتها ٣٤٦ و ١٧٣ ذراعا .
(٥) مسكويه ج ٥ ص ٣٩١ .
(٦) كتاب الوزراء ص ١٢١ .

يسيرون بين يدي الوجوه من الناس ، ويخرجون بين يدي الوزير دائما ، يجرُّون سيوفهم ، والناس يشاهدونهم[1] .

وكان رسم الوزير ألا يذهب إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكب ، وكان ذلك في يوم الاثنين والخميس في أوائل القرن الرابع[2]؛وقد جرى الرسم أن يساير الوزيرَ إذا ركب إلى دار الخلافة واحد" من كتّابه الأربعة الذين يتولون الديوان[3] . وكانت للوزير في دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها ، والخواصّ والحواشي بين يديه ، حتى يستدعيه الخليفة . ومنذ عام ٣١٢ هـ ــ ٩٢٤ م صــار يجلس في دار الحاجب متقرِّباً إليه ومدارياً له ، فكان هذا دليلا على تناقص منزلته[4] .

وكان الوزير يجلس في مجلس الخليفة موالياً له بوجهه ، وهي عادة المرءوس بالنسبة إلى رئيسه . وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئاً في حضرة الخليفة ، فقد كان الرسم أن تُحضَر له دواة" لطيفة بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى ، ويكتب بيده اليمنى ؛ وقد رأى الخليفة المقتدر مرة مشقة ذلك على وزيره علي بن عيسى ، وهو يكتب كتاباً هاما بحضرته ، فأمر بأن يقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن يفرغ من الكتابة ، وكان علي بن عيسى أول وزير أُكرم بهذا ، ثم صار رسماً للوزراء بعده[5] . وكان للوزير في الأوقات التي يكون فيها بدار الخلافة نائب"

---

(١) نفس المصدر ص ١١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٢١ ، ٣٥٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٦ ــ ٧ ؛ وكتاب العيون ص ٥٩ ب .

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٦٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٤٢ .

يقوم في الدار لمهمّ عساه يعرض[1] ؛ وكان للوزير من بين خدم الخليفة قوم يعوّل عليهم في مراعاة أخباره[2] .

وكان الخليفة هو الذي يعيّن وزيره ، وكان في العادة يقرّ وزير الخليفة السابق في منصب الوزارة ؛ وفي عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م أراد الخليفة أن يختار لنفسه وزيراً ، وطلب من أحد ثقاته قبولَ الوزارة ، فامتنع لكبر سنّه ، فأرسل إليه الخليفة أسماء رجال كثيرين ليرشح منهم من يراه أهلا للوزارة ، فكتب تحت اسم كل واحد منهم بما رآه ، وأشار بتعيين رجل كان قاضياً ، فظن الخليفة أن وزيره غشّه ولم يخلص في النصح ؛ ولما سُئل الخليفة في ذلك قال لعمري إنه (القاضي) عالم ثقة ، إلا أنني لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ، لأنني أكون بين أمرين : إما أن تُتَصَوَّر مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيصغر الأمر في نفوسهم ، أو أنني عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس ، فأُنسَب إلى سوء الاختيار[3] . على أنه حوالي هذا الوقت تقلد القاضي المروزي (المتوفى عام ٣٣٤ هـ ــ ٩٤٦ م) ببخارى وزارة الأمير الساماني صاحب خراسان[4] .

وكان الزمان زمان أرستوقراطية ، حتى أدى الحال إلى نشوء جيل لكل طائفة من أصحاب المناصب ؛ فكان هناك وجوه الحضرة من أولاد الوزراء والكتّاب والأمراء والأشراف ، وكان أولاد الوزراء هم الطبقة

---

(١) الفخري لابن الطقطقي ص ٢٩٢ ، والخطط للمقريزي ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٦٧ ، وفيما يتعلق بمصر انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢ – ٨٣ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

(٤) **Flugel : Die Klassen der hanefitischen Rechtsgelehrten, S. 296.**

العليا بين أبناء العمال[1] • وكانت المناصب أحياناً وراثية ؛ فقد ذكر أن الوزير ابن مقلة خلفه ابنه ، وهو في الثامنة عشرة[2] ؛ وكذلك تولى أبو الفتح بن العميد الوزارة بعد أبيه ، وله من العمر إحدى وعشرون سنة[3] ؛ وقد ولي الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين عاماً ، وكذلك تقلد أربعة من بني الفرات الوزارة في خمسين سنة ؛ وكان ابن العميد وزيراً لعماد الدولة رأس أسرة بني بويه ومؤسس مملكتهم ، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة • أما بنو وهب ، وأصلهم من نصارى العراق ، فقد توارث عشرة" منهم أرقى مناصب الدولة ؛ وكان أربعة منهم وزراء[4] • وقد ولي الوزارة واحد من بني وهب عام ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م ، وكان في شبابه مبذراً مسرفاً ، وقد ضيّق عليه أصحاب المطالبات حتى أمر القاضي بالحجر عليه ، ووُضع تحت الوكالة ؛ ولذلك كان من صدق فراسة مؤنس القائد أنه خشي أن هذا الوزير سيكون سيء التصرف في أمور الدولة ، كما كان سيء التصرف في أمواله[5] • ومما يزيد الأمر خطورة أن أهم عمل للوزير هو إدارة مالية البلاد ، فهو الذي يعمل الدخل والخرج ، ويفرض الضرائب أو يسقطها[6] ، ويحصّل الأموال من النواحي[7] •

وفي عام ٣٠٣ هـ ــ ٩١٥ م شغب الغلمان والرجالة على الوزير يطلبون الزيادة ، فمضوا إلى داره وأحرقوا بابه ، وذبحوا في إصطبله دوابّه[8] • وجميع الوزراء الذين استعفوا أو عُزلوا في القرن الرابع

---

(١) المنتظم ص ٦٦ ا •

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٢٧ •

(٣) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٥٦ •

(٤) Amedroz, JRAS, 1908 S. 418. ؛ واليتيمة ج ٣ ص ٣٣ •

(٥) Amedroz, JRAS, S. 431. •

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١ •

(٧) نفس المصدر ص ٧٣ ؛ وكتاب الوزراء ص ٢٣٩ •

(٨) عريب ٥٨ •

إنما فشلوا أمام الصعوبات المالية . وفي عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م سمع الوزير أبو الفضل السلمي وهو في داره ليلةً جَلَبَةَ الخيل ، وعلم أن غوغاء العسكر قد اجتمعوا يؤلّبون ويلقون عليه الذنب في تأخير أرزاقهم ، فدعا بالحلاق ، فحلق له رأسه ، واغتسل بماء ساخن ، ولبس الكفن ، ولم يزل ليلته يصلي ؛ ثم دخل الجند عليه وقتلوه ، وهو ساجد ؛ وكان هذا الوزير فقيهاً مناظراً ومحدّثاً حافظاً ، وكان يصوم الاثنين والخميس ، ولا يدع صلاة الليل ، وولي الوزارة للسلطان وهو على ذلك ، وكان يسأل الله الشهادة ، حتى وقع له ما وقع[1] .

وكانت سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م أهم سنة في تاريخ الوزراء ؛ ففي هذا الوقت دخل بنو بويه بغداد ، وقام كاتبُ الأمير الذي غلب على تدبير الأمور مقامَ الوزير ، وبطل رسم الوزارة[2] . وقد تكلم هلال الصابي في كتابه تاريخ الوزراء عن أهم وزراء القرن الرابع الهجري ، وهو يقسمهم إلى وزراء الدولة العباسية « وكتّاب » الأيام الديلمية[3] .

ولذلك يحكى أن جوهراً أيام فتحه لمصر توقّف في مخاطبة أبي الفضل جعفر بن الفرات في كتابه بالوزير ، ولم يخاطبه بذلك إلا بعد مراجعة ، وقال : ما كان وزير خليفة[4] . أما عند الفاطميين فكان اسم الوزير غير مقبول في أول الأمر ، وكان قاضي القضاة أجلّ أرباب الوظائف عندهم ، ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء إلاّ في عهد الخليفة الفاطمي

---

(١) المنتظم ص ١٧٥ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥ ؛ والتنبيه للمسعودي ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٣ .
(٤) الاتعاظ للمقريزي ص ٧٠ .

الثاني ، العزيز بالله[1] ، وهو الوزير ابن كلّس الذي كان يهوديا فأسلم (وتوفي عام ٣٨٠ هـ ــ ٩٩٠ م) • وقد حدثنا القلقشندي في العصور المتأخرة عن منصب قاضي القضاة فقال : « وإذا كان ثَمَّ وزير لا يخاطب بقاضي القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير[2] » • ويقول المقريزي إنه بعد موت ابن كلّس لم يستوزر العزيز بالله أحداً ، وإنما كان ثَمَّ رجلٌ يلي الوساطة والسفارة ، واستقر ذلك في جماعة كثيرة بقيّةَ أيام العزيز وسائر أيام الحاكم ؛ ثم ولي الوزارة أحمد بن علي الجرجرائي في أيام الظاهر ، وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد[3] • ولم يكن جمهور الناس يفطن لهذا التمييز بين الوزير والوسيط أو السفير ؛ وكذلك نجد يحيى بن سعيد مثلا حوالي عام ٤٠٠ هـ ــ ١٠١٠ م يستعمل في كلامه لفظ الوزراء من غير تفرقة بين الوزير والسفير أو الوسيط •

ولم تكن مهمة الوزير إذا كان وزيراً لأحد أمراء الأطراف هي بعينها مهمة وزير الخلافة ؛ وقد لُقّب الوزير الفضل بن سهل ، وزير المأمون ، من بين وزراء الدولة الأولين بلقب ذي الرياستين ؛ وربما كان ذلك لأنه كان خبيراً بشؤون السيف والقلم[4] • ولكن الصفة الحربية للوزير لم تكن بارزة في ذلك العهد ، ولم يَلِ الوزارةَ قائدٌ خبير إلا الحسن بن مخلد الذي تقلد وزارة المعتضد ، وخُلع عام ٢٧٢ هـ ــ

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ، ج ٢ ص ١٢٩ ، نقلا عن ابن زولاق المتوفي سنة ٣٨٧ هـ ــ ٩٩٨ م •

(٢) ترجمة فستنفلد لمختصر صبح الاعشى : AGGW, 1879 S. 185. ، وصبح الاعشى طبعة دار الكتب ج ٣ ص ٤٨٧ •

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٣٩ •

(٤) عريب ص ١٦٥ (؟) •

٨٨٥ م[١] أما عند آل سامان وآل بُوَيْه ، فقد كان الوزير يقوم بمهام الوزارة وبقيادة الجيوش في المعارك[٢] ، بل نجد أديباً مبرِّزاً كالصاحب ابن عباد يقود الجيوش في أيام وزارته[٣] .

ومما يدل على سقوط هيبة الوزراء ، ويدل أيضاً على فظاظة الطبع أن الأمير معز الدولة ببغداد ، وكان أميراً حديداً سريع الغضب ، ضرب وزيره أبا محمد المهلَّبي ، وهو من المهالبة الذين كانوا حكاماً من قديم على عهد بني أمية ، مائة وخمسين مقرعة ، ووكّل به في داره ؛ ولكنه لم يعزله من وزارته ؛ وشاور معزُّ الدولة مَن حضره ، وقال : هل يجوز أن أستنيم إلى هذا الرجل ، وقد لحقه مني هذا المكروه العظيم ؟ فقال له أحد من استشاره إن مرداويج قد ضرب وزيره أعظم من هذا الضرب ، حتى كان لا يطيق المشي ، ولا يقدر على الجلوس لما حلّ به ، ثم خلع عليه وردّه إلى أمره[٤] . ثم جاء بختيار بن معز الدولة ، وكان غير كفء

---

(١) أغفل صاحب الفخري (ص ٢٩٨) ، ذكر ابن مخلد الذي تقلد الوزارة بين سليمان ابن وهب وإسماعيل بن بلبل (مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩ ، وفهرس تاريخ الطبري) ، اما ما يقوله صاحب الفخري من أن ابن بلبل « جُمع له السيف والقلم » ، فربما كان ذلك خاصا بابن مخلد الذي سقط اسمه ، وذلك لاننا لم نسمع شيئاً عن أعمال ابن بلبل الحربية ، هذا إلى أن الطبري يصرح (ج ٣ ص ٢١١٠) بأن الموفق « استكتب إسماعيل بن بلبل واقتصر به على الكتابة دون غيرها » .

(٢) فميا يتعلق بالسامانيين انظر مثلا كتاب : Mirchond. hist. Samanid, ed Wilken, S. 72, 84. وفيما يتعلق بالصيمري والمهلبي وزيري معز الدولة ، انظر مسكويه ج ٦ ص ٢١٤ ؛ وفيما يتعلق بوزراء ركن الدولة انظر نفس المصدر ج ٦ ص ٢١١ ، ٣٤٣ وما يليها ، ٤٢١ ؛ وفيما يختص بوزراء عضد الدولة انظر نفس المصدر ج ٦ ص ٤٥١ — ٤٥٢ ، ٤٨٢ ؛ وفيما يتعلق بوزير بهاء الدولة انظر ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ وما يليها ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٣٧٥ .

للملك ، فاستوزر صاحب مطبخه[1] في سنة ٣٦٢ هـ ــ ٩٧٣ م ، وهو الوزير ابن بَقِيَّة الذي كان « يقدّم الطعام إليه ، ويحمل الغضاير بيده ، ويتّشح بمناديل الغمر ، ويذوق الألوان عند تقديمه إياها[2] » ؛ ولكن ابن عمه ، وهو السلطان عضد الدولة ، قبض على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه ، وكان ابن العميد قد أسرف في الاتصال بالعدو ، فسمل عينيه وقطع أنفه[3] . وطلب من ابن عمه ، عز الدولة بن معز الدولة ، أن يسلّم له ابن بقيّة لأمور ساءته منه ، فسُلّم إليه مسمولا ؛ فأمر عضد الدولة بأن يُشهر في العسكر على جمل ، ثم طُرح إلى الفيلة ، وأُضريت عليه ، فقتلته شر قتلة ؛ وصُلب على شاطىء دجلة[4] . وقد اجتاز أحد أصدقاء هذا الوزير المنكود ، الذي ارتكب كثيراً من ضروب القسوة[5] ، فرثاه بقصيدة طويلة جيدة منها :

ولما ضاق بطنُ الأرض عن أن ... يضمَّ علاكَ مـن بعـد الوفاة
أصاروا الجوَّ قبركَ واستعاضوا ... عـن الأكفان ثوب السافيات[6]

---

(١) جاء في كتاب معاهد التنصيص مخطوط رقم ٤٤١٦ بمكتبة باريس ص ٣٣٧ ا : « وكان الرئيس ابو الفضل والوزير ابو الفرج دخلا الديوان لعقوبة أصحاب الوزير المهلبي عقب موته ، وامرا ان تلوث ثياب الناس بالنفط إن قربوا الباب ، وكان المهلبي قد فعل مثل هذا » .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٦١ ــ ٣٦٢ ، ٣٩٦ ؛ وابن الاثير ج ٨ ص ٤٦٢ ، وكان الناس يهزءون من ابن بقية ويقولون : من الغضارة إلى الوزارة ــ المنتظم ص ١٠٤ ب .

(٣) ابن الاثير ج ٨ ص ٤٩٦ ــ ٤٩٧ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ويحيى بن سعيد ص ١٠٥ ا ، وابن الاثير ج ٨ ص ٥٠٧ .

(٥) انظر مثلا مسكويه ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٦) ابن الاثير ج ٨ ص ٥٠٧ ، وارى انها السافيات لا الساقيات وهو ما جاء ايضاً في نديم الاديب لاحمد سعيد البغدادي ص ١٤٣ ؛ وعند ابن تغري بردي (طبعة كليفورنيا ص ٢٠) السائحات .

وقد أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة شيئين لم يكونا قبله ؛ أولهما أنه اتخذ وزيرين معاً ؛ والثاني أن أحد هذين الوزيرين ، وهو ابن منصور نصر بن هارون ، كان نصرانيا ؛ وقد أبقى عضدُ الدولة نصراً على بلاد فارس وطنه ، وأخذ الوزير الثاني ، وهو المُطَهَّر بن عبد الله معه إلى بغداد . وكان المطهّر هذا معروفاً بشراسة وخبث في أخلاقه ؛ وكان سيىء الفكر ، فلما وجّهه عضد الدولة إلى البطيحة لاستئصال اللصوص منها ، والتاث عليه الأمر ، خشي انخفاض منزلته عند عضد الدولة وتغيُّرَه له ، وأشفق من تذرُّع أعدائه بذلك للطعن عليه وإظهار معايبه ، فاختار الموت على ذلك ؛ وأخذ سكيناً فقطع بها شرايين ذراعيه جميعاً ، وسال دمه حتى مات[1] . وكان الوزير الذي جاء بعده خليفة لنصر بن هارون الذي كان مقيما بفارس يدبّر أعمالها ، ولم يكن الوزيران على وفاق ، بل كان كل واحد يدبّر المكايد لصاحبه[2] .

ولما جاء بهاء الدولة جرى على رسم أبيه فعيّن ، وهو بشيراز ، وزيرين عام ٣٨٢ هـ — ٩٩٢ م ، وجعل أحدهما مدبّراً لأمور العراق[3] . ولما مات الصاحب ابن عباد سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، بعد أن دبّر أمور الوزارة بفارس أحسن تدبير ، وقعت مساومة" شائنة حول هذا المنصب ، وذلك أن أحد الولاة أرسل يخطب الوزارة ويضمن ثمانية آلاف ألف درهم ، فبذل الوزير الذي كان في الوزارة ، إذ ذاك ستة آلاف ألف درهم على إقراره في الوزارة ، فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما في الوزارة ، وسامح كلا منهما بألفي ألف درهم من جملة ما بذل ، وجمع

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥١١ — ٥١٤ ؛ ويحيى بن سعيد ص ١٠٧ ا ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٥١٥ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥١٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٧ .

بينهما في النظر ، ورتّب أمرهما على أن يجلسا في دَسْتٍ واحد ، ويكون التوقيع لهذا يوماً والعلامة للآخر ؛ وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش ، ثم سعت بينهما السعاة ، ودبر أحدهما للآخر فقتله[1] .

وأخيراً صار للوزير النصراني بالمشرق نظير في مصر ، ففي سنة ٣٨٠ هـ ـــ ٩٩٠ م قلّد الخليفة الفاطمي العزيزُ بالله وزارتَه لعيسى بن نسطورس[2] .

على أن الوزراء لم يبرءوا من الرغبة في الألقاب التي عظم أمرها حوالي عام ٤٠٠ هـ ، والتي تدل دلالة واضحة على تدهور المجتمع في ذلك العصر . وفي عام ٤١١ هـ ـــ ١٠٢٠ م أكرم أميرُ بغداد وزيرَه ، فأمر بأن تُضرب الدبادب أمام داره في أوقات الصلاة ، وهو ما كان ينفرد به السلطان وحده ، وكذلك لقّبه بلقب وزير الوزراء[3] ، وسرعان ما استعمل الخليفة الحاكم (المتوفي عام ٤١١ هـ ـــ ١٠٢٠ م) هذا اللقب الجديد الذي كان له أثر عظيم ، فلقّب قطبَ الدولة عليَّ بن جعفر بن فلاح وزيرَ الوزراء ذا الرياستين الأميرَ المظفر قطب الدولة[4] . أما الهلال الصابي المؤرخ (المتوفي عام ٤٤٧ هـ ـــ ١٠٥٥ م) ، فيعتبر أن مخاطبة الملوك المدبِّرين لوزرائهم بأمثال هذا اللقب هي من انقلاب الرسوم وتغيُّر حقائق الأشياء[5] . وفي سنة ٤١٦ هـ ـــ ١٠٢٥ م خلع جلال الدولة ببغداد على وزيره ولقّبه عَلَم الدين سَعْد الدولة ، أمين الملّة ، شرف الملك ؛ فكان هذا الوزير أول من لقّب بالألقاب الكثيرة[6] .

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٧١ وما يليها .
(٢) يحيي بن سعيد ص ١١٢ ا ، وكان عيسى بن نسطورس يُخاطَب بسيدنا الأجل .
(٣) المنتظم ص ١٦٨ ا ـ ب (٤) .
(٤) يحيي بن سعيد ص ١٢٨ ا .
(٥) كتاب الوزراء ص ٥٠ ا .
(٦) المنتظم ص ١٧٣ ا .

وهذه الحالة تشبه ما عليه الشرق اليوم ، وإذا قارنّا بين الوزير في ذلك العصر بما صار يحمله من ألقاب وبين سلفه ممن لم تكن لهم ألقاب لوجدنا أنه بالنسبة لهم لم يكن له شيء من القوة والسلطان .

الوزراء في القرن الرابع الهجري

سنبدأ بالكلام عن علي بن الفرات ، وهو الذي خلف أخاه العباس في منصب الوزارة عام ٢٩٦ هـ ـ ٩٠٩ م . وكان عليّ حين تقلّد الوزارة في الخامسة والخمسين من العمر . وكان وزيراً واسع الثروة حتى يقول الصولي : « وما سمعنا بوزير جلس في الوزارة ، وهو يملك من العيْن والورِق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات »[1] . وقد ظهر في منصبه بمظهر الفخامة التامة ، فكان يُجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم ، وكان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رَسْماً لهم ، سوى ما يصلهم به متفرّقاً ، وعند مديحهم إياه ، وكان فيمن يُدعى إلى طعامه كلَّ يوم تسعةُ كُتّاب ، هم خاصة كُتّابه، وكان منهم أربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين ، وكان له في داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يُحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته ؛ ومطبخ العامة الذي يختص بما يقدّم إلى الحجّاب المقيمين بالدار ويُفرَّق منه للرجّالة والبوابين وأصاغر الكتّاب وغلمان أصحاب الدواوين ، وكان يُقدَّم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جديا ، ومائتا قطعة دجاجا سماناً ، وفراريج مصدَّرة ، ومائة قطعة درّاجا ، ومائتا

(١) عريب ص ٣٧ .

قطعة فراخا ؛ وهناك خبازون يخبزون الخبز ليلا ونهاراً ، وقوم يعملون الحلواء عملا متصلا ، ودار كبيرة للشراب ، وفيها ماذيان يجعل فيها الماء المبرّد ، ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرجّالة والفرسان والأعوان والخزّان ، ومن يجري مجراهم من الأتباع والغلمان ؛ وكان بالدار مزمّلات فيها الماء الشديد البرد . وبرسم خزانة الشراب خدمٌ نظاف عليهم الثياب الدبيقية السرية ، وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جلاّب ومخوض وكوز ماء ، ومنديل من مناديل الشراب نظيف ، فلا يتركون أحداً ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال إلا عرضوا ذلك عليه[1] . وكانت داره مدينة بذاتها ، حتى كان بها فوجان من الخيّاطين[2] . وكان في جانب الدار أدراج كثيرة لأصحاب الحوائج والمتظلّمين ، حتى لا يلتزم أحد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك[3] ؛ ولما خُلع على هذا الوزير خِلَع الوزارة زاد في ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطاً في كل مَنٍّ ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لهما ، ولأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة منوية ودرج منصوري . وقد سُقي في داره في ذلك اليوم والليلة أربعون ألف رطل ثلجاً[4] ، وجرى رسمه مدة وزارته أن يُعطي كلٌّ من يخرج من داره عند اصفرار الشمس شمعة[5] . وفي عام ٣١١ هـ ــ ٩٢٣ م اتخذ ابن الفرات مارستانا ببغداد ، وكان ينفق عليه مائتي دينار من ماله في كل شهر[6] . وكان هذا الوزير يحمل بين جنبيه

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٤٢ ، ٢٠١ ، ٢٤٠ ، ١٩٤ ــ ١٩٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٦٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٤٢ ؛ وقد أساء مترجم كتاب عمد المنسوب للثعالبي فهم بعض هذه النصوص ، انظر ZDMG VI, 50 ، وانظر أيضاً كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ ــ ١٩٠٨ م ص ١٦٩ (المترجم) .

(٦) المنتظم ص ٢٣ ب .

نفساً كبيرة ، فلقد قُدِّمت إليه جرائد بأسماء من يعاديه ، ويدبّر في زوال أمره ، فلم يفتح الصناديق التي كانت فيها ، وأحرقها وقال لمن كان حاضراً : والله لو فتحتُها وقرأتُ ما فيها لفسدت نِيّاتُ الناس كلِّهم علينا ، واستشعروا الخوف منا ومع فعلنا ما فعلناه طوينا الأمور بهذا ، فهدأت القلوب واطمأنت النفوس[1] . ولما فسد أمره عند المقتدر وتألب عليه الجميع أشار عليه بعض المشيرين أن يقسِّط على نفسه وكتّابه وعمّاله ما يحمله للخليفة ، فيرضى عنه ، فقال : « فأي شيء أقبح بي ، مع علوّ همتي ، وكثرة نعمتي ، من أن أُنشيء أصحاباً وعمّالا ، يلون بولايتي ، وينكبون بنكبتي ، ويتصرّفون بتصرّفي ، ويتعطلون بعطلتي، ثم أزيل نعمهم وأحوالهم بيدي وفي أيامي : القتل والله أهون من ذلك »[2] .

وحُكي أن رجلا اتصلت عُطلَته ، وانقطعت مادته ؛ فحمل نفسه على أن زوّر كتاباً من أبي الحسن بن الفرات إلى عامل مصر للوصاية به والإحسان إليه ، فارتاب العامل بالخطاب وارتبط الرجلَ عنده على وعد ، وأنفذ الكتاب إلى ابن الفرات ؛ ورأى ابن الفرات أن يستشير كتّابه ، فأشار بعضهم بالتأديب أو بقطع إبهامه أو بكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرمه ، فقال ابن الفرات : « ما أبعدكم من الخيرية ! رجل توسّل بنا ، وتحمل المشقة إلى مصر في تأميل الصلاح بجاهنا ، واستمداد صنع الله ورزقه بالانتساب إلينا ، تكون أحسن أحواله عند أجملكم محضراً تكذيبُ ظنه وتخييبُ سعيه ! والله لا كان هذا أبداً » ؛ ثم أخذ القلم ووقّع بخطه على ظهر الكتاب المزوّر يوصي به ، ويقول إن الكتاب كتابه[3] . ولما نُكب الوزير علي بن عيسى

---

(١) كتاب الوزراء ص ١١٩ ، ويحكى مثل هذا عن المأمون (الطبري ج ٣ ص ١٠٧٤) .
(٢) كتاب الوزراء ص ٩٧ — ٩٨ .
(٣) نفس المصدر ص ١١٣ ؛ والمنتظم ص ٢٨ ا — ب .

وتذلّل لابن الفرات حتى قبّل يده وقام لابنه المحسّن ، وكان ابن عشر سنين ، قال ابن الفرات بعد انصراف عليّ : رأيتم تَطامُنَ عليّ بن عيسى للنكبة واستعانته عليها بالاستعطاف والتذلّل ، وهذه طريقة لا أحسنها ، لأن كبدي في المحن كأكباد الإبل ، لا جرم أنهـا تزداد وتتضاعف[1] . وقد أكسبته الخدمة الطويلة خبرة بشؤون الوزارة وإدارة الدولة ؛ وقد استطاع أن يسيطر على حياة الدولة الاقتصادية المتشعبة سيطرة كاملة ، حتى استحق من وجوه كثيرة أن يقول عليّ بن عيسى لما كُذِب عليه بموت ابن الفرات : اليوم ماتت الكتابة[2] . ومن حِكَمه السياسية القاسية قوله : أصل أمور السلطان مَخْرَقة ، فإذا تمّت واستحكمت صارت سياسة ، وقوله : تَمْشِيَةُ أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب ؛ وكان يقول : إذا كانت لك حاجة إلى الوزير فاستطعت أن تقضيها بخازن الديوان أو كاتب سرّه فافعل ولا تبلغ إليه فيها[3] .

على أنه لم يتحرّج ولم يتهيّب من مدّ يده إلى خزانة الدولة ؛ بل أضاف هو وأخوه كثيراً من ضياع السلطان إلى أملاكهما ، وعظم دَخْلُهما ؛ وقد وجد أعداؤه من الطعن فيه أنه لما صودر وُجد في ودائعه ما هو مختوم بختم أبي خراسان خازن المعتضد على بيت مال القلعة ، ووُجد عنده مالٌ أكثره محمول من بيت مال الخاصة[4] . قال أبو علي بن مقلة كاتب ابن الفرات ، وقد جرى ذكر هذا الوزير : « يا قوم ! هل سمعتم بمن سرق في عشر خطوات سبعمائة ألف دينار ؟ قلنا :

---

(1) الوزراء ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(2) نفس المصدر ص ٢٨٣ .

(3) كتاب الوزراء ص ٦٤ ، ١١٩ .

(4) نفس المصدر ص ١٣٣ – ١٣٤ ، ١٣٩ .

كيف ذلك ؟ قال كنت بين يدي ابن الفرات في وزارته الأولى ، ونحن في دار الخلافة نقرّر أرزاق الجيش ، ونقيم وجوه مال البيعة ونرتّب إطلاقه ، وذلك عقيب فتنة ابن المعتز ؛ فلما فرغ مما أراده خرج وركب طيّاره ، وبلغ نهر المعلّي ، فقال : إنا لله إنا لله ! قفوا ! فوقف الملاحون؛ فقال لي : وقّع إلى أبي خراسان صاحب بيت المال بحمل سبعمائة ألف دينار تضاف إلى مال البيعة ، وتفرّق على الرجال ، فقلت في نفسي : أليس قد وجّهنا وجوه المال كله ؟ ما هذه الزيادة ووقّعت بما رسمه ، وعلّم فيه بخطه ، ودفعه إلى غلام ، وقال : لا تنزح من بيت المال حتى تحمل هذا المال الساعة إلى داري ، ثم سار ؛ (قال) فحمل المال بأسره ، وسلّم إلى خازنه ، فعلمت أنه أنسي أن يأخذ شيئاً لنفسه في الوسط ، ثم ذكر أنه باب لا يتفق مثله سريعاً ، ويحتمل ما احتمله من هذا الاقتطاع الكثير ، فاستدرك من رأيه ما استدرك[1] » .

وكان الوزير علي بن عيسى زميلا ابن الفرات من قبل ومنافسه من بعد يخالفه مخالفة تامة . وينتمي علي بن عيسى إلى أسرة قديمة من الكتّاب[2] ؛ قال معاصره الصولي : ولا أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبهه في زهده وتعبّده ؛ فقد كان يصوم نهاره ويقوم ليله[3] . وكان يخرج نصف ما يرتفع له في السنة في أبواب البر وسبل الخير[4] ؛ وكان متهاونا قليل المبالاة حتى إنه لم يستطع أن يغير طبعه في كلامه عند مخاطبة الخليفة ، وذلك على عكس ابن الفرات ، مما أحفظ الخليفة

(١) نفس المصدر ص ١١٧ .

(٢) المنتظم ص ٧٦ ب .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٢٦ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

عليه[١] . وقد طلب الأخفش اللغوي (المتوفى عام ٣١٥ هـ) من علي بن عيسى أن يجري عليه رزقا ، ووسط في ذلك أبا عليّ بن مقلة ، فانتهره علي بن عيسى انتهاراً شديداً في مجلس حافل ، فشق ذلك على ابن مقلة ، وقام من مجلسه « وقد اسودّت الدنيا في عينيه » ؛ ووقف الأخفش على الصورة فاغتم وقيل إنه قبض على قلبه فمات[٢] . وكان علي بن عيسى متمسكا بالوقار ، ولا رُؤي قط متبذّلا ، ولا كان يفارق الخفّ في أكثر أوقاته إلا إذا أوى الى فراشه أو قعد مع حُرَمه[٣] . وكان يشتغل بالنظر في أمور الدولة ليله ونهاره[٤] . وكان يجعل وراء كل باب مسوَّرة ، ويُسبِل عليها ستراً طويلا يغطّيها ، وإذا جلس بعد عمله الكثير في أخريات النهار مجلساً حافلا ألصق بها ظهره لئلا يُشاهَد مستنداً تمسّكا بالوقار[١] . وقد رأينا فيما تقدم ما أصابه من الذلة والاستكانة بعد عزله من الوزارة ، وكان لتديُّنه وورعه يلوم ابن الفرات على تقليده ديوان جيش المسلمين لرجل نصراني[٥]: وقد تحرّج من تقليد أبنائه الأعمالَ مدة وزارته[٦] ، وحاول أن يتدارك العجز في بيت المال بالاقتصاد في الأمور الصغيرة ، فأنقص أرزاق العمال والجند ، وأسقط ما كان يُفرَّق على القواد والفرسان في كل عيد ؛ وكان ذلك من شاة إلى عدة بعران ؛ وحاول أن يمنع من امتداد الأيدي إلى الأموال العامة . ولكن ابن الفرات شنّع عليه بقوله : يا أبا الحسن علي بن عيسى ! شغلت

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٢٥ .

(٤) عريب ص ١٣٠ .

(٥) الوزراء ص ٩٥ ، ولكن يقال إنه كان له مشيرون من النصارى Barhebr. Chron. Eccles. III, 241 .

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٦٦ (أ) .

نفسك بأخلاق المملكة والنظر في علوفة البط والحطيطة من أرزاق الناس ، وما يجري هذا المجرى من الصغار المستهجنات ؛ لَعِمَارَةُ بَيْدَرٍ واحد أصلح للسلطان وأعْوَدُ عليه من توفيرك ما تقرّبت به إليه . وكان يوفر من الأشياء الصغيرة ويحكى أنه قضى مرة ساعة يناظر في علوفة البط حتى إن المتولي لكيل العلوفة سأل كاتبه عن رزقه في الشهر ، ووجد أنه يتقاضى عن الساعة عشرين ديناراً ، فقال : « قد نظر الوزير في أكثر من ساعة لتوفير ما لا يبلغ ما استحقه من الرزق » .

ولكن علي بن عيسى مع تقواه هذه وتدقيقه في الأمور الصغيرة لم يَصْدُقِ الخليفةَ حينما راسله ليقرّ بما عنده من أموال ؛ فكتب يذكر أنه لا يقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار ، هذا وقد وُجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار . ولما ضيّقوا عليه استجاب أخيراً إلى دفع ثلاثمائة ألف دينار ، يُعجّل منها الثلث في ثلاثين يوما ، ويؤدي الباقي على رسم المصادرات[1] . وكان علي بن عيسى يوبخ أبا عبد الله البريدي لأنه حلف للسلطان أن استغلال ضيعته عشرة آلاف دينار ، وهو في الحقيقة ثلاثون ألفاً ، فقال البريدي إنه اقتدى بعلي ابن عيسى حيث حلف لابن الفرات أن ارتفاع ضيعته عشرون ألفاً ، فوُجد بعد ذلك خمسين ألفاً ، فكأنه ألقم عليَّ بن عيسى حجراً[2] . فلم يكن هذا الوزير نقي اليد تماما ، وقد فرّط في تضمين الشام ومصر ، وترك مالا معجّلا إلى مال مؤجّل لا يدرى ما يجري فيه ، وقد واجهه خصومه بذلك ، فلم يستطع أن يبرر هذا التصرف[3] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٥١ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٩٠ .

وقد ولي أبو علي محمد بن عبيد الله الخاقاني الوزارة مدة سنتين ، وذلك بين وزارة ابن الفرات وعلي بن عيسى . وكان الخاقاني هذا ابن وزير ، وهو ينتمي إلى أسرة من الأشراف المتصلين بالخلافة . ويذكّرنا ما سجله التاريخ من أمره بكثير من الديمقراطيين الذين يفتحون صدورهم للعامة : كان الخاقاني متخلقا عاميا ، إلا أنه كان خبيثاً داهيا[1] ؛ فقد كان يوقّع بكل سؤال ، ويَعِدُ بإنفاذ كل محال ، وكان من عادته إذا سُئل حاجة أن يدق صدره بيده ، ويقول : نعم وكرامة ، حتى لُقّبَ « دقّ صدره » ؛ وبلغ من لين العريكة وقلة البصيرة وعدم تصور عواقب الأمور ، وعدم المنع من شيء يخاطب فيه أن انبسطت العامة عليه فضلا عن الخاصة[2] . وقد صُوِّرت شخصيته وأحيطت بحكايات مضحكة قيلت عن غيره ، وهي تدل على قلة الأذى أحيانا وعلى سوء السريرة أحيانا أخرى ؛ وكانت طريقته كثرة التولية والعزل ، فكان يعين في المنصب الواحد رجالا كثيرين واحداً بعد واحد ، ولم يكن ذلك عن قلة تقدير للمسئولية ، بل ليأخذ من كل منهم رشوة[3] . ويحكى أنه اجتمع في خان واحد بمدينة حلوان (بالعراق) سبعةُ أنفس ، وقد قلّد الخاقاني كلٌّ واحد منهم ماه الكوفة في عشرين يوما ؛ واجتمع بالموصل خمسة آخرون قد قلّدهم منصباً آخر ، وهناك تشاكوا ما بذلوه عن تقليدهم[4] . ويذكر أن الخاقاني قلّد عمالةَ بادوريا في أحد عشر شهرا أحد عشر عاملا[5] .

وإذن فقد تقلد منصبَ الوزارة في أوائل القرن الرابع وزراء ثلاثة

---

(1) نفس المصدر ص ٢٨٠ .

(2) نفس المصدر ص ٢٦٣ ، ٢٧٦ .

(3) ذكر صاحب الفخري (ص ٣١٣) ما قاله الشعراء المعاصرون هجاءً للخاقاني .

(4) الفخري ص ٣١٣ – ٣١٤ ، وكتاب الوزراء ص ٢٦٣ . ويذكر صاحب الفخري أن التولية كانت للكوفة ، وهي الناحية التي كانت تسمى عند الفرس ماه الكوفة .

(5) عريب ص ٣٦ .

يختلف أحدهم عن صاحبه كل الاختلاف ، ولا يجمع بينهم إلا خصلة واحدة هي الخيانة التي بها انتهبوا خزانة الدولة .

أما حامد بن العباس[1] الذي ولي الوزارة عام ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م فقد كان على خلاف غيره من الوزراء ؛ لأنه لم يتخرَّج في الدواوين ، بل بدأ حياته بالاشتغال في أمور التجارة والمال وضمان الخراج ، حتى عظم شأنه ؛ ولما ولي الوزارة وكان في الثمانين من عمره ، احتفظ بما كان بيده من ضمانات ؛ ولم يكن يعرف شيئاً من أمور الكتابة ، ولم يكن نصيبه من الوزارة إلا اللقب والخِلْعة ، وكان المدبّر للأمور علي ابن عيسى الذي كان وزيرا من قبل ، وقد قال ابن بسَّام الشاعر مستهزئاً بحامد بن العباس[2] :

يا ابن الفرات تعزّه ... قد صار أمرك آيه
لمّا عُزلت حصلنا ... على وزير بدايه

وقد قيل فيهما : « هذا وزير بلا سواد ، وذا سواد بلا وزير » .
ولما سأل حامدُ بن العباس الخليفة المقتدر إطلاقَ علي بن عيسى والإذنَ له في استخلافه في الدواوين لقلة خبرة حامد بالوزارة ، قال المقتدر : ما أحسب أن علي بن عيسى يجيب إلى ذلك ، ويرضى بأن يكون تابعاً بعد أن كان رئيسا ، فقال حامد بحضرة الناس : إنما مثل الكاتب كمثل الخياط ، يخيط ثوبا بعشرة دراهم ، ويخيط ثوبا قيمته ألف دينار ؛ فضحك الناس منه واستنقصوه[3] . ولما ناظر حامدُ بن العباس ابنَ

---

(١) يجد القارىء ترجمة مختصرة له في المقدمة الانجليزية لكتاب الوزراء ص ١٨ هامش رقم ١ .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٣) كتاب العيون ص ١٩٤ ، ب .

الفرات بعد عزله أفحش له في القول ، فقال له ابن الفرات : ليس ما أنت فيه بَيْدَراً تقسمه ، وأكّارا تشتمه وتحلق لحيته وتضربه ، وعاملا تذبح دابّته وتعلق رأسها في عنقه ، فإنما هذه الدار دار خليفة[1] . وقد أظهر من الأبهة ما يظهره ذوو المجد الحديث لا المؤثّل ؛ فكان له ألف وسبعمائة حاجب وأربعمائة مملوك يحملون السلاح ، لكل واحد منهم مماليك ؛ وكان الملاحون في حرّاقته من الخصيان البيض ، وهم أغلى الخصيان ثمناً[2] . وقد جرى بينه وبين مفلح الأسود كلام" مرة ، فقال له حامد : « لقد هممت أن أشتري مائة خادم أسود وأسميهم مفلحا وأهبهم لغلماني »[3] . وكان ظاهر المروءة كثير العطاء ؛ فيُحكى أن أحد خدم المقتدر شكا إليه فناء شعيره ، فكتب له بمائة كرّ من الشعير ؛ وكان ينفق على الطعام كل يوم مائتي دينار ، ولا يسمح بأن يخرج من الدار أحد من الجلّة والحاشية والعامة وغيرهم، إذا حضر الطعام ، إلا أن يأكل ، حتى غلمان الناس ؛ وربما نُصب في داره في اليوم الواحد أربعون مائدة . وقد أهدى إلى المقتدر بستانا أنفق على بنائه مائة ألف دينار ؛ ويحكى أنه ركب يوما إلى بستان له ، فرأى في طريقه داراً محترقة وشيخاً يبكي ، وحوله صبيان ونساء على مثل حاله ؛ فلما عرف أن داره قد احترقت وأنه افتقر تألّم قلبه ، وتنغّصت عليه النزهة بسبب ذلك ، ولم تسمح له نفسه بالتوجه إلى بستانه إلا بعد أن أمر أن تُبنى الدار كما كانت ، وتوضع فيها الفراش وكل ما كان فيها ، حتى إذا عاد العشية من النزهة وجد الشيخ وعياله كما كانوا ، وقد بُنيت الدارُ على أحسن مما كانت وأُنفق في ذلك مال

---

(١) كتاب الوزراء ص ٦٢ ، كتاب العيون ص ١٩٥ .

(٢) المنتظم ص ٢٥ ا ، ب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٢ .

كثير[1] . ولكن حامد بن العباس لم يتورّع من خزن الحبوب في العراق وخوزستان وأصفهان ، بعد أن كان قد ضمن هذه البلاد بمال يدفعه للخليفة ، حتى ارتفعت الأسعار ، وأدّى ذلك إلى اضطراب العامة وثورتهم عليه حتى فُسخ الضمان[2] .

أما الوزير ابن مقلة (ولد في بغداد عام ٢٧٢ هـ ــ ٨٨٥ م) فقد نشأ من بيت متواضع[3] ؛ وتقلّد الوزارة ، وهو في الستين من العمر ، وكان ممن اشتغل بين يدي ابن الفرات وارتفع بسببه[4] . وقد تعلم منه الشيء الكثير ، ومن ذلك أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المال في سنين قليلة ؛ ووزر لثلاثة خلفاء في أوائل القرن الرابع ، وبنى لنفسه داراً عظيمة في بقعة من أحسن بقاع مدينة السلام . وكان يعتقد بالنجوم ، فجمع المنجمين ، حتى اختاروا له وقت البناية فوضع أساس الدار بين المغرب والعشاء ، وكان له بستان كبير أنشأه بلا نخل ، وعمل له شبكة ابريسم ، وكانت تفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر كالقماري والدباسي والهزار والببّغ والبلابل والطواويس ؛ وكان فيه من الغزال والبقر البدوية والنعام والإبل وحمير الوحش . وكان يحاول أن يجرب التزاوج بين الحيوان ، وبُشِّر مرة بأن طائراً بحريا وقع على طائر بريّ ،

---

(١) المنتظم ص ١٩ ا ؛ ٢٥ ا ، ب ؛ ٢٦ ا .

(٢) نفس المصدر ص ١٨ ا .

(٣) كان بين جحظة الشاعر وبين ابن مقلة صداقة قبل الوزارة ، فلما استوزر استأذن عليه جحظةُ ، فلم يُؤذن له ، فقال :

قـل للوزير أدام الله دولته	اذكر منادمتي والخبز خشكار
إذ ليس بالباب برذون لنوبتكم	ولا حمار ولا في الشط طيّار

(المنتظم ص ٦٤ ب)

(٤) كتاب العيون ص ١٧٣ ا ، والمنتظم ص ٦٤ ا .

فأزوجا وباضا وأفقسا ، فأعطى من بشّر بذلك مائة دينار[1] .

وكان ابن مقلة صاحب مؤامرات،جريئاً في ذلك ، ويتهمه المؤرخون بالإيقاع بين القاهر (٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م) وجنده ، وبأنه شحذ نياتهم ، وجمع كلمتهم على قصد القاهر والفتك به[2] . وقد سعى عند بجكم وعند الخليفة الراضي على ابن رائق الذي كان في ذلك الحين قابضاً على زمام الأمور ببغداد ، ذلك لأن ابن رائق لما صار إليه تدبير المملكة قبض على ضياع ابن مقلة[3] . ولكن الخليفة احتال حتى قبض عليه وسلّمه لابن رائق ، وذلك على الرغم من أنه استشار المنجمين في اختيار الوقت للقاء الخليفة[4] . واستقر الأمر على معاقبته بقطع يده اليمنى[5] ؛ ومن نكد الدنيا ، كما يقول الثعالبي ، أن مثل هذه اليد النفيسة تقطع ؛ لأن خط ابن مقلة كان من أحسن خطوط الدنيا ، وهو أكبر مؤسس للكتابة العربية الجديدة التي ظلت مستعملة طول القرن الرابع الهجري[6] . على أن ابن مقلة بدلاً من أن يكتب بيده اليسرى كان يشدّ القلم على ساعده الأيمن ويكتب[7] ؛ غير أنه ، رغم ما حلّ به ، واصل سعاياته ودسائسه غير راجع عن ذلك ، فقطع لسانه بعد ثلاث سنين ، وبقي في الحبس مدة طويلة ، حتى مات . وقد وصف المؤرخون حال هذا الرجل

---

(١) المنتظم ص ٦٤ ا - ب .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٣) كتاب العيون ص ١٥٧ ب .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٩ ب .

(٥) نفس المصدر ص ١٦١ ب ، ١٦٢ ب ، وقد وصف الطبيب ثابت بن سنان حال الذراع بعد قطعها ، انظر مسكويه ج ٥ ص ٥٨١ - ٥٨٢ .

(٦) كان في خزانة كتب عضد الدولة بشيراز مصحف بخط أبي علي بن مقلة في ثلاثين جزءاً مجلداً - الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٦ ، وانظر ثمار القلوب للثعالبي ص ١٦٧ .

(٧) كتاب العيون ص ١٦٢ ب - ١٦٣ ا .

في آخر أيامه ، بعد القوة وحياة الأبَّهة ؛ فيقال إنه كان لا يجد من يخدمه ، حتى كان يستقي الماء بنفسه من البئر ، فيجذب حبل الدلو بيده اليسرى ثم يمسكه بفيه[1] .

ومن وزراء القرن الرابع أبو العباس الخصيبي ، وكان يواصل شربَ النبيذ بالليل والنوم بالنهار في أيام وزارته كلها ؛ وكان ينتبه مخموراً لا فضل فيه للعمل ، فيترك فضَّ الكتب الواردة من عمال الخراج وقراءتَها والتوقيع عليها وإخراجَها ، إلى الدواوين . وكانت تُعمل له جوامع مختصرة لما يرد من الكتب المهمة ، فتُعرض عليه إذا انتبه ، فربما قرأها ، وربما لم يقرأها . فيقرؤها أبو الفرج إسرائيل النصراني ، ويوقّع فيها بحسب ما يرى[2] . وكان الخصيبي مشغولا بالشراب واللعب ، ولا يحسن شيئاً غير المصادرات[3] .

وقد تولى الوزارة حوالي منتصف القرن الرابع أبو محمد الحسن المهلبي ، فكان وزيراً ذا كفاية عظيمة ؛ وأصله من آل المهلّب بن أبي صفرة[4] ، فهو إذن من سادة الإسلام الأولين ، وكان وطن المهالبة بالبصرة ، حيث اتخذوا في القرن الثالث الهجري دوراً عظيمة عُرفت بحسنها[5] . وكان أبو محمد المهلّبي ، قبل الوزارة ، في شدة عظيمة ؛ وسافر مرة ، وهو على تلك الحالة ، فلقي في سفره عنتاً شديداً ، واشتهى اللحم فلم يقدر عليه ، وأنشد في ذلك الوقت شعراً تبرّم فيه بالحياة وتمنى أن يجد أحداً يبيع له الموت فيشتريه ؛ وسمعه رفيق له ، فاشترى

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٣ ا .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ . وكان اسم إسرائيل من اسماء النصارى التي اختصوا بها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٨ .

(٥) كتاب المرواة للثعالبي مخطوط برلين رقم ٥٤٠٩ ص ١٢٩ ب .

له لحماً بدرهم ، وأطعمه ، وتفارقا . ثم تنقّلت الأحوال بالمهلبي وتولى الوزارة ، وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم ، وبلغه أنه تقلّد الوزارة ، فقصده ، وأنشده شعراً ذكّره فيه بعهده به ؛ فهزّت المهلبيَّ أريحيةُ الكرم ، وأمر له بسبعمائة درهم ، وقلّده عملا يرتفق منه[1] .

وفي عام ٣٣٤ هـ ــ ٩٤٦ م ، وهو العام التاريخي المشهور ، استولى المهلّبي على بغداد إلى أن وردها معزُّ الدولة[2] . ونجد المهلبي قبل ذلك أي في عام ٣٢٦ هـ ــ ٩٣٨ م وكيلا لأبي زكريا السوسي ، وكان السوسي هذا من كبار رجال المال[3] ؛ ثم استخلفه الوزير أبو جعفر الصيمري على الأمور بمدينة السلام،وأنابه بعد ذلك بحضرة معزالدولة، فحسُن موقعه عند معز الدولة ومال إليه وقرّبه ؛ فاشتد ذلك على الصيمري ، فتطلّب للمهلبي الذنوب ، وأطلق فيه لسانه بالوقيعة[4] .

ولما مات الوزير في سنة ٣٣٩ هـ ــ ٩٥٠ م استكتبه معز الدولة وآثره على جميع الكتّاب[5] ؛ ولم يُخاطب بالوزارة إلا في سنة ٣٤٥ هـ[6] .

وكان الأصفهاني صاحب الأغاني منقطعاً إلى الوزير المهلّبي ، كثيرَ المدح له ؛ وهو يصفه بأن له نظما كالدرّ ونثراً رقيقاً وقدرةً على التعبير عن المعنى الكثير باللفظ القليل[7] ؛ ولكن المهلبي كان إلى جانب هذا قائداً محنكا ، فمن ذلك أنه هزم صاحب عمان حينما غزا البصرة وغنم منه وأسر[8] . ولقد مات عام ٣٥٢ هـ ــ ٩٦٣ م وهو خارجٌ لفتح عمان ،

---

(١) ثمرة الأوراق للحموي ، على هامش محاضرات الادباء ج ١ ص ٨٢ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢١ .
(٣) نفس المصدر ج ٥ ص ٥٧٥ .
(٤) الارشاد لياقوت ج ٣ ص ١٨٠ .
(٥) مسكويه ج ٦ ص ١٦٥ .
(٦) نفس المصدر ص ٢١٤ .
(٧) اليتيمة ج ٢ ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ .
(٨) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .

وذلك بعد أن لبث في الوزارة أكثر من ثلاث عشرة سنة كان فيها يدبر أمور أكبر ديوان في الدولة[1] ؛ وكان مخلصاً في المحافظة على النظام ، فردّ رسوم الضرائب إلى ما كانت عليه قبل ظلم البريديين[2] ؛ وكان يؤدّب العابثين ، فمن ذلك أنه قبض على حاجب قاضي القضاة وضربه ضربَ التلف ، وكان يبلغه أن هذا الرجل عاهر « يتعرض لحرَم الناس ممن لهنّ خصومة أو حاجة عند قاضي القضاة »[3] ؛ ولكن المهلبي كان يفعل في بعض الأحيان ما يثير سخطنا ؛ ومن أمثلة ذلك أنه تعقّب أحد العمال ، وأخذ في التنقير عن أمواله وفي إرهاب غلمانه حتى ظفر بالمال الكثير واستعمل الدهاء والمكر والبطش في بلوغ ذلك ، وإن كان ليس في هذا ما يشين عند خلفاء ذلك العهد وأمرائه ، حتى إن مسكويه يذكـر صنيع المهلبي معجباً بذكائه وصدق تخمينه ورضاء معز الدولة عنه[4] ؛ بل نجد أن المهلبي نفسه لم يسلم من مثل هذا المصير ؛ فلما مات قبض معز الدولة على عياله وولده ومن دخل إليه يوما واحداً ، حتى الملاّحين والمكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته ، وصادرهم جميعا ، وفعل بهم مالا يفعل إلا بعدوّ مكاشف ، حتى استفظع الناس ذلك واستقبحوه[5] ؛ وكان المهلبي يجد من سيده أميراً قاسيا ، فكان يلحقه منه أذى كثير ، حتى لقد ضربه بالمقارع مرة مائة وخمسين مقرعة[6] . ولم يكن على وفاق

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٩ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٥٨ .

(٦) انظر ما تقدم عند الكلام عن معز الدولة في الفصل الخاص بالأمراء .

مع سبكتكين القائد التركي الذي كان أكبر ثقات معز الدولة[1] ؛ ولكن المهلبي كان له على معز الدولة سلطان" في الأمور الهامة ، فلما أراد الأمير أن يترك بغداد لم يزل المهلبي به حتى صرفه عن رأيه ، فابتنى قصره العظيم ببغداد وبقي بها[2] . وكان ندماء المهلبي أعيانَ الفضل وسادة ذوي العقل[3] ، من أهل الأدب والعلوم ؛ وكانوا يجتمعون على كثير من الشراب والطرب . وقد تكلم مسكويه في حديث له قصير عن صفات المهلبي وسخائه وآثاره،وإن لم يكن مسكويه من المتحمسين للمهلبي[4] ؛ وقد حدث مرة أنه صاغ دواة و َمِرقعاً ، وحلاّهما حلية ثقيلة ، وكان بعض الكتّاب في ديوانه يتذاكرون سرَّ حسن الدواة ، وذلك على مسمع منه وغفلة منهم ، فقال أحدهم : ما كان أحوجني إليها لأبيعها وأنتفع بثمنها ، فقال له آخر : وأي شيء يعمل الوزير ؟ فأجابه : يدخل في حِرِ أمّه ؛ فلم يكن من المهلبي إلا أن أهدى الدواة ، ومعها عطايا أخرى للرجل الذي تمناها[5] . ويحدثنا القاضي أبو علي التنوخي ، معترفاً بفضل الوزير المهلبي ؛ فيقول إنه استدعاه لصداقة كانت بينه وبين أبيه وقلده عملا ، وكان أبو علي يلازم الوزير ، فدخل عليه يوما قاضي القضاة أبو السايب ؛ وكان أبو السايب يبغض أبا علي بزيادة عـداوة كانت لأبيه ؛ وأراد الوزير أن يلقي في نفس القاضي رهبة أبي علي ، حتى يرهبه ويكرمه ؛ وعلم من خلق القاضي أنه لا يجيء إلا بالرهبة ، فأخذ الوزير يكلم الفتى ، ويوهم قاضي القضاة أنه يسارّه في أمر من أمور الدولة ، وأفهم أبا علي غرضه من هذه المسارّة ، وأنها شديدة على

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

(٣) رسالة في الصداقة للتوحيدي ، طبعة القسطنطينية ص ٣٣ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ١٦٦ .

(٥) المنتظم ص ٩١ ب .

نفس القاضي ، وقال له أن يمضي إليه في الغد ليرى ما يعامله به ، فلما جاء إلى القاضي كاد يحمله على رأسه[1] .

وكان أشهر الوزراء أواخر القرن الرابع ابن عباد الملقب بالصاحب[2] الذي ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ – ٩٩٥ م ، وزير بني بويه بالرّيّ . وكان في بدء أمره معلماً في قرية ، ثم ترقت به الحال، بعد أن كان من صغار الكتاب ، إلى أن بلغ منصب الوزير المدبّر لأمور الملك ؛ وكان الأمير الشاب الذي استوزره والذي أنشأ له ابن عباد مملكته لا يخالفه في أمر من الأمور ، بل حكّمه في كل شيء ، وكان يجله بكل ضروب الإجلال[3] ؛ ولما مات الصاحب عُمل له ما يعمل للملوك ، فحضر جنازته مخدومهُ فخر الدولة وجميع أعيان المملكة ، وقد غيّروا لباسهم ؛ فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة ، وقبّلوا الأرض لنعشه ، ومشى فخر الدولة أمامه ، وقعد للعزاء أياما[4] .

وكان ابن عباد من الأدباء ومن المعنيّين بأهل الأدب ؛ وقد شبّهه مادحوه بهارون الرشيد ، وذلك لأنه أشبه الرشيد بأن جمع حوله أحسن أهل اللّسن ، وكانت له مراسلات مع رؤساء الأدباء بالشام وبغداد أمثال الرضي والصابي وابن الحجاج وابن سكّرة وابن نباته[5] ، وكان فهرس كتبه عشرة مجلدات ، وملك من كتب العلم خاصة ما يحمل على

(١) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٢) كان ابن عبّاد اول من لقب بالصاحب من الوزراء ، ثم سمي بهذا الاسم عميد الجيوش حوالي عام ٤٠٠ هـ (ديوان الشريف الرضي طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ ص ٣٢١) ، وبعد ذلك لقب به « كل من ولي الوزارة حتى خرافيش زماننا ، حملة اللحم واخذة المكوس » (ابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ٥٦) .

(٣) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٣ والصفحات التالية .

(٤) ابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ٥٧ .

(٥) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٢ .

أربعمائة جمل وذلك رغم أنه لم يكن خبيراً بالعلوم الإلهية ، وأنه كان شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد[1] . وتذكر له رسالة حسنة في الطب[2] ؛ ولم يكن الصاحب يقدر على عطايا الأدباء عن سعة ، كما يحكى عمن تقدمه من إجزال العطاء لهم ، فقد « كان لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسمائة ، وما يبلغ إلى الألف نادر ، وما يوفي على الألف بديع »[3] .

وكان الصاحب يعجبه الخزّ خاصة وكان يكثر من إهدائه ؛ فنظر أبو القاسم الزعفراني الشاعر يوما إلى من في دار الصاحب من الخدم والحاشية ، فوجد عليهم الخزوز الفاخرة الملونة ، فكتب قصيدة يطلب فيها كسوة من الخزّ قال فيها :

وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخزّ إلا أنا

« فقال الصاحب . قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلا قال له : احملني أيها الأمير ! فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال : لو علمت أن الله تعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه ؛ وقد أمرنا لك من الخزّ بجبّة وقميص ودرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ، ولو علمنا لباساً آخر يتّخذ من الخز لأعطيناكه »[4] . غير أنه كان من عدم توفيق الصاحب أنه أغضب التوحيدي ، فأثار على نفسه الذمّ من أقذع الألسنة في عصره ؛ على أنه

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٦ ، ٣١٥ .

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ٤٢ وما يليها .

(٣) الارشاد ج ٢ ص ٣٠٤ ، ج ٦ ص ٢٧٦ . طلب الشاعر المغربي منه خمسمائة دينار فقال له : انقصنا واجعلها دراهم .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٣ - ٣٤ ، والارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٢٠ .

قد وصلت إلينا رسالة من أبي حيان كتبها للصاحب ومدحه بها في أول اتصاله به[1] ، ثم انتهت العلاقات بينهما بأن كتب أبو حيان رسالته في ذمّ الصاحب ، وكان فيها من الإقذاع في الثلب ما جعلها تعتبر جالبة للنحس والشؤم على من يقتنيها ؛ ومع هذا فإنها من أروع آيات النثر العربي ، ومن أحسن ما كُتب في تصوير شخصيات الناس في القرن الرابع الهجري .

فمن ذلك أن أبا حيان يقول : وكان أبو الفضل بن العميد إذ رآه قال : أحسب أن عينيه رُكّبتا من زئبق ، وعنقه عُمل بلَوْلَب ؛ وصَدَقَ ، فإنه كان ظريف التَثنّي والتلَوّي ، شديد التفكك والتفتل ، كثير التعوّج والتموّج ، في شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة[2] . وعن أبي حيان أنه وصف الصاحب بأنه لا يرجع إلى التأله والرحمة والرقة والرأفة والرحمة ؛ والناس كلهم يحجمون عنه لجراءته وسلاطته واقتداره وبطشه ، شديد العقاب ، ضعيف الثواب ... مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، قريب الطيرة ، حسود حقود ، وحسده وَقفٌ على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ... وقد قتل خلقاً ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، نخوةً وبغياً ، وتجبُّرا وزهوا ؛ ومع هذا يخدعه الصبي ويخلبه الغبي ، لأن المدخل عليه واسع ، والمأتى إليه سهل ، وذلك بأن يقال له : « مولاي يتقدم بأن أُعارَ شيئا من كلامه ورسائله منظومة ومنثورة ، فما جُبْتُ الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد من كلامه ، وأفصح به وأتعلم به البلاغة ؛ لكأنما رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُه آيات فرقان ، واحتجاجه من

---

(١) تجد الرسالة في الارشاد ج ٢ ص ٢٩٨ والصفحات التالية ، والمؤلف قد فات عليه أن هذه الرسالة من ابن العميد لابن عباد (المترجم) .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ .

أثنائها برهان ، فسبحان من جمع العالم في واحد ، وأبرز جميع قدرته في شخص ! » ؛ فيلين عند ذلك ويذوب ، ويلهى عن كل مهم ، وينسى كل فريضة عليه ، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورَق والورِق ، ويسهل الإذن عليه ، والوصول إليه والتمكن من مجلسه ... ثم يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعراً ، ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجم ، ويقول له : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحني بها في جملة الشعراء ، وكنْ الثالث من المنشدين ؛ فيفعل ذلك أبو عيسى ، وهو بغدادي محكّك ، قد شاخ على الخدائع وتحنّك ؛ وينشد فيقول الصاحب عند سماعه شعرَه في نفسه وَوَصْفَه بلسانه ، ومدحَه من تحبيره :

أعِدْ يا أبا عيسى : فإنك والله مجيد ، زه يا أبا عيسى ! قد صفا ذهنك ، وزادت قريحتك وتنقّحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول ، حين أنشدتنا في العيد الماضي ، مجالس تخرّج الناس ، وتهب لهم الذكاء ، وتزيدهم الفطنة ، وتحول الكودن عتيقاً ، والمحمَّر جواداً ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية وعطيّة هنيئة ، ويغايظ به الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عَروضا ... والذي غلطه في نفسه ، وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه أنه لم يُجَبَّهْ قط بتَخْطئة ، ولا قوبل بتسوئة ، لأن نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، ولله درّه ما رأينا مثله ! من ابن عبد كان مضافا إليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولي ؟ ومن صريع الغواني ؟ . من أشجع السلمي ، إذا سلك طريقهم ؟ قد استدرك مولانا على الخليل في العروض ، وعلى أبي عمرو ابن العلاء في اللغة ، وعلى أبي يوسف في القضاء ، وعلى الإسكافي في الموازنة ، وعلى ابن

نوبخت في الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد في القراءات ؛ وعلى ابن جرير في التفسير ، وعلى أرسططاليس في المنطق ، وعلى الكندي في الحذق ، وعلى ابن سيرين في العبارة ، وعلى أبي العيناء في البديهة ، وعلى ابن كعب في الفردوس (؟) ، وعلى عيسى بن كعب في الرواية ، وعلى الواقدي في الحفظ ، وعلى النجار في البدل ، وعلى ابن ثوابة في التقفية ... ؛ فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويبتسم ، ويطير فرحا به وينقسم ، ويقول : ولا كذي ، ثمرة السبق لهم ، وقصرنا أن نلحقهم أو نقفو أثرهم ؛ وهو في ذلك يتشاجى ويتحايك ، ويلوي شدقه ويبتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ، ويأخذ كالممتنع ، ويغضب في عرض الرضى ، ويرضى في لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتفاتك ويتمايل ، ويحاكي المومسات ، ويخرج في أصحاب السماجات ؛ وهو ، مع هذا ، يظن أنه خافٍ على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ؛ وقد أفسده أيضاً ثقة صاحبه به ، وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، دلالا ونزقا وعجبا ، واندراء على الناس ، وازدراء للصغار والكبار ، وجبهاً للصادر والوارد ، وفي الجملة آفاته كثيرة وذنوبه جمّة ، ولكن الغنى ربٌّ غفور :

ذريني للغنى أسعى فإنـــي	رأيت الناس شرُّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهـــم	وإن أمسى له حسب وخير
ويقصيه النـــديُّ وتزدريه	خليلتـــه وينهره الصغـــير
وتلقي ذا الغنى ، وله جلال	يكـــاد فؤاد صاحبه يطير
قليلٌ ذنبه ، والذنب جمٌّ	ولكـــن الغنى رب غفـــور

قال : فكيف تتمّ له الأمور مع هذه الصفات ؟ قلت : والله لو أن عجوزاً بلهاء أو أمَةً ورهاء أُقيمت مقامه لكانت الأمور ، على هذا السياق ؛ لأنه قد أمِن أن يقال : لِمَ فعلتَ ؟ ولِمَ لَم تفعل ؟ وهذا

باب لا يتفق لأحد ممن خدم الملوك إلا بجدٍّ سعيد . ولقد نصح صاحبَه الهرويُّ في أموال تاوية وأمور من النظر عارية ؛ فقذف بالرقعة إليه حتى عرف ما فيها ، ثم قتل الرافع حَنَقاً ، هذا وهو يدين بالوعيد ؛ وقال لي الثقة من أصحابه : ربما شرع في أمر يحكم فيه بالخطأ ، فيقلبه جدُّه صواباً ، حتى كأنه عن وحي ؛ وأسرارُ الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفيَّة ؛ ولو جرت الأمور على موضع الرأي وقضية العقل لكان معلماً في مصطبة على شارع أو في دارٍ لتانٍ ؛ فإنه يخرج الإنسان بتفقيهه وتشادقه ، واستحقاره واستكباره ، وإعادته وإبدائه ؛ وهذه أشكال تعجب الصبيان ولا تنفِّرهم عن المعلمين ؛ ويكون مرحهم به سبباً للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة ... قال (أبو حيان) : وكان ابن عباد يقول للإنسان إذا قدم عليه من أهل العلم : يا أخي تكلَّمْ واستأنس وانبسط ولا ترُعْ ... ولا يروعك هذا الحشم والخدم ... فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية ... فقل ما شئت ... فلست تجد عندنا إلا الإنصاف ؛ حتى إذا استوفى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والحيل ، وسار الرجل معه في حدوره على مذهب الثقة ، فحاجّه وضايقه ، ووضع يده على النكتة الفاصلة والأمر القاطع ، تنمَّر له ، وتغيَّر عليه ، ثم قال يا غلام : خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس ، وضعه فيه بعد أن تصُبَّ على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة سوط وعصا ، فإنه معاند ضدٌّ ... ؛ وليس الخبر كالعيان ؛ من لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً رفيعاً ورجلا رقيعاً ... وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل يشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح[1] ... كان ابن عباد لا يسكت عما لا يعرف ؛ قال لكاتبه في بعض الأيام بعد أن وبخه وأطال : « بادر إلى عمل حساب

(١) رسالة في الصداقة لأبي حيان ص ٣٣ طبعة القسطنطينية عام ١٣٠١ هـ .

بتفصيل باب يبين فيه أمر داري وما دخل عليه أمر دخلي وخرجي ؛ فتفرّد الكاتب أياماً وحرّر الحساب على قاعدته وأصله والرسم الذي هو معروف بين أهله ، وحمله إليه ؛ فأخذه من يده وأمرّ عينه فيه من غير تثبت أو فحص أو مسألة ، فحذف به إليه ، وقال : أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تضليل ؟ أهذا تحصيل ؟ والله لولا أني ربيتك في داري ، وشُغلت بتخريجك ليلي ونهاري ، ولك حرمة الصبي ورعاية الآباء لأطعمتك هذا الطومار ، وأحرقتك بالنفط والقار ، وأدّبت بك كلّ كاتب وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب ، أمِثلي يُموّه عليه ويطمع فيما لديه ، وأنا خُلقت للحسابة والكتابة ؟ والله ما أنام ليلة إلا وأُحصل في نفسي ارتفاعَ العراق ، ودَخْل الآفاق ، أغرّك مني أني أجررت رسنك ، وأخفيت قبيحك ، وأبديت حسنك ؟ غيِّر هذا الذي رفعت ، وأعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم أنك من الآخرة قد رجعت ، فزد في صلاتك وصدقك ، ولا تعوّل على قحتك وصلابة حدقتك » ؛ يقول الكاتب : « فوالله ما هالني كلامه ولا أحاك فيّ هذيانه ؛ لأني كنت أعلم جهله في الحسابة ونقصه في هذا الباب ؛ فذهبت وأفسدت ، وأخرت وقدمت ، وكابرت وتعمدت ؛ ثم رددته إليه ، فنظر فيه ، وضحك في وجهي ؛ وقال : أحسنت ، بارك الله عليك ! هكذا أردت ، وهذا بعينه طلبت ، لو تغافلتُ عنك في أول الأمر لما تيقظتَ في الثاني ؛ فهذا كما ترى ، أعجبْ منه كيف شئت »[1] .

أما ابن العميد (المتوفى عام ٣٦٠ هـ ـ ٩٧١ م) فقد صوّره لنا ابنُ مسكويه في تاريخه ، وكان خازنا لدار كتبه مدة طويلة ، وبقي في نفسه لابن العميد صورة وأثر قويان ، حتى إن التوحيدي يهزأ بابن مسكويه ويعيبه بأنه يفسد قوله بكثرة ذكره : قال المهلبي ، قال ابن

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٧٦ ـ ٢٨١ ، ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

العميد ، فعل ابن العميد[٢] • وقد ابتدأ مسكويه بمدح بطله بالقدرة على الحفظ ؛ وكان لهذه المزية في ذلك العصر قيمة" أكبر مما لها اليوم ؛ يقول المؤرخ : « وحدثني غير مرة أنه كان في حداثته يخاطر رفقاءه والأدباء الذين يعاشرهم على حفظ ألف بيت في يوم واحد ؛ وكان رحمه الله أثقل وزنا وأكبر قدراً من أن يتزيّد ••• وكذلك شعره الذي جد فيه وهزل ، فإنه في أعلى درجات الشعر ••• فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد" في زمانه أن يدّعيها بحضرته ، إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلّم دون المذاكرة • ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد" كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مركز الأثقال وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون ، وحيل في الحروب مثل ذلك ، واتخاذ أسلحة عجيبة بسهام تنفذ أمداً بعيداً وتؤثر آثاراً عظيمة ، ومرايا محرقة على مسافة بعيدة جدا ، ولُطْف كف" لم يُسمع بمثله ومعرفة بدقائق علم التصاوير • وقد رأيته يتناول التفاحة أو ما يجري مجراها ؛ فيعبث بها ساعة ، ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه قد خطها بظفره ، لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة وفي الأيام الكثيرة ما تأتّى له مثلُها ؛ فأما اضطلاعه بأمور الملك فقد دلت عليه رسائله • ولا سيما رسالته التي يخبر فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن تُتلافى به ، حتى تعود إلى أحسن أحوالها ؛ « فإن هذه رسالة تُتَعلّم منها صناعةُ الوزارة » •••• ولما حصل بفارس علّم عضدَ الدولة وجوهَ التدابير السديدة وصناعةَ الملك التي هي « صناعة الصناعات » ، ولقّنه ذلك تلقيناً ، فصادف

---

(٢) رسالة في الصداقة للتوحيدي طبعة القسطنطينية ص ٣٢ .

متعلما لَقَنْنا ؛ حتى قال عضد الدولة مراراً : إن أبا الفضل بن العميد كان أستاذنا ، وكان لا يذكره في حياته إلا الأستاذ الرئيس .

وكان ابن العميد يقود الجيوش ويحضر المعارك ، وكان أسداً في الشجاعة لا يُصطلى بناره ، ولا يُدخل في غباره ؛ وكان يركب العمّاريات ، ولا يستقل ظهور الدوابّ لإفراط علة النقرس وغيرها عليه . وكان قليل الكلام نزر الحديث إلا إذا سُئل ووجد من يفهم عنه ؛ وكان لحسن عشرته وطهارة أخلاقه إذا دخل إليه أديبٌ أو عالم متفرِّدٌ بفنٍّ سكت له ، وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسانَ من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورده عليه ؛ حتى إذا طاوله ، وأتت الشهور والسنون على محاضرته ، واتفق له أن يسأله عن شيء تدفّق حينئذ بحرُه ، وجاس خاطرُه ، وبُهت من كان عند نفسه أنه بارع في ذلك الفن ، « وما أكثر من خجل عنده من المعجبين بأنفسهم ! »؛ وكان مركزه في غاية الصعوبة ، وهو بين أمير لم تكن له بين جنده هيبة إلا بالمداراة والمسامحة في أشياء كثيرة وإطلاق الأيدي بالعبث ، ولم يكن يستجيب إلى عمارة البلاد « خوفاً من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت » ، وبين جند الديلم الذين كانوا يطالبون بالمحالات ، ويثقلون مؤونتهم على الرعية ، ويتواعدون بالليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها ؛ وربما خرجوا إلى الصحراء بقدر ما يدبرون الرأي في وجه الحيلة وترتيب ما يريدون ؛ ولكن ابن العميد استطاع على الرغم من هذا أن يعيد النظام حتى استقام الأمر ، وقامت الهيبةُ في صدور الجند والرعية . ويحكي ابن مسكويه أنه كان يكفي ابن العميد أن يرفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار ، فترتعد الأعضاء وتضطرب ، وتسترخي المفاصل ؛ وأنه شاهد ذلك في مواقف كثيرة . وقد استطاع أن يعرف طبائع الديلم وما فيهم من حسد وجشع ،

وأنه لا يملكهم أحد إلا بترك الزينة ، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ، وبترك التكبر عليهم ، وبالظهور في مرتبة أوسطهم حالا .
ولما رأى ابن العميد أن ابنه يحب أن يسير في خواص الديلم ، ويستميل قلوبَهم بالخِلَع والهدايا ، ويدعوهم إلى اللعب والصيد ، ويستضيفهم في الصحراء ، نهاه عن ذلك ووعظه ألاّ يسير معهم هذه السيرة ، ولكن النصحَ لم ينفع ؛ فتجرّع ابن العميد غيظه ، وزاد ذلك في مرضه ، حتى مات في همذان ، وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آلَ العميد ، ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي ، يعني ابنه ؛ وكان يقول في مرضه : ما قتلني إلا جُرَع الغيظ التي تجرّعتها منه[1] .

*

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٤٥ - ٣٤٧ ، ٣٥١ - ٣٥٨ .

الفصل الثامن

المسائل المالية

مهما بدا التشريع الإسلامي في أمر الضرائب واضحاً بسيطاً في كتب الفقه ، منذ عهد أبي يوسف القاضي إلى أيام الماوردي ، وفيما جُمع من كتب الحديث ، فإنه في الواقع متشعِّب مع غزارةٍ وصعوبة . ولو أراد الباحث أن يعرف الفروق بين النظم المالية عند المسلمين وعند غيرهم لما استطاع أن يكتفي بدراسة هذه النظم في البلاد التي كانت تابعة للدولة الرومانية البوزنطية وللدولة الفارسية ؛ وذلك لأنه كانت هناك نظمٌ أخرى في الضرائب يختلف بعضها عن بعض في الشام ومصر وشمال أفريقية قبل ظهور الإسلام ، كما كانت ثم فروقٌ بين النظم المالية في العراق وخراسان وجنوب فارس .

ولم تكن في الدولة الإسلامية كلها ضرائبٌ ثابتة ونافذة على نحو واحد إلاّ الضرائب الإسلامية الخالصة وهي : ضريبة رؤوس أهل الذمة من اليهود والنصارى ، والزكاة المفروضة على المسلمين . وكانت هذه تحسب على أساس الشهور ، شأنها شأن أجور الأرجاء والمستغلاّت والأرض المُقتطَعة وسائر ما يجري على المشاهرات . وكانت هذه الضرائب الشهرية تجري بحسب السنة الهلالية ، وكان التقويم الهلالي يعمل به في الواقع في المدن الكبيرة التي يقلّ اعتمادها على الزراعة ؛ أما في الأرض الزراعية فلم يكن بدٌّ من أن يتمشى نظام الضرائب مع

حال الزرّاع وأوقات الغرس والحصاد ، أي أنه لم يكن بدٌ من السير طبقاً للسنة الشمسية[1] .

وكانت هذه السنة الشمسية هي القبطية والشامية في البلاد التي كانت تحت حكم الروم ؛ أما في المشرق فكانت هي السنة الفارسية ؛ وفي فارس كان يُفتتح الخراج في إبان النيروز[2] ؛ وإنما آثر الفرس ذلك من قديم الزمان ، لأنه وقت الانقلاب الصيفي الذي هو وقت إدراك الغلاّت ، فكان أصوب لافتتاح الخراج فيه من غيره[3] . ثم جاء ملوك العرب فاقتدوا بملوك الفرس في المطالبة بالخراج إبان النيروز . ولكن الفرس كانوا يكبسون السنين في كل أربع سنين بيوم ؛ فأبطل الإسلام ذلك ، ونشأ عن عدم الكبس أن الخراج كان يُفتتح قبل نضج الزرع . وبينما كان المتوكل يطوف يوماً في مُتصيَّدٍ له إذ رأى زرعاً أخضر لم يدرك بعد ، ولم يستحصد ؛ وكان المتوكل قد استؤذن في فتح الخراج ، فقال : من أين يعطي الناسُ الخراجَ ؟ فقيل له إن الأمر جارٍ على ما أسّسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج في أثناء النيروز ؛ فوقع عزم المتوكل على تأخير النيروز سبعة عشر يوماً من حزيران ، تدارُكاً لما فات من عدم الكبس ، ونفذت الكتب بذلك إلى الآفاق ؛ ثم قُتل المتوكل ، ولم يتم له ما دبّر ؛ فلما قام المعتضد احتذى ما فعله المتوكل في تأخير النيروز ، غير أنه نظر من جهة غير التي نظر إليها المتوكل ، فأخر النيروز إلى الحادي عشر من حزيران ، ثم وضع النيروز على شهور الروم لتكبس شهورُه إذا كبست الرومُ شهورَها ، لا على سنين الفرس من الكبس بشهر في كل مائة وعشرين سنة . ولما كان لا يمكن ترك السنة

---

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٧٣ حيث ينقل المقريزي عن كتاب اخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله لابي الحسين عبد الله بن أبي طاهر .

(٢) وفي أقصى المشرق أعني في الافغان وما وراء النهر كان الخراج يدفع على دفعتين (انظر ابن حوقل ص ٣٠٨ ، ٣٤١) .

(٣) الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٦ — ٢١٧ من الطبعة الأوروبية .

الهلالية لأسباب دينية فقد سارت السنتان الهلالية والخراجية مع اختلافهما في الطول جنباً لجنب ، وحدث اضطرابٌ كبير بسبب تفاضل السنين ؛ حتى صارت الجباية الخراجية في السنة التي تنتهي إليها تنسب في التسمية إلى ما قبلها ؛ ولما لم يكن من الجائز كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر ، « لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهرُ الحرم عن موقعها ، وانحرفت المناسكُ عن حقائقها ، ونقصت الجباية عن سني الأهلّة بقسط ما استرقه الكبسُ منها ، فانتظروا بذلك الفضل أن تتم سنةٌ أوجب الحساب المقرّب أن تكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثاً وثلاثين سنة هلالية ، فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشمسية ..... وقد رأى أميرُ المؤمنين نقل سنة خمسين وثلثمائة الخراجية إلى إحدى وخمسين وثلثمائة الهلالية ، جمعاً بينهما ، ولزوماً لتلك السنّة فيهما » . وهذا جزء من الكتاب الذي أنشأه أبو إسحاق الصابي في هذا الصدد[1] .

ومما اختص به نظام المسلمين الإداري فيما يتعلق بالمال أن دواوين الخراج في الولايات كانت تقوم مقام خزائن للدولة ، فكانت تستوفى من مال الخراج النفقاتُ الراتبةُ وأعطياتُ الجند ، ثم يُحمل ما يتبقى إلى بيت المال العام بمدينة السلام[2] ؛ ولذلك فإن خزانة بغداد كانت لا

---

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧ ، والآثار الباقية للبيروني ص ٣١ ـ ٣٣ ، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٤٣ ، ورسائل الصابي طبعة لبنان ص ٢١٢ ـ ٢١٥ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ، وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ١ ص ٥١ ، وابن حوقل ص ١٢٨ ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٥٤ . وكذلك كان ولاة النواحي في الدولة البوزنطية يسقطون النفقات من جملة دخل ولاياتهم . وكانت العادة في أيام الأمويين أن الخلفاء « إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينارٌ ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل عن أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه » انظر كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، وذكر امرائها طبعة مجريط ١٨٦٧ ص ٢٢ ـ ٢٣ . وانظر أيضاً ما حكي عن ابن أبي الفياض في كتاب سيمونيت Simonet, Historia de Los mosarabes de Espana . Madrid, 1897 — 1903, S. 158.

تُعنى إلا بدار الخلافة وحاجاتها وبشؤون الدواوين وبالجزء الشرقي من بغداد ، لأنه كان بحسب رسم خاص تابعاً لدار الخلافة ؛ أما الجانب الغربي ، وهو بغداد الحقيقية ، فكان جزءاً من عمالة بادوريا[1] .

وقد بين لنا الخوارزمي أسماء الدفاتر والمواضعات المستعملة في الدواوين بخراسان في القرن الرابع الهجري[2] ، فمنها :

قانون الخراج ، وهو أصله الذي يرجع إليه ، وتُبنى الجباية عليه[3] .

الأوَراج ، ويُنقل اليه ما على إنسان إنسان ، ويُثبت فيه ما يؤديه دفعةً بعد أخرى ، إلى أن يستوفى ما عليه .

الروزنامج ، ومعناه كتاب اليوم ؛ لأنه يُكتب فيه ما يجري كل يوم من استخراج أو نفقة أو غير ذلك .

الختمة ، وهي كتاب يرفعه الجهبذ في كل شهر بالاستخراج والجمل والنفقات والحاصل ، كأنه يختم الشهر به .

الختمة الجامعة ، تُعمل كل سنة كذلك .

التأريج ، لفظة فارسية ، معناها النظام ، لأنه كسواد يعمل للعقد لعدة أبواب يُحتاج لعلم جملها .

العريضة ، وهي شبيهة بالتأريج ، إلا أنها تُعمل لأبواب يُحتاج إلى أن يُعلم فضلُ ما بينها ، فينقص الأقل من الأكثر من بابين ، ويوضع

---

(١) كتاب الوزراء ص ١١ والصفحات التالية .

(٢) مفاتيح العلوم ص ٥٤ — ٥٦ .

(٣) كانت لفظة Kanon في العصر التالي لعصر الامبراطور ديوقلسيان هي الاصطلاح العام للضرائب العادية . انظر Wilken, Griech. Ostraka, S. 378 .

ما يفضل في باب ثالث ، هو الذي تعمل العريضة لأجله ، «مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج ، ففي أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل ، فيوضع في السطر الأول من سطور العريضة ثلاثة أبواب ، أحدها للأصل ، والثاني للاستخراج ، والثالث لفضل ما بينهما » .

البراءة ، حجة يبذلها الجهبذ أو الخازن للمؤدّي بما يؤديه إليه .

الموافقة والجماعة ، حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة ما لم يُرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه ؛ فإن انفرد به أحدُهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمّي محاسبة .

وعندنا كذلك أبواب ميزانية الدولة لسنة ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م ، وهي تقوم على ميزانية عام ٣٠٣ هـ ؛ فكانت تقسم الميزانية العامة ، على نحو ما كانت تقسم الدفاتر في دواوين الخراج ، إلى باب الاستخراج أو الدخل وباب النفقات ؛ وكذلك يقسم باب النفقات إلى النفقات الراتبة والحادثة ؛ وكانت الميزانية تنتهي بعجز كما هو الحال عندنا . وكانت مقادير خراج العراق وخوزستان وفارس وإيران تذكر عيْناً ؛ على حين أنه حتى عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٣ م كان يُذكر النوع إلى جانب القيمة بالذهب؛ وهذا يدل على تقدم في النظام المالي في شرق المملكة الإسلامية. أما فيما يتعلق بالشام والعراق فكان الخراج يحسب بالعين وبالنوع[1] (الكرّ من الشعير أو الحنطة) . وكانت سيطرةُ العملة ، وهي السيطرة التي من شأنها القضاء على سائر القيم الأخرى المتدرّجة ، وجَعْل قيمة الأشياء متوقفة على قيمتها النقدية ، سبباً في زوال كثير من الضرائب

---

(١) Kremer, Einnahmebudget der Abbasiden, S. 309 ff., 323 ؛ وكتاب الخراج لقدامة ط . دي غوي ص ٢٣٩ ، وكتاب الوزراء ص ١٨٨ — ١٨٩ .

الرمزية الشكلية التي تفرض لمجرد تقرير الحق في الضريبة ؛ وهذه الضرائب هي التي جعلت دفاتر الضرائب في العصور الوسطى الأوربية كثيرة الأبواب ؛ ولا نجد من أمثلة هذه الضرائب إلا ما ذكر عن مدينة اسبيجاب على أقصى حدود المملكة الإسلامية شرقاً من أن خراجها أربعة دوانيق ومكنسة تبعث إلى السلطان كل عام مع الهدايا[1] .

وقد جرت العادة حوالي عام ٣٠٠ هـ ـــ ٩١٢ م أن تُرسل مع الخراج أو الهدية أشياء طريفة غريبة عن المألوف ؛ ففي عام ٢٩٩ هـ ـــ ٩١١ م "أرسل مع مال مصر تيس" له ضرع يحلب اللبن ، وفي سنة ٣٠١ هـ ـــ ٩١٣ م وصلت هدايا صاحب عمّان إلى السلطان ، وفيها ببّغة بيضاء وغزال أسود ، وفي سنة ٣٠٥ هـ وردت من عمان أيضاً هدايا جليلة ، فيها طائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من الببغاء وفيها ظباء سود[2] .

وكان الإقطاع في المملكة الإسلامية كلها ضرباً هاماً من ضروب تملك الأرض ؛ والإقطاع في المشرق والمغرب على السواء ميراث قديم . ويقول أبو يوسف : فأما القطائع من أرض العراق ، فكل ما كان لكسرى ومرازّبنه وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد[3] ؛ أما في المغرب فكان الإقطاع نظاماً رومانيا ، وكانت أرض الحكومة والأرض التي لا يملكها

---

(١) المقدسي ص ٣٤٠ ، ويؤيد ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٩ من الطبعة الاوربية) هذا الكلام حيث يقول إنه لم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلدة لا خراج عليها إلا اسبيجاب ، لانها كانت ثغراً عظيما ، فكانت تعفي من الخراج ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الارض .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ١٦ ا ، ١٩ ا ، ١٥ ب .

(٣) كتاب الخراج ص ٣٢ ، وكان ثمّ إلى جانب القطيعة ما يسمى الطعمة ، وهي الأرض التي تدفع إلى رجل ليعمرها ويؤدي عشرها ؛ وتكون له مدة حياته ، فإذا مات ارتجعت من ورثته ؛ والقطيعة تبقى لعقبه من بعده ـ انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٦٠ .

أحد تنتقل بحسب نظام الإقطاع إلى أفراد الشعب[1] • أما الخراج الذي يجب أن يدفعه صاحب الأرض المقْطَعة فكان يُحَدَّد باتفاق خاص بينه وبين الحكومة ، وهو عند الفقهاء العُشْر[2] • ولم يكن أصحاب الإقطاعات أحسن حالا من غيرهم من أصحاب الضياع العاديين ؛ وقد حكى التنوخي في القرن الرابع الهجري أن الرشيد اعتل ، فداواه طبيبه ، فأمر بإقطاعه ما قيمته ألف ألف درهم ، فقال له : ما لي حاجة إلى الإقطاع ؛ ولكن تهب لي ما أشتري الضياع به ، فأجاب الخليفة طلبه وأمر بمعاونته حتى ابتاع ضياعاً لا إقطاع فيها[3] • وكان يقع في كثير من الأحيان خلاف بين الملاك والعمال في بعض الأراضي ؛ فيذكر صاحب الأرض أنها قطيعة ، على حين أن عامل الخراج يذهب إلى أنها أرض خراج عادية[4] • وكانت الأرض المقطعة تعود دائما إلى الحكومة ، وذلك

---

(1) Becker, ZA, 1905, S. 301 ff.

وأرَضُ العشر ستة أضرب :

(2) كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ٩٠ ب ـ ٩١ ا :

١ ـ الارضون التي أسلم عليها أهلها ، وهي في أيديهم مثل اليمن والمدينة والطائف .

٢ ـ ما يستحييه المسلمون من الارض الموات التي لا ملك لاحد فيها .

٣ ـ ما يقطعه الائمة بعضَ المسلمين .

٤ ـ ما يحصل ملكا للمسلمين مما يقسمه الامام من ارض العنوة بين من اوجف عليها من المسلمين .

٥ ـ ما صار في يد المسلمين من الصفايا التي اصفاها عمر بن الخطاب من ارض السواد ، وهي ما كان لكسرى وآله وخاصته .

٦ ـ ما جلا عنه العدو من أرضيهم فحصل في يد من قطنه وأقام به من المسلمين مثل الثغور . وكان إلى جانب ديوان الخراج ديوان آخر قائم بذاته يسمى ديوان الضياع . انظر Kremer S. 293 ، ولا نجد ذلك بين أسماء الدواوين في خراسان .

(3) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(4) كتاب الوزراء ص ٢٢٠ .

بسبب مصادرة أصحابها أو نظراً لخرابها ، وكثيراً ما يكون هذا الخراب بسبب الضرائب الباهظة • وفي القرن الثالث الهجري غلب بنو الصفار على فارس ، فجلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ؛ فقررت الحكومة خراجها على من بقي ، وسُمي ذلك بالتكملة ، لأنه كمل بها قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكملة تستوفى حتى أُعيد افتتاح فارس عام ٢٩٨ هـ ، فتظلّم أهل فارس ، وورد قوم من أجلادهم إلى بغداد لرفع ظلامتهم ، فجمع المقتدر مجلسا من القضاة والفقهاء والكتّاب والعمال والقوّاد ، فأفتى الفقهاء ببطلان التكملة ، وصدر كتاب الخليفة بذلك عام ٣٠٣ هـ ــ ٩١٥ م[١] • والظاهر أن أمر التكملة كان شاذّاً في ذلك العهد في المشرق ؛ أما في مصر فقد كانت القاعدة أن تضمن المدينة الأفراد الذين يجلون عن الأرض ؛ وفي العراق كان لا بد من هذا الضمان فيما يتعلق بالجزية الواجبة على أهل الذمة[٢] ، ولم يُلغ نظام ضمان المدينة هذا في فرنسا إلا قبل الثورة الفرنسية بقليل ، وفي الروسيا إلا منذ عام ١٩٠٦ م •

وكانت الحكومة تملك أراضي أخرى تسميها الضياع السلطانية ، وكانت هذه الضياع تزداد في أيام الرخاء بابتياع أراض جديدة[٣] • أما في أوقات الشدة فكان يُباع بعضها • وقد حدث في سنة ٣٢٣ هـ ــ ٩٣٥ م أن باع الوزير على التجار ضياعا سلطانية ليفي بسداد ما كان قد استسلفه من مالهم[٤] • وكانت هذه الضياع تتعرض دائما للخطر

(١) كتاب الوزراء ص ٣٤٠ ــ ٣٤٢ ، وكتاب العيون ص ٨٢ أ •

(٢) انظر الكلام عن الجزية في الفصل الخاص باليهود والنصارى •

(٣) قدامة طبعة دي غوي ص ٢٤١ •

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٥٠٥ •

إذا ضعفت الحكومة ؛ فعند ذلك يقتطع كبار الملاك الأقوياء والوزراء بعضها ، ويضيفون ذلك إلى أملاكهم[١] .

وكان يحدث أن يرغب صغار أرباب الضياع في الإفلات من عبء الخراج العادي ، فاعتادوا أن يُلجئوا ضياعهم إلى الكبراء الأقوياء ، فكانت تجرى بأسمائهم ، ويُخَفَّف عن أهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط ، كما هو الحال في الإقطاعات ؛ ولكنها تبقى في أيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها ، وإن كانت بأسماء من ألجأوها إليهم . وهذه التلجئة نظام قديم ، وقد أوجدها في مصر على عهد الرومان البوزنطيين كبارُ أصحاب الضياع ، ويحكى أنها كانت موجودة في عهد الأمويين[٢]، ثم صارت اصطلاحا قائما بذاته بين مواضعات الكتاب في دواوين الخراج بخراسان[٣] ، وأصبح لها قسم خاص بها في القرن الرابع الهجري ، وكانت شائعة في فارس بنوع خاص لنقل الخراج فيها[٤] . وفي عام ٤١٥ م اعتُبِر المُلْجِئون في مصر بحكم القانون موالي تابعين للأقوياء الذين احتموا بهم[٥] ، ولكنهم لم يصيروا إلى هذه الحالة قط في فارس .

ومن وجوه الأموال التي ترد إلى بيت المال أخماس المعادن والركاز ، والمال الدفون من دفائن الجاهلية ، وخمس سَيْب البحر مما يقذف به ويستخرج منه ، مثل العنبر والحلية ، ومنها أثمان الأبَّاق من العبيد ، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة ، إذا لم يأت لذلك

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٣٤ ، وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ١ ص ٥٠ .

(٢) كتاب الخراج لقدامة طبعة دي غوي ص ٢٤١ .

(٣) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٦٢ .

(٤) الاصطخري ص ١٥٨ .

(٥) Mathias Gelzer, Studien zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens, S. 72 ff.

طالب يستحقه ، ومنها ما يؤخذ من مواريث من يموت ولا يخلّف وارثا له[1] . وكان لا يؤخذ لبيت المال إلا من ميراث المسلمين ، فمثلا كتب الخطيب البغدادي (٣٩٢ — ٤٦٣) الى الخليفة : إني إذا مت كان مالي لبيت المال (وكان مقدار ذلك مائتي دينار)[2] ؛ وفي عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أصدر الخليفة المقتدر كتاباً في أمر المواريث نص فيه على أن تُرَدّ تركة من يموت من أهل الذمة ، ولا يخلف وارثا ، على أهل ملته لا على بيت المال ، وذلك عملا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل ملّتين[3] . وقد تجادل كثير من الفقهاء في مسألة كبرى من المسائل التي تُبحث حديثاً ، وهي مسألة رد التركة إلى بيت المال بدلا من ردها إلى الأباعد من ذوي الأرحام ؛ وقد زاد شأن هذه المسألة عند المسلمين ، لأن كثيراً من الفقهاء ذهبوا إلى أن بعض الأقارب الأدنينَ لا يجوز أن يحوزوا أكثر من الأسهم المفترضة لهم في القرآن ؛ أما ما يفضل عن ذلك فهو نصيب بيت المال[4] وفي القرن الثالث الهجري أنشيء

---

(١) كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس ص ٩١ ا — ب .
وانظر ايضا Schmidt, Die Occupatio im islamischen Recht, Der Islam, I, 300 ff.

(٢) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٤٨ .

(٤) يذهب الشافعية إلى جعل ما يفضل عن السهام المفروضة إلى بيت المال لا إلى ذوي الأرحام الأباعد ، إن لم يوجد للمتوفي عصبة تحرز باقي ميراثه (انظر Sachau Muhammedanisches Recht, S. 211, 247) ؛ وفي عام ٢٨٣ هـ — ٨٩٦ م أمر الخليفة المعتضد بردّ الفاضل من سهام المواريث على ذوي الارحام وإبطال ديوان المواريث ، وصرف عماله (تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٥١) ؛ ويقول أبو الفدا (ج ٢ ص ٢٧٨ تحت عام ٢٨٣ هـ) ما يؤيد ذلك نقلا عن القاضي شهاب الدين في تاريخه (توفي القاضي عام ٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) ؛ ثم حذا المكتفي حذو المعتضد وجدد هذا الامر في عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م . وفي عام =

ديوان خاص يسمى ديوان المواريث ، وذلك في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ ــ ٢٧٩ هـ = ٨٦٩ ــ ٨٩٢ م) • وكان هذا الديوان مجالا واسعاً لظلم الناس والإعنات في مواريثهم وأخذ ما لم تَجْرِ به السنة[١] • يقول ابن المعتز قرب أواخر القرن الثالث يشكو ما يجري على أصحاب المواريث[٢] :

وويل من مات أبوه موسرا	أليس هذا محكما مشهّرا
وطال في دار البلاء سجنه	وقيل من يدري بأنك ابنه
فقال : جيراني ومن يعرفني	فنتفوا سباله حتى فني
وأسرفوا في لكمه ودفعه	وانطلقت أكفّهم في صفعه
ولم يزل في أضيق الحبوس	حتى رمى لهم بالكيس

وقد استطاع الخليفة الراضي أن يكبح شهوة الأمراء للاستيلاء على مواريث الناس ؛ فقد حدث أن رجلا مات وخلف مالا عظيما ، فوجّه ابنُ رائق من حمل من داره وحوانيته مالا ومتاعا ؛ فلما عرف الراضي ذلك أنكره ، وأنفذ إلى ابن رائق بما أقلقه ؛ فأمر برد جميع ما أُخذ من المال إلى موضعه[٣] • على أن سيف الدولة المعروف بشجاعته والمشهور بشعرائه وسوء حكمه كان يأخذ المواريث أخذاً رسميا ؛ ففي عام ٣٣٣ هـ ــ ٩٤٤ م عين أبا حسين علي بن عبد الملك الرقي قاضياً على حلب ، فكان

= ٣١١ هـ ــ ٩٢٣ م أصدر الخليفة المقتدر أمره بأن يردّ ما يفضل من السهام المفترضة إلى ذوي الرحم الذين لا فرض لهم في القرآن ، إذا لم يكن للمتوفى من يحوز ميراثه من ذوي السهام ، وفي عام ٣٥٥ هـ ــ ٩٦٦ م أمر معز الدولة برفع المواريث الحشرية ، وفي عام ٣٥٦ هـ ــ ٩٦٧ م رد المواريث الحشرية إلى ذوي الأرحام ــ انظر المنتظم لابن الجوزي ص ٩٨ ب ، ١٠٠ أ •

(١) انظر كتاب الوزراء ص ٢٤٦ ــ ٢٤٩ ، عريب ص ١١٧ ــ ١١٨ •

(٢) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣١ •

(٣) الأوراق للصولي مخطوط باريس ص ١٤٧ ــ ١٤٨ •

هذا القاضي يصادر التركات ويقول : التركة لسيف الدولة ، وليس لأبي الحسين إلا أخذ الجعالة[1] . وقد تكلم المقدسي عن ركن الدولة وأهل بيته من الأمراء ، فعدد بعض مساوئهم ، ولكنه أكد من فضائلهم بنوع خاص أنهم « لهم سياسة عجيبة ورسوم ردية ؛ غير أنهم لا يتعرضون للتركات[2] » .

وكان كثير من الحكام يحاولون أن يعتبروا التركة من غير وارث ، ليستولوا عليها ؛ ولكن لم يوجد في الإسلام قانون طبق على المسلمين يشبه مثلا القانون الذي كان في إنجلترا في القرن الثالث عشر الميلادي[3] . وكان من محاسن أعمال عميد الجيوش حاكم بغداد المتوفى عام ٤٠١ هـ ــ ١٠١٠ م أنه حمل إليه مرةً مالٌ كثير قد خلفه بعض التجار المصريين ، وقيل له : ليس للميت وارث ، فقال : لا يدخل خزانة السلطان ما ليس لها ؛ يُترك إلى أن يصح خبره ؛ فلما كان بعد مدة جاء أخ للميت بكتاب من مصر بأنه مستحق للتركة ، فقصد باب عميد الجيوش وأوصل إليه الكتاب ، فقضى حاجته . ولما وصل التاجر إلى مصر أظهر الدعاء له ، فضج الناس بالدعاء له والثناء عليه ، وبلغ عميدَ الجيوش الخبرُ فسُرَّ به[4] . ولكن الأمر لم يكن يجري هذا المجرى بالنسبة لغير المسلمين ؛ ففي القرن الثاني عشر الميلادي اعتل ربي بتاحيا ، وهو بالموصل ، وقال الأطباء إنها علة الموت ؛ « ولما كان الرسم هناك في ذلك الوقت أن تستولي الحكومة على نصف ما يخلفه كل يهودي غريب يموت هناك ، وكان الربي بتاحيا حسن اللباس ، فقد قيل إنه غني ؛ وجاء عمال الحكومة لقبض تركته ، كأنه قد مات » . وكثيراً ما

---

(1) Wüstenfeld, Die Statthalter von Aegypten, IV, S. 35.

(2) المقدسي ص ٤٠٠ .

(3) Caro. Soziale und Wirtschaftsgeschichte der Juden, 1, 316.

(4) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٨ .

كان يؤخذ جزء من مال الأغنياء في حياتهم ، وقد نشأ هذا الرسم من أن بعض المال كانوا يستولون على الأموال بغير حق ، ثم يضطرون إلى إرجاعها ، وهذا شبيه بما فعله نابليون الأول حين ألزم قواده من ذوي اليسار العظيم أن يدفعوا للخزانة مبالغ كبيرة . على أن جميع التجار الذين كانت تُبْتَزّ أموالهم كانت لهم معاملات مع الدولة أصابوا منها مالا وفيراً ، أو على الأقل ظُنّ بهم ذلك . يقول ابن المعتز في وصفه لجور الحكومة في عهد المعتمد[1] :

وتاجرٍ ذي جوهر ومال | كان من الله بحسن حال
قيل له : عندك للسلطان | ودائعٌ غالية الأثمان
فقال : لا والله ما عندي له | صغيرة من ذا ولا جليله
وإنما أُربحت في التجارة | ولم أكن في المال ذا خسارة
فدخنوه بدخان التبن | وأوقدوه بثقال اللبن
حتى إذا مل الحياة وضجر | وقال : ليت المال جمعاً في سقر
أعطاهمو ما طلبوا ، فأُطلقا | يستعمل المشي ويمشي العنقا

ونرى من الثبت الذي يحوي أسماء المصادَرين أنهم كانوا عمالا من عمال الدولة أو جهابذة كانوا يعاملونها[2] . وليس فيما انتهى إلينا من حكايات تتعلق بالمصادرات مثلٌ واحد لأخذ الحكومة أموال العمال الخاصة ظلماً وجوراً من غير طريقة قانونية ؛ فيحكي لنا ابن مسكويه « أن الوزير أبا علي بن مقلة كان يعادي أبا الخطاب بن أبي العباس بن الفرات ، ولم يكن يجد إلى القبض عليه طريقاً ديوانيا ، لأنه كان ترك

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣١ – ١٣٢ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٢٢٣ – ٢٢٧ .

التصرُّف عشرين سنة ، ولزم منزله ، وقنع بدخل ضيعته[1] » على أن نظام المصادرة قد تقلّب في أطور ، فكان في أوائل القرن الرابع ضرباً من ضروب العقاب ، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مشتبهاً في نقاوة يده ، فكان يصادَر بين حين وآخر .

وكان الأخشيد صاحب مصر وأدرى الحكام بأمور المال بين عامي ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) و ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، يقوم بالمصادرات الكثيرة في هدوء من جانبه وبرود ، فكان يقبض على عماله وخاصته وثقاته ، ويصادرهم على المبالغ الكبيرة هم وأهلهم ومن يكون في دورهم يوم المصادرة . وكان أحب إليه أن يأخذ غلمانهم بسلاحهم ودوابّهم وثيابهم فيجعلهم بين يديه[2] ؛ وكان إذا أفلت أحد من المصادرة حيّاً لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته . وكانت طريقة الأخشيد أنه « إذا توفي قائد من قوّاده أو كاتب تعرّض ورثته ، وأخذ منهم وصادرهم ، وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير[3] » . ففي عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م توفي عفان بن سليمان البزاز أجلّ تاجر كان بمصر ؛ فأخذ الأخشيد من ميراثه نحو مائة ألف دينار[4] ؛ ولما مات الوزير أبو محمد المهلّبي (عام ٣٥٢ هـ —

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٩٨ ، والمصادرة اصطلاح ، والصدَر هو الرجوع بعد الامتلاء بالماء ، ويقابله الورد وهو عند اللغويين مثل الرجع ؛ انظر فهرس الطبري مثلا ؛ وكلمة صدر هي المال الذي يؤخذ من المصادر . (هذا ما يقوله المؤلف) ، وهو يذكر أمثلة منها ما عرض في كلام مسكويه وهو : قد أمر بضرب عنقه إن لم يؤدّ صدراً من المال ؛ وصح منها إلى يوم هربه صدرٌ كثير (مسكويه ج ٥ ص ٤٠١ ، ٥٧٢) ؛ وفي كتاب الوزراء (ص ٣١٠) ولم يزل الكلوذاني يدبر الأمور حتى مشي كثيراً واستخرج صدراً كبيراً . وفي رسائل الهمداني (ص ٣٣٢) : وقد كان الشيخ كتب خطاً من فلان بصدر من الحنطة إلى بعض وكلائه (وهذا غير موجود في كتب اللغة) ، ومن هذا صادره على قدر من المال .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ١٦ — ١٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٦ .

(٤) نفس المصدر ص ١٧ .

٩٦٣ م) ، بعد أن لبث في الوزارة ثلاث عشرة سنة ، قبض معز الدولة تركته وصادر عياله ومَن دخل إليه يوماً حتى الملاّحين والمكارين الذين كانوا يخدمون حاشيته ؛ وقد استقبح الناس ذلك من معز الدولة واستفظعوه[١] . وكذلك لما مات الصاحب بن عباد بعد أن كان وزير فخر الدولة ، المتحكم في تدبير الملك له ، حتى كان لا يعصي له أمراً ، أرسل هذا الأميرُ من أحاط على دار الصاحب وخزائنه ، ووُجد له كيسٌ فيه رقاع أقوام بمائة ألف وخمسين ألف دينار مودعة عندهم ؛ فطولبوا بذلك ، ونقل ما كان في الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة[٢] . وكان أهل المال يستعملون جميع الوسائل لإفساد خطة المصادِرين وخداعهم ، فمن ذلك أنهم كانوا يودعون أموالهم عند ناس كثيرين[٣] ، ويلحنون أسماءهم ويكنّون عن ألقابهم[٤] .

ولما اعتُقل ابن العميد عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م وأيقن أن القوم قاتلوه وأنه لا ينجو منهم ، وإن بذل ماله ، أخرج من جيبه رقعة فيها ثبت ما لا يحصى من ودائعه وكنوز أبيه وذخائره ، فألقاها في كانون نار بين يديه ، وقال للموكّل به : اصنع ما أنت صانع ، فوالله لا يصل من أموالي المستورة إلى صاحبك دينارٌ واحد ؛ فما زال يعرضه على العذاب إلى أن تلف من غير أن يخبرهم بشيء[٥] . ولما صح عند الخليفة المتقي قتلُ بجكم ركب المتقي إلى داره ، وحفر أماكن فيها ، فحصل له من مال بجكم ما يزيد على ألْفَيْ ألف عيناً وورقاً ، ثم أمر بغسل التراب ،

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٥٨ .
(٢) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٧٠ .
(٣) كتاب الوزراء ص ١٧٤ .
(٤) المنتظم ص ١٩٣ ب .
(٥) الارشاد ج ٥ ص ٣٥٠ .

فأُخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم[1] • ولكن بجكم كان قد دفن أمواله في الصحراء ، ولم يقتصر على ما دفنه في البيوت ؛ فكان الناس يتحدثون بأنه يقتل من يعاونه في ذلك ، لئلا يدل عليه في وقت آخر ؛ وبلغ بجكمَ ما يقوله الناس ، فأنكر ذلك ، وحكى لسنان بن ثابت ما كان يفعله إذا أراد دفن مال في الصحراء : كان يُحضر إلى داره بغالا عليها صناديق فارغة ، فيجعل المال في بعضها ، ويدخل من يريد أن يكون معه من المساعدين في البعض الآخر ، ويطبق عليهم ؛ ثم يأخذ مقود قطار البغال بنفسه ، ويسير إلى حيث يريد ، ثم يفتح عن الرجال ، فيحفرون ، ويدفن المال ؛ وبعد ذلك يردّ الرجال إلى الصناديق ويطبقها عليهم ، ويعود ؛ فلا يدري الرجال إلى أين ذهبوا من أرض الله و لامن أين أتوا ، وكان هو يجعل لنفسه علامات يهتدي بها ؛ وبهذه الطريقة استغنى عن القتل ، وأقسم لثابت أنه لم يقتل أحداً من أجل دفن المال ، وأن ذلك من تشنيع الناس[2] •

وفي عام ٣٥٠ هـ ـــ ٩٦١ م ، توفي أبو علي خازن معز الدولة ، وكان رجلا كثير التمويه متفاقراً ، يظهر الفقر والاقتصاد ، حتى كان معز الدولة يعتقد أنه بائس لا يملك شيئا ؛ فاستأذن الوزيرُ المهلّبي معزَّ الدولة في البحث عن أمواله ، واستعمل طريقة رجال الشرطة ؛ فقبض على غلمانه • وكان يخلو ببعضهم ويرهبه ويرغّبه ، حتى استطاع أن يعرف أن أبا علي الخازن طرد غلاماً له مزيّناً حبشيا من حجرة موسومة به ، وجلس في هذه الحجرة للخلوة أياما ؛ فعبر الوزير المهلبي دار أبي علي والتمس حجرة المزيّن ، فحفر فيها ، فظفر بمال ؛ وكان في جملة

---

(١) المنتظم ص ٦٨ ب •

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٩ – ٤١ •

المدفون آلة شبيهة بالميزان من خشب الساج ، لا شيء فيها ، فعجب منها ، ثم قلبها فوجد عليها كتابة بخط رديء ، فإذا هي أسماء قوم ورموز لا يُفهم منها شيء ؛ فلم يشكّ الوزير أنها أسماء قوم مودَعين وأن الرموز مبلغ ما عندهم من المال ؛ ولم يزل يستعمل الدهاء والتخمين في فك الرموز ومعرفة المعاملين حتى صحّ له ذلك ، وبطش بمن اهتدى إليه حتى حصل منهم على المال[1] . وكان أحد الأغنياء إذا مات جرّ موته النكبةَ لأهله ولكل من يتصل به من الكتّاب والجهابذة والأصدقاء ؛ فكانوا يهربون ويستترون ويمتنعون من تسليم الوصية للحكومة ، حتى لا تهتدي إلى مكان التركة ووجوهها ؛ وقد حدث مثل هذا عند وفاة أحد العلويين إلى أن تقرر أمر التركة أخيراً على خمسين ألف دينار تحمل إلى الخزانة صلحاً على التركة[2] .

والرسوم الجمركية غير جائزة في الشريعة الإسلامية ، إذا دققنا النظر في أحكامها . ورغم هذا فإن مراصد المكوس كانت منتشرة في كل مكان . وقد حاول الفقهاء أن يحلوا هذه المسألة بأن اعتبروا الضرائب الجمركية داخلة ضمن الزكاة ، وهذا بالنسبة للمسلمين على الأقل ؛ ومن هذا نشأت فكرة أن التاجر يستطيع أن يطوف عاما كاملا أينما شاء من حدود البلاد معفى من المكوس متى دفع المكس مرة واحدة ، وهو العُشر ، وأنه لا بد له أيضا أن يدفع ضريبة ما معه من عين المال على معدّل رُبع العُشر[3] . وكانت التعريفة الجمركية في الواقع مختلفة ،

(1) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٤ — ٢٤٩ .

(2) كتاب الوزراء ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

(3) ترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى ص ١٦٢ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ ، ٤٦٣ . يجب على غير المسلمين من التجار من حيث الحكم النظري أن يدفعوا عن بضائعهم عند الحدود من الضرائب ما يدفعه المسلمون في تلك البلاد ، وهو العشر عادة ، ويعطى التاجرُ بذلك براءة تعفيه من المرور دون أن يدفع شيئا مدة عام ؛ انظر شرح السرخسي (المتوفي =

فكان يؤخذ في جدّة عن كل حمل من الحنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة ، وعلى سفط ثياب الشطوي ثلاثة دنانير ، وعلى سفط الدبيقي ديناران ، وعن حمل الصوف ديناران . وكان يؤخذ بالقلزم (السويس) عن كل حمل درهم» ؛ وكانت تفرض رسوم في الموانئ العربية الأخرى . ولكن المكوس كانت أقلّ مما تقدم ، وكانت الضرائب تؤخذ بالإسكندرية على المراكب الآتية من الغرب وبالفرما على مراكب الشام[1] . وكان لصغار ملوك العرب على اختلافهم مراصد برّية تدفع إليها الضرائب على تفاوت في القيمة ؛ فكان بعضهم يأخذ نصف دينار

= عام ٤٩٥ هـ ـ ١١٠٢ م) علي الشيباني ، مخطوط ليدن ، كما ذكر ذلك دي غوي : (De Goeje Internationale Handelsverkeer in de Middeleeuwen, Verslagen Mededeelingen der K. Akad. v. Wetenschapen, 1909, S. 265.) على أن العلماء ليسوا متفقين في أمر المكوس ، فبعضهم يقضي بدفع نصف العشر إلا الخمر فيؤخذ عنه العشر (كتاب الخراج ليحيي بن آدم ص ٥١) ، ويذهب البعض الآخر إلى وجوب دفع العشر عموماً (كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧٦ ـ ٨٠) ؛ والمفتي به عند الشافعية أن للامام أن يزيد من العشر أو ينقص عنه إلى نصفه للحاجة إلى زيادة الاستيراد وأن يرفع المكس رأساً إذا رأى في ذلك مصلحة ؛ وعلى أي حال فإن الضريبة كانت شخصية . وإذا عاد التاجر الذي دفعها في أثناء السنة ومعه بضائع لا يلزم بدفع شيء إلا إذا كان قد وقع التراضي معه على ذلك (مختصر صبح الأعشى للقلشقندي ترجمة فستنفلد ص ١٦٤ ، وصبح الأعشى نفسه ج٣ ص ٤٦٣ من طبعة القاهرة (دار الكتب) ؛ وليس عندنا معرفة دقيقة نستطيع استخلاصها مما ذكر من أن التاجر أبا دلف الذي سافر إلى الصين عام ٣٣٣ هـ ـ ٩٤٤ م دفع العشر عن بضائعه في الصين (ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة صين) ، ومن أن مراكب الروم والأسبان والمغاربة كانت تلزم بأن تدفع العشر للسلطان في طرابلس (ناصر خسرو ص ١١٢) ؛ لأن كلمة عشر يمكن أن تؤخذ بمعنى الضريبة وبمعنى أخذ الضريبة . على أن المعاهدات التجارية التي أبرمت مع البيزيين سنة ١١٥٤ هـ ـ ١١٧٣ م تنص على أن تكون الضريبة هي العشر . انظر Schaube. Handelsgeschichte der roman. Völker S. 149 ff. .

(١) المقدسي ص ٢١٣ والصفحات التالية ، وكانت الضرائب في عدن ثقيلة ؛ وقد قدّر أنه يصل إلى خزانة السلطان ثلث أموال التجار . ويظهر أن هذا كان يختص بعمان أيضاً كما في بعض النسخ (انظر ص ١٠٥ في الهامش) .

عن كل حمل ، وأكثرهم كان لا يأخذ عن الحمل إلا درهما[1] . أما العراق فكانت كثيرة المراصد في البر والبحر والنهر ؛ وكانت البصرة مشهورة بتفتيش صعب وشوكات منكرة . وفي عهد المقدسي كان على باب البصرة عند حدود مملكة الخليفة من حدود بلاد القرامطة ديوان للقرامطة وديوان آخر للديلم ، حتى لقد كان يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم (أي ضعف ثمنها) . وكان الديوان لا يُفتح إلا ساعة من النهار[2] . وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية ، وهي القسم التجاري في أصفهان ، ثلاثون درهما[3] . وكان الخراج في طوران يؤخذ عن الحمل ستة دراهم إذا دخل وكذلك إذا خرج ، ومن الرقيق اثنا عشر إذا دخل حسب ، وإن كان من نحو الهند فعشرون من الحمل ، وإن كان من قِبل السند فعلى حسب القيم[4] .

وكانت تؤخذ في المملكة الإسلامية ضرائب على المصادرات ، كما كان الحال في كل العصور القديمة . وقد نص الفقهاء على أنه ينبغي أن يكون للإمام مسالح على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك ، فيفتشون من يمرّ بهم من التجار ؛ فمن كان معه سلاح" أُخذ منه ورُدّ" ، ومن كان معه رقيق رُدّ" ، ومن كان معه كتب قرئت كتبه ؛ فإن كان فيها خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أُخذ الذي أصيب معه الكتاب وبُعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه[5] . وفيما وراء النهر كان لا يعبر الرقيق نهر جيحون إلا بجواز من السلطان ، ويأخذ مع الجواز من سبعين إلى

---

(1) مقدسي ص ١٠٥ .

(2) نفس المصدر ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(3) نفس المصدر ص ٤٠٠ .

(4) نفس المصدر ص ٤٨٥ .

(5) كتاب الخراج لابي يوسف ص ١١٧ .

مائة درهم ، وكذلك على الجواري بلا جواز إذا كانوا أتراكاً ، ويؤخذ على المرأة عشرون إلى ثلاثين درهما ، وعلى الجمل درهمان ، وعلى قماش الراكب درهم[1] . أما في بلاد طوران فكان يؤخذ الخراج من كل ما خرج إلا الرقيق ، فكان لا يؤخذ عنه إلا اذا دخل[2] . وفي جنوب جزيرة العرب كان لا يؤخذ بمدينة عثّر إلا عمّا يخرج[3] . وكان يعطى للمصدّرين جوائز بكرمان ، وذلك لكثرة التمر ، حتى إن الجمالين كانوا يحملون التمر مناصفة إلى خراسان ؛ ويقصدها كل سنة نحو مائة ألف جمل ، ويعطي السلطان كل جمل ديناراً[4] . وقد وصف الرحالون صعوبة التفتيش في عدن بنوع خاص[5] . وشكا ابن جبير الرحالة الأندلسي في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) مما عومل به في الإسكندرية ، قال : « فمن أول ما شاهدنا فيها يومَ نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قِبَل السلطان بها لتقييد جميع ما جُلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماءُ بلادهم ، وسُئل كل واحد منهم عما لديه من سِلَع أو ناضّ ليؤدي زكاة ذلك كله ، دون أن يُبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يَحُلْ ؛ وكان أكثرهم مشخّصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم[6] ، فأُلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل هل حال عليه الحول أم لا ؛ واستُنزل أحمد بن

---

(١) المقدسي ص ٣٤٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٨٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٦٩ .

(٤) نفس المصدر ص ١٠٥ ، في الهامش .

(٦) يقضي الفقهاء بإعفاء الزاد من الضرائب ــ ترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى ص ١٦٢ .

حسان منا ليسأل عن أبناء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مرقباً على السلطان أولا ، ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ؛ وفي كلّ يستفهم ثم يقيّد قوله فخلّي سبيله ، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، وما فضل من أزودتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم،وحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان فاستدعوا واحداً بعد واحد ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ، ما دقّ منها وما جلّ ، واختلط بعضهم ببعض ، وأُدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ؛ ثم استحلفوه بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أو لا ؛ وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم أُطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم ، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك[1] » .

ولما كان من الأمور المقرّرة أن الدولة الإسلامية ملك للمسلمين ، فقد قضي منذ أول عهد الإسلام بالفصل بين بيت المال العام وبين خزانة الخليفة ، وهي المسماة بيت مال الخاصة ؛ ولكن لما كان الذي يتولى الإنفاق من هاتين الخزانتين رجلا واحداً لا يقدم حساباً لأحد ، فقد كان مدى انفصالهما مسألة تتعلق بضميره[2] . ولذلك ترددت حكايات مؤثرة فيما بعد تبين مقدار عناية كل من أبي بكر وعمر بالفصل بين مال المسلمين ومالهم الخاص . وكان هناك توازن بين بيتي المال ، فكان إذا نفد ما في بيت المال العام يجب على بيت ما ل الخليفة أن يمد يد المعونة حتى لا تفلس

---

(١) رحلة أبي الحسن محمد بن احمد بن جبير الاندلسي ، طبعة ليدن سنة ١٨٥٢ ص ٣٥ – ٣٦ .

(٢) كان للوزير ، وهو رئيس بيت المال العام ، شيء من الاشراف على بيت مال الخاصة أيضاً ، لانه كان يوقع في آخر رقاع الصرف بعد توقيع كبار رؤساء الحاشية (كتاب الوزراء ص ١٤٠) .

الدولة[1] ؛ وعندنا دليل من رقعة للوزير علي بن عيسى ، على أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩هـ = ٨٩٢ ــ ٩٠١م) ، وكذلك الخليفة المكتفي (٢٨٩ ــ ٢٩٥ هـ = ٩٠١ ــ ٩٠٧ م) ، على ما عرف به من النظر في القليل اليسير ، كانا ينفقان من بيت مال الخاصة الجملة بعد الجملة[2] . ولم يكن اللجوء إلى بيت مال الخاصة في عهد المعتضد قد صار رسماً جارياً ، ومما يحكى أن أحد الوزراء استخلف ابنه على الوزارة لما خرج من بغداد ، فضاقت الأموال على الولد ، واشتدت المطالبة بالاستحقاقات؛ فدعته الضرورة إلى طلب قرض من الخليفة ، فكتب الوزير لابنه موبّخاً معنّفاً ، وأعلمه أنه قد أخطأ وأساء ، وجنى على نفسه وعلى ابيه جناية لا يمكن تلافيها ، وأنه كان يجب أن يستسلف المال من التجار ، ويلتزم من ماله ومال أبيه قدر الربح فيه ، ولا يفعل ما فعله[3] . وفي عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ = ٩٠٧ ــ ٩٣٢ م) استنزف بيت مال الخاصة ، وذلك لأن المال أُخذ منه بزعم إعادته متى تحسَّن الحال ، وفي عام ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م عرض الوزير على المقتدر ما كان من العجز وهو سبعمائة ألف دينار ، وقال له : ليس لي معول إلا على ما يطلقه أمير المؤمنين لأنفقه ، فعظم ذلك على المقتدر ، وكتب أحد المتطلّعين للوزارة إليه رقعة يضمن فيها القيام بجميع النفقات من غير أن يطلب منه شيئاً ، وأن يستخرج سوى ذلك ألف ألف دينار تذهب إلى بيت مال الخاصة ، فقلّده الخليفةُ الوزارة ، ولكنه عُزل في العام التالي ، ووُجد أنه احتال بأن أضاف إلى ما يقدّر حصوله من النواحي أموالَ نواحٍ قد خرجت عن يد السلطان بتغلّب من تغلب عليها ، وأسقط من النفقات زيادات

---

(١) وفي عصرنا هذا كثيراً ما رأينا السلطان عبد الحميد يمد بيت المال من ثروته .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

الجند والحاشية ، ولم يسقط من الأموال التي يتَقَدَّرُ حصولها من النواحي ارتفاع ما باع من الضياع . وإنما أراد بهذا كله أن يجعل تقدير النفقات مقارباً لارتفاع الأموال من النواحي ليسكن بذلك قلب المقتدر ، فكانت الحسبة التي قدمها مموّهة[1] . وفي عام ٣٢٩ هـ ـــ ٩٤٠ م طلب الوزير من الخليفة خمسمائة ألف دينار ليفرقها في الجند ، فامتنع عليه ، ثم أنفذها إليه بعد التهديد[2] .

وكان يجب على الخليفة بحكم أنه الرئيس الروحي للمسلمين أن يقوم بنفقات موسم الحج ، ونفقات الغزوات الصائفة ، وفداء أسرى المسلمين ، والقيـام بنفقات الرسـل الواردين ، وذلك مـن بيت مال الخاصة [3] . أمـا العطايا وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة ، فكان يؤخذ من بيت المال العام[4] . وعندنا بيان يرجع الى أول القرن الرابع مشتمل على وجوه الأموال التي تحمل إلى بيت مال الخاصة[5] .

(١) الأموال المخلّفة التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال. ويقال إن الرشيد خلّف أكبر مقدار من المال ، وهو ثمانية وأربعون ألف ألف دينار ؛ وكان المعتضد (٢٧٩ ـــ ٢٨٩ هـ) يستفضل في كل سنة من سني خلافته ، بعد النفقات ، مما كان يحصله بيت مال الخاصة ألف ألف دينار، حتى اجتمع في بيت المال تسعة آلاف ألف دينار ، وكان يريد أن يتمها

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٩ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٢ ، ولذلك تجد الوزير ابن الفرات يطلب من المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات عيد النحر ، فيمنعه الخليفة ويلزمه القيام به من جهته ؛ كتاب الوزراء ص ٢٨ .

(٤) كتاب الوزراء ، ص ١٠ والصفحات التالية .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٣٨١ ـ ٣٨٥ وهو بيان الأموال التي أتلفها المقتدر .

عشرة آلاف ألف دينار ، ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ؛ ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج في تلك السنة . وأراد أن يطرح السبيكة على باب العامة ليبلغ أصحابَ الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار ، وهو مستغنٍ عنهـا ؛ فاخترمته المنية قبـل بلوغ الأمنية[1] . ثم جاء المكتفي بعد المعتضد (٢٨٩ هـ ـ ٢٩٥ هـ) ، فأبلغ المدّخر إلى أربعة عشر ألف ألف دينار[2] .

(٢) مال الخراج والضياع العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان (بعد إسقاط النفقات) ؛ وبلغ مقدار ذلك في كل سنة منذ عام ٢٩٩ هـ إلى ٣٢٠ هـ (٩١١ ـ ٩٣٢ م) ثلاثة وعشرين ألف ألف درهم ، منها أربعة آلاف ألف درهم كانت تحمل إلى بيت مال العامة ، والباقي ، وهو تسعة عشر ألف ألف درهم ، إلى بيت مال الخاصة . ويجب أن نسقط من ذلك النفقات الحادثةَ التي تتطلبها هذه البلاد ؛ ففي عـام ٣٠٣ هـ ـ ٩١٥ م أنفق الخليفة لفتحها ما يزيد على سبعة آلاف ألف درهم[3] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ ، وكان بيت مال الخاصة الذي بناه المعتضد قلعة قد صب في أثقالها الرصاص ؛ وكانت الأكياس التي يوضع فيها المال تختم بخاتم خازن بيت المال ، وكان بعض الملوك في القرن الرابع يجعلون المال في الصناديق إلا الاخشيد صاحب مصر فإنه لبعد نظره كان يقول : لا تجعلوا المال في الصناديق فإن الصناديق مطلوبة ، بل اجعلوها في خزائن السلطان ، فكانت توضع في أعدال الجواشن التي لا يتنبه إليها أحد (المغرب لابن سعيد ص ٤٤) .

(٢) انظر عدا مسكويه كتاب الوزراء ص ٢٩٠ وما بعدها ؛ (ويحكي الصابي في كتاب الوزراء ص ١٣٩ غير هذا) . انظر Elias Nisibenus (الذي ولد عام ٣٦٤ هـ ـ ٩٧٤ م) ص ٢٠٠ نقلا عن محمد بن يحيى .

(٣) هذا المبلغ يعرف من مقارنة النصوص ومن أن مال البيعة والفتح بلغ بضعة عشر ألف ألف دينار (مسكويه) ، على حين أن مال البيعة وحده بلغ في الدفعة الواحدة ثلاثة آلاف ألف دينار (كتاب الوزراء ص ٢٩٢) .

(٣) أموال مصر والشام ، وكانت جزية أهل الذمة مثلا تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين ، لا إلى بيت مال العامة[١] ؛ وهذا ما يجب للخليفة نظريا .

(٤) المـال الذي يؤخذ مـن المصادرة لأموال الوزراء المعزولين والكتاب والعمال وما يحصل من ارتفاع ضيعاتهم ، والمال الذي يؤخذ من التركات[٢] .

(٥) ما كان يحمل إلى بيت مال الخاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والمشرق والمغرب .

(٦) ما كان يستفضله الخلفاء ، فكان كل من الخليفتين الأخيرين في القرن الثالث الهجري (وهما المعتضد والمكتفي) يستفضل في السنة ألف ألف دينار ؛ وكان سبيل المقتدر أن يستفضل مثلها فيكون مبلغه في خمس وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف ألف دينار أعني نحواً من نصف ما خلفه الرشيد[٣] . ولكن المقتدر أتلف كل هذه الأموال الطائلة حتى

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٩٦ ب .

(٢) كان الخليفة يرث مال الخدم ومال من لا ولد له من موالي أسرة الخلافة . ولما كان هؤلاء في الغالب سادة ذوي مناصب تدر الرزق الكثير فإن مالا كثيراً كان يجري إلى خزانة الخليفة ، وفي عام ٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م توفي القائد المسن يانس الموفقي ، وكان ذا غلمان وسلاح ، فكان ينزل عند سورداره من خيار الفرسان والغلمان والخدم ألف مقاتل ، وقد خلف ، فيما خلف ، ضياعا تغل ثلاثين ألف دينار (عريب ص ١١٥ ـ ١١٦) ؛ وفي عام ٣٠٢ هـ ـ ٩١٤ م ماتت بدعة المغنية جارية عَريب ، (هكذا تسمى في الأغاني ج ١٨ ص ١٧٥ ـ ١٧٩ ، وفي كتاب بغداد لطيفور طبعة Keller ص ٣٠٨ ، ليست عُريب كما يريد دي غوي في كتاب عريب بن سعيد ص ٥٤) التي لم يكن بين جواري المأمون امرأة « اضرب منها ، ولا أحسن صنعة ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أخف روحا ، ولا أحسن خطابا ، ولا أسرع جوابا » ، وقد خلفت مالا كثيراً وجوهراً وضياعا وعقارات ؛ فأمر المقتدر بقبض ذلك كله (عريب ص ٥٤) .

(٣) هنا خطأ في كلام المؤلف أصلحته بالرجوع إلى الأصول العربية (المترجم) .

لم يبق في بيت مال الخاصة بعد ما أُنفق في محاربة القرمطي عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م إلا خمسمائة ألف دينار[١] .

ولم يكن في سائر دواوين الإسلام ديوان أصعب عملا وأكثر أنواعا من ديوان فارس ، لاختلاف ربوعها وتقارب الأخرجة على أصناف زروعها واختلاف أبواب أموالها وتشعُّب الأعمال على المتقلّدين لها[٢] . وقد نبغ في دواوينها الكثير من العمال . أما ضرائبها فيقول المقدسي : ولا تسأل عن ثقل الضرائب وكثرتها ، ويقول : قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة . أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان ، وأصبرهم على الظلم ، وأثقلهم خراجا ، وأذلهم نفوسا ، وهم لم يعرفوا عدلا قط[٣] . وكانت فارس في عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م تدفع ضرائب تفوق غيرها بكثير[٤] ؛ فليس غريباً أن نجد البلخي يخصص لفارس أطول مقالة من مقالاته السياسية[٥] . وربما كان تنظيم هذه البلاد الجبلية متنوعا منذ عهد الساسانيين ، فكان فيها قلاع صخرية بعيدة المنال ، وغابات ؛ وأشراف يملكون أرضاً واسعة ، فكان هذا من دواعي تكوين نظام إقطاعي كامل منذ ذلك الحين ، حتى أن المقدسي يقول إن أكثر الضياع بها مقتطعة[٦] . ومع هذا كان النظام المالي من النمو بحيث أن الأكرة الذين كانوا يزرعون الضياع السلطانية بالمقاسمة أو المقاطعة كان عليهم ضرائب يؤدونها دراهم[٧] . وكان يفرض الخراج على أساس ما إذا كانت الأرض

---

(١) انظر مسكويه ج ٥ ص ٣٠١ ، ٣٨١ — ٣٨٤ .

(٢) الاصطخري ص ١٤٦ .

(٣) المقدسي ص ٤٥١ ، ٤٤٨ .

(٤) Kremer. Einnahmebudget, S. 308.

(٥) الاصطخري ص ١٥٦ وما بعدها ، وابن حوقل ص ٢١٦ وما بعدها .

(٦) المقدسي ص ٤٢١ .

(٧) الاصطخري ص ٥٨ .

تسقى أو لا تسقى ؛ وإذا كانت تسقى فهو على أساس ما إذا كانت تسقى بآلة أم بغير آلة ؛ فإن كانت لا تسقى بالآلات دُفع عنها مقدار هو المعيار، ويؤخذ ثلثا ذلك عما يسقى بآلة ونصفه عما لا يسقى قط[1] . وأما خراج الشجر والغروس المثمرة ، ومنها الكرم ، فقد كان الخليفة قد أسقط عنه الخراج ؛ ولكن أصحاب خراج الزرع شكوا إلى الخليفة المقتدر ثقل الخراج عليهم بسبب ما أُلزموه من التكملة ، فحُرم أهل الشجر مما كانوا يتمتعون به من الإعفاء وفُرضت عليهم الضرائب ؛ فكان يُدفع عن الجريب الكبير من الكرم ألف وأربعمائة وخمسة وعشرون درهما[2] ، وعلى كل نخلة ربع درهم[3] . وكانت الطواحين احتكاراً للسلطان ، وكذلك أجرة الدور التي يعمل فيها ماء الورد[4] . وفي مدن فارس كانت أراضي الأسواق وشوارعها ملكا للحكومة تأخذ عنها أجراً ؛ أما الدور فكانت ملكاً لأصحابها .

وكان فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما زاد عن الضرائب الشرعية (وهي عشر الأرض والزكاة وجزية أهل الذمة) ضرائب غير قانونية . ولذلك أبطل الوزير التقيّ على بن عيسى المكس بمكة وجباية الخمور بديار ربيعة[5] . ولهذا السبب أيضاً نجد الخليفة الحاكم بأمر الله في مصر حينما أراد أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى ، يسقط جميع الرسوم والمكوس التي جرت العادة بها ، وسرعان ما أعيدت في عهد خلفه إلى ما كانت عليه[6] . وكما أن فارس كانت هي البلاد المعروفة

---

(١) الاصطخري ص ١٥٧ — ١٥٨ .
(٢) نفس المصدر ص ١٥٧ ، وكتاب الوزراء ص ٣٤١ — ٣٤٢ .
(٣) مقدسي ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .
(٤) الاصطخري ص ١٥٨ .
(٥) كتاب العيون ص ٨٢ ا ، وهذه ما يسميها ابن حوقل (ص ١٤٢) ضرائب الخمر .
(٦) يحيي بن سعيد ص ١٢٣ ا ، ١٣٣ ب .

بخراجها ، فقد كانت مصر أرض المكوس ؛ ويدل بيان وجوه المال في عهد الفاطميين على أن كل شيء كانت تفرض عليه المكوس ، ولم يسلم من ذلك إلا الهواء[1] ؛ وكان لا بد أن يدفع في جملة مبلغ الضرائب جزء من اثني عشر منها «وضيعة» وعشر «للصرف» وجزء من مائة للبراءة[2] . والمؤرخون الإسلاميون الذين يعتبرون أن الإدارة الاسلامية الأولى هي التي تتمشى مع الشريعة يصفون ابن المدبّر الذي ولي خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين بأنه من « شياطين الكتاب » ؛ لأنه أول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر[3] . ولكن هذه المكوس لم تكن حديثة بل كانت موجودة على عهد البطالسة والرومان والبوزنطيين ، « وكان الإنسان لا يتمالك أن يسأل نفسه : هل بقي بمصر اليوم شيء مما يمكن أن تفرض عليه المكوس بدون مكوس[4] ؟ » .

ويظهر أن الإسلام في العهد الأول لم يقض على الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة باللجوء إليها لامتصاص ثروة الناس[5] . وقد ذكر المقدسي أن الضرائب بمصر ثقيلة وبخاصة في

---

(١) انظر الخطط للمقريزي مثلا ج ١ ص ١٠٣ وما يليها .

(٢) Hofmeier, Islam, IV, S. 100 ff.

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٠٢ . قال أبو الحسن بن المدبر إنه كان يتقلد الديوانين بالعراق يريد ديوان المشرق وديوان المغرب ؛ فلا يبيت ليلة من الليالي وعليه عمل أو بقية منه ، ثم تقلد عمل مصر فكان ربما بات وقد بقي عليه شيء من العمل فيتمه إذا أصبح (ابن حوقل ص ٨٨) ، وكذلك يخبرنا يحيي بن سعيد أن عيسى بن نسطورس الذي تقلد الوزارة بمصر قرب أواخر القرن الرابع الهجري أحدث رسوما ومكوسا جائرة ، ويحيي بن سعيد مواطن معاصر لعيسى ، وهو نصراني مثله (يحيي بن سعيد ص ١١٣ ب) .

(٤) انظر Wilken, Griech. Ostraka, 410 .

(٥) انظر أوراق البردي (التي نشرها بكر Becker ؟) ، وكان المهدي ١٥٨ – ١٦٩ هـ أول من فرض جباية على الأسواق وجعل عليها اجرة وذلك في بغداد (تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨١ ، طبعة ليدن ١٨٨٣) وفي مصر (الولاة للكندي ص ١٢٥) .

تنيس وهي مدينة بمصر تحيط بها المياه مشهورة بمنسوجاتها[1] • وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بها وكثرة الرسوم أن أهلها شكوا إلى البطريق وهو مارٌ بمصر حوالي عام ٢٠٠ هـ ــ ٨١٥ م أن الواحد منهم يلزم بدفع خمسة دنانير في كل عام ، وهو مبلغ لا يقدر عليه ؛ وتستعمل القسوة في تحصيله منهم[2] ، وقد بقي النظام القديم قائما بتفاصيله • وظلت الإسكندرية محافظة على مكانتها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة[3] حتى أوائل القرن الرابع الهجري ، حيث نجد في إحصاء أموال الدولة إفرادَ باب خاص عنوانه : مصر والإسكندرية[4] ، فقد حافظت الإسكندرية على مكانها باعتبارها قسما مستقلا بجبايته ، كما كان الحال على عهد البطالسة ؛ بل نجد القلقشندي ، بعد القرن الرابع بكثير ، يقول إن الإسكندرية تؤدي خراجها إلى السلطان رأساً[5] • هذا إلى أن حق الملكية المطلقة عند الفراعنــة ، وهو الذي ورثه البطالسة والرومان والبوزنطيون ، كان له شأن كبير في تشريع العرب المتعلق بالضرائب[6] •

وكذلك بقي بمصر نظام الاحتكار في الاقتصاد على قوّته• ويحكي لنا المقدسي الذي زار مصر في أوائل عهد الفاطميين : « أما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وأما ثياب الشطوية فلا يمكن القبطي أن ينسج شيئا منها إلا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ،

---

(١) المقدسي ص ٢١٣ •

(٢) انظر الفصل الخاص باليهود والنصارى •

(٣) Wilken, Griech. Ostraka, S. 433 .

(٤) Kremer, Einnahmebudget, S. 309 .

(٥) ترجمة مختصر صبح الأعشى ص ١٥٨ •

(٦) المقدسي ص ٢١٢ – ٢١٣ •

ولا تباع إلا على يد سماسرة عقدت عليهم ؛ وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ، ثم تحمل إلى من يطويها ، ثم إلى من يشدها بالقشر ، ثم إلى من يشدها في السفط وإلى من يحزمها ؛ وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضاً شيء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند إقلاعها . ويوجد بتنيس على زِق الزيت دينار ، ومثل هذا وأشباهه ، ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالسا ، قيل : قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية ...»[1] . أما في المشرق فلم تفرض الضرائب على البضائع إلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وقد فرض عضد الدولة (المتوفي عام ٣٧٢ هـ) في آخر أيام دولته رسوماً على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة وزاد على ما تقدم ومنع من عمل الثلج والقز وجعلها متجراً للخاص[2] . ولذلك قال الشاعر :

أفي كل أسواق العراق إتاوةٌ   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[3]

ولما عزم صمصام الدولة بن عضد الدولة ببغداد في عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م أن يضع على الثياب الإبريسم والقطن المبيعة ضريبة مقدارها عشر الثمن « اجتمع الناس في جامع المنصور،وعزموا على قطع الصلاة،

---

(١) المقدسي ص ٢١٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٥ .

(٣) انظر مادة مكس في الصحاح للجوهري .

وكاد البلد يفتتن ، فأُعفوا من ذلك »[1] . وفي عام ٣٨٩ هـ ـ ٩٩٨ م أُريد مرة أخرى وضعُ العُشْر على ما يُعمل من الثياب الأبريسميات والقطنيات بمدينة السلام ، فثار الناس وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ومنعوا الخطبة والصلاة ، وأحرقوا دار الحمولي ، فلم يبق فيها جدار قائم ، واحترق ما كان فيها من حسبانات الدواوين ؛ وقبض على جماعة من العامة اتهموا بما جرى وعوقبوا ؛ واستقرَّ الأمر على أخذ العُشر من قيم الثياب الأبريسميات خاصة ، ووضعت الختوم على كل ما يُقطع من المناسج ويباع ويحمل[2] .

ولم يقتصر أمر الضرائب على أدوات الترف ، بل تعداها إلى الضروريات ، ففُرضت ضريبة على الملح . وفي سنة ٤٢٥ هـ ـ ١٠٣٣ م خاطب الدينوري الزاهد الملكَ في إزالة ضرائب الملح ، وأعلمه ما يصيب الناس من الأذى بذلك ، فأجاب الملك طلبه ، وكتب برفع هذه الضرائب منشوراً قُرِيء في الجوامع ، وكتب على أبوابها بلعن من يتعرض لإعادة هذه الجباية ، وكان ارتفاعها ألفي دينار في كل سنة[3] . على أن المصريين لم يثوروا أبداً بسبب شيء من هذه الضرائب .

أما في الشام فكانت ضرائب البضائع هيّنة ؛ ولكن كان في بيت المقدس ضرائب ثقال على الرحْبَة ، فلم يكن يجوز لأحد أن يبيع شيئا مما يرتفق به الناس إلا بها ، وثَمَّ رجالٌ على أبوابها وآخرون على ما يُباع فيها[4] . وكان من الضرائب التي اختص بها هذا الإقليم ضرائب

---

(١) المنتظم ص ١٢٣ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٦ ، ٣٣ نقلا عن التاجي للصابي المعاصر لذلك العهد .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٨٨ ا .

(٤) المقدسي ص ١٦٧ .

الحماية على من يكون عنده مركب مثلاً ، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الأرض[1] . وكانت الضرائب في البلاد التي تبتلى بها تختلف باختلاف الحكام ؛ يقول ابن حوقل في كلامه عن الشام : « فأما خراجاتها وأعشارها ومرافق سلاطينها ، فكان ذلك على أوقات مختلفة بقوانين متباينة وجبايات ناقصة وزائدة ، وذلك أنها منذ سنة ثلاثين (٣٣٠ هـ) بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر ، وأكثرهم عرضة ما اجتلبه في يومه وحصّله لوقته ، لا يرغب في عمارة ولا يلتفت إليها برؤية ولا إشارة »[2] . وقد رأى هذا المؤلف نفسه ارتفاعَ الشام وما في ضمنها من الأعمال والأجناد ، ووقف على ذلك من جماعة علي بن عيسى ومحمد بن سليمان لسنة ٢٩٦ هـ ، وسنة ٣٠٦ هـ فكان ، بعد أرزاق العمال ، تسعة وثلاثين ألف ألف درهم[3] .

وكان بيت المال في كل من هذين القطرين وهما الشام ومصر يقوم بالمسجد الجامع ، وهو شبه قبّة مرتفعة محمولة على أساطين ؛ ولبيت المال باب حديد وأقفال ، والصعود إليه على قنطرة من الخشب ، وإذا صُلِّيَت العشاء الآخرة أُخرج الناس كلهم من المسجد ، حتى لا يبقى

---

(١) نفس المصدر ص ١٨٩ ، وليس عندنا تفسير لمعنى الحماية بيد مؤلفي ذلك العهد ، وانظر إلى جانب ما ذكره دوزي في ملحق القاموس (ج ١ ص ٣٣٠) ، فهرس المكتبة الجغرافية ، وكتاب الخطط للمقريزي (ج ١ ص ٨٩) حيث يتكلم المقريزي عن حماية المراكب ويقول إنها كانت تؤخذ بمصر من كل من ركب البحر حتى السوال والمكدّين .

(٢) ابن حوقل ص ١٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، وكلمة جماعة هنا هي اصطلاح ديواني معناه الحساب الجامع (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٥٤) .

فيه أحد ، ثم أُغلقت أبوابه ، وذلك لوجود بيت المال فيه[1] . ونستطيع أن نسأل : هل هذا من الرسوم المصرية أو الشامية قديماً ؟ وهل كانت خزانة الكنيسة تحتفظ على هذه الصورة ؟ ثم هل كانت الكنيسة في العصر القديم والعصر البوزنطي خزانة للدولة لا معبداً فقط ؟[2] نلاحظ أنه حتى القرن الرابع الهجري كان تضمين الأراضي لمستغليها بمصر يجري في المسجد الجامع كل أربع سنين ، فكان ينادى على البلاد صفقات في جامع عمرو أمام متولي خراج مصر وكتّابه ، وهذه عادة من عادات المصريين قديما[3] .

وقد ظلت العراق معظم القرن الرابع (حتى عام ٣٧٠ هـ ـــ ٩٨٠ م) تحت حكم بني حمدان ، وكانوا أمراء شبه مستقلين ؛ وهؤلاء الأمراء الذين لم يظهر من بينهم بالأعمال العظيمة والفروسية إلا سيف الدولة صاحب حلب ، جاروا على الرعية جوراً عظيما ، وهو ما يفعله أهل البادية الذين لا يعلمون ولا يحسنون لشيء تعهّداً . وكانوا أسوأ جميع حكام القرن الرابع . والترك والفرس الذين حكموا في هذا القرن هم جميعاً كالآباء لرعيتهم ، إذا قورنوا بالحمدانيين . ومما نشأ عن طبيعتهم البدوية أنهم كانوا لا يبالون بالشجر ، ففي سنة ٣٣٣ هـ ـــ ٩٤٤ م أغلقت مدينة حلب أبوابها في وجه عسكر سيف الدولة ، فاقتلعوا كل الأشجار الجميلة المحيطة بالمدينة ، وكانت هذه الأشجار ، كما يقول

(١) كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة طبعة ليدن ١٨٩١ ص ١١٦ ، والمقدسي ص ١٨٢ ، ويحكي الاصطخري (ص ١٨٤) أن بيت مال أهل برذعة ببلاد القوقاز كان بالمسجد الجامع ، ويلاحظ انه على رسم الشام ، ويصفه بأنه مرصص السطح ، وعليه باب حديد ، وهو على تسعة أساطين .

(٢) قارن Wilken, Griech. Ostraka, S. 149.

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٨٢ .

الشاعر الصنوبري المعاصر لذلك العهد ، أكبر ما ازدان به الإقليم[1]
وقد اغتصب الحمدانيون أكثر أرض العراق ، واشتروا منها القليل بسهم
من أعشار ثمنها[2] ، حتى صارت الموصل وأكثر أعمالها ملكا لناصر
الدولة ، وكان يضايق أصحاب الأرض حتى يلجئهم إلى البيع بأوكس
الأثمان ، وطالت حياته وامتدت أيامه حتى استولى على الناحية مِلكا
ومُلكا[3] ؛ وقد اكتسح الحمدانيون أشجار الفاكهة والبساتين،وجعلوا
مكانها الغلا[illegible] مثل القطن والأرز والسمسم ، وجلا كثير من
أهل هذه البلاد ، وكان ممن جلا بنو حبيب ، وهم بنو عم بني حمدان ،
فقد خرجوا بذراريهم ومواشيهم في اثني عشر ألف فارس إلى بلد الروم،
حيث أُنزلوا على كرائم الضياع ، ثم عادوا إلى بلاد الإسلام على بصيرة
بفسادها وعلم بطرقها ، وقلوبهم تضطرم حقداً وتفور كيداً ، فشنّوا
عليها الغارة سلباً ونهباً ، وصارت لهم بذلك عادة . وصادرت الحكومة
أرض من جلا عن البلاد وسلّم بعضها إلى من بقي ، ولم يمكن لهؤلاء
ترك البلاد ، « وآثروا فطرة الإسلام ، ومحبة المنشأ حيث قضوا أيام
الشباب على مقاسمة النصف من غلاّتها على أي نوع كانت ، وعلى أن
يقدّر الأمير الدخل ويقوّمه عيناً إن شاء أو ورقاً » . وفي سنة ٣٥٨ هـ
٩٦٨ م بلغ حاصل نصيبين من الحبوب خمسة آلاف درهم ، عدا ضريبة
الجماجم ، فإنها بلغت خمسة آلاف دينار ، وبلغت ضرائب الخمر خمسة
آلاف دينار ، وبلغ ارتفاع ما يؤخذ عن الغنم والبقر والدواب والبقول
خمسة آلاف دينار ، ورُفع من الطواحين والضياع المقبوضة والمشتراة
وغلاّت العقار المسقّف من الحمّامات والدكاكين سبعة عشر ألف دينار،

(1) Wüstenfeld, Die Statthalter von Aegypten IV, S. 36 .

(2) ابن حوقل ص ١٤٣ وما يليها .

(3) مسكويه ج ٦ ص ٤٨٥ – ٤٨٦

هذا على أن جُلّ البلد قد خرب ، وناسه قد هلكوا ، وبادت الأشجار والبساتين ؛ فلما زال حكم الحمدانيين غُرست الأشجار وكثرت الكروم والفواكه[1] . فلا عجب بعد هذا أن نجد ابن حوقل حوالي عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م يقول إن بني حمدان هم أغنى ملوك الإسلام في عهده إلى جانب عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس[2] . وفي عام ٣٦٨هـ — ٩٧٨م فتح عضد الدولة بعض قلاع بني حمدان ، فكان قيمة ما في القلعة عشرين ألف ألف درهم[3] . ومع هذا كانت تقوم بسبب دفع الجزية منازعات مستمرة بين الحمدانيين من جهة،وبين بغداد وبوزنطة من جهة أخرى[4].

أما إقليم خراسان الذي خضع في أثناء القرن الرابع لأمراء كثيرين في مقدمتهم السامانيون والبويهيون ، فقد كانت الضرائب فيه على ما كانت عليه في القرنين الثالث والرابع ، وقد لاحظ ابن حوقل مثل هذا في هراة[5] ، وهو يُحسن الثناء على السامانيين ، وعلى حسن إدارتهم المالية وضبطهم للأعمال في شمال المملكة الإسلامية وفي شرقها ؛ يقول ابن حوقل : وليس بأرض المشرق ملك أمنع جانباً ، ولا أوفر عِدة ، ولا أكمل عُدة ، ولا أنظم أسبابا ، ولا أكثر أَعْطِيَةً ، ولا أدرّ طعاماً ، ولا أدوم حُسْنَ نيّاتٍ منهم ، مع قلة جباياتهم ، ونزور أخرجتهم ، وقلة الأموال في خزائنهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبي صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا ، لكل خراج يُقبض وضمان يحل

---

(١) ابن حوقل ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) Dozy, II. S. 57.

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ ، وقد كان مسكويه مكلفاً بإحصاء ما في هذه القلعة .

(٤) يحيي بن سعيد ص ٦٤ ب — ٦٥ ا ، وانظر مثلا Elias Nisibenus, S. 515 نقلا عن ثابت بن سنان .

(٥) ابن حوقل ص ٣٠٨ .

في كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعام في كل سنة دارّة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طعم منها في رأس تسعين يوماً، يخرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرّفين خمسة آلاف ألف درهم، فتستوفي الأربعة أطعام الخراج الواحد لسائرخدمته من الرجال عند آخر السنة ، وتستوعب أعطيتهم نصف جباياته المذكورة ، وهي عشرون ألف ألف درهم عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة،وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة... ولهذه الحال أعمالهم مشحونة بالقضاة والجباة والكفاة والولاة ، منزلين على أرزاق تتساوى ، وأحوال في المراتب تتدانى ، وذلك أن رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة ووالي الصلاة والمعونة راتبهم بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض »[1] .

وقد ارتفعت الجباية في فارس في عهد عضد الدولة ، أعظم حكام القرن الرابع ، مـن ١٫٨٨٧٫٥٠٠ إلى ٢٫١٥٠٫٠٠٠ ، وذلك في عـام ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م . أي أن زيادة الدخل كانت تقرب من السدس[2] . وقد كان في استطاعة عضد الدولة أن ينفق عن سعة لأن دخله في السنة كان ثلثمائة وخمسة وعشرين ألف ألف درهم ، ولكنه « كان ينظر في الدينار ويناقش في القيراط » ، كما يقول ابن الجوزي[3] .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤١ ــ ٣٤٢ .

(٢) ابن البلخي .JRAS, 1912, S. 889

(٣) المنتظم ص ١٢٠ ب ، ويقال إن عضد الدولة كان يريد أن يبلغ بدخله إلى ثلثمائة وستين ألف ألف درهم ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم ، وفي رواية انه كان يرتفع له كل عام اثنان وثلاثون ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وهذا يدل على أن الدينار في ذلك العهد كان يساوي عشرة دراهم .

أما مصر فقد حافظت في الجملة على المستوى العالي الذي كانت فيه ، فقد استطاع أحمد بن طولون بما كان له من قوة عظيمة أن يستخرج خمسة آلاف ألف دينار في القرن الثالث . أما في خلال القرن الرابع بما كان فيه من اضطراب فقد اشتمل ارتفاعها على ثلاثة آلاف ألف ومائتين ونيف وسبعين ألفاً من الدنانير ، وفي أواخر القرن بلغ الخراج على يد الوزير ابن كلّس أربعة آلاف ألف[1] . ولم يحدث في القرن الرابع تدهور مالي عام ، وكان الدخل يتوقف ، كما هو الحال دائما ، على الرجل القابض على ناصية الحكم . ففي عام ٣٥٥ هـ ــ ٩٦٥ م أشار ابن العميد على ركن الدولة أن يدبّر ناحية أذربيجان لنفسه ويرفع له منها خمسين ألف ألف درهم ، وكانت بلاد أذربيجان غنية ، ولكن كان عليها إبراهيم السلار ، وكان حاكما ضعيفاً سيىء التدبير مهملاً لأمورها مشتغلاً باللعب ، فلم يكن يرتفع منها أكثر من ألفي ألف درهم « وذلك بسبب إقطاعات الديلم والأكراد ، وبعد ما يستولي عليه قوم متعزّزون لا يتَمكن من استيفاء الحقوق عليهم ، وبعد ما يضيع بالإهمال وترك العمارة[2] » . ولا نجد مثالاً للانحطاط الحقيقي الكبير في دفع الضرائب إلا في العراق ؛ وكان ذلك منذ النصف الثاني للقرن الثالث الهجري . وقد قدّر ابنُ خرداذبة ارتفاع العراق لسنة ٢٤٠ هـ ــ ٨٥٤ م بثمانية وسبعين ألف ألف درهم ، وفي عام ٢٨٠ هـ ــ ٨٩٣ م ضُمِّن جزء كبير من العراق بألفي ألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار ، وهو نصف ما كان أو أقل[3] . وقد بلغ خراج العراق في ميزانية عام ٣٠٦ هـ ــ

(١) تاريخ ابي صالح الأرمني ص ٢٣ أ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ ، و Amedroz, Islam, III, 336.

(٣) كتاب الوزراء ص ١٠ ولا يتفق مع هذا ما جاء في ص ١٨٨ من هذا الكتاب من أن ارتفاع العراق للمعتضد بلغ الارتفاع في عهد عمر بن الخطاب ، والأرقام هنا غير صحيحة .

٩١٨ م ١،٥٤٧،٧٣٤ ديناراً ، وهو أقلّ من الثلث[١] . وزاد الدخل بعض الزيادة في أثناء القرن الرابع ، ففي سنة ٣٥٨ هـ ــ ٩٦٨ م عُقد ضمان العراق باثنين وأربعين ألف ألف درهم[٢] . وعرض عضد الدولة بعد ذلك مثل هذا المبلغ[٣] . وكان الفرق بين حال العراق قديماً وبين ما آلت إليه فيما بعد عظيما جداً ، فقد كان خراجها قديماً مضرب المثل في الكثرة ، حتى كان البعض يقول والله لو أعطيتني خراج العراق ما فعلت كيت وكيت[٤] . ثم آل الحال في آخر القرن الرابع إلى أن يقول عضد الدولة : غرضي من العراق الاسم ومن أرّجان (القسم الساحلي من فارس) الدخل[٥] . وكان أكبر أسباب هذا التدهور أن البلاد استحالت إلى مستنقعات ، ونظراً لأنها كانت تُروى بالطرق الفنية فقد كانت تحتاج إلى عناية ونظام أكثر مما وُجّه لها . وقد اضطر الزرّاع إلى الجلاء ، وكان أهل الموصل مثلاً عرباً جاءوا في القرن الرابع إلى شمال العراق ليزرعوا تلك الأراضي الفيضانية التي كانت حتى ذلك الحين جرداء لا نبات فيها[٦] . وبعد هذا الفساد كان اعتماد الخزانة ببغداد على خراج العراق يعرضها للإفلاس ، ثم أصيبت حكومة العراق بأول ضائقة مالية حينما منع الصفّار حملَ أموال فارس إليها ، وقد أدت هذه الضائقة حوالي عام ٢٧٠ هـ إلى فكرة الاقتراض ، وأول ما ظهر ذلك في صورة قرض غير مضمون الردّ ؛ وذلك أن الخليفة الموفق احتاج إلى مال يُخرج به الجندَ لمحاربة الصفّار ، والتمس من وزيره صاعد بن مخلد

---

(١) Kremer Einnahmebudget, S. 312.

(٢) ابن حوقل ص ١٦٩ ، ١٧٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٤٠ .

(٤) الاغاني ج ٤ ص ٧٩ .

(٥) المقدسي ص ٤٢١ .

(٦) ابن حوقل ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

أن يحتال في ذلك ، فقال الوزير : والله ما لي حيلة إلا من حظر النفقات ومنع المرتزقين ، فقال الموفّق : أين يقع ذلك مما أحتاج ؛ والذي أريد « أن نأخذ من التجار قرضاً ، ونوظّف عليهم وعليك وعلى الكتّاب والعمال مالاً نستعين به على إخراج راشد (قائد الحملة) ، فإذا اتسعنا رددناه عليهم » ، فاستوحش صاعد من ذلك ، وأزاد إعمال الحيلة في التباعد عنه[1] . وفي سنة ٣٠٠ هـ احتاج الوزير إلى شيء من مال الأهواز ، ولم يكن أصحابه متأهبين لذلك ، فأرسل في إحضار يوسف ابن فيجاس الجهبذ اليهودي ، وكان جهبذ الأهواز ، وطلب منه تقديم[2] مال . وفي سنة ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م تواطأ مُتَضَمِّنا أعمال الخراج والضياع بفارس وكرمان وتعاقدا على قَطْع حمل المال إلى السلطان ، واشتدت الضائقة بالوزير فباع من الضياع السلطانية بنحو خمسمائة ألف دينار ــ وكان ذلك لأول مرة[3] ، واستسلف من مال سنة عشرين وثلثمائة شَطْرَهُ قبل افتتاحها بشهور ، فلم يبق من مال هذه السنة إلا أقلّه ، واضطر فوق هذا إلى أن يقترض مائتي ألف دينار بربح درهم في كل دينار[4] . وفي سنة ٣٢٣ هـ ــ ٩٣٤ م لم تُدفع للتجار أموالُهم ، فطالبوا الوزير بها ، فدفعته الضرورة إلى أن سَبَّبَ لهم على عمال السواد ببعض مالهم ، ثم باع عليهم بالباقي ضياعاً سلطانية[5] . وفي سنة ٣٢٤ هـ ــ ٩٣٥ م احتاج الوزير إلى مال لدفع استحقاقات الجند ، فطالب مياسير التجار بأموال يعجّلونها ، ويكتب لهم بها سفاتج ، وأمر

(١) كتاب الديارات للشابشتي ص ١١٨ ب ــ ١١٩ ا .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٧٨ .

(٣) وفي مثل هذه الأحوال كان أصحاب الأراضي المجاورة يتفقون ويشترون الضياع بأقل من ثمنها بكثير . (ابن حمدون في JRAS, 1908, S. 434) .

(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ .

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٥٠٥ .

من كان ينزل بسور المدينة أن ينتقل عنه لتَباع المنازل التي كانت هناك ملكا للحكومة[1] .

وفي هذه الأحوال عاد الأمر في تحصيل الخراج إلى ما كان جارياً قبل الإسلام من وسائل رديئة ، وكانت القروض التي احتاجت إليها الدولة مبدأ تضمين الخراج في المشرق ، وأول ما أخذ بطريقة القروض في عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ ـ ٩٠١ م) : حدّث أبو القاسم عبيد الله بن سلمان وزير المعتضد أحد أصحابه فقال له : قد وردنا على دنيا خراب مُسْتَغْلِقة ، وبيوت مالٍ فارغة ، وابتداء عَقْد لخليفة جديد الأمر ، وبيننا وبين افتتاح الخراج مدة ولا بد لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاقتصار والتجزية ، فإن كنت تعرف وجهاً تعينني به فأرشدني إليه ، فأشار صاحب الوزير بإطلاق ابني الفرات ، وكانا عاملين لهما دهاء وخبرة بالأعمال والأموال ، فأطلقهما من سجنهما ، فخاطبا أحد الأغنياء في أن يضمن جزءاً من أرض العراق على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار ، فأعطى خطه بذلك ، وعرف الوزير الأمر فاستطير هو والخليفة سروراً لهذا الحل الجديد بما انطوى عليه من مهارة[2] . ونجد في ثبت خراج سنة ٣٠٣ هـ ـ ٩١٥ م أن خراسان والأهواز وواسط كانت ضماناً إلا الضياع[3] ، وفي سنة ٣٠٦ هـ ـ ٩١٨ م ضمّن الخليفة خراج مصر بثلاثة آلاف ألف

---

(١) الأوراق للصولي مخطوط باريس ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٠ ـ ١١ .

(٣) Kremer, Einnahmebudget . وكذلك ضمنت فارس بعد استردادها من بني الصفّار ، ولكن الضامن أخر المال ة فحُل ضمانه وعقد على آخر (كتاب الوزراء ص ٣٤٠) .

دينار[1] . وفي سنة ٣٠٨ هـ ضمن الوزير حامد بن العباس خراج العراق وخوزستان وأصفهان للمقتدر ، فارتفعت الأسعار ببغداد ؛ لأن الوزير جمع الحبوب في تلك البلاد ومنع من حملها إلى بغداد ، فثار العامة على الوزير ، وسبّوه ، وفتحوا السجون ، وكبسوا دار صاحب الشرطة وانتهبوا بعض دوابّه ، ومنعوا صلاة الجمعة ، وهدموا المنابر ، وأحرقوا الجسور ، فأمر السلطان بمحاربة العوام ، فأُخذوا ، فضُرب بعضهم ، وفرّ الباقون ، وطلب حامد بن العباس من الخليفة فسح ضمانه ، واستأذنه في الشخوص إلى واسط لينفذ عماله بما فيها من الأطعمة إلى بغداد ، وفُسح ضمان حامد ، وسأل الخليفةَ أن يعفيه من الوزارة فلم يُجِبْه[2] . ولم يكن الذي يتولى ضمان الخَراج ، في العراق على الأقل ، رجلا من عامة الناس ، بل كان عاملا على خراج البلاد التي يضمنها[3] وكان له أن يولي في هذا الإقليم عمال الخراج ويعزلهم[4] . وكان للحكومة إلى جانب الضامن رجلٌ يشرف عليه ليرى إن كان يتحصّل له زيادة عل ضمانه[5] ، وأن يراعي بنوع خاص أن الضامن يؤدي ما يُنفق على كرى الأنهار وحراسة البزندات والبذور ، وعلى

---

(١) كان الاخشيد في القرن الثالث الهجري يحمل إلى الخليفة الفي الف دينار (خطط المقريزي ج ١ ص ٩٩) ، وإلى جانب مبلغ الضمان كان لا بد للضامن أن يبعث الهدايا الكثيرة للخليفة ، والسيدة الوالدة والخالة والقهرمانة والحاجب والقائد وكتابهم في كل سنة (كتاب الوزراء ص ٣٢١) .

(٢) عريب ص ٨٥ ، ٨٦ ، والمنتظم لابن الجوزي ص ١٨ ا . والهمداني مخطوط باريس ١٨٦ ب (أ) .

(٣) عريب ص ٥٥ .

(٤) الهمداني مخطوط باريس ص ١٨٦ (أ) .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٨١ — ٨٢ .

المعاونين الذين يحفظون الأمن[1] . أما الضمانات الصغيرة مثل ضمان الصدقات . فيحكى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أنه قال لكاتب سأله أن يضمنه الصدقات بفارس : « إنما يُرغب في عقد الضمان على تاجر مليّ أو عامل وفيّ أو تانٍ (؟) غني ، فأما أصحاب الحروب فعقد الضمان عليهم ومطالبتهم بالخروج من أموالها يستدعي منهم العصيان وخلع طاعة السلطان »[2] .

وكان أمراء الأطراف في معظم الأحوال يظهر أمرهم بأن يكونوا ضامنين للبلاد التي يحكمونها ، ولم يظهروا في صورة أصحاب الإقطاعات كما كان الحال في الإمبراطورية الجرمانية المقدسة ، وكانوا يتوصّلون إلى الملك بأن يبتدئوا باحتلال المدن والأقاليم غصباً ؛ ثم يقاتلون عليها عسكر الخليفة ، حتى يُعترف لهم بالإمارة في مقابل مال يضمنون أداءه ، وكانت أمثال هذه الضمانات التي تؤخذ كرهاً تؤتى الحكومة صفقة سيئة بالنسبة للضمانات الأخرى . ففي سنة ٢٩٦ هـ ــ ٩٠٩ م ضمن ابن أبي الساج أرمينية وأذربيجان قبل أن تؤولا إلى السامانيين بمائة وعشرين ألف دينار ، وهو ما يقرب من عُشر الدخل الذي كانت تدفعه هذه البلاد منذ مائة سنة[3] . وفي سنة ٣٢٢ هـ ــ ٩٣٤ م فتح عماد الدولة بن بُوَيه إقليم فارس ، وطلبها ضماناً من الخليفة ، على أن يدفع إليه ألف ألف درهم ، على حين أنها كانت تؤتي من مال الخراج والضياع وحده منذ عام ٢٩٩ هـ ــ ٩١١ م إلى ما بعد ذلك بعشرين عاماً ثمانية عشر ألف ألف درهم[4] . وكذلك كان ضَمان عمان في أوائل القرن

(١) كتاب الوزراء ص ٣٤ .
(٢) نفس المصدر ص ٧١ .
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٧٦ ــ ٧٧ ، Kremer. Einnahmebudget, S. 299.
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٣٨١ ، وخراجها في ميزانية عام ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م قدر بألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وهو ما يقابل الثمانية عشر ألف ألف درهم .

الرابع ثمانين ألف دينار ، وكان خراجها تحت الإدارة المباشرة قبل ذلك بمائة عام ثلاثمائة ألف دينار[1] .

وكان استعمال الوسائل القاسية في تحصيل الخراج من الوسائل المعروفة قديماً ، وربما كان ضروريا ، فمثلاً كان أهل بادوريا حول بغداد معروفين بالجَلَد ، وكان عليهم بقايا أموال ، فتولّى عليهم ابن أبي السلاسل ، وفي قلبه أحقاد ورغبة في التشفي منهم ، وإخراج ما عليهم من البقايا ؛ فطالبهم ، فامتنعوا وصبروا على الحبس والقيد ، فأملى رقعة إلى الوزير علي بن عيسى يغريه فيها بهم كل إغراء ، ويقول : هؤلاء قوم يتدلّون بالجَلَد ، وعليهم أموال قد ألطّوا بها ، وصبروا على الحبس والقيد ، ومتى لم تُطلَق اليدُ في تقويمهم واستخراج المال منهم تأسى بهم أهلُ السواد وبَطَل الارتفاع ؛ فردّ عليه الوزير بقوله : الخراج ، عافاك الله ، دَيْنٌ لا يجب فيه غير الملازمة . فلا تتعدَّ ذلك إلى غيره[2] . وهذا القرار الذي قرره الوزير يطابق المبدأ الذي عُمِل به في زمن الرشيد ، وهو المنع من ضرب الناس في الخراج أو إقامتهم في الشمس أو تقييدهم[3] . وكان أصحاب الخراج في عهد هذا الخليفة نفسه يطالَبون بصنوف من العذاب حتى عام ١٨٤ هـ حين أمر الرشيد برفع العذاب عنهم ، فارتفع من تلك السنة[4] . وفي عام ١٨٧ هـ — ٨٠٣ م وُلّي على خراج مصر عاملٌ بعد أن ضمن جباية الخراج عن آخره « بلا سوط ولا عصا »[5] . على أن ديونيسيوس يصف جُباة

---

(١) كريمر نفس المصدر ص ٣٠٨ والمقدسي ص ١٠٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٤٦ .

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٦٢ .

(٤) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠١ من الطبعة الأوربية .

(٥) الولاة للكندي ص ١٤٠ — ١٤١ .

الخراج في العراق حوالي عام ٢٠٠ هـ ــ ٨١٥ م بأنهم « قوم من العراق والبصرة والعاقولاء ، وهم عُتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان ، شرّ من الأفاعي ، يضربون الناس ويحبسونهم ، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت »[1] . وفي أواخر القرن الثالث وصف الأمير عبد الله بن المعتز[2] الإدارة في عهد الوزير ابن بلبل ، وكان ابن المعتز يحمل له كراهية شديدة ، ووصف كيف كانت تجبى أموال الخراج من غير رحمة :

فكم وكم من رجل نبيل	ذي هيبة ومركب جليل
رأيته يعتلّ بالأعوان	إلى الحبوس وإلى الديوان
حتى أُقيم في جحيم الهاجره	ورأسه كمثل قِدر فائره
وجعلوا في يده حبالا	من قنّب يقطّع الأوصالا
وعلقوه في عرى الجدار	كأنه برّادة في الدار
وصفقوا قفاه صفق الطبل	نصباً بعين شامت وخل
إذا استغاث من سعير الشمس	أجابه مستخرج برفس
وصبّ سجانٌ عليه الزيتا	وصار بعد بزة كميتا
حتى إذا طال عليه الجهد	ولم يكن مما أراد بدّ
قال ائذنوا لي أسأل التجارا	قرضاً وإلا بعتهم عقارا
وأجّلوني خمسة أياما	وطوّقوني منكمو إنعاما
فضايقوا وجعلوها أربعة	ولم يؤمل في الكلام منفعه

(1) Dionysius von Tellmachre. ed. Chabot. S. 152

(2) الديوان ج ١ ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

وجاءه المعينون الفجره ... وأقرضوه واحداً بعشره

وكتبوا صكا ببيع الضيعة ... وحلفوه بيمين البيعة

ثم تأدّى ما عليه وخرج ... ولم يكن يطمع في قرب الفرج

وجاءه الأعوان يسألونه ... كأنهم كانوا يدلّلونه

وإن تلكّا أخذوا عمامته ... وجمشوا أخدعه وهامته

فالآن زال كل ذاك أجمع ... وأصبح الجور بعدل يقمع

وكان التعذيب أشد مما تقدم إذا كان استرداداً لأموال الدولة ؛ وأخص ما كان يستعمل في ذلك القيودُ الحديدية الثقيلة في الأرجل ؛ والضرب المُتْلِف ، والتعليق من اليد الواحدة[1] ، وقد عذّب الخليفة القاهر ُأمّ المقتدر أخيه وسلفه على عرش الخلافة ، فضربها ، وعلّقها برجلها لتخرج مالها ، وتحلّ أوقافها ، وتوكل في بيعها ، فامتنعت ، ووكّلت في بيع أملاكها دون أوقافها ، ولكن القاهر أرغمها على ما أراد ، وكتب إقراراً منها بذلك ، وأحضر القضاة للشهادة على توكيلها ، واستلزمت الشهادة أن يروها رأي العين . وقد تحدّث القاضيان اللذان رأياها بهذه القصة فقالا : « ولما رأيناها رأينا عجوزاً رقيقة الحال سمراء اللون إلى البياض والصفرة ، عليها أثر ضرب شديد ، فما انتفعنا بأنفسنا

---

(1) وكان الحاكم يامر بان « يجر » المطالب او « يسحب » على وجهه ، ومن هذا اشتقت الكلمة الاسبانية جروشا Garrucha ومعناها حبل الجر ، وهو الذي كان أكبر اداة للتعذيب في اسبانيا ايام محاكم التفتيش كما قال العلامة لي (Lea) وكذلك الكلمة الاسبانية Garrota .

وكان الذين يوكل إليهم بالمطالبة قوماً يسمون المستحثين ، وكانوا يختارون من الغلاظ الفظاظ ، لا يفارقون الرجل حتى يدفع ما عليه ، ولهم عليه نفقة يأخذونها ، وربما كانوا ثلاثة لكل منهم ديناران في اليوم (كتاب الوزراء ص ٢٣٣) .

ذلك اليوم ، فِكَراً في تقلّب الزمان ، وتصرّف الحدثان »[1] . ثم عُذّب آخرون بأن غُرزت في أظافيرهم أطراف القصب[2] ، أو بالضرب على رؤوسهم بالدبابيس[3] ، وقد وصف شاهد عيان كيف جيء بأحد المصادَرين من محبسه « يرسف في قيوده ، وعليه جبة دنسة وشعره طويل ... وجعل يشكو ما أصابه من المكاره ، وفرائصه ترْعد[4] » . وربما أمعن المطالبون في التعذيب فألبسوا فريستهم جبَّة صوف مدهونة بالنفط أو بماء الأكارع[5] . وفي سنة ٣٢٥ هـ - ٩٣٦ م دخل بجكم التركي وأصحابه العراق ، فاعتقل الناس ، واشتد في مطالبتهم بالمال وعذّبهم ، فكان يضع على بطونهم أطسات الجمر ، حتى قال له رجل أراد أن يسبر ما في نفسه من طلب العراق : أيها الأمير ! أنت مطالب بملك ، ومرشّح نفسك لخدمة الخلافة ، ألا تعلم أن هذا إذا سُمع به أوحش منك ؟ وقد حَمَلْتَ نفسك في أمرنا على مثل ما كان يعمله مرداويج بأهل الجبل ، وهذه بغداد ودار الخلافة لا الري وأصبهان ، ولا تحتمل هذه الأخلاق ؛ فلما سمع بجكم ذلك انحلّ وفك القيود وأزال المطالبة[6] . وكانت هذه المطالبات القاسية تعتبر عند الجميع أعمالا تدل على قلة الإيمان ، كما يؤخذ من حكاية ترجع إلى القرن الرابع : « حدّث أبو الحسن علي بن الحسين بن عبد الأعلى قال : كنت بحضرة أبي الحسن ابن الفرات في وزارته الأولى (٢٩٦ - ٢٩٩ هـ = ٩٠٨ - ٩١١ م) ، وهو جالس يعمل ، إذ رفع رأسه ، وترك العمل من يده ، وقال : أريد

---

(١) عريب ص ١٨٣ - ١٨٤ ، وابن الاثير ج ٨ ص ١٨١ - ١٨٢ ، المنتظم لابن الجوزي ص ٤٦ ب ،والمقدمة الانجليزية لكتاب الوزراء ص ٤٥ .

(٢) ذكر المعتزلة لاحمد بن يحيى المرتضى ص ٥٢ .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٢٣٠ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٨ - ٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٥٧٠ .

رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني حق الطاعة ، فأُنفذه في مهم لي ، فإذا بلغ فيه ما أرسمه له أحسنت إليه إحساناً يظهر عليه وأغنيته ؟ فأمسك من حضر ، ووثب رجل يكنى بأبي منصور ، أخ لابن أبي شبيب حاجب ابن الفرات ، فقال : أنا أيها الوزير ، قال : وتفعل ؟ قال : أفعل وأزيد ، قال : كم ترتزق ؟ قال أرتزق مائة وعشرين ديناراً . قال : وقّعوا له بالضعف ، وقال : سَلْ حوائجك ، فسأله أشياء أجابه إليها ، فلما فرغ من ذلك قال : خذ توقيعي وامض إلى ديوان الخراج وأوصله إلى كاتبي الجماعة ، وطالبهما بإخراج ما على محمد بن جعفر بن الحجاج ، وطالبه بأداء المال ، وأتلفه إلى أن تستخرج جميعه ، ولا تسمع له حجة ولا تمهله ألبتّة . فخرج وأخذ من رجّالة الباب ثلاثين رجلا ، فقلت (الحاكي) لأخرجنّ وأمضينّ إلى الديوان حتى أنظر ما يؤول إليه الحال ، فخرجت وصرت إلى الديوان ... فدخل أبو منصور هذا إلى الصقر بن محمد وعبيد الله بن محمد الكلوذاني ، وهما صاحبا المجلس شركة ، فلم يجد الكلوذاني ووجد الصقر بن محمد ، فأوصل إليه التوقيع ، وقال له أخرج ما على ابن الحجاج ، فقال : عليه من باب واحد ألف ألف درهم ، فطالبه بذلك إلى أن نفرغ من العمل بسائر ما يلزمه . وكان محمد بن جعفر من عمال أبي الحسن علي بن عيسى ، قال : فأحضر ابن الحجاج ، وشتمه ، وافترى عليه ، وابن الحجاج يستعطفه ، ويخضع له ، ثم أمر بتجريده وإيقاع المكروه به ، فأُوقع ، وهو في ذلك كله يقول : يكفي ، الله ، ثم أمر أبو منصور بنصب دقل ، فنُصب ، وجُعل في رأسه بكرة فيها حبل وشدت فيه يدُ ابن الحجاج ، ورُفع إلى أعلى الدقل ، وهو يستغيث ويقول : يكفي ، الله . فما زال معلّقاً ، وأبو منصور يقول له : المال المال ، وهو يسأله حطّه وإنظاره إلى أن يواقف الكتّاب على ما أُخرج عليه ، وهو لا يسمع منه ، وقد قعد تحت الدقل واختلط ، وغضب من غير غضب ، اعتماداً لأن يبلغ ابنَ الفرات

فعلَه ، فلما ضجر قال لمن يمسك الحبال : أرسلوا ابن الفاعلة (وعنده أنهم يتوقّفون ولا يفعلون) ، فأرسلوه لما رأوه عليه من الحدة والغضب، ووافى ابن الحجاج إلى الأرض ، وكان بديناً سميناً ، فوقع على عنق أبي منصور فدقّها ، وخرّ على وجهه ، وسقط ابن الحجاج مغشيا عليه ، فحُمل أبو منصور إلى منزله في محمل فمات في الطريق ، ورُدّ ابن الحجاج إلى محبسه ، وقد تخلّص من التلف ، وعجب من حضر مما رأى . وكتب صاحب الخبر بالصورة إلى ابن الفرات ، فورد عليه منها أعظمُ مورد ، وبكّرت عرفان زوجة ابن الحجاج إلى موسى بن خلف حتى أوصلها إلى ابن الفرات ، فقررت أمره على مائة ألف دينار سلّمت ببعضها جعدة وقراها من طسوج كوثي ، ونُجّم الباقي ، وأُطلق ابن الحجاج ؛ وكان الناس يعجبون من قول ابن الفرات : « أريد رجلاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني »[1] ، ولم تَنْبَسِط على الناس أصناف العذاب والمكاره حتى كانوا يموتون تحتها أقبح موت إلا في عهد الأمير بختيار ببغداد ، وكان حكم هذا الأمير أسوأ حكم في القرن الرابع[2] .

ولعلّ مما تمجه النفس أن ترى كبار العمال يشترون من السلطان رجالا منكودين ، وأن كلا منهم ينافس الآخر في تقديم أكبر ضمان ، إذا سُلّم إليه وزير نهب الأموال ، آملاً أن يقدر بعد ذلك على استخراج مبلغ يزيد على ضمانه بوسائل التعذيب[3] . ولكن هـذه الوسيلة لاغتصاب الأموال قويت أيضاً في عهد بختيار خاصة ، ولم تكن شائعة في عهد جميع الحكام .

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٥٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٩٤ ، ٩٥ . ضمن ابو الفرج الوزير ابا الفضل بسبعة آلاف الف درهم ، ثم ضمنه أبو الفضل فيما بعد بمثل هذا المبلغ . انظر مسكويه ج ٦ ص ٣٣٤ ، ٣٤٢ ، ٤٠٩ ، ٤٥٣ .

الفصل التاسع

رسوم دار الخلافة

كان اللون الذي اتخذه الخلفاء في القرن الرابع الهجري شعاراً لهم السواد والبياض ؛ فلما ركب الخليفة المقتدر في عام ٣٢٠هـ ــ ٩٣٢م لقتال مؤنس ، وهي الركبة التي قتل فيها وأشفق من عاقبتها إشفاقاً كبيراً ، خرج من داره في أكمل لباس وموكب ، فكان عليه خفتان ديباج فضي وعمامة سوداء ، وعلى كتفيه وصدره وظهره البردةُ النبوية ، وهو متقلد بذي الفقار سيف الرسول ، وحمائله أدم أحمر ، وفي يده اليمنى الخاتم والقضيب ؛ وسار بين يديه وليُّ عهده ابنه أبو أحمد عبد الواحد، وعليه خفتان ديباج وعمامة بيضاء[1] . وكانت عادة خلفاءِ العباسيين في القرن الثالث والرابع أن يلبسوا قلنسوة محدَّدة وقباء ، وكلاهما أسود[2] ، وكان هذا هو لباس وجوه رعيتهم أيضاً ، وكان السواد هو

(١) عريب ص ١٧٦ ــ ١٧٧ ــ ، والمنتظم لابن الجوزي ص ٤٣ ب ؛ وقد جاء في شعر الشريف الرضي ما يدل على ان القضيب والبردة شعار الخلفاء ، وأن البردة هي بردة النبي عليه السلام . انظر الديوان ص ٣١٣ ، ٥٤٣ من طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ . وقد اتخذ الأخشيد صاحب مصر الخفتان الفضي لباساً له ، كما فعل الخلفاء ، وأمر ألا يلبسه أحد سواه (المغرب لابن سعيد ص ٣٠) .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٦٩ ، ٣٧٧ . وقد أراد سلاطين المماليك أن يقلدوا الخلفاء في لباسهم القديم تقليداً كاملا ، وكان لباسهم يتألف من :

١ ــ عمامة حرير لها عذبة مدلاة بين الكتفين .

٢ ــ جبة حرير سوداء واسعة الكمين ، لا نقش عليها .

٣ ــ سيف عربي كان يحمل على طريقة البدو له حمائل يعلّق بها على الكتف الأيمن ، وهو مدلى على الجانب الأيسر ؛ ويقال إنّه سيف عمر بن الخطاب . (انظر Quatremère, Mameloucs, I, 133) .

كذلك لون الخرقة التي كانت تحضر فيها الصدقة كل يوم صلاة الصبح لتفريقها على المحتاجين[1] . وكذلك كان عَلَم الخلافة أسود ، عليه بالكتابة البيضاء : محمد رسول الله[2] . أما خلفاء الفاطميين بمصر فكان لباسهم البياض ، وهو شعار العلويين ؛ وكانت ألويتهم بيضاء ، وعليها أحياناً أهلّة من ذهب ، في كلٍّ منها صورةُ سبع من الديباج الأحمر ؛ وقد شبّهها أحد الشعراء بشقائق النعمان[3] . وكانت طريقة تتويج الخليفة أن يعتقِدَ لواء نفسه على الرسم المعروف في ذلك ، وأن يتسلم خاتم الخلافة ممن يكون ذلك معه[4] . وهذا تتويجٌ على الطريقة العربية البسيطة . أما أمراء الأطراف فقد كان التتويج بالنسبة لهم تتويجاً حقيقيا تجري رسومه على الطريقة الوثنية ؛ فكان يوضع على رأس الأمير تاجٌ مرصّع بالجواهر ، ويلبس طَوْقاً وسوارَيْن من الذهب المنظوم بالجوهر عادة[5] . وكان لباس الحاشية الرسمي في القرن

---

(1) كانت هذه الخرقة تحوي مائتي درهم كل يوم ، وكان ما فيها يفرق على من في قصر الرصافة من الحرم المحتاجات (كتاب الوزراء ص ١٩) ؛ ويخبرنا أبو المحاسن أن زكاة ابن طولون كانت ألف دينار في كل يوم ؛ وكثير من الأرقام التي يذكرها ابو المحاسن عن الطولونيين مجرد أرقام خيالية . على أن المقريزي (الخطط ج ١ ص ٣١٦) يقول إن صدقات ابن طولون كانت ألفي دينار في كل شهر سوى ما يطرأ من نذر أو صدقة شكر . (المترجم)

(2) مسكويه ج ٥ ص ٢٩٤ ، وكان ولي العهد العباسي في أواخر القرن الرابع ، وكذلك أمراء الأطراف ، يسير بين يديهم علمان : لواء أبيض وراية سوداء ؛ انظر تاريخ أبي المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٥ ، وعريب ص ١٧٧ ، وابن الجوزي في المنتظم ص ٤٣ ب ، ١١٢ ب ، ١٢٥ ب .

(3) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٦٠ — ٤٦١ ، وكتاب الديارات للشابشتي ، ص ١٢٩ ا .

(4) مسكويه ج ٥ ص ٤٥٤ .

(5) لبس سيف الدولة أمير حلب تاجاً مرصعاً بالجوهر لما استقبل رسول ملك الروم في سنة ٣٥٣ هـ — ٩٦٤ م (يحيي بن سعيد ص ٩٤ ب) . وكان طوق الذهب من علامة المحاربين عند المصريين القدماء (ZDMG. 41. S. 211) ؛ وصار حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م يخلع عند المسلمين على القواد المنتصرين (عريب ص ٣٥) ؛ وقد سُوِّر القائد =

الثالث الهجري أحمر اللون في العادة ؛ فيحكى أن المتوكل شرب يوماً في أحد قصوره ، وأمر بضرب دراهم ؛ وصُبغ منها الأحمر والأصفر ، ثم أمر الحاشية أن يُعِدّ كل واحد منهم قباء جديداً وقلنسوة على خلاف لون الآخر وقلنسوته ؛ ثم أمر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، وحوله الندماء والخدم وقوف[1] . أما في القرن الرابع فكان الغلمان عند ساعات الاستقبال بعضهم بسواد وبعضهم ببياض[2] .

وكان يُحمل على رأس خلفاء العباسيين والفاطميين شَمْسة الخلافة (وتسمى في مصر مظلّة) ؛ وقلّ ما نسمع عن الشَّمْسة ببغداد ، ففي عام ٣٣٢ هـ ـ ٩٤٣ م أمر الخليفة أن تُحمل بين يدي أحد الكبراء شمسة الخلافة ، فكان هذا تكريماً لم يسمح بـه من كان قبله من الخلفاء[3] . وكانت المظلة في القاهرة علامة أُبّهة الخلافة ، وكان لونها يشابه لون ثياب الخليفة[4] . وكان من علامات سيادة الخليفة ببغداد

ـ الذي هزم القرامطة بسوارين من الذهب (عريب ص ٣) . ويظهر أن أول أمير خلع عليه الطوق والسواران هو الأخشيد أمير مصر ، وقد أنفذ الراضي هذه الخلع مع وزيره الفضل بن جعفر في عام ٣٢٤ هـ ـ ٩٣٥ م ؛ وقد زينت لذلك الأسواق والشوارع بأنواع الفرش والستور والبسط وأبواب الجامع ، وركب الأخشيد إلى الجامع العتيق ، وعليه خلع الراضي ، ومعه الوزير (المغرب لابن سعيد ص ١٧ ـ ١٨) ؛ أما خمارويه ، سلف الأخشيد ، فلم يرسل له الخليفة إلا السيف والتاج والوشاح من غير طوق (كتاب الولاة للكندي ص ٢٤٠) ؛ وقد ظل الطوق والسوار مما يتحلى به القواد في عصر الفاطميين . وذلك كله رغم ما قضى به فقهاء الاسلام من تحريم لباس الذهب والتحلي به .

(١) كتاب الديارات ص ٦٨ ب .

(٢) كتاب العيون ص ٢٣٥ ب .

(٣) كتاب العيون ص ٢٢٦ ب .

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٨٠ نقلا عن المسبّحي (المتوفى عام ٤٢٠ هـ ـ ١٠٢٩ م) ؛ وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ ، وترجمة فستنفلد لمختصر صبح الأعشى للقلقشندي ص ١٧٣ . ومن بقايا العادات البربرية التي استبقاها الفاطميون أنهم كانوا من تخريفهم يسيرون بالجيوش ومعهم توابيت آبائهم (أبو المحاسن طبعة كليفورنيا ص ١٠) .

أن يُضرب على باب داره بالطبول والدبادب والأبواق في أوقات الصلوات الخمس ، وكان لا يوقَف ذلك إلا أيام العزاء بدار الخلافة[1] .
وقد حاول الخليفة أن يحافظ على هذه المزية ويحول دون اتخاذ الأمراء لها ولكن ذلك لم يَدُم ؛ ففي عام ٣٦٨ هـ ــ ٩٧٨ م أمر الخليفة بأن تُضرب الدبادب على باب عضد الدولة في أوقات الصلوات الثلاث : الغداة والمغرب والعشاء ؛ وفي عام ٤١٨ هـ ــ ١٠٢٧ م أذن الخليفة بعد إباء لجلال الدولة بأن يُضرب الطبل أمام داره في الصلوات الخمس ؛ وفي سنة ٤٣٦ هـ ــ ١٠٤٤ م ضُرب الطبل أمام دار الأمير خمساً ، كما هو الحال بالنسبة للخليفة تماماً[2] .

وظل لقب الخليفة بسيطاً كبساطة لباسه ، وهو اللقب المشهور : « أمير المؤمنين »[3] ؛ على أنه منذ أيام الخليفة العباسي الثاني صار الخليفة يُسمى باسم فيه نسبة إلى الله ؛ وكان اتخاذ هذا اللقب أول عمل يقوم به بعد البيعة له[4] . ولا نعرف المثال الأول الذي كان أساساً لذلك . وفي سنة ٣٢٢ هـ ــ ٩٣٣ م طلب الخليفة الراضي من صديقه الصولي ــ الأديب ولاعب الشطرنج المشهور ــ أن يوجّه إليه بالأسماء التي تُنعت بها الخلفاء وتكون أوصافاً لهم . ويحكي لنا الصولي نفسه[5] أنه بعث إليه رقعة فيها ثلاثون اسماً ليختار منها ما يريد ، وأشار

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٧٦ ب ، ٢٠١ ب .

(٢) المنتظم ص ١١٤ ا ، ١٧٥ ب ، ١٩٧ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢١٥ .

(٣) على أنه إذا كان الخليفة المستكفي قد لقب نفسه في عام ٣٣٤ هـ ــ ٩٤٥ م بلقب إمام الحق وضرب ذلك على السكة فإنما كان ذلك رداً على مزاعم جميع أئمة الفاطميين وأئمة الشيعة (انظر المنتظم ص ٧٣ ب ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٨ طبعة ليدن) .

(٤) وكان ملوك السامانيين يسمون بعد موتهم بأسماء غير التي يسمون بها في حياتهم (المقدسي ٣٣٧) .

(٥) الأوراق مخطوط باريس ص ٢ ــ ٥ ، ص ١٥ ــ ٢١ .

عليه أن يختار منها المرتضى بالله . وقد وثق من اختياره له حتى إنه ابتدأ من وقته يعمل أبياتاً ضادية قافيتها المرتضى ، على أن ينشده إياها ؛ فلما فرغ منها جاءه رسول الخليفة برقعة فيها : إن إبراهيم بن المهدي لما بويع أيام المقتدر بالخلافة أراد أن يكون له ولي عهد ، فأحضروا المنصور بن المهدي وسموه المرتضى ، وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيري ، ولم يتمّ له أمره ؛ وقد اخترت الراضي بالله . وقد حفظ لنا الصولي في تاريخه القصيدة الأولى التي ألفها ، ولم يُقَدَّر لها أن تُنْشد . وقد أمره الخليفة أن يعملها قصيدة أخرى على قافية الراضي ، فعملها[1] .

وكان كاتب الخليفة القادر (٣٨١ ــ ٤٢٢ هـ = ٩٩١ ــ ١٠٣١ م) أول من أخرج في ذكر الخليفة وصْفَه بالحضرة المقدسة النبوية ، اختراعاً جعله قُرْبَةً ، فصار سنّة ؛ ومضى في ذلك حتى خرق العرف والعادة ، فكتب عن الخليفة بالخدمة ، « وتصرف في ذلك حتى قال : قالت الخدمة، وفعلت الخدمة ، وسُئلت الخدمة ، حتى رأيت بخط أبي الحسن بن أبي الشوارب القاضي في ترجمة رقعة : خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان[2] » . وكان الأمراء وكبارُ أصحاب المناصب والعمال يتهالكون جميعاً على الألقاب تهالكا شديداً ، وكانوا جميعاً يَتلقّبون بألقاب منسوبة إلى الدولة مثل ولي الدولة ، وعماد الدولة ، ومُعين الدولة ، وعزّ الدولة ، ونحو ذلك[3] . يقول البيروني (المتوفي عام ٤٤٧ هـ

---

(١) هذه القصيدة موجودة في كتاب الأوراق ص ١٥ ــ ٢١ .

(٢) كتاب الوزراء لهلال الصابي (المتوفى عام ٤٤٧ هـ ــ ١٠٥٥ م) ص ١٥٢ .

(٣) إن أقدم هذه الألقاب ــ التي لا تزال تستعمل إلى اليوم مثلا لقبا للوزير بفارس ــ هو لقب وليّ الدولة الذي لقب به الوزير أبو القاسم (المتوفى سنة ٢٩١ هـ ــ ٩٠٣ م) ؛ وفي عهدالحاكم بأمر الله في مصر لقب أحد العمال بأمين الدولة ؛ انظر الآثار الباقية للبيروني ص ١٣٢ والصفحات التالية ، ويحيى بن سعيد ص ١١٣ أ ــ ب .

ـ ١٠٥٥ م) : « وبنو العباس لما لقّبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسوّوا فيها بين المُوالي والمعادي ، ونسبوهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم[1] » . وفي النصف الثاني من القرن الرابع احتيج إلى التفريق بين أصحاب الألقاب فثُنّي لبعضهم التلقيب ، فكان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ ـ ٩٨٢ م) يتلقّب بتاج الملة ؛ وأخيراً ثُلِّث التلقيب ، فلقِّب بهاء الدولة ضياء الملة وغياث الأمة . ثم ذاعت ألقاب الدولة في كل مكان عند الفاطميين ، وعند السامانيين في تلقيب قواد الجيوش دون تلقيب أنفسهم ، لأنهم لم يرغبوا فيها ، واكتفوا بالتكنية ، وعند بغراخان التركي ؛ فإنه لما خرج في سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٢ م لقّب نفسه بشهاب الدولة ؛ ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام وتجرؤ على مقام الألوهية . وكان البويهيون أول من سموا وزراءهم بأسماء مما ينبغي أن يطلق على الله مثل : الأوحد ، وكافي الكفاة ، وأوحد الكفاة ؛ وجاوز نفر هذا الحد ، فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء ؛ ولذلك يقول البيروني بعد ذكره ما تقدم : « فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ، وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم[2] » . وأخيراً يُقال إن الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ = ٩٩١ ـ ١٠٣٠م) لقب محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بأكبر لقب ظل له شأن عند الأجيال التالية وهو لقب السلطان ، وكان محمود أول من لقب به[3] . ولكن أمير بغداد طلب في سنة ٤٢٣ هـ ـ ١٠٣١ م أن يتلقّب بالسلطان المعظم مالك الأمم ، فقال القاضي الماوردي ، رسول الخليفة إلى الأمير ،

---

(١) الآثار الباقية للبيروني ص ١٣٢ .

(٢) الآثار الباقية للبيروني ص ١٣٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ ، وكتاب الأوائل لعلي دده مخطوط رقم ٩٣٧٢ بمكتبة برلين ص ٥٥ ا نقلا عن تاريخ الخلفاء للسيوطي .

إن هذا لا يمكن ، لأن السلطان المعظم هو الخليفة ، وكذلك مالك الأمم؛ فعدل الأمير إلى لقب مالك الدولة ، فأجازه الماوردي[1] . وفي سنة ٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م زيد في ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك ، وهو اللقب الوثني القديم ؛ فنفر العامة من ذلك ، ورموا الخطباء الذين ذكروه في المساجد بالآجرّ ، ووقعت فتنة" ؛ ومع أن الفقهاء أفتوا بأن هذه الأسماء إنما يُعتَبَر فيها القصد والنية ، وأنَّ ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض ، وليس فيه ما يوجب النكير ولا المماثلة بين المخلوق والخالق ، وأن هذا اللقب جائز كما جاز أن يُقال : كافي الكفاة، وقاضي القضاة ، فإن كثيرين من أهل الجد والتدقيق لم يرضوا به ، وذكروا أن القاضي الماوردي منع من جوازه ، حتى أدى ذلك إلى أن انقطع عن خدمة جلال الدولة بعد أن كان مختصّاً به[2] . ولم يرض هلال الصابي عن تلقيب القادر بالله ابنه وولي عهده بالغالب بالله في عام ٣٩١ هـ ـ ١٠٠١ م ؛ وهو يذكر بعد حكايته لهذا تلك العبارة المعروفة التي كانت مكتوبة على قصر الحمراء : لا غالب إلا الله وحده لا شريك له[3] .

ولم تكن ثمة قيمة حقيقية إلا للألقاب التي يمنحها الخليفة ، وكان يُدفع له من أجلها الشيء الكثير ؛ وكان ذلك أكبر أبواب دخله في أواخر القرن الرابع الهجري ؛ فبعد أن لُقّب أمير بغداد بمالك الدولة في سنة

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٨٤ ب .

(٢) المنتظم ص ١٩٢ ب ـ ١٩٣ ا ، وطبقات السبكي ج ٣ ص ٣٠٥ ؛ وكان الماوردي من خواص جلال الدولة ،فلما أفتي بالمنع انقطع عنه ؛ فطلبه جلال الدولة يوما ، فمضى إليه على وجل وخوف ، فقال له الأمير : أنا أتحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتني لما بيني وبينك ؛ وما حملك على ذلك إلا الدين ، فقرّبك ذلك مني ، وزاد محلك عندي .

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ ، ويذهب الصولي (الأوراق ص ٣) إلى أن الألقاب مكروهة منهيّ عنها في كتاب الله وعلى لسان رسوله عليه السلام ، قال الله عز وجل : ولا تنابزوا بالألقاب .

٤٢٣ هـ ـ ١٠٣١ م بعث للخليفة ألطافا كثيرة ؛ وقد أرسلها قبل التلقيب، وإن كان قد أحب أن يلقّب أولا ثم يرسلها • وكانت هذه الهدايا ألفي دينار ؛ وثلاثين ألف درهم ، وعشرة أثواب خز ، ومائة ثوب ديباج مرتفعة ، ومائة أخرى دونها ، وعشرين منّا عوداً ، وعشرة أمناء كافوراً ، وألف مثقال عنبراً ، وألف مثقال مسكا ، وثلاثمائة مبخر صيني ، وأرسل أيضاً هدايا أخرى لبعض رجال الحاشية[١] •

وفي هذا العصر أيضاً ارتقت صور الأدب في حضرة الخلفاء حتى صارت على رسم بقي في جوهره مستمراً طول العصور • كان الخليفة المأمون حوالي سنة ٢٠٠ هـ يخاطب كما يخاطب أي رجل آخر بلفظ أنت[٢] • وكذلك كان يخاطب الخليفة المقتدر عادة حوالي عام ٣٠٠ هـ[٣]، وإن كانت تستعمل إذ ذاك طريقة الخطاب بضمير الغائب الى جانب ذلك، فكان يقال أمير المؤمنين أمر بكيت وكيت • وفي أواخر القرن الثالث لم يكن من السائغ أن يُخاطَب أيُّ رجل بمثل هذه البساطة ، وفي أوائل القرن الرابع لقي الخليفةُ المتقي الأخشيدَ صاحب مصر بالرقّة ، وقد حمل الأخشيد الهدايا ، وأظهر الخدمة والأدب ؛ وخاطب وزيرُ المتقي الأخشيدَ باسمه ، فأمره الخليفة بأن يكنّيه تأكيداً لقدره واحتراماً له[٤] • وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان الخليفة المعتضد لشدة هيبته إذا خاطب صديقه الطبيب ثابت بن سنان في الملأ سمّاه ، وإذا كان في الخلوات كنّاه[٥] • وكان المأمون يمد يده مسلماً

---

(١) المنتظم ص ١٨٤ ب من مخطوط برلين •

(٢) كتاب بغداد لطيفور ص ٩٤ ومواضع كثيرة •

(٣) انظر مثلا عريب ص ١٧٦ ، وكتاب الوزراء ص ٢٢٩ •

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٤٠ •

(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢١٦ •

على البطريق ديونيسيوس ، وهكذا كان يفعل بكل من يريد إكرامه[١] . ولما فارق مؤنس القائد الخليفة في أوائل القرن الرابع الهجري قبّل يده[٢] ؛ وكان من خاص التكريم في ذلك العهد أن يقبل الإنسان رجل من هو فوقه[٣] وكتف من يساويه[٤] . وكذلك سلّم الجواري من قبل على تليماكوس (Telemachos) بأن قبّلن كتفه وأعلى رأسه[٥] . وقد دعا الخليفة الراضي الأمير بجكم مرة ، فقبّل هذا القائد فخذ الراضي ويده[٦] .

وكان الأولون من مسلمي العرب يرون في تقبيل الأرض أمام المخلوقين اجتراء على حقوق الله ؛ ولما قدم على المقتدر بالله رسل ملك الروم أعفاهم من تقبيل البساط لئلا يُطالَب المسلمون بمثل هذا في بوزنطة[٧] . وفي حكاية ترجع إلى أوائل القرن الرابع أن رجلا صالحا كتب كتاباً لغلام من غلمان نازوك يستعطف فيه سيده ، بعد أن طرده ؛ فاستدعى نازوك ذلك الرجل ، فحضر مرتاعا ، وأهوى ليقبل الأرض ؛ فقال له نازوك ، وكان صاحب الشرطة : « مَه ، عافاك الله ، لا تفعل ، هذه من سنن الجبّارين ، ما نريد نحن هذا[٨] » . على أنه حوالي عام ٣٣٠ هـ لما لقي الأخشيدُ الخليفة المتقي في الرقة ترجّل عن بعدٍ ومشى كالغلام بسيفه ومنطقته وجعبته بين يدي الخليفة على سبيل

---

(١) Michael Syrus, S. 517.

(٢) الهمداني مخطوط باريس ص ١٠٢ ا (؟) .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٥٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٥٧ ، ٤٢٣ .

(٥) Odyssee, XVII, 35 ، وكذلك فعل لأوديسيوس رعاة الخنازير والبقر (XXI, 224)

(٦) الأوراق للصولي ص ٥٤ .

(٧) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة سلمون ص ٥٦ ، ويحكي مسكويه (ج ٥ ص ١٢٤) ذلك باقتضاب فيقول : فلما دخلا (الرسولان) قبّلا الأرض .

(٨) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٤ .

الخدمة ، وقبّل الأرض مراراً ، وتقدم فقبل يده ، ثم صاح به محمد بن خاقان : اركب يا محمد ، ثم صاح : اركب يا أبا بكر ، فقيل إن المتّقي قال لابن خاقان : كنّه ، فكناه للوقت ؛ ثم كان الأخشيد يقف بين يديه على سيفه ، وإذا ركب حجبه ، وجعل مقرعته على كتفه لأنه لم يخدم خليفة قط غيره ، وافتخر بذلك ؛ وقد أعجب الخليفة من فعله ، وقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة ، فاستخلف لك أونوجور ، وقيل إنه كنّاه أبا القاسم ، فقبّل الأرض مراراً ، وأهدى إليه الأخشيد هـدية أخرى على ما فعله بابنه أونوجور وتكنيته له[1] » ؛ وفي عام ٣٦٩ هـ ـ ٩٧٩ م تم في دار الخلافة تتويج عضد الدولة على أفخم صورة : جلس الخليفة الطائع على سرير الخلافة في صدر صحن السلام ، وحوله من خدمه الخواص نحومائة بالمناطق والسيوف ، وبين يديه مصحف عثمان ، وعلى كتفيه البردة ، وبيده القضيب ، وهو متقلّد بسيف ، ووقف الأشراف من الجانبين ؛ ودخل الأتراك والديلم ، ولم يكن مع أحد منهم حديد ؛ فلما وصل عضد الدولة أذن له الخليفة ، فدخل ؛ فلما وقع عليه طرفُ الخليفة قبّل الأرض بين يديه ، فارتاع أحد القواد لما شاهد ، وقال بالفارسية : ما هذا أيها الملك ، أهو الله عز وجل ! فالتفت عضد الدولة إلى من يفهّمه أن هذا خليفة الله في الأرض ؛ ثم استمر عضد الدولة يمشي ، ويقبل الأرض تسع مرات ، والتفت الطائع إلى خادمه ، وقال له : استدنه ، فصعد عضد الدولة وقبّل الأرض دفعتين ، فقال له الطائع : أُدْنُ إليّ أُدْنُ إليّ ، فدنا ، وأكبّ يقبل رجله وثنى الطائع يمينه عليه . وكان بين يديه سرير ، ومما يلي الجانب الأيمن الكرسي ، فقال له : إجلس ، مرتين ، فلم يفعل ، فقال له : أقسمتُ لتجلسنّ ، فقبّل الكرسي وجلس ، وبعد ملاطفة قال له الخليفة : قد رأيتُ أن

(١) المغرب لابن سعيد ص ٤٠ .

أفوّض إليك ما وكل الله تعالى إليّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي وما وراء بابي ، فتولّ ذلك مستجيراً بالله تعالى ، فقال له عضد الدولة : يعينني الله عزّ وجل على طاعة مولانا وخدمته ؛ ثم أمر الخليفة بأن تُفاض عليه الخِلَع، ويُتوّج ، فنهض عضد الدولة إلى الرواق ، فأُلبس الخلع وخرج ، وأمره الخليفة بالجلوس، ثم عُقدت له الألوية ، وقُرِيء كتابه ؛ ثم نصحه الخليفة بما أراد ، وقلّده سيفاً ، وخرج ؛ وبعد ثلاثة أيام بعث الخليفة إليه هدية فيها غلالة قصب وصينية ذهب وحردادي بلور : « فيه شراب ناقص كأنه قد شُرب بعضه ، وعلى فم الحردادى خرقة حرير مشدودة مختومة[1] » .

وكان إجلال الخليفة في مصر الفاطمية أعظم مما تقدم ، ففي سنة ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م قُرِيء سجل أحد القضاة في الجامع الأزهر ، « وهو قائم على قدميه،فكلما مرّ ذكر المعزّ أو أحدٍ من أهله أومأ بالسجود[2] ». ولما أُسند القضاءُ أيضاً في عام ٣٩٨ هـ — ١٠٠٨ م إلى مالك بن سعيد الفارقي قُرِيء سجله بالقصر ، وهو قائم على رجليه ، وكان القاضي كلما مر ذكر الحاكم في السجل قبّل الأرض[3] ، وقد أُمر الناس في الحرمين في إحدى السنين أن يقوموا عند ذكر هذا الخليفة ، وكان إذا ذُكر في الأسواق ومواضع الاجتماع بمصر قام الناس وسجدوا[4] . ولكن هذا الخليفة في آخر أمره أظهر الزهد فمنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ومن بوس اليد والارتماء بالسجود له ، ومنع من مخاطبته مولانا ؛

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١١٥ ب — ١١٦ ا .

(٢) ملحق اخبار الولاة والقضاة للكندي ص ٥٨٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٠٤ نقلا عن المسبحي .

(٤) المنتظم ص ١٥٠ ب .

ولكن هذه الرسوم عادت في زمن خلفه إلى ما كانت عليه من قبل[1] . ولما احتضر الحاكم وصّى أبا محمد الحسن بن عمّار أحد شيوخ كتامة ، ثم جعل له الوساطة ، وخلع عليه ، وكان الناس يذهبون إلى قصره ، فمنهم من يوميء بتقبيل الأرض ، ولا يقبل يده سوى أناس بأعيانهم ، وشرّف بعض الناس بتقبيل ركابه ، وكان أجل الناس من يقبل ركبته[2] .

وقد ضرب أحد رجال الحاشية في بخارى حوالي هذا العصر أحسن مثل للأدب وحسن الإصغاء للملك والإقبال عليه ؛ فبينما كان عنده يحادثه في بعض مهماته لَسَعَتْهُ عقربٌ في إحدى رجليه عدة لسعات ، فلم يتحرك ، ولم يظهر عليه أثر ذلك ؛ فلما عاد إلى منزله نزع خُفه ، وأخرج العقرب منها[3] . ونظر الأخشيد إلى كافور يوما ، وقد جيء بفيل وزرافة ، فمال جميع العبيد والخدم بأبصارهم للفرجة ، فلم تبرح عينه من عين الأخشيد خوف أن يحتاج إليه ويدعوه ، فيكون مشتغلا عنه[4] .

وقد تكلم المسعودي في عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م عن هذا الأدب في حضرة الملوك ، فقص علينا أن أبا بكر الهذلي حضر مجلس السفّاح ، وكان السفّاح مقبلا عليه يحادثه بحديث لأنو شروان في بعض حروبه ؛ فعصفت الريح فأذرت ترابا وقطعاً من الآجرّ من أعلى السطح إلى المجلس، فارتاع من حضر لوقعها ، والهذلي شاخص نحو السفاح ، لم يتغير من شدة ميل ذهنه وانشغال فكره بمحادثة الأمير، حتى لم يصبحْ فيه لحادثٍ

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٢ ب — ١٢٣ ا ، ١٣٢ ب — ١٣٣ ا .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٦ ، ويحكى مثل هذا عن الحجاج وعبد الملك بن مروان ؛ انظر محاضرات الأدباء طبعة بولاق ج ١ ص ١١٧ .

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٤٧ .

مجال"[1] . ويحدثنا أيضاً عن أحد سُمَراء شبرويه بن أبرويز أنه كان يساير الملك ، ويستمع حديثه مُصغياً إليه بجوارحه كلها ، حتى ترك النظر إلى موطيء حافر دابّته ، فزلّت إحدى قوائمها فمالت بالرجل الى النهر ، ووقع في الماء ، فسُرَّ الملك بذلك ، لأنه لم يكن يظنه بهذا المقدار من الإقبال عليه ، « فحشا فاه جوهراً ودُرّاً ، واستبطنه ، حتى غلب على أكثر أمره[2] » .

وكان الأمراء في مخاطباتهم الرسمية وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة ، أمير المؤمنين ، بكل احترام ، ويعبّرون في كلامهم عنه بمولانا ، ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع « المولى[3] » ؛ وكان أحدهم إذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو : « كتابي ومولانا أمير المؤمنين سالم موفور والله على ذلك محمود مشكور[4] » ، وكان كل شيء يُنسب إلى أمره[5] .

وفي سنة ٣٧٨ هـ أهدى الصاحب بن عبّاد إلى فخر الدولة في أول المحرم ديناراً وَزْنُه ألفُ مثقال ، وكان على أحد جانبيه أبياتٌ من الشعر ، وعلى الجانب الآخر سورةُ الإخلاص ولقبُ الخليفة الطائع لله

---

(١) يحكى شيء يشبه هذا عن ابي القاسم الكعبي في حضرة امير خراسان ، محاضرات الادباء ج ١ ص ١١٧ .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ – ١٢٥ .

(٣) ولم يكن الواحد منهم يسمي نفسه عبدا ، كما فعل تكين صاحب مصر ، حتى عام ٣٠٠ هـ – كتاب العيون ص ١٢٥ ب (؟) .

(٤) انظر مثلا رسائل الصابي مخطوط رقم ٧٦٦ بمكتبة ليدن ص ٧٢ ب ، ٩٠ ب ، ١٢٩ ا .

(٥) انظر مثلا نفس المصدر ص ١٢٥ ا : « وانهينا ذلك إلى مولانا أمير المؤمنين ، وخرج إلينا أمره لا زال عالياً وسلطانه سامياً ... » ، وص ٢٠٣ ا : « ولم يزل أكرمكم الله مولانا أمير المؤمنين يتطلع اخباركم ... ويرى فيكم ما يراه في كافة المسلمين من حماية حريمكم وصيانة جميعكم ... ويجارينا أعزّه الله ذلك من نيته ... ويهيب بنا إلى الذب عن دياركم ... »

ولقبُ فخر الدولة واسمُ جرجان ، لأنه ضرب فيها ؛ هذا مع أن الإهداء كان بالريّ ، في مكان طهران الحالية ، مع بعدها عن دار الخلافة[1] .

ولكن أمير المؤمنين كان عند التقائه بالأمراء يرى ضعفه المتزايد ونقصان منزلته ؛ ومن ذلك أن بجكم القائد التركي كان من عادته في داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءوه به إلا بعد أن يذوقه بين يديه من جاء به ؛ وعلم الخليفة الراضي بذلك،فاستعمل معه ما يعمل له في منزله؛ فكان إذا حمل شيء وضع بين يدي الراضي أولاً ، فأكل منه ؛ ثم يوضع بين يدي بجكم ، وجرى ذلك في كل ما يوضع بين يديه ، وكان بجكم يستعفي الراضي من هذا فلا يعفيه[2] .

وقد تعرض بلاط الخلافة الأكبر ما أنقص هيبته في عهد المستكفي (٣٣٣ ــ ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ ــ ٩٤٦ م) لأنه وقع في سلطان امرأة فارسية مستبدة تسمى حسن ، « والتفت إلى حسن نفر" ممن كانوا معها على الأصول القبيحة ... وكانت تتولى عرض الغلمان والحجاب في قصر الخليفة في مجلس يقال له الحودان ، لم يكن يصل إليه أحد إلا وزير أو صاحب ، فانخرقت الهيبة بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التي كانت للخلافة ، وصارت الدار طريقاً لكل من لم يرَها ، وكان كل من وصل إلى المستكفي أجلسه بين يديه ... » ؛ وأرادت هذه المرأة أن تأمن توزون وتصلح قلبه ، فجعلت الخليفة يدعوه ويكرمه بما لم يسمح به أحد من الخلفاء قبله ؛ فكان يأكل معه على مائدة واحدة ، ويقدم له دابةً في الرواق التسعيني ، وهو موضع لم يركب منه خليفة قط ؛ وأمر أن تحمل بين يديه شمسةُ الخلافة وأن يسير الخدم معه إلى

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

(٢) الأوراق للصولي ص ٥٤ .

داره[1] ؛ وكان من سوء حظ الخلفاء أن الديلم الذين ملكوا بغداد كانوا شيعة ، فازداد أمر الخلافة إدباراً ، وذهبت حرمة الخلفاء ، ولم يبق لهم من الأمر شيء ؛ لأن الديلم « كانوا يتشيعون ويتغالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة ، وأخذوها من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعث ديني على الطاعة[2] » . وقد كان ثوار دار الخلافة حتى ذلك الوقت هم الذين يخلعون الخلفاء ويقتلونهم ؛ أما الآن، بعد قدوم الديلم ، فقد صار الخليفة يعامل أمام الناس جميعاً معاملة سيئة ، لا تراعى له فيها حرمة ولا يعرف له فيها قدر ففي سنة ٣٣٤ هـ ـ ٩٤٥ م ذهب الأمير معز الدولة إلى دار الخليفة ، وذهب إليها سائر الناس على رسمهم ؛ فلما جلس المستكفي على سريره ، ووقف الناس على مراتبهم ، دخل الأمير معز الدولة ، فقبل الأرض على رسمه ، ثم قبل يد المستكفي ووقف بين يديه يحدثه ؛ ثم جلس على كرسي ، فتقدم نفسان من الديلم ومدا أيديهما إلى المستكفي ، وعلا صوتهما بالفارسية؛ فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما ، فجذباه بها وطرحاه إلى الأرض ، ووضعا عمامته في عنقه ، وجراه ؛ فنهض حينئذ معز الدولة ، واضطرب الناس وارتفعت الزعقات ، وافتتنت دار السلطان ، وضربت الأبواق ، وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة حيث سملت عيناه[3] .

وفي ٣٦٤ هـ دخل عضد الدولة بغداد ، فكان من حسن سياسته أنه سعى حتى رد الخليفة بعد أن أخذه الأتراك معهم كارهاً ؛ وخرج للقائه في الماء ومعه حشد عظيم من أهل بغداد ، وسار معه حتى أنزله

---

(١) كتاب العيون ص ٢٢٤ ا ـ ٢٢٦ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣٩ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ب ، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

بدار الخلافة[1] ؛ ولكن عضد الدولة طلب من الخليفة فيما بعد ، لما رجع إلى بغداد عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م ، أن يخرج للقائه إلى جسر النهروان ، « ولم تكن العادة جارية بخروج الخلفاء لتلقي أحد من الأمراء[2] » .

وكانت حاشية دار الخلافة ونفقاتهم في عهد الخليفة المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠١ م كما يلي :

١ — أمراء بيت الخلافة .

٢ — أصحاب النوبة من الرجّالة ، وأرزاقهم في كل يوم ألف دينار، منها سبعمائة دينار للبيضان ، وهم البوّابون ، وثلثمائة للسودان ، وأكثرهم مماليك الخلفاء[3] . ومن رسمهم أن ينوبوا في مصافّ باب الخاصة وحوالي القصر.ولهم وظيفة خبز يتميّزون بها لقلة أرزاقهم[4].

٣ — الغلمان المعتقون ، وهم في الغالب مماليك الخلفاء ؛ ومنهم يختار الحجابُ ، وعدّتهم خمسة وعشرون ، وخلفاء الحجاب ، وكانوا نحو خمسمائة[5] . ولما قتل المقتدر كان معه رجل من خلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فذُبح أيضاً[6] . وفي سنة ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م أُنشيء لأول مرة منصبُ حاجب الحجاب[7] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧ .

(٢) المنتظم ص ١١٧ ا — ب .

(٣) وفي مصدر آخر لا ينطبق ما فيه على حقيقة الواقع تماماً أن عدد هؤلاء الغلمان السود غير الخدم أربعة آلاف (تاريخ بغداد طبعة Salmon ص ٥١) .

(٤) انظر في هذه الأصناف كلها كتاب الوزراء من ص ١١ إلى ص ٢١ .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٥٤١ ، وتاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩ ، ٥١ .

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ .

(٧) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٩٥ .

٤ ـ الختارون ، وهم حرس مستخلصون للموكب وملازمة الدار والدخول أوقات جلوس الخليفة ، والمقام من أول النهار إلى آخره . وكان جند كل قائد ببغداد بما فيهم مماليكه المسلحون يؤلّفون وحدة قائمة بذاتها ؛ فاختار الخليفة من قيادة من عُرف بالشهامة والشجاعة ، وسمّوا بأسماء قوادهم ، فقيل اليأنسيّة (وذلك نسبة ليأنس) ، والمُفلحية والمسرورية وهكذا . على أنه كان للمعتضد مماليك يقيمون في القصر والحُجَر تحت مراعاة الخدم والأستاذين وسمّاهم الحُجَرية؛ وهم يُختارون من بين الفرسان الذين يحسنون الركوب والرمي ويسمون أيضاً عسكر الخاصة . وكان لخمارويه بمصر قوم معروفون بالشجاعة وشدة البأس اتخذهم حرساً له ، وسماهم المختارة ؛ فكانوا يقاتلون أمام جنده ، وإذا ركب مشوا خلفه [١] .

٥ ـ أصناف أخرى من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأخبار والمؤذّنين والمنجّمين والفنجاميين والفرانقيين والأنصار والحرس وأصحاب الأعلام والبوقيين والمخرّقين والمضحكين والطبّالين والسقايين والطباخين والخبازين وخزنة السروج وعمال الاصطبلات الخمسة ـ خامسها للإبل ـ وأصحاب الصيد والملاّحين في الطيارات ، وخَدَمَة المشاعل والأطباء .

٦ ـ الحُرَم ، وأرزاقهن في اليوم مائة دينار ؛ وليس عندنا معرفة دقيقة بعددهن . وقد ذكر الخوارزمي ما زعمه البعض من أن المتوكل كان له اثنا عشر ألف سرية[٢] ، ويقول المسعودي إنه كان له أربعة آلاف سرية ، وفي أحد المخطوطات أربعمائة[٣] ؛ وكان على رأس نساء القصر

---

(١) نفس المصدر ص ٦٥ .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٣٧ .

(٣) المروج للمسعودي ج ٧ ص ٢٧٦ .

حوالي عـام ٣٠٠ هـ قهرمانتان ، إحداهمـا للخليفة والأخرى للسيدة والدته ؛ وكان يسلم للأولى كبارُ المعتقلين ليُحْبَسُوا عندها مكرَّمين حبساً هيّناً ؛ فمثلا وُكّل بابن الفرات حوالي ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م عند زيدان القهرمانة[١] ، كما سُلّم إليها الأميرُ الحسين بن حمدان ، والوزير علي بن عيسى سنة ٣٠٣ هـ ــ ٩١٥ م[٢] .

وكان اتخاذ الخليفة نساءً مـن غير مبالاة بأصلهن ، وإن كان معظمهن من جواري الترك والروم ، سبباً في إيجاد كثير من الاضطراب في البلاط وفي المناصب الإدارية العليا؛فكانت كل سيدة تحابي من يتصل بها من الأقارب والأولياء ، وترفعهم ما استطاعت ؛ ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدي كتب إلى عامل جرش في إشخاص الغطريف بن عطاء أخي الخيزران أم موسى وهارون ابنيه ؛ وكان الغطريف غلاماً لرجل من أهل جرش ، فأعتقه ، وكان يؤاجر نفسه بنظر كروم ؛ فحباه العامل وكساه ، وحمله إلى المهدي ، فرفع منزلته ، ثم ولاّه على اليمن[٣].وكان للمقتدر خـالٌ رومي يسمى غريب ، وكان له نفـوذ كبـير وكان يُخَاطَب بالإمنرة[٤] . وفي سنة ٣٠١ هـ استطاعت أم موسى الهاشمية قهرمانة السيدة أم الخليفة أن تسعى في إسناد نقابة بني هاشم الطالبيين والعباسيين لأخيها؛فضجّ الهاشميون حتى ردّوا النقابة إلى ابن النقيب السابق[٥]. وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من المنازعات مصدرها أمُّ الخليفة ؛ وقد ذاق المتصلون بالخليفة وبالَ ذلك ، حتى إن الخليفة كان يُنتخب أحيانا

---

(١) عريب ص ١٠٩ ، كتاب الوزراء ص ١٠٥ .

(٢) كتاب العيون ص ٨٥ ا ، ٨٦ ا .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨١ من الطبعة الأوربية .

(٤) عريب ص ٤٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٧ .

لأنه لا أمَّ له رجاء أن تستقيم الأمور معه[1] .

وكان في دار المقتدر حوالي عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م أحد عشر ألفاً من الخدم الخصيان[2] ، وفي رواية أخرى أنه كان بها سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب[3] ، وفي مصدر قديم موثوق به أن خدم المتوكل وحاشيته كانوا سبعمائة[4] .

وقد جرى أباطرة الدولة الرومانية في العصر المتأخر على عادة الفرس القدماء ، فجمعوا حولهم جماعة يدعونهم إلى الطعام والشراب ، وسموهم « أصدقاء الإمبراطور » ؛ وكذلك فعل الخليفة المأمون لما ورد إلى بغداد ، فإنه أمر بأن تثبت له أسماء من يصلح لمنادمته من أهل الأدب[5] . وقد آثر أن يكونوا من العلماء والقوّاد وممن جالس الخلفاء. وكذلك حاول القائد بجكم أن ينتفع بندماء الخليفة الراضي ، فلم يجد من ينفعه إلا الطبيب سنان بن ثابت[6] . وكان للخليفة المعتمد (٢٥٦ ــ ٢٧٩هـ = ٨٦٩ ــ ٨٩٢م) مع ندمائه مجالسات ومذكرات قد دُوِّنت في أنواع من الأدب ، فيها مدح النديم وذكر فضائله وذمّ التفرد بشرب النبيذ وما قيل في ذلك[7] ، وكان للندماء أرزاق[8] .

---

(١) عريب ص ١٨١ ، وكتاب العيون ص ١٣١ ب بالترقيم العربي (أ) ، وقد توفيت والدة القاهر نفساء (كتاب العيون ص ١٦٦ أ) .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩ ، نقلا عن القاضي التنوخي (المتوفي عام ٤٤٧ هـ ــ ١٠٥٥ م) ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٣) تاريخ بغداد ص ٥١ .

(٤) كتاب الديارات للشابشتي ص ٦٨ ب .

(٥) نفس المصدر ص ٢١ ب .

(٦) مسكويه ج ٦ ص ٢٦ .

(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٢ ، ويحكي لنا الشابشتي (ص ٨٠ أ) أن المأمون اراد يوماً ان يتسلى مع ندمائه ، فأمر بإحضار اللحوم وآلة الطبيخ وطلب من الندماء ان يطبخ كل واحد منهم قدراً ، وطبخ هو ايضاً قدراً .

(٨) الفهرست لابن النديم ص ٦١ .

وقد وصف لنا الصولي أول جلسة للخليفة الراضي (٣٢٢ — ٣٢٦ هـ = ٩٣٦ — ٩٤٠ م) مع أصحابه : كانوا يجلسون على رسم وترتيب مخصوص ، وكانوا في أول جلسة أربعة عن يمينه وخمسة عن يساره ؛ فكان على يمينه قريبا إليه إسحاق بن المعتمد أحد الأمراء ، ويليه الصولي، الأديب ولاعب الشطرنج المشهور، ثم أحمد بن محمد العروضي الذي كان مرسوما بتأديب أبي إسحاق المتقي أمير المؤمنين،ثم يليه محمد ابن عبد الله بن حمدون ، أحد أبناء الأشراف المتصلين بالبلاط ؛ وكان على يساره ثلاثة من آل المنجم وهم من أدباء الحاشية ، واثنان من بني البريدي العمال المشهورين ، وكانا يعلّمان الخليفة الخط . وقد افتُتح المجلسُ بإنشاد قصائد بمناسبة تقليد الخلافة ، ثم تكلم الخليفة ، فشكا ثقلَ العبء الذي ألقاه عليه هذا المنصبُ بسبب قلّة الأموال وتغيُّر الأحوال وكلَب الجند وخراب الدنيا ؛ وذكر أنه يستصحبه من الغم والأسف والاهتمام أكثر مما يؤمل من السرور،ورجا الله أن يعيله بجميل نيته . وكان مما قاله : والله لقد جاءني هذا الأمر ، ولا شرعتُ فيه ، ولا جئتُه ، ولا عُلم إليه ذلك مني في سر ولا علانية ، ثم تحدث عن إعناتِ القاهر له وخوفِه من قتله إياه في ليله ونهاره ، إلى أن قال : أليس بابن المعتضد وأخ المقتدر وعمّ لنا ؟ هذا والله عار وعيب لا يُزال ، فقال له الصولي : قد أزال الله عن سيدنا كلّ عيب ؛ وله في رسول الله أسوة حسنة ؛ هذا عمه أبو لهب أنزل الله فيه سورة من القرآن يعرفها كل إنسان ، فما لحقه عاره . يقول الصولي : « فكنا بين يديه في ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل نشرب ، وكان هو لا يشرب ، قد ترك النبيذ جملة » ؛ وكان لكل من الفريقين اللذين على يمينه وعلى يساره في أول جلسة نوبة خاصة به ؛ ويظهر أن بعض النوبة كانوا يحضرون النوبة الأخرى أحيانا[1] . ويقول الصولي : إن ما امتاز به الراضي في مجالس

(١) الاوراق للصولي ص ١١ — ٢٦ ، ١٤٣ .

منادماته أنه كان يأمر بأن توضع بين أيدي الندماء الصواني عليها خماسيات المطبوخ ، والمغاسل ، وكيزان الماء ، ليشرب كل واحد منهم ما يريد . « ولم يكن يفعل ذلك الخلفاء إلا خصوصا بالواحد بعد الواحد[1] ، وبالجماعة في وقت من الدهر » . وكان يأمر أن توضع بين أيديهم الفواكه الرطبة واليابسة ، فينالوا منها كما ينالون في بيوتهم ؛ بل يحكي الصولي أن الندماء كانوا يتبارون في الشرب بين يديه ، فيُسَرّ بذلك ، ويثيب عليه ، ويقول : مَن زاد في شربه فإنما فعل ذلك سروراً بنا ونشاطا لمجلسنا ، وكان إذا شرب أحد المتبارين كأساً قبل صاحبه رفعها ليراها الراضي ؛ وقد فعل اثنان منهما ذلك مراراً إلى أن ضجر الراضي فقال : كأنها قوارير بول تدفع بين يدي طبيب[2] .

وكان لكل سلطان من السلاطين أمارة" لندمائه ، إذا أراد نهوضهم، فكان أردشير إذا تمطّى قام سُمّاره ؛ وكان يزدَجرد يقول : شَبْ شُدْ (ومعناها تقدّم الليل) ؛ وكان سابور يقول : حسبك يا إنسان ! وكان عمر يقول : قامت الصلاة ؛ وعبد الملك : إذا شئتم ؛ والرشيد : سبحان الله ؛ وكان الواثق يمسُّ عارضيه[3] .

وكانت نفقات دار الخلافة عظيمةً جداً ؛ فكانت نفقات المطابخ والمخابز عشرة آلاف دينار في الشهر . وكان يطلق في كل شهر في جملة نفقات المطبخ لثمن المسك وحده ثلثمائة دينار ، مع أن الخليفة لم يكن يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يطرح له إلا اليسير في الخشكنانج ؛ وكان

---

(١) فمثلا كان لكل نديم من ندماء الواثق (٢٢٧ - ٢٣٣ هـ = ٨٤١ - ٨٤٧ م) نوبة لا يحضر إلا فيها - الاغاني ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) الأوراق للصولي ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) محاضرات الادباء ج ١ ص ١٢١ .

يُصرف للسقّايين مائة وعشرون ديناراً في الشهر ، ومائتا دينار لثمن الشمع والزيت ، وثلاثون ديناراً للأدوية ، وثلاثة آلاف دينار نفقات خزائن الكسوة والخِلَع والطيب وحوائج الوضوء والحمّام ونفقات خزائن السلاح وما يُرمّ من الجراشن والدروع ويتّخذ من النشاب والأعلام ونفقات خزانة السروج والفرش[1] .

وكانت نفقات دار الحُرم التي بناها خمارويه عظيمة جداً ، وكان يفضل عن حاجات من فيها الشيء الكثير للخدم والطباخين . واشتهر بيعُهم لذلك ، « وكان شيئا موجوداً في كل وقت لكثرته واتساعه ، بحيث أن الرجل إذا طرقه ضيفٌ خرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله »[2] .

ولما قعد القاهر في الخلافة أظهر من الجد والاختصار والقناعة ما هابه به الناس،فلما عُرضت عليه صنوف الألوان والحلواء والفاكهة التي كانت توضع بين أيدي الخلفاء في كل يوم استكثرها ؛ وكانت تبتاع بثلاثين ديناراً ، فأمر بأن يُقتصر من ذلك على دينار واحد ومن الطعام على اثني عشر لوناً . وكان يقدّم لغيره في كل يوم ثلاثون لوناً من حلواء فاقتصر على ما يكفيه[3] .

وفي ذلك العصر كانت أيام العسر قد أقبلت ؛ ففي عام ٣٢٥ هـ — ٩٣٧ م أنقص عدد الحجّاب من خمسمائة إلى ستين[4] ؛ وفي سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م استولى معز الدولة على كل الأمور المالية من يد

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢ .
(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣١٧ — ٣١٨ .
(٣) عريب ص ١٨٣ .
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٥٤١ .

الخليفة ، وأقام له لنفقته كل يوم ألفي درهم[1] ، وهو أقل من نصف ما كان يحتاج إليه[2] . وبعد ذلك بسنتين قطع عن الخليفة الألفي درهم وعوّضه عنها ضياعاً من ضياع البصرة وغيرها زيادة على قدر ضياع الخليفة بنحو مائتي ألف دينار في السنة ؛ ثم نقص ارتفاعُها على ممر السنين إلى أن صار خمسين ألف دينار في السنة[3] .

ثم جرت العادة منذ عام ٣٣٤ هـ ــ ٩٤٥ م أن تُنهب دار الخلافة بعد موته أو خلعه حتى لا يبقى فيها شيء[4] . وفي سنة ٣٨١هـ ــ ٩٩١م لما خُلع الطائع حُوِّل ما كان في دار الخلافة من المال والثياب والأواني والمصاغ والفروش والآلات والرخام والخشب والساج والتماثيل والأبواب والشبابيك والرصاص حتى خلت دار الخلافة[5] . وكان العامة من الرومان يطلقون لأنفسهم العنان لمثل هذا الصنيع عند موت البابا .

ونلاحظ هنا تشابهاً يستلفت النظر بين الخليفة والبابا ، وذلك أن الخليفة في هذا العصر صار رئيسا روحيا فقط ليس له سلطة سياسية ، وصار الرئيس الروحي لجميع المسلمين، وكان تقلّص سلطانه عن العراق، حتى لم يبق له إلا بغداد ينازعه عليها المنازعون ، مما أسرع في جعل

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ١٢٥ .

(٢) كانت نفقات الحضرة في أيام المعتضد سبعة آلاف دينار في كل يوم (كتاب الوزراء ص ١٠) ، وفي سنة ٣٣٠ هـ ــ ٩٤١ م قدر لسائر نفقات دار الخلافة مائة وخمسون ألف درهم في السنة (كتاب العيون ص ٢٠٣ ا) .

(٣) المنتظم ص ٧٨ ب .

(٤) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ب ــ ٨٧ ا ، ومسكويه ج ٦ ص ١٢٤ . ولما مات الراضي أرسل بجكم القائد إلى دار الخلافة ، وأخذ فرشاً وآلات كان يستحسنها (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٧٦) ، ولما خلع الوزير في عام ٢٩٩ هـ ــ ٩١١ م نهبت داره وأخربت (كتاب الوزراء ص ٢٩ والمنتظم ص ٤٠ ا) .

(٥) المنتظم ص ١٣٠ ب وابن الأثير ج ٩ ص ٥٥ ، ٥٦ .

منصب الخليفة روحيا دينيا • ففي سنة ٤٢٣ هـ ـــ ١٠٣٢ م نزل السلطان جلال الدولة من داره على سكر ؛ وانحدر في سميرية ، ومعه ثلاثة نفر من حاشيته ؛ وصعد إلى بستان دار الخلافة ، وجلس مع بعض مغنياته تحت شجرة ، واستدعى نبيذاً فشربه ، وأمر الزامر أن يزمر ؛ وعرف الخليفة ذلك فشقّ عليه وأزعجه ، فأرسل للسلطان قاضيا وحاجبا فقالا له : إن النبيذ والزمر مما لا يجوز في هذا الموضع على مقربة من الخليفة؛ فلم يقبل كلامهما ، ولم يمتنع ؛ فتغيّظ الخليفة ، وأرسل له كلاما غليظا ، وأفهمه أن هذه السيرة تشين الخلافة ، وهدّد بمفارقة البلد ؛ فحضر الوزير واعتذر[1] ؛ على أن الدور الذي كان للخليفة في هذه العصور الأخيرة كان بسيطا ، لا يشبه منصب رئيس الكنيسة ؛ إذا قورن بإمبراطور بوزنطة الذي كان يُحَيّى في ميدان الألعاب بوصف أنه داود الثاني أو الرسول بولس الثاني ؛ وكان يُحتفى به كما يحتفى بكبار القسس ؛ وكان يمضي يومه بين الكنائس والمذابح وصور القديسين ، كما يدّل على ذلك كتاب De Caerimoniis

*

(١) المنتظم ص ١٨٥ ا ـ ب .

الفصل العاشر

الأشراف

كان العرب يقولون : الشرف نَسَب" ، يقصدون أنه في الدم ؛ وأول ما يجب أن يتوفر للسيد أن يكون جواداً شجاعاً ، ومن خصاله أن يكون عاقلاً متغافلاً ... كما قال الفرزدق :

كأن فيه إذا حاولتَه بَلَهاً عن ماله،وهو وافي العقل والورع

وكما قال الشاعر :

ليس الغبيُّ بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي[1]

ولا بد أن يكون عظيم الرأس ، ومن لم يكن عظيم الهامة فليس بسيد[2] ـ كالكاتب فمن صفته أن يكون صغير الهامة[3] ـ ومن صفاته أن يكون كثّ شعر الناصية ، أشمّ عرنين الأنف ، واسع الأشداق[4] ، غير مستدير الوجه ، عريض الصدر والمنكبين ، مديد الساعد ، طويل الأنامل[5] . ويكره في السيد التصنع في اللباس والمشية ؛ ولذلك يقال:

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر ٢٧٠ .

(٣) صبح الأعشى للقلقشندي طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م ج ١ ص ٦٧ .

(٤) وهذه أيضاً صفة كرام الخيل .

(٥) ومن صفات رأس الجالوت (رئيس اليهود) أن يكون طويل الباع تبلغ أنامله ركبتيه (مجلة الأبحاث اليهودية مجلد ٥٩ (١٩١٠) ص ١٢١ وما يليها ؛ ومفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٣٥) ؛ ومن صفات المهدي عند السنوسيين بإفريقية أن تبلغ أنامله الأرض ، (انظر M. Hartmann, Af. R. 1, S. 266.)

« عمامة السيد ملوثة (أو ملوية) أي يديرها على رأسه كيفما اتفق[1] » .
ويحكى عن الفضل بن يحيى أحد رجال الحاشية في العصر العباسي أنه قال : « الناس أربع طبقات : ١ ـ ملوكٌ قدّمهم الاستحقاقُ ، ٢ ـ ووزراء فضّلتهم الفطنةُ والرأي ، ٣ ـ وعِلْيَةٌ أنهضهم اليسار ، ٤ ـ وأوساطٌ ألحقهم بهم التأدُّب ؛ والناس بعدهم زبدٌ جُفاء ، وسيل غُثاء ، لُكَعٌ ولُكاع ، وربيطةٌ اتّضاع ، همُّ أحدهم طعمه ونومه[2] .

وكان الشرف والسيادة نتيجة للمال وللسيطرة السياسية ، وهما شيئان في غاية الدناءة . وقد أهمل المسلمون مسألة الدم وخصوصاً دم الأم إهمالا شديداً ؛وذهبت قلة الاكتراث بذلك إلى حد أن جميع الخلفاء في القرنين الثالث والرابع للهجرة كانوا أبناء جوار من الترك أو الروم ؛ وكاد رجلٌ أسود في أوائل القرن الثالث الهجري أن يرتقي إلى عرش الخلافة[3] .

على أن الإسلام أوجد نوعا من شرف الدم لا يزال باقيا إلى عصرنا هذا ، وذلك في قرابة النبي أو بني هاشم أو أهل بيت رسول الله أو « أهل البيت » باختصار ؛ وكانوا يأخذون ، باعتبارهم قرابة النبي ، راتبا من الحكومة ، وكذلك حرمت عليهم الصدقة هم ومواليهم[4] .

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ، مخطوط برلين رقم ٩٥٠٧ ص ١٤ ب ومخطوط رقم ٦٠٣٢ ص ١٥ ب ، وهذا الكتاب لابن ظفر المكي المتوفى عام ٥٦٥ هـ ـ ١١٧٠ م .

(٢) مختصر كتاب البلدان لأبي بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه ، طبعة ليدن عام ١٣٠٢ هـ ص ١ .

(٣) هو إبراهيم بن المهدي ، وأمه أم ولد سوداء ، وكان شديد السواد برّاق اللون طويلا بديناً ، حتى كان ينبز بذلك (مطالع البدور للغزولي ج ١ ص ١٣ ؟) .

(٤) رسائل الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٧ .

وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذي يعيّنه الخليفة[١] . وكان لهم نقيب لا في بغداد فقط ، بل في جميع المدن الكبرى مثل واسط والكوفة والبصرة والأهواز[٢] . وفي سنة ٣٥١ هـ ـ ٩٦١ م كانت نقابة الطالبيين بمصر للشاعر أبي القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل طباطبا[٣] . وكان نقيب العلويين في عهد الفاطميين أيضاً من كبار رجال دار الخلافة[٤] . وقد انتهى إلينا كتاب بتقليد أبي أحمد الحسين بن موسى نقابة الطالبيين سنة ٣٥٤ هـ ـ ٩٦٥ م ، ونرى من هذا الكتاب أن النقيب هو الذي يحكم أيضاً في النزاع بين الطالبيين وبين سائر رعية الخليفة[٥] .

وكان الفرعان المتعاديان من أهل البيت ، وهم العباسيون الذين وصلوا إلى الرياسة ، والطالبيون الذين لم يبلغوها ، يخضعون جميعا لنقيب واحد حتى القرن الرابع[٦] . وفي آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيب خاص ؛ والسبب الأقوى في ذلك أن العباسيين بدأ أمرهم في الضعف وبدأ الآخرون في القوة ، فلم يستطيعوا أن يحتملوا إشراف أحد على أمرهم ؛ وقد مهدت ظروفُ ذلك العصر الطريقَ لما عليه الأشرافُ اليوم .

وكان كل من العلويين والعباسيين يخاطَب بالشريف[٧] ؛ ولم يكن للعلويين شارةٌ يتميزون بها كما تدل على ذلك الحكاية التي أوردها

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ، طبعة إنجر ص ١٦٥ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ١١٥ ب .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

(٤) Becker, Beiträge, 1, S. 33 نقلا عن المسبِّحي .

(٥) رسائل الصابي طبعة بعبدا (لبنان) ١٨٩٨ ص ١٥٣ .

(٦) عريب ص ٤٧ .

(٧) فيما يتعلق بالعلويين انظر كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ٤٣ ، والارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٦ وفيما يتعلق بالهاشميين انظر المنتظم لابن الجوزي ص ٩٢ ب .

عريب بن سعيد القرطبي في كتـــابه صلة تاريـــخ الطبري[1] ؛ أما اللون الأخضر فلم يجعل شارة لهم إلا أخيرا في القرن الثامن الهجري[2] .

وكان يُعطى لكلواحد من بني هاشم ببغداد دينارٌ في كل شهر فيعهد المعتمد (٢٥٦ ــ ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ ــ ٨٩٢ م) ؛ أما الذين خرجوا من بغداد فقد تركوها خواة الوفاض . ثم اقتصر الخليفة المعتضد على رُبع دينار . وكان عدد بني هاشم بالحضرة أربعة آلاف نفس ، وجملة الجاري لهم ألف دينار في الشهر[3] ؛ وفي سنة ٢٠٩ هـ ــ ٨٢٤ م أحصي عدد العباسيين ، فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفا[4] ؛ على حين أن الجاحظ حوالي ذلك الوقت يقول : « إنّ آل أبي طالب أُحصوا منذ أعوام وحصلوا ، فكانوا قريبا من ألفين وثلاثمائة »[5] .

وكان يجرى لمشايخ الهاشميين راتب خَاص يذكر في الميزانية مع أرزاق الخطباء في المساجد الجامعة ؛ وجملة ذلك ســـتمائة دينار في الشهر[6] . وكان لأولاد الخلفاء جارٍ خاص ، وإن كان قليلا ؛ فكان المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩هـ = ٨٩٢ ــ ٩٠٢م) يجري على أولاد المتوكل وأولادهم رجالا ونساءً ألفَ دينار في الشهر ، وكان يعطي أولاد الواثق والمهتدي والمستعين ومن في قصر أم حبيب خمسمائة دينار في الشهر ،

---

(١) عريب ص ٤٩ .

(٢) انظر الفصل الخاص بالشيعة .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٤) الطبري ج٣ ص ٩٦٩(أ) وكتاب العيون ص ٣٥١(أ) ، ولعله يشير إلى الجزء المطبوع.

(٥) كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطاني ص ٢٠٧ ا .

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

وأجرى على ولد الناصر عبد الواحد وإخوته خمسمائة دينار أيضا[1] .
ولذلك لم يَخْلُ العلويين من بعض المخاطرين الساخطين ، وكانت بخارى مركز هذه الجماعة الذي إليه يأوون ، لأنه كانت ببخارى أكبر حكومة غير شيعية بعد بغداد . وفي حوالي سنة ٣٨٠ هـ التقى ببخارى بعض أولاد الخلفاء مثل أبي طالب المأموني وأبي محمد الواثقي ، وابن المهدي وابن المستكفي[2] . وكان أبو محمد الواثقي يشهد بنصيبين عند الحكام والقضاة ، وإليه مع الشهادة الخطابة في المسجد الجامع ؛ ثم أفسد على القاضي أمره ، فأخرج من بغداد ، فقصد خراسان راجيا أن يقلّد قضاء أو ديوان بريد ؛ فلم ينل ما أراد ، فذهب مغاضباً يتوغل في بلاد الترك ، حتى ألقى عصاه بحضرة بغراخاقان ، وافتعل مع رجل آخر كتاباً عن الخليفة بتقليده العهد بعده ، حتى اضطر الخليفة أن يكتب بتكذيبه إلى خراسان وسائر الأطراف ؛ ولم يزل الواثقي يزيّن لبغراخاقان إزالة الدولة السامانية والاستيلاء على المملكة ؛ وبنى التدبير على أن تكون له الخلافة ، ويتقلد التركي أعمال خراسان وما وراء النهر من يده ؛ فألم التركي في جيوشه ببخارى واستولى عليها ، ولكنه مات قبل تحقيق نهاية التدبير ، وعاد الواثقي إلى بغداد سراً بعد فشل تدبيره ، ولكن الخليفة فطن إليه واضطره إلى الخروج ، فعاود بلاد الترك ، وتقلّبت به الأحوال ، حتى قبض عليه يمين الدولة محمد بن سبكتكين ، وحبسه في إحدى القلاع موسّعاً عليه ، حتى مات[3] . أما المأموني فكان أيضاً يسمو بهمته إلى الخلافة ويمَنّي نفسه قصد بغداد في جيوش تنضمّ إليه من خراسان لفتحها ، فاقتطعته المنية دون بلوغ الأمنية ، ولم يكن بلغ

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٨٤ – ٨٧ ، ١١٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢١ وما يليها ، ويتيمة الدهر ج ٤ ص ١١٢ – ١١٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١١٧ – ١١٨ .

الأربعين ، وكانت وفاته سنة ٣٨٣ هـ ـ ٩٩٣ م[١] . ثم حاول محمد بن الخليفة المستكفي الذي خلع سنة ٣٣٤ هـ ـ ٩٤٥ م أن يستولي على الدولة ، مستعيناً بما جاء في الأخبار من ظهور المهدي . فظهرت دعوته بين الخاص والعام ، وادّعى أنصارُه أنه «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد أعداء المسلمين ، ويجدد ما عفا من رسوم الدين » ، فتطلعت إليه نفوس العامة ، وجعل دعاته يأخذون له البيعة على الرجل بعد الرجل . فمن كان من أهل السنّة قالوا له إنه عباسي ، ومن كان من أهل التشيّع قالوا له إنه علوي، ودخل جماعة من وجوه الكتّاب وأماثل الناس في هذا الأمر ، ودخل فيه خلق كثير من الديلم والترك والعرب . وكان فيهم سبكتكين القائد العجمي ، وكان يتشيّع ، فقال له الدعاة : إن الرجل علوي ؛ ووعدوه بأن يقلّد إمرة الأمراء ، فاستجاب للدعوة ؛ ثم ظهر لسبكتكين أن الرجل عباسي لا علوي ، فتغيرت نيته وتصوّره بصورة المحتال ؛ ثم انتهى أمره بأن قبض عليه بختيار وعلى أخيه وأسلمهما للخليفة المطيع لله ؛ فأمر بجدع أنف صاحب الدعوة ، وقطع أذن أخيه وحبسهما ؛ ثم هربا وخفي أمرهما[٢] .

وكان الهاشميون ، إلى جانب ما يجري لهم من راتب خاص ، يقدّمون في تولّي مناصب مشرّفة يصيبون منها المال بلا مبالاة ولا مراجعة ضمير : فكانت تسند إليهم إمامةُ كثير من المساجد[٣] ؛ فمثلا كان أحد الهاشميين (توفي عام ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١ م) إماماً لجامع المنصور

(١) اليتيمة ج ٤ ص ٩٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٧١ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣١٥ ـ ٣١٧ .
(٣) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٤ ا ـ ب .

ببغداد ، وهو أكبر جامع في الدولة الإسلامية[1] ؛ وكان إمام جامع عمرو بمصر في مثل هذا الوقت هاشميا أيضاً[2] ؛ وكذلك تولى منصب قاضي القضاة في عامي ٣٦٣ هـ ــ ٩٧٤ م و ٣٩٤ هـ ــ ١٠٠٤ م رجلان من بني هاشم[3] .وفي أواخر القرن الرابع كان أبو محمد الواثقي من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين يتولى الخطبة في المسجد الجامع بنصيبين[4] ؛ كما كان الذي يحج بالناس في كل عام رجلا من بني هاشم ، وهذه مهمة يصيب من يقوم بها شيئاً كثيراً ؛ وكانت لا تخرج من يد الهاشميين . ولما احتاج المأمون أن يستعين بالعلويين على أخيه الأمين تولى الحج بالناس رجال" من الطالبيين منذ عام ٢٠٣ هـ ، وكانت هذه أول مرة يحج فيه الطالبيون بالناس ؛ ولكن إمارة الحج عادت إلى الهاشميين بعد ذلك بثلاث سنين ، وبقيت لهم حتى آخر أيام المسعودي عام ٢٣٦ هـ ــ ٩٤٧ م[5] ؛ ثم آلت إلى العلويين ، وكانوا ينيبون من بينهم من يقوم بالحج[6] .

وكانت أول ما تعطى المبرات إلى أقارب النبي ، فكان أحمد بن أبي يعقوب بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية (المتوفى عام ٣٤٠ هـ) يجري بمصر في عهد ابن طولون الجرايات على الأشراف الطالبيين ، ومنهم من كان ينال مائتي دينار في كل سنة[7] . وكان الوزير علي بن عيسى في أوائل القرن الرابع ينفق كل سنة أربعين ألف درهم في صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح

(١) المنتظم ص ٩٠ ب .
(٢) ملحق الكندي ص ٥٧٥ .
(٣) المنتظم ص ١٠٥ ا ــ ب ، ١٤٩ ب .
(٤) كتاب الوزراء ص ٤٢١ .
(٥) مروج الذهب ج ٩ ص ٦٩ وما يليها .
(٦) المنتظم ص ١٢٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ ، على أن إمارة الحج بمصر ظلت في أيدي الهاشميين . انظر ملحق الكندي ص ٥٧٥ .
(٧) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ١٥٩ .

الحرمين[1] . وفي سنة ٣٣٤هـ وصل الخليفة المطيع لله العباسيين والعلويين في يوم بنيف وثلاثين ألف درهم[2] ؛ وكان أبو العلاء المعرّي يصل بعض العلويين ، وبعث إليه مرة بشيء من النفقة، وأرسل له يعتذر لقلته ويرجوه قبوله[3] . ومن الأمثال المعروفة أن العلوي يأخذ ولا يعطي[4] .

وإذا نظرنا إلى قلة جاري بني هاشم ، وهو ربع دينار في الشهر ، علمنا أنهم لا بد أن يكونوا جميعاً علويين وعباسيين في فاقة شديدة ؛ ونجد أحد الهاشميين يشتغل عيناً بجمع الأخبار ؛ وفي عام ٣٣٤ هـ ــ ٩٤٥ م وقع غلاء ومجاعة ؛ فقتّل كثير من النساء الهاشميات ، لأنهنّ كن يَقتتلنَ الأطفال ويأكلن لحمهم[5] . وكان عند الصاحب بن عباد ، وزير فخر الدولة بشمال فارس ، علويٌ شاميٌ يحدثه بما شاهد من الأعاجيب[6] . وقد تحدث ابن الحجاج (توفي عام ٣٩١ هـ ــ ١٠٠١ م) في بعض شعره عن مغنية هاشمية سيئة السيرة[7] . ومما يحكى عن كافور الأخشيدي صاحب مصر أنه وقفت له امرأة في طريقه وصاحت به : ارحمني يرحمك الله ، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً ، فسقطت ؛ فاغتاظ كافور وأمر بقطع يده ؛ فقامت تشفع له ؛ فتعجب من مكرمتها ، وقال : اسألوها عن أصلها ، فما تكون إلا من بيت عظيم ؛ فسئلت ، فإذا بها علوية ؛ فعظم الأمر على كافور وقال قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف ؛ وأحسن إليها وتفقد سائر نساء الأشراف وأدرّ عليهن

---

(١) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣ .

(٢) المنتظم ص ٧٤ ا .

(٣) رسائل ابي العلاء طبعة مرجليوث ص ٣٥ .

(٤) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي .

(٥) يحيى بن سعيد ص ٨٧ ا والمنتظم ص ٧٤ ب .

(٦) محاضرات الادباء ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٧) ديوان ابن الحجاج ج ١ ص ١٤١ .

الإحسان والجرايات[1] . وفي سنة ٣٥٠ هـ ـــ ٩٦١ م وقعت في بغداد فتن عظيمة أصلها أن رجلاً عباسيا عربد على رجل علوي ، وهما على نبيذ ، فقتل العلوي ونفر أهله واستغاثوا لأجله ، ودخلت العامة ، وعظم الأمر ؛ وكان « أعمام النبي » من أكبر مشعلي نيران الفتنة بين عامة بغداد[2] .

وفي عام ٣٠٦ هـ ـــ ٩١٨ م وثب جماعة من الهاشميين على الوزير علي بن عيسى بسبب تأخر أرزاقهم فشتموه وخرقوا دراعته ، وأرجلوه ؛ فخلصه القواد منهم ؛ واتصل ذلك بالمقتدر فأمر فيهم بأمور عظام وبأن ينفوا إلى البصرة مقيّدين ؛ فحملوا في سفينة مطبقة بعد أن ضُرب بعضهم ، وأمر الخليفة أن يُحبسوا في مجلس البصرة ، فحملهم سبك الطولوني أمير البصرة مقيدين على حمير إلى دار في جانب المجلس ، وكلمهم بجميل ووعدهم خيراً ، وفرق فيهم أموالا إلا أنه أسر بذلك . ثم نفذ كتاب بإطلاقهم ، فأحسن إليهم الأمير وصنع لهم طعاما ووصلهم ، وأُكريت لهم سُمَيريات ، فكان مقامهم في البصرة عشرة أيام[3] . وكان كلما قوي أمر الشيعة ببغداد وأظهروا الاحتفال بأعيادهم،قابل العباسيون السنّيون ذلك بنهوض من جانبهم وفعلوا مثل ما يفعله الشيعة ؛ وأكبر من كان يفعل ذلك السنيون في باب البصرة[4] .

وحوالي عام ٣٥٠ هـ ـــ ٩٦١ م وقعت فتنة عظيمة ببغداد ـــ كما تقدم ـــ بسبب نزاع علوي وعباسي ، فقبض الوزير المهلبي الحازم على كثير من مثيري الفتنة من العباسيين وجعلهم في زوارق مطبقة مسمّرة

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٤٨ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٣١ .

(٣) عريب ص ٧٥ ـــ ٧٦ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٠ .

وأنفذهم للحبس في بعض مدن العراق ، فكانوا هناك حيث مات كثير منهم ، ثم أطلق الباقون بعد موت المهلبي[1] .

وقد أراد القائد عميد الجيوش في سنة ٣٩٢ هـ ـ ١٠٠٢ م أن يضع حداً لهذه العداوة القديمة بين أهل السنة والشيعة ببغداد ، وهي العداوة التي كان المهيّجون المتطرفون من العلويين والعباسيين يدعون الناس فيها للقتال والشغب ، وكان عميد الجيوش قد أُرسل لإخماد الفتنة القائمة ؛ فطلب الثوار من العلويين والعباسيين ، فكانوا إذا وقعوا أمر أن يقترن العلوي بالعباسي ويغرقا نهاراً بمشهد من الناس ، حتى هدأت بذلك الفتن المستمرة ، وتجددت الاستقامة المنسية ، وخاف الغائب والحاضر[2] .

ثم جاء الوقت الذي يترقبه العلويون بعد طول انتظار ونفاذ صبر ؛ فأخذ نجمهم في الصعود في كل مكان ، على حين بدأ أمر العباسيين في الضعف ؛ فيقول المقدسي في كلامه عن إقليم خراسان مثلا : وأولاد علي رضي الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشمياً إلا غريباً[3] ؛ وهنا نجد القرن الرابع الهجري قد أوجد الظروف والموقف الذي نراه الآن ، فالعلويون هم الذين يمثلون أهل بيت الرسول . وقد عمل الجميع من قرامطة وفاطميين على خدمة قضية العلويين ، فأنشأوا دولة علوية في جبال فارس ، وفتحوا مكة بعد منتصف القرن الرابع ، وجعلوها عاصمة البلاد المقدسة ، واستطاعوا بدهاء أن يستغلوا المنافسة الشديدة القائمة بين القاهرة وبغداد لمصلحة هذا المركز الجديد[4] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٦٤ ، والمنتظم ص ١٤٧ ب .
(٣) المقدسي ص ٣٢٣ .
(٤) المغرب لابن سعيد ص ٦ (؟) .

وكان الملوك الجدد في الغرب والشرق وهم الحمدانيون والبويهيون على مذهب الشيعة ؛ وكان ازدياد التكريم للنبي مما أسبغ على أبنائه تكريماً كبيراً ؛ ويحكى أن كافور الأخشيدي كان يوماً في موكب ، فسقط منه سوطه ؛ فناوله إياه أحدُ الشرفاء ، فقبل يده شكراً وقال له « نعيتَ إليّ والله نفسي ، فما بعد أن ناولني ولدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غايةٌ يَتَشَرَّف لها » ؛ فمات عن قريب[1] . وكان الأخشيد يخلف أباه طغجا على طبرية ، وكان أهلها شيعة ؛ وكان بها أبو الطيب العلوي وَجْهَ البلد شرفا وملكا وقوة ؛ فكتب الأخشيد لأبيه يذكر أنه ليس له أمر ولا نهي مع أبي الطيب[2] .

وكان الأخشيد بريئاً من كل تحيّز فأحضر عبد الله بن طباطبا والحسين بن طاهر بن يحيى إلى مجلسه ، « وكانا لا يفارقانه ، هذا حسني وهذا حسيني ، وبينهما عداوة الرياسة والاختصاص[3] » . والحسين ابن طاهر هو الذي أرسله الأخشيد إلى سيف الدولة ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بينهما[4] ؛ وهو الذي سفر أيضاً بين الأخشيد وبين ابن رائق في الصلح ، حينما جاء ابن رائق مهاجماً لمصر في عام ٣٢٧ هـ ــ ٩٢٩ م[5] . وكان الحج قد تعطل منذ عام ٣١٧ هـ حتى عام ٣٢٧ هـ لاعتراض القرامطة ؛ فكاتبهم أحد العلويين ، وكانوا يخشونه لشجاعته وكرمه ، حتى انتهى الأمر بتسهيل سبيل الحج[6] . وكذلك كان العلويون هم الذين يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات في

---

(١) نفس المصدر ص ٤٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٦ .
(٣) نفس المصدر ص ١٨ .
(٤) نفس المصدر ص ٤٢ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٥ .
(٦) المنتظم ص ١٦٠ .

بيوت الشيعة من بني حمدان وبني بُوَيْه ؛ وإذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التوسط ، استطعنا أن نستنبط مقدار ما لحقهم من الخسارة حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحدّدوا موقفهم بإزاء الفاطميين ، وأن ينبذوهم ولا يعتبروهم من أبناء عليّ الحقيقيين . وفي سنة ٤٠٣ هـ ـ ١٠١٢ م صدر كتاب من الأمير بهاء الدولة بأن يضاف إلى الرضى الموسوي النظر في أمور جميع الطالبيين بجميع البلاد ، وجعله نقيب النقباء ، ولم يبلغ ذلك أحد من أهل البيت[١] ؛ وخُلع على الرضى السواد ، فكان أول طالبي لبس السواد على زيّ العباسيين[٢] ؛ وكان في هذا إقرار من جانب ابن عم العباسيين الذي كان أقوى منهم من قبل بأنه قد هُزم .

أما أبناء الخلفاء الثلاثة الراشدين فلم يلعبوا دوراً هاما ؛ ولما اشتد البلاء على أهل مصر من ولاية العُمَري القضاء عليهم خرج جماعة إلى هرون الرشيد ، وشكوا إليه ما يفعله العُمَري فيهم ، فقال : انظروا في الديوان كم لي من والٍ من ولـد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فكُشف الديوان،فلم يوجد غيره فقال : انصرفوا!فوالله لا عزلته أبداً[٣]؛ ثم خلفه على القضاء هاشم بن أبي بكر البكري من قِبَل الأمين عام ١٩٤ هـ ؛ وقد دخل مصر مُقِلاً ، فزرع زرعا ، فانكسر عليه خراجُه ، وطولب به وتُشُدِّد عليه في ذلك ؛ وكان أحد الكتاب حاضراً ، فعرفه وعرف الحال ، فقال : « سبحان الله ! ابن صاحب نبيكم والذي قام في مقامه بعده يُطالَب بمثل هذه المطالبة ! ما كان عليه فهو عليّ ، وهو له

(١) ديوان الرضي ص ٢١٠ ، والمنتظم ص ١٥٨ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠ ، والمنتظم ص ١٥٨ ب .

(٣) القضاة والولاة للكندي ص ٤١٠ ، وفي سنة ٣٨٨ هـ ـ ٩٩٨ م مات الخطابي من ولد زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب ، وكان من العلماء . (انظر الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١) .

علي في كل سنة »[1] . أما اليوم فنجد أبناء أبي بكر وعمر إلى جانب أبناء النبي عليه السلام هم الذين يتألف منهم الأشراف بمصر ؛ ونجد البكريين منهم بنوع خاص ، ويسمون الصديقيين ، يتولون منذ أوائل القرن التاسع عشر مناصب روحية تعود عليهم بالخير الوفير[2] . ونجد حوالي عام ٤٠٠ هـ ، أبا الغطاريف عمـلاق بن غيداق العثماني يقيم بنيسابور ، وينتسب إلى عثمان بن عفّان ؛ وكان كثيرَ الشعر قليل الملح، وممن ثقـل حتى خف وقبـح حتى ملح ؛ يتعاطى الفواحش ، ويقول الشعر ، « فإذا قيل له : كيف أصبحت أيها الشريف ؟ قال : أصبحت جوّالا في السكك حلاّلا للتكك ، على رأسه : طائركم معكم سرمداً ، وعلى جبينه : ولن تفلحوا إذن أبدا[3] » .

هذه هي أهم السلالات الشريفة التي نشأت عن الدين[4] . أما سلائل الأشراف الذين كانوا قبل الإسلام فقد احتفظوا بأنفسهم متمسكين أشد التمسك بما كان لهم ، وذلك في الأجزاء الإقطاعية من جبال فارس وغاباتها وقلاعها ؛ يقول ابن حوقل : « وبفارس سنّة“ جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة ، من تفضيل أهل البيوتات القديمة وإكرام أهل النعم الأولية ؛ وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم

---

(١) القضاة للكندي ص ٤١٦ .

(٢) M. Hartmann, MSOS. 1909, II. S. 81 .

(٣) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ . على أنه يظهر بصراحة من شعر هذا الرجل الذي كان يلقب بالشريف أنه كان مولي لرجل من موالي عثمان بن عفان . (المترجم)

(٤) ومن الأشراف الذين أوجدهم الدين سلائل الأنصار الذين ناصروا النبي عليه السلام ، وكان لهم نقيب ببغداد وكانت تفرق عليهم المبرات . انظر المنتظم ص ١١٢ ا ؛ وكتاب الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢ ؛ وكتاب الوزراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

أيامهم إلى أيامنـــا »[1] ؛ والغالب على ملوكهم وخدمهم والمخالطين للسلطان من عمال الدواوين وغيرهم « استعمالُ المروءة في أحوالهم ... وتحسينُ الموائد بالمطاعم وكثرة الطعام وإحضار الحلوى والفواكه قبل الموائد ، والنزاهة عما يقبح به الحديث من الأخلاق الدنيّة ، وترك المجاهرة بالفواحش ، والمبالغة في تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم ، والمنافسة فيما بينهم في ذلك ، والآداب الظاهرة فيهم والعلم الشائع في جميعهم »[2] .

أما سادة العهد الأموي فلم يستطع الاحتفاظ بمركزهم منهم إلا المهالبة ، بنو المهلب بن أبي صفرة ؛ وكان مقرّهم بالبصرة حيث كانت لهم دور حسنة[3] . وقد كان لأحدهم شأن في ثورة الزنوج الكبيرة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري[4] ؛ ولعله كان يتوقع في ذلك العهد نهاية دولة بني العباس . وتولى آخرُ من المهالبة وزارة عضـد الدولة حوالي منتصف القرن الرابع . وقـد أراد آل بني الشوارب القضاة أن يقيموا بينهم وبين الأمويين وبالتالي ملوك قرطبة والملتان[5] نسبا[6] . وكان للبَنَويين أو أبناء الدولة الذين حاربوا لأجل الدولة العباسية وجاءوا معها من خراسان إلى بغداد ــ وكانوا من الأشراف المحاربين الأحرار ــ شـأنٌ قوي في القرن الثالث الهجري ؛ وكانوا يفتخرون بالصبر تحت ظلال السيوف وبأنهم فرسان شجعان ؛ ومن قولهم : « وُلدنا في أفنية ملوكنا وتحت أجنحة خلفائنا ، فأخذنا بآدابهم

(١) ابن حوقل ص ٢٠٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .
(٣) كتاب المرواة للثعالبي مخطوط برلين ص ١٢٩ ب .
(٤) كتاب العيون ص ٦ ب ــ ٧ ١ .
(٥) المسعودي ج ١ ص ٣٧٧ .
(٦) تجد في كتاب العيون (ص ٧١ ١) شعراً في ذلك .

واحتذينا على مثالهم »[1] ؛ ولكن حلّ محلهم في القرن الرابع فُرسانٌ من المماليك المعتقين أو غير المعتقين أصلهم من الترك والفرس ؛ بل نجد أيضاً أن آخر سلائل الطاهريين ، الذين كان بيتهم في القرن الثالث ثاني بيت في المملكة الإسلامية بعد بيت الخلافة ، يعالجون في بلاط بخارى خدمة السامانيين ؛ وقد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم ، ولكنهم لم يحرموا من الملكة الشعرية ، فكان منهم شاعر كان يخدم آل سامان جهراً ويهجوهم سرّاً ويطوي على بغض شديد لهم[2] . وكان هؤلاء السادة جميعاً يسمون في جميع بلاد الشمال حتى بلاد الترك بالكلمة الرومانية البوزنطية : البطارقة[3] .

ويحدثنا ابن رستة في أواخر القرن الرابع أحاديث طريفة عن البيوت الكبرى في عصره : فأما الأشاعثة فقد كان جد الأشعث بن معدي كرب عِلجا من أهل فارس إسكافا ؛ وكانت وردة بنت معدي كرب عمة الأشعث عند رجل من اليهود ؛ ولم تخلّف ولداً ، فأتى الأشعثُ عمرَ بن الخطاب يطلب ميراثها ، فقال له عمر : لا ميراث لأهل ملتين ؛ وأما آل المهلب بن أبي صفرة فقد كان أبو صفرة فارسيا مجوسيا حائكا؛ وأما آل خالد بن صفوان الأهتمين فإن الأهتم ابن علجة كانت امرأة أكّار أخذها قيس بن عاصم بن سنان وجماعة من بني منقر أغاروا على الحيرة ؛ وآل الجهم بن بدر بن جهم بن مسعود كان جدهم مسعود عبداً

(١) رسائل الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ١٥ — ١٦ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٧ وما بعدها وص ١١ — ١٢ .

(٣) عند شاعر تركستاني في اليتيمة ج ٤ ص ٨١ ، وهو الشاعر ابو الحسن المتيّم .

لحبيب بن شهاب ، هرب منه ولحق بخراسان وادعى أنه من بني سامة بن لؤي القرشي ؛ وكان آل أبي دُلَف قوما من العبّاديين من أهل الحيرة ؛ وكانوا جهابذة بها ، فخرج جدٌ لهم يقال له إدريس فأثرى ، وابتاع داراً بالبصرة ؛ ثم خرج إلى الجبل ، فأبو دلف من ولده ؛ والربيع الحاجب ، وهو رأس أُسرة من كبار العمال ، كان ابن زنى من جارية سوء كانت عند مولى لعثمان ابن عفّان[1] .

*

(1) الأعلاق النفيسة طبعة ليدن ١٨٩١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

د تحلب

الفصل الحادي عشر

الرقيق

كان اتخاذ الرقيق منتشراً عند اليهود والنصارى والمسلم
أن ضمير الكنيسة كان يسخط على الرق بين حين وآخر ؛ وكا
يقولون إن المسيح لا فرق عنده بين حرّ وعبد[1] . وقد حاولت
على الأقل ، أن تحارب تجارة الرقيق ، ففرضت على من يشتغل
الحرمان[2] . وقد استلفت نظرَ المسلمين أن اليهود والنصار
لهم أن يتمتعوا بإمائهم[3] ، وذلك لأن القانون المسيحي في ا
يعتبر اقتراب الرجل من أمته زنىً عقابُه المنع من البيعة ؛ وي
في هذه الحالة أن تبيع الجارية وتقصيها عن البيت ، وإذا حم
من سيدها المسيحي طفلا فإنه ينشأ رقيقا « يحمل عار والده

---

(١) انظر مثلا Sachau, Syr. Rechtsb. 2, S. 161 ، وكذلك نجد زرعة يعقوب (حوالي سنة ١٦٠٠ م) في نقده للاسلام والنصرانية يعيب بإقراره تجارة الزقيق ألغى المساواة والأخوة بين بني الانسان ، وهم جميعاً لهم (انظر Philosophi abessini, ed. Littmann S. II. من الترجمة)

(٢) Syr. Rechtsb. 2, S. 109, 147, 165 ، على أنه يوجد بين فقهاء يروى عن النبي وهو : شر الناس من باع الناس (كتاب العلل مخطوط ب ص ٢٠٦ ب) .

(٣) كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسي وهو ينسب لأ ج ٤ ص ٣٩ من طبعة كليمان هوار بباريس .

(٤) Syr. Rechtsb. 2, S. 161 f. .

حكى أن الخليفة المنصور ، بعد أن استدعى الطبيب جورجيس
، ليعالجه من مرضه وشُفي على يديه ، أرسل إليه ثلاثاً من
الروميات الحسان مع ثلاثة آلاف دينار ، فأخذ المال وردّ
، فسأله المنصور عن ذلك فقال : « هؤلاء لا يكونون معي في
، لأننا نحن معشر النصارى لا نتزوج بأكثر من امرأة واحدة،
رأة في الحياة لا نأخذ غيرها »، فحسن موقعه من الخليفة[1].

، الإسلام فإن الطفل الذي يولد للمسلم من أمته يكون
ولا يجوز للرجل أن يبيع الأمة أم الولد ؛ ثم هي تصبح حرة
روجها ؛ ولا يجوز في الشرع الإسلامي أن يشترك رجلان في
ت واحد ؛ وقد حدث مرة أن رجلين اشتريا أمة فوطئاها ، فأمر
نابهما[3] .

حين أن القوانين في الدولة الرومانية البوزنطية كانت تحرّم
نصراني أن يتخذ رقيقاً من النصارى[4] ، وأن الكنيسة
انت في بلاد الإسلام ـ كما تقدم ـ تعاقب بالحرمان من بيع
راني لغير النصارى ، فإن الشريعة الإسلامية لم تحرم على
ارى اتخاذ رقيق من المسلمين[5] .

رن الرابع الهجري كانت مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال

Elias Nisibenus S.(حوالي عام ٤٠٠ هـ) في مجموعة ، Corp. Scrip. or.
طباء لابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٢٥ .

الأول على الأقل ، واختلف الفقهاء فيما بعده ، انظر رأي الحنفية عند
d, Ohsson, V ،ورأي الشافعية عند Sachau, Muham. Recht S. 174
، ص ٣٣٨ .

Cod. Just., C. 1, tit.

Sachau, Muham. Recht, S.

إفريقية أكبر أسواق الرقيق الأسود ؛ وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد من الجنوب ؛ وكان الثمن الجاري للعبد حوالي منتصف القرن الثاني الهجري مائتي درهم[١] . وقد اشترى كافور صاحب مصر، وكان عبداً حبشياً ، في سنة ٣١٢ هـ – ٩٢٤ م بثمانية عشر ديناراً كما يقال[٢] ؛ وهذا الثمن قليل بالنسبة لكافور لأنه كان خصيا ؛ وكان يدفع في ثمن الزنجي الجيد بعمان ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ديناراً[٣] . ولما اشترى الوزير الصاحب بن عبار عبداً نوبياً بأربعمائة دينار استكثر الناس هذا الثمن[٤] . وقد سيمت جارية « جميلة حلواء» حوالي عام ٣٠٠ هـ بمائة وخمسين ديناراً[٥] . ويقول الشريف الإدريسي[٦] إن في نساء النوبة جمالا فائقاً ، وإنه لا أحسن للجماع منهن لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن ، وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلثماية دينار . وقد جلب كثيرات من الزنج إلى بلاد العراق ، وهن معروفات بكثرة النسل . وقد علل الجاحظ عدم غلبة أولاد الزنج في العراق بكون الزنجي والزنجية قليلا ما يلدان من الغرائب ، وأن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي ، وهي من الزنجي أسرع لقاحاً منها من الأبيض ؛ فكأن الجاحظ يرى أن الزنجيات يصيبهن العقم في البلاد الشمالية[٧] وكان يستعمل عبيد البيوت السود بوابين كما هو الحال اليوم[٨] .

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ٥٥ .

(٢) F. Wüstenfeld, Statthalter von Aegypten IV, S. 47.

(٣) عجائب الهند ص ٥٢ ، وكان يدفع مثل هذا المبلغ في بوزنطة في ذلك العهد للعبد العادي . انظر Vogt, Basile, S. 383

(٤) ابن الوردي ص ٤٦ .

(٥) مطالع البدور للغزولي ج ١ ص ١٩٦ .

(٦) طبعة دوزي ، ليدن ١٨٦٤ ص ١٣ .

(٧) رسائل الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٧٧ – ٧٨ .

(٨) انظر ما حكاه رحالة صيني في القرن الثالث عشر الميلادي عند Fr. Hirth, Die Länder des Islam nach Chinesischen Quellen S. 55

وإذ كان المجتمع يعنى بالشعر الجيّد وبالموسيقى الجميلة أكثر مما يعنى بغيرهما من ألوان الفن ، عظمت فيه قيمة الغلمان والجواري الموهوبين المتعلمين . وكان في عهد الرشيد ببغداد مُغَنٍ مشهور قد يتفق عنده وجود ثمانين جارية لإخوانه يودعونهن عنده لتعليمهن فن الغناء[١] . وكانت تُشترى الجارية من هؤلاء بألف دينار إلى ألفين[٢] . وقد يحدث أن يكون بيت النخاس مكاناً يكثر غشيانه الشعراء[٣] . وكان معظم القيان اللائي يحترفن الغناء ببغداد في سنة ٣٠٦هـ — جواري، وقليل منهن أحرار[٤] . وكان للمشهورات من حذاق المغنيات أثمان كبيرة ، كما نقدرهن نحن اليوم ؛ فحوالي عام ٣٢٥ هـ اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولّدة كانت لابنة ابن حمدون النديم ؛ وكانت سمراء موصوفة بحسن الغناء ، فاشتراها ابن رائق من مواليها بثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دله عليها ألف دينار[٥] ؛ ويحكي الصولي[٦] أن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف دينار ، فاستعظم الناس ذلك .

وكان ثمن العبيد البيض يزيد على ما تقدم لأنهم أرستوقراطيو العبيد ، فكانت تؤخذ الجارية الحسناء من غير صناعة على جمالها بألف دينار وأكثر[٧] . وكانت لأبي بكر الخوارزمي جارية ، فطُلبت بعشرة آلاف درهم فلم يَجُدْ بها[٨] . وقد ارتفعت أثمان الخدم البيض

(١) الاغاني ج ٥ ص ٦ .

(٢) انظر Michael Syrus S. 514 ، وهو يخلط إبراهيم المهدي بابراهيم الموصلي .

(٣) الأغاني ج ٢٠ ص ٤٣ .

(٤) أبو القاسم طبعة متز ص ٧٨ وما بعدها .

(٥) المنتظم ص ٨٨ ا .

(٦) الأوراق للصولي ص ١٤٢ من مخطوط باريس .

(٧) الاصطخري ص ٤٥ .

(٨) اليتيمة ج ٤ ص ١٥١ .

ارتفاعاً خاصاً حينما خربت الثغور الغربية ، وانقطع عبيد الأندلس في القرن الرابع ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي للرقيق ، وهو بوزنطة وأرمينية[1] . ومما زاد في ذلك أن أهل المملكة الإسلامية من المسلمين وأهل الذمة لم يكن يجوز أن يُسْتَرَقّوا بوجه من الوجوه القانونية ؛ ولم يكن الإجرام سبباً يكفي لحرمانهم من حريتهم كما هو الحال عند غير المسلمين . وكذلك كان يحرم على الآباء المسلمين أن يبيعوا أولادهم ، كما كان الحال عند اليهود مثلا ؛ فإنهم كانوا ، إذا احتاجوا ، باعوا أولادهم الصغار غير البالغين[2] . وقد حدثت فتنة في مصر في القرن الثالث الهجري ، فقُبض على بعض النصارى المصريين وبيعوا في دمشق كما يباع الرقيق ؛ فأثار هذا العمل أكبر السخط ، لأنه فعل يخالف الشريعة[3] .

على أنه كان يوجد بين المسلمين بعضٌ من شرار الفرق يعتبرون أنفسهم المسلمين ، ويعتبرون جميع من خالفهم أهلاً للحرمان من الحقوق الشرعية ؛ ومن هذه الفرق الضالة فرقةُ القرامطة الذين عظم شأنهم في القرن الرابع ، فقد أحلّوا استرقاق من يقع في أيديهم من الأسرى ؛ وكان ذلك أمراً شنيعاً في أيامهم ؛ فسرعان ما صار الكثيرون من الآمنين المسالمين من أهل الشام وجزيرة العرب والعراق أرقاء في أيديهم ؛ وقد اعترض القرامطة قافلة الحاج عام ٣١٢ هـ – ٩٢٤ م ، فأسروا من الرجال ألفين ، ومن النساء نحو خمسمائة وساروا بهم إلى هَجَر ؛ وكان

---

(١) المقدسي ص ٢٤٢ .

(٢) Krauss, Talmudische Archäologie، وكتاب البدء والتاريخ ج ٤ ص ٣٩ ، على أن بيع الشراكسة المسلمين بناتهم – وهو العمل الذي لا يزال جاريا إلى اليوم – يخالف الشريعة الاسلامية وهو محظور بحكم الشرع .

(٣) انظر الفصل الخاص باليهود والنصارى .

الأزهري اللغوي الأديب المتوفى عام ٣٧٠ هـ ــ ٩٨٠ م من جملة الأسرى ، ووقع في سهم قوم من العرب الذين نشأوا بالبادية يتتبعون مساقط الغيث ، ويتكلمون بطباعهم البدوية ، ولا يكاد يكون في منطقهم لحن ؛ وقد بقي في أسرهم دهراً طويلا واستفاد من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمة ، ونوادر كثيرة أورد أكثرها في كتابه(١) .

أما في سائر المملكة الإسلامية فقد اقتصر المسلمون في العبيد البيض على الترك وعلى الصقالبة ، وهم الجنس الذي لا ينفد معينه ، والذي اشتق منه الاسم الذي أطلق على الرقيق في أوروبا . وكان الصقالبة يقدَّمون على الترك ، حتى قال الخوارزمي : « ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي(٢) . وأكبر ما كان يجلب من بلغار ، وهي قصبة البلغار الذين يقطنون حول نهر الفلجا ، رقيق كانوا يؤخذون من هناك إلى إقليم جيحون(٣) ، وكانت سمرقند أكبر سوق لهم ، وهي مشهورة بأن خير رقيق ما وراء النهر ما كان من تربيتها . وكان في أهل سمرقند جمالٌ ، وكان لهم حسنُ تعهُّد لأنفسهم بما زادوا به على أهل خراسان(٤) ؛ وكانت بلدهم لذلك مشهورة بأنها مركز للتربية والتهذيب، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها كما هو الحال اليوم في جنيف ولوزان .

أما الطريق الثاني الذى كان يأتي منه رقيق الصقالبة ، فقد كان يخترق ألمانيا إلى الأندلس وإلى الموانيء البحرية بإيطاليا وفرنسا(٥) .

---

(١) المنتظم ص ٢٧ ب ــ ٢٨ ا ؛ والازهري هو الذي حكى ذلك عن نفسه ، انظر الارشاد ج ٦ ص ٢٩٩ .

(٢) اليتيمة ج ٤ ص ١١٦ .

(٣) المقدسي ص ٣٢٥ .

(٤) ابن حوقل ص ٣٦٨ .

(٥) إن تحريم الدوج في مدينة البندقية عام ٩٦٠ م نقل العبيد على المراكب كان خاصاً =

وكان أغلب تجار الرقيق في أوربا من اليهود ، وكان الرقيق يُجلب كله تقريباً من الشرق الأوروبي ، كما هو الحال اليوم في تجارة النساء[1] . ومن الجلي أن استقرار جاليات يهودية فيمدن مقاطعة سكسونيا الشرقية مثل مدينة مجديبورج ومرزيبورج كان راجعاً إلى تجارة الرقيق[2] . وكان اليهود في أثناء تقلهم للرقيق يدفعون ضرائب ثقيلة ، وذلك في ألمانيا على الأقل ، فكان قانون الجمارك في مدينة كوبلنتز مثلا يقضي بأن يُدفع عن كل رأس من الرقيق أربعة دنانير[3] . وكان أسقف مدينة خور Chur يفرض على الرأس دينارين يُدفعان في جمرك مدينة فالنشتات[4] Wallenstadt .

والطريق الثالث لتجارة الرقيق يسير من بلاد الرقيق في الغرب — وكانت هذه البلاد بسبب حروبها مع الألمان كثيرة الإنتاج لهذه البضاعة الإنسانية — ويتجه نحو الشرق رأساً ماراً بمدينة براغ وبولونيا وروسيا. وهذا الطريق الذي اتبعه الربي بتاحيا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ؛ وكانت مدينة براغ هي أول هـذا الطريق لأنها كانت

= بالعبيد المسيحيين وحدهم (انظر Schaube, Handelsgeschichte der rom. Völker, S. 23 وكانت المعاهدة التي عقدت بين البندقية وبين الامبراطور أوتو الأكبر عام ٩٦٧ م تحظر على المسيحيين الذين في أرض الامبراطور وحدهم أن يبيعوا أو يشتروا العبيد (نفس المصدر ص ٥) . وكانت تجارة الرقيق في مدينة جنوه ، بعد ذلك بزمن طويل ، تجارة ظاهرة (نفس المصدر ص ١٠٤) .

(١) ذكر الأسقف أجوبارد ، أسقف مدينة ليون (Agobard of Lyon) في كتابه Insolentia Judaeorum أمثلة على أن بعض اليهود كانوا يسرقون أبناء النصارى الفرنسيين أو يحصلون عليهم شراء من النصارى أنفسهم ويبيعونهم للمسلمين في أسبانيا (.Opera, ed (Baluzius. Bd. 1, S. 65 f. . وقد اقتبست هذا من كتاب : Graf Baudissin, Eulogius und Alvar, Leibzig, 1872, S. 77.

(٢) Caro. Wirtschaftsgeschichte der Juden, I, S. 191.

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٤) Schaube, Handelsgesch. der rom. Völker, S. 93.

مركزاً لتجارة الرقيق في القرن العاشر الميلادي • وقد اضطر القديس أدالبرت Adalbert بمدينة براغ سنة ٩٨٩م لاعتزال منصبه الأسقفي، لأنه لم يستطع أن يعتق جميع المسيحيين الذين اشتراهم تاجر رقيق يهودي[١] •

وكان ثم في المدن سوق للرقيق يـُوكل الإشراف عليه لعامل خاص به • وقد انتهى إلينا وصف" لسوق الرقيق التي بنيت في مدينة سامرّا في القرن الثالث الهجري ؛ فهي سوق في مربعة ، فيها طرق متشعبة ، وفيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق ؛ وكان بيع الرقيق الجيد في السوق العام بمثابة عقوبة تحط من قدره[٢] ؛ والأولى أن يـُباع في منزل خاص أو بواسطة تاجر كبير ؛ وكان تاجر الرقيق موضع تشنيع ، مثله مثل تاجر الخيل في أيامنا ؛ وكان محمد بن الأشعث صاحب شرطة مصر يصعد المنبر ويشتم أحد القواد فيقول : « النخّاس الكذاب[٣] » • يقول ابن عبدون في رسالة له في الرقيق : « فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وممسوح العجز بثقيل الروادف ، وبطين بمجدول الحشا ، وأبخر الفم بطيّب النكهة ؛ وكم من مرة جعلوا العيـْن الزرقاء كحلاء ، وحمَّروا الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقعة ، وكبروا الفقاح الهزيلة ، وأعدموا الخدود شعر اللحا ، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعّدوا الشعور السبطة ، وبيّضوا الوجوه المسمرّة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطّلوا الشعور المرمّطة ، وأذهبوا آثار الوشم والجدري والنمش والحكة » • ولذلك يجب على الإنسان أن

---

(١) Caro, 1, 191, f.

(٢) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٩ •

(٣) الولاة للكندي ص ١٠٩ — ١١٠ •

يكون على حذر من شراء الرقيق في المواسم ، ففي مثل هذه الأسواق تتم للنخاسين الحِيَلُ ، حتى يبيعوا المريض بالصحيح والغلام بالجارية ؛ سمعنا بعض النخاسين يقول : ربع درهم حِنّا يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة » .

ومن عادة النخّاسين أن يطوّلوا الشعور بأن يصلوا في طرفها من جنسها ، وأن يزيلوا روائح الأنف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما ، وأن يجلوا الأسنان بالسواك بالأشنان والسكر وسحيق الصيني أو الفحم أو الملح المدقوق ؛ وكانوا يزيلون الشعث في أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل والمرنك أو دهن الورد واللوز المر . ومن وصايا النخاسين للجواري أن يتبرّجن للمشتري تارة ويختفين منه أخرى ، فإن هذا مالك للقلوب ، وأن يدارين المشايخ والنافري الطباع ويستملْنهم ، ويتجنبن الشباب ، ويمتنعن عليهم ليتمكنَّ من قلوبهم . وكان الجواري يخضبن حواجبهن بالرامك ، وأطرافهن إن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر ، وإن كانت صفراء بالأسود ، « ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضدِّ بالضدِّ » .

هذه النصوص من رسالة لابن بطلان الطبيب النصراني المشهور الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري[1] . ونجد في هذه الرسالة إلى جانب الناحية النظرية كثيراً من التجارب القديمة النافعة في شراء الرقيق : « فالهنديات لهن حسن القوام ، وسمرة الألوان ، وحظ وافر من الجمال ، مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة ؛ لكن الشيخوخة تسرع إليهن ... وهن يصلحن للولد ، ورجالُهم لحفظ

---

(1) رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد تأليف الشيخ أبي الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي المتطبب ضمن مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين .

النفوس والأموال ، وعمل الصنائع الدقيقة • غير أن النزلات تسرع إليهم ••• والقندهاريات في معنى الهنديات،ولهن فضيلة على كل النساء، فإن الثيّب منهن تعود كالبكر • والسنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور ، والمدنيّات سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلاوةُ القول ، ونعمة الجسم ، وملاحة دلّ وحسن شكل وبشر ؛ لا غيرة فيهن على الرجال ؛ قنوعات بالقليل ، لا يغضبْن ولا يصخبْن ، ويصلحْن للقيان•••والمكّيات خنثات مؤنثات ليّنات الأرساغ ألوانهن البياض المشرب بسمرة ؛ قدودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفّة ، وثغورهن نقية باردة وشعورهن جعدة ، وعيونهن مِراض فاترة ؛ والطائفيات سمر مذهبات مجدولات ، أخف خلق الله أرواحا ، وأحسنهم فكاهة ومزاحا ؛ لسن بأمهات أولاد ، يكسلْن في الحبل ، ويهلكن عند الولادة ••• والبربريات مطبوعاتٌ على الطاعة نشيطات للخدمة ويصلحْن للتوليد ؛ لأنهن أحدب شيء على ولد ؛ ويقول أبو عثمان وهو من سماسرة هذا الشأن : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تُجلَب ، وهي بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، وبمكة ثلاث حجج ؛ ثم جاءت إلى العراق ابنة خمسة عشرة ، فتأدبت بالعراق ، جَمَعَتْ إلى جودة الجنس شكلَ المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات ، واستحقت أن تُخبى في الجفون وتوضع على العيون • والزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورتهن وتحددت أسنانهن ، وقلّ الانتفاع بهن ، وخيفت المضرّةُ منهن ؛ والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب ، وليس في خلقهن الغم ، والرقصُ والإيقاعُ فطرةٌ لهن[1] وطبعٌ فيهن ، ولعجومة ألفاظهن عُدِل بهن إلى الزمر

(١) « الزنجي دائم الرقص ، وكما أن الالماني يشعر برغبة شديدة للغناء لا يستطيع التغلب عليها متى قطع شوطاً من عمله اليومي ، فكذلك الزنجي يرقص متى استطاع » . (K. Weule, Negerleben in. Ostafrika, S. 84) .

والرقص ؛ ويقال : لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع • وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم ؛ وفيهن جَلَد على الكدّ ؛ فالزنجي إذا شبع فصُبَّ العذاب عليه صبًا فإنه لا يتألم ، وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن ؛ أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها ، يتعاهدهن السل والدق ؛ لا يصلحن للغناء ولا للرقص ؛ رقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها ؛ وفيهن خيريّة وسلاسة انقياد ، يصلحن للائتمان على النفوس ؛ يخصهن قوةُ النفوس وضعف الأجسام ، كما يخص النوبةَ قوةُ الأجسام وضعفُ النفوس ؛ قِصار الأعمار لسوء الهضم • والبجاويات مذهبات الألوان ، حسنات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جواري متعة ؛ إن جُلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن يُنَكَّل بها — لأنهن يَتَقَوَّرن ويُمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم فصرن شهرة من الشهر • والشجاعة والسرقة في رجال البجّة (بلادهم بين الحبشة والنوبة) طبع وغريزة ؛ ولهذا لا يؤمنون على مال ، ولا يصلحون أن يكونوا خُزّانا •والنوبيات من جملة أجناس السودان، ذوات ترف ولطف ، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة ، وهواء مصر يوافقهن؛ لأن ماء النيل شربهن في بلادهن ، وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن العللُ الدموية والأمراض الحادة•والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ؛ وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة[1] ؛ وقدودهن ما بين الربْع والقصير ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل ، قلَّ ما يتفق في أولادهن وحش ولا ردي التركيب • والروميات بيض شُقر ،

---

(١) قال أحد شعراء القرن الرابع في غلام تركي :

قد أكثر الناس في الصفات وقد	قالوا جميعاً في الأعين النجل
وعين مولاي مثل موعده	ضيقة عن مراود الكحل

(يتيمة الدهر ج ٤ ص ٨٢) •

سباط الشعور ، زرق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة ، يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، ولا يخلو أن يكنَّ يألفن صنائع دقيقة . أما الأرمنيات فالملاحة للأرمن لولا ما خُصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسْر ، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة ، والسرقة فيهن فاشية وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غِلَظُ طبع ولفظ ، وليست النظافة في لغتهن ، وهن عبيد كد وخدمة ، متى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يَدْعُه خاطره إلى خير ، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة ؛ والواحد منهم إذا رأيته كسلان فليس ذلك عن عجز قوة ، بل دونك والعصا ؛ وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ؛ فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب : ونساؤهم لا يصلحن لمتعة ، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما أن الزنج أشر السودان . وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد[1] .

وقد جرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بألا يسمى العبيد عبيداً، بل يسمى العبد فتىً والأمةُ فتاةً ؛ وقد نُسب هذا — كما نُسب كثير غيره — إلى أمر النبي عليه السلام . وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجلُ عبْدَه ؛ ويُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شر الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده » . وهذا الشعور نبيل عبَّر عنه الليث السمرقندي (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) بروايته هذا الحديث[2] . وفي القرن الرابع الهجري اتخذ البعضُ من قوله تعالى:

---

(١) الرسالة المتقدمة ص ١٣٦ ب — ١٣٧ ا ، ١٤٥ ا — ١٥١ ب .

(٢) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي طبعة بمباي ص ٢٢٢ .

« إنما المؤمنون إخوة » نقداً يوجّهونه لمن يضرب عبده ، وكذلك قال الشاعر :

إن كنتَ تطلب فضلا إذا ذُكرتَ ومجدا
فكن لعبدك خِلاً وكن لخِلك عبدا[1]

ولذلك جاء في وصف رجل من أشراف اليمن وذِكر جميل خصاله (حوالي عام ٥٠٠ هـ ــ ١١٠٦ م) أنه لم يكن يضرب مملوكا أبداً[2] . وقد حدث في أول عهد الأمويين أنّ امرأة من حمير كانت بمصر جدعت أنف أَمَة لها ، فقضى عبدُ الرحمن بن حُجيرة قاضي مصر بعتقها ، وقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويربّونها[3] .

وكان قانون الكنيسة المسيحية في الشرق يهدد بعقوبة الحرمان من يكره جاريته على البغاء ، وذلك بأن يدفعها إليه مباشرةً ، أو أن يمتنع عن إعالتها[4] . وكانت دور البغايا في بلاد الإسلام قوامها الجواري المملوكات ، وتدل على هذا حكايات كثيرة ، ولكن كتب الفقه لم تتعرض لهذه المسألة لأن الفقهاء يعتبرون الزنا محرّماً جملة ، أما رجال الكنيسة فقد احتفظوا في هذه المسألة بشيء من الصراحة القديمة .على أنه قد جاء في القرآن الحضُّ على تزويج الأيامى والإماء ، قال تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم[5] » .

---

(١) كتب هذين البيتين رجل لصديق له حضره يضرب عبداً له فمنعه فلم يمتنع ؛ وهو يذكره بحق الصديق في عبودية الطاعة وأخوة العبد في حق الايمان . رسالة في الصداقة للتوحيدي ص ١٦٨ ــ ١٦٩ .

(٢) النكت العصرية لعمارة اليمني طبعة درنبرغ ١٨٩٧ ص ٩ .

(٣) القضاة للكندي ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٤) Sachau. MSOS. X, 2, S. 93 .

(٥) سورة النور آية ٣٣ .

وكان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق ؛ وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حريته بدفع قدر من المال ؛ وقد كان للعبد أو الجارية الحق في أن يشتغل مستقلا بالعمل الذي يريده ؛ فيحدثنا المسعودي مثلا عن عبدٍ خيَّاط كان عليه لمولاه ضريبة" قدرُها درهمان يدفعها له كل يوم ، ويتصرف بعدها في حوائجه بما يبقى[1] . وكذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم . وفي القرن الثالث الهجري أوصى الخليفة المعتصم عند موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه[2] . وقد أخذ هذا الخليفة أحد حصون أرمينية عنوة بعد معركة دموية فأمر ألا يُفرّق بين أعضاء العائلات[3] التي وقعت في الأسر .

وقد تمتع بعض الجواري وظهرن بمظهر النعمة ؛ فيُحكى عن جارية لأحد كبار العمال الأغنياء بمصر أنها كانت تجلس في الشباك ، وحولها الجواري قائمات بالمذبّات[4] .ويُحكى أن ابن سمعون الواعظ ذكر الحلواء وهو على كرسيّه في ليلة النصف من رمضان ، وكان بين الحاضرين جارية لتاجر مشهور بكثرة المال ؛ فلما أمسى أتاه غلام ومعه خمسمائة خشكنانكة في داخل كل منها دينار ، فحمل الدنانير بنفسه إلى التاجر ؛ فقال له التاجر : إن الدنانير وضعت بحضرته وبرضاه[5] .

وكان بعض الغلمان يملكون قلوب سادتهم ، وذلك لميل الشرقي

---

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٤ .

(٢) Michael Syrus. S. 543.

(٣) Michael Syrus, S. 547.

(٤) المغرب لابن سعيد ص ١٥ .

(٥) المنتظم ص ١٤٢ ب .

إلى من يجمع بين الجمال والفطنة ، وعندنا قصيدة للشاعر سعيد بن هاشم الخالدي في وصف غلام له[1] :

ما هو عبدٌ لكنه ولد ... خوّلنيه المهيمنُ الصمدُ
شدَّ أزري بحسن خدمته ... فهو يدي والذراعُ والعَضُدُ
صغيرُ سنٍّ كبير منفعة ... تمازج الضعفُ فيه والجلَدُ
في سن بدر الدجى وطلعته ... فمثلُه يُصطفى ويُعتَمَدُ
معشّق الطرف كحله كَحَل ... مغزّل الجيد حَلْيُه النجَيَدُ
وورد خدّيه والشقائق والتفاح والجلّنار منتضدُ
رياض حسن زواهر أبداً ... فهو ماء النعيم مطّردُ
وغصن بانٍ إذا بدا وإذا ... شدا فقمريٌّ بانةٍ غردُ
مبارك الوجه قد حظيت به ... بالي رخيٌّ وعيشتي رغدُ
أُنسي ولهوي وكلّ مأربتي ... مجتمعٌ لي فيه ومنفردُ
مسامري إنْ دجى الظلامُ فلي ... منه حديثٌ كأنه الشهدُ
ظريف مزح مليح نادرة ... جوهرُ حسن شرارُه يقدُ
خازن ما في داري وحافظه ... فليس شيء لديَّ يُفتَقَدُ
ومنفق مشفق إذا أسرفت وبذّرت فهو مقتصدُ
ويعرف الشعر مثل معرفتي ... وهو على أن يزيد مجتهدُ
وصيرفيّ القريض وزّان دنانير المعاني الرقاق منتقدُ

---

(١) معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي مخطوط برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥ ب .

يصون كتبي فكلها حسن يطوي ثيابي فكلها جددُ
وأبصر الناس بالطبيخ فكالمسك القلايا العنبر الثردُ
وهو يدير المدام إن خلوت به عروس يم نقابها الزبدُ
تمنح كأسي يدٌ أناملها تنحلُّ من لينها وتنعقدُ
وواجد بي من المحبة والرأ فة أضعاف ما به أجدُ
إذا ابتسمت فهو مبتهج وإن تنمَّرت فهو مرتعدُ
ذا بعض أوصافه وقد بقيت له صفاتٌ لم يَحْوِها أحدُ

وقد صار هذا العبد لتوفر جميع الخصال الحسنة فيه مثالا مذكوراً بين الأدباء[1] . وقد ذكر الشاعر كشاجم المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م غلامه بشراً بما يؤثر في القاريء[2] .

أيُّ حراكٍ غال منك السكونْ ونار كَيْس أطفأتها المنونْ
يا بشر إن تودِ فكل امرىء بمثل ما صرت إليه رهينْ
من لدواة كنتَ تُعنى بها عناية تعجز عنها القيونْ
أم من لكتب كنت في طيها أسرع مما تمتلي في الجفونْ
يطوي الطوامير بلا كلفة واللصق في الإلصاق لا يستبينْ
طاهي قدور طيّبت كفّه مذاقَها فالغث فيها سمينْ
يا ناصحي إذ ليس لي ناصح ويا أميني إذ يخون الأمينْ

---

(١) عمد المنسوب للثعالبي ZDMG, VI S. 54. ، وهنا نرى أنه كان يسمى رشاشا .

(٢) ديوان كشاجم ص ١٨١ وما بعدها .

وقد أرسل أبو العلاء رسالة لصديق له فأهدى السلامَ فيه لغلامه مقبل وقال : « فهو وإن اسودّت بردته آثرُ عندنا من أبيض لا تَصْدُقُ مودته[1] » .

وكان أرقى العبيد مكانة هم حملة السلاح منهم ؛ وذلك لأن منهم من كانوا قواداً كباراً مثل مؤنس وجوهر ؛ بل منهم من كان حاكما مثل كافور بمصر وسبكتكين في بلاد الأفغان . ومنذ عهد العباسيين الأولين نجد عبداً تركيا يتولى إمارة مصر ، وهو يحيى بن داود الخرسي الذي ولي الإمارة من سنة ١٦٢ ـ ١٦٤ هـ وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكره قال : « هو رجل يخافني ولا يخاف الله[2] » ؛ هذا إذا صرفنا النظر عن بعض الغلمان الذين كان لهم سلطان عظيم على سادتهم ؛ لأن هؤلاء كانوا يقتنونهم للاستهتار بهم .

وكانت أفكار ذلك العهد شبيهة بما كان في فرنسا حيث نجد الأرقاء المُعتقين قد بلغوا أكبر مكان من الرفعة ، وأطاعهم الأحرارُ ؛ وكان الكثيرون ممن تولوا القيادة في الجيوش وحُكْمَ الولايات وحراسةَ المَلِك عبيداً من قبل[3] ، ولكن لم ينجح المعتقون في أن يتفوقوا على الأحرار في الشرق مدة طويلة إلا نادراً ؛ وذلك بخلاف ما نجده في أوروبا بالنسبة لمن كانوا في مركز الموالي ؛ ويرجع ذلك إلى أن بقاء نظام الرقّ في الشرق حال دون زوال التمايز بين الأحرار والعبيد .

ولكن الرأي العام كان مجحفاً بحقوق الأرقاء في الجملة ؛ ومن الأمثال السائرة أن العبد إذا جاع نام وإذا شبع زنى ، ويقول المتنبي[4] :

---

(١) رسائل أبي العلاء طبعة مرجليوث ص ٤١ .

(٢) الكندي ص ١٢٣ .

(٣) Chr. Meyer, Kulturgeschichtliche Studien, S. 91 .

(٤) الديوان طبعة مصر ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٣ م ص ٣٧٩ .

فــلا ترجُ الخير عنــد امريءٍ مرَّت يــدُ النخَّاس في رأســه

وكذلك يقول هوميروس : « انظر ، إن زيوس ، مدبّر هذا العالم، يسلب الرجل الذي طلعت عليه شمسُ العبودية نصفَ رجولته[1] » .

وعلى الرغم من كل الظروف الملائمة والضمانات القانونية والمكانة الحسنة التي يتمتع بها رقيق البيوت في الشرق اليوم ، فلا ينبغي أن نصور مركز الرقيق عند المسلمين في العصور الوسطى تصويراً يزيده بهاء ؛ وكانت سائر ولايات الإسلام في القرن الرابع غاصّةً بالعبيــد الأُبَّاق ؛ وكان من أول ما يُؤْمر به ولاة النواحي في كتب توليتهم أنْ يقبضوا على العبيــد الآبقين ويحبسوهم ويسلموهــم لمواليهــم إن استطاعوا[2] . وكان لنازوك صاحب الشرطة ببغداد غلام" ، فطرده ، فلم يجد جهة يلجأ إليها ، فذهب لرجل صالح يكتب كُتُبَ العطف ليكتب له ما يستعيد به عطف سيده . وكان نازوك قد أرسل في طلب الغلام ، واستخبره فقصَّ الغلام عليه الأمر ، فلم يصدقه ، حتى استدعى الرجلَ الصالح وسأله ، فكان كلامه مطابقاً لكلام الغلام ، « قال : فلما قلت له (لنازوك) إن الغلام قال : أنا عبد مملوك ، وما أعددت لنفسي مــن أقصده لهذا الحال ، ولا أعرف جهة ألجأ إليها ، وقد طردني مولاي ، بكيت أنا لما تداخلني من رحمتي للفتى ومحبتي للدينار الذي أعطانيه ، قال : فدمعت عين نازوك ، ثم تجلّد واستوفى الحديث[3] » .

---

(1) Odyss., XVII, 322.

(2) رسائل الصابي ص ١٦٠ والصفحات التالية مثلا .

(3) كتاب الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٤٣ – ٥٤ .

وكان معظم العبيد الأبّاق ممن يشتغلون بالزراعة وكذلك كان جيش الثورة الوحيدة الخطرة التي قام بهـا العبيد في القرن الثالث الهجري مؤلّفا من الزنوج الذين يكسحون السباخ ، حتى يصلوا إلى التربة ويعمروها ؛ وكانت « كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان في أنهار البصرة منهم عشرات ألوف يعذّبون بهذه الخدمة[1] » .

*

(1) كتاب العيون ص ١٧ .

تعليقات[1]

١ ـ أخذ الرقيق

« إن أكبر الفوارق ، وهو الفرق بين الحر والعبد ، يظهر إذا أبقى المحاربُ الوحشي على حياة عدوه بعد أن يهزمه ثم يأخذه إلى بلاده ليقوم بأشق الأعمال وبحرث الأرض » وللرقّ سببان جوهريان : الفقر والحرب ، والحرب أقواهما ؛ وكذلك كان الرق عند المسلمين نتيجة للحروب في الغالب . جاء في القرآن الكريم :

« فإذا لَقِيتُم الذين كفروا فضَرْبَ الرقابِ ، حتى إذا أَثْخَنْتُموهم فشُدّوا الوثاق ، فإمّا منّاً بعدُ وإمّا فِداءً ، حتى تَضَعَ الحربُ أَوْزَارَها » . (سورة محمد آية ٤) .

والتعبير المألوف في القرآن للدلالة على النساء المملوكات هو ما ملكت أيمانكم ، وسنرى أنه ليس في الإسلام شيء يتعلق بشراء العبيد .

والعبد عند فقهاء الإسلام : ١ ـ شخص أُخذ أسيراً في الحرب ، أو حُمل عنوة من بلاد الأعداء ، بشرط أن يكون عند أخذه كافراً . ٢ ـ الولد الذي يولد من أمة مملوكة ويكون أبوه عبداً أو غير مالك

---

(١) هذا تلخيص لتعليق العلامة الهندي المرحوم خدابخش على الترجمة الانجليزية لهذا الفصل .

للأَمَة ، أو يكون مالـكا لها ولكنـه لا يعترف بأنـه أب للولـد .
٣ ــ الشخص الذي يؤخذ شراء .

والحرب والرق متصلان اتصالا وثيقاً في العهد القديم ، فنجد في التوراة (عدد إصحاح ٣١ آية ٢) أن الرب يكلم موسى قائلا : انتقم نقمة لبني إسرائيل من المِدْيانيين ؛ وفي الآية السابعة وما بعدهـا : فتجنّدوا على مِدْيان ، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر ...... وسبى بنو إسرائيل نساءَ مديان وأطفالَهم .

أما فيما يختص بالأجانب ، فقد أبيح لبني إسرائيل أن يستعبدوهم. (لاويين إصحاح ٢٥ آية ٤٤ وما بعدها) : « وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم ، منهم تقتنون عبيداً وإماء ؛ وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم،منهم تقتنون ، ومن عشائرهم الذين عنـدكم الذين يلدونهم في أرضـكم فيكونون ملـكا لكم ، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك ، تستعبدونهم إلى الدهر؛ وأما إخوتكم بنو اسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف » .

وكما أن أبناء الإماء المملوكة عند المسلمين يؤلفون طائفة من الرقيق مثلهم مثل من يُشترى بالمال ، فكذلك نجد في العهـد القديم هذين الاصطلاحين : « الذي يولد في البيت » ، و « الذي يشتري بالمال » ؛ وهذا يدل على أن العبيد عند اليهود ، كما هو الحال عند المسلمين ، يتكاثرون بالنسل : وينطبق هذا بالطبع على جميع من يتجر بالرقيق . ولما كان العبيد ملكا لأصحابهم ، فأبناؤهم ملك لهم أيضاً .

ومن وجوه التطابق الأخرى بين الإسلام والعهد القديم ، جعلُ الرق مقصورا على الأجانب عن الدين ، ففي التوراة (لاويين إصحاح

٢٥ آية ٣٩ وما بعدها) : وإذا افتقر أخوك ، وبيع لك ، فلا تستعبده استعباد عبد ، كأجير نزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك ، ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته وإلى ملك آبائه ، لأنهم عبيدي الذي أخرجتهم من أرض مصر ، لا يباعون بيع العبيد ، لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك » .

وكذلك الحال عند المسلمين ، فلا يجوز لهم أن يسترقوا المؤمنين ، لأن المسلم واليهودي يعتبر أخاه في الدين أخاً له .

ولكن الأمر عند البابليين كان على خلاف ذلك ، فلم يكونوا يبالون أن يكون الرقيق منهم أو من غيرهم ، فكان الرجل يبيع ابنه الحقيقي أو المُتَبنّى إذا أجرم في حق أبيه . وكذلك كان الزوج في حل من أن يتخلص من زوجته المشاكسة بأن يبيعها . وكان العدو المأسور عندهم يعامل معاملة العبد .

٢. مُعَامَلة الرَقيق

أوصى القرآن بالعدل والرحمة في معاملة الأرامل واليتامى ؛ وهو يوصي بمثل هذا في معاملة الرقيق ، وذلك لأن الحر والعبد كليهما عباد الله ، فهما متساويان ؛ جاء في القرآن :

« والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فُضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء، أفبنعمة الله يجحدون» (سورة النحل آية ٧١) وجاء أيضاً : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذوي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي

القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » • (سورة النساء آية ٣٦) •

وقد قال النبي عليه السلام في الحديث: العبيد إخوانكم،فأطعموهم مما تأكلون•وقال : إخوانكم خولكم ،جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم[1] •

وإذا كان النبي عليه السلام لم يلغ الرق ، فإنه قد أمر بما يضمن للأرقاء حسن المعاملة ؛ وإذا كان المسلمون يخالفون عن أمره ، فالنبي برىء من ذلك ؛ ولو أن المسلمين أطاعوا ما أمرهم به نبيهم في معاملتهم لما ملكت أيمانهم ، لكان حال الرقيق عند المسلمين أحسن منه عند غيرهم •

على أننا لو نظرنا إلى معاملة الرقيق في جملتها بحسب الشرع الإسلامي لوجدناها عادلة ؛ فقد كانت عقوبة الأَمَة الزانية أقل من عقوبة الحرة ، لأنها تعتبر أقل ذنباً بسبب ما ينقصها من حرية • وقد أوصى الشرع بالعناية بالعبيد ، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون •

وكان الرقيق تنتقل ملكيته مثل سائر الممتلكات ، فكان يستطيع المسلم أن يبيع ما ملكت يمينه ، إلا إذا كانت جارية قد ولدت منه ، وكان يندر أن ينكر أبوة ولده ، حتى يجوز له بيعها •

---

(١) وذكر صاحب التعليق ما قاله النبي في حجة الوداع بشأن العبيد .

٣ ـ تحرير العبيد

إن الشرع الإسلامي لم يكتف بتشديد الوصية في حسن معاملة الرقيق ، بل مكّن العبيد من استعادة حريتهم ، إذا كانوا بحسن سيرتهم أهلا لذلك ، وقد حبّب الإسلام ، في عتق الرقيق ، جاء في القرآن : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » • (سورة النور آية ٣٣) •

وتختلف طريقة هذا التحرير في بلاد الإسلام ، فكان من الناس من يعتق ، كرماً منه ، عتقاً كاملا ، ومنهم من كان يطلقه على أن يدفع له مقداراً من المال فيما بعد ، ويكون هذا بعقد مكتوب ، أو بكلام شفاهي يشهد عليه رجلان ، أو بأن يعطي الرجلُ لمملوكه وثيقة شرائه من مالكه قبله ، وقد تمنح للعبد حريته إذا أدى شروطا متفقاً عليها أو بموت مالكه غالباً • ويجوز أن يوصي الرجل بثلث ماله لمن ملكت يمينه ، ولا يزيد عن الثلث ، وإلا أخذ الورثةُ الزيادة ، وقد جعل القرآن عتق رقاب الرقيق كفارة لذنوب كثيرة ، وقربة من أحسن القرب •

وإذا كان العهد القديم قد تعرض لتحرير العبيد اليهود الذين صاروا أرقاء بسبب الدّيْن • فإن الإسلام قد تعرض لتحرير الرقيق جملة • انظر :

Robert : Social Laws of the Kur'àn p. 53, 60.
Doughty : Arabia Deserta, I, 554.
Lane : Modern Egyptians, 168.
Snouck Hurgronje : Mekka II. 18 ff.

الفصل الثاني عشر

العلماء

في القرن الثالث الهجري صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفي قصورهم وتعلموا الأدب على تقاليد الفروسية ، أدباء من طراز جديد ، يلمّون بكل شيء ، ويشبهون في عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون في جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يفرّقون بين أنفسهم وبين الأدباء ، حتى قال ابن قتيبة : «من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتّسع في العلوم[1] » .

وقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة" من العلوم الدنيوية،ولم يكن من العلوم حتى ذلك الحين ما له منهج علمي وأسلوب علمي سوى الفلسفة وعلم الكلام ؛ ثم صار لكل من التاريخ والجغرافية واللغة منهجه الخاص . وترك العلماء ما كانوا قد ألفوا قبلُ من اتخاذ المعارف وسيلة للتسلية ؛ كما أنهم أصبحوا لا يغالون في حشد المعارف على تنوعها ، بل أقبلوا على الدراسة العملية وعلى تنظيم المعارف ، وشعروا بما يجب عليهم من عناية ومحاسبة في تدوينها . وقد أوجزوا مقدمات كتبهم إيجازا كبيراً ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه صاحب الفهرست في خطبة كتابه عام ٣٧٧ هـ ــ ٩٨٧ م : ربّ يسر برحمتك ! النفوس

(١) المخلاة للعاملي المتوفى عام ١٠٠٣ هـ طبعة مصر ص ٢٢٨ .

تشرئب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات ؛ فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا ، إذ كانت دالّة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله ؛ فنقول، وبالله نستعين وإياه نسأل الصلاة على جميع أنبيائه وعباده المخلصين في طاعته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ... » .

ومن التغيرات الأخرى أن علم الفقه تميز عن غيره من علوم الدين ، وأصبح العلماء فريقين : الفقهاء ، والعلماء على الحقيقة . وكانت غالبية طلبة العلم المتكسّبين يقصدون الفقهاء ، لأن الفقهاء هم حملة علوم الشريعة والعبادات ، فكان لا بد لمن يريد تولي القضاء والخطابة في المساجد من التتلمذ عليهم . يقول الجاحظ في نص مشهور له : « وقد تَجِدُ الرجلَ يطلب الآثارَ وتأويلَ القرآن ، ويجالس الفقهاء خمسين عاما ، وهو لا يُعدُّ فقيهاً ، ولا يُجعل قاضياً ؛ فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين ، حتى تمرَّ ببابه فتظن أنه من بعض العمال ؛ وبالحريّ ألا يمر عليه من الأيام إلاّ اليسير ، حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان[1] » .

وكان نهوضُ علم الكلام بعد أن تخلص من قيود علم الفقه ، وكذلك ظهورُ الأفكار الجديدة في ذلك العصر مما رفع شأن العلماء إلى درجة عالية من الاحترام والتقدير ؛ يقول المطهّر المقدسي حوالي عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م : « ويأبى العلم أن يضع كنفه أو يخفض جناحه أو

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٤٣ — ٤٤ ، وانظر مثلا Goldziher, Muhamm. Studien II, 233. ويحكي ان الجويني قال يوما للغزالي : يا فقيه ، فرأى في وجهه التغيّر ، كأنه استقل هذه اللفظة على نفسه (طبقات السبكي ٣ ص ٢٥٩) .

يسفر عن وجهه إلا المتجرّد له بكلّيته ومتوفّر عليه بأتيّته ، مُعانٍ له بالقريحة الثاقبة والروية الصافية ، مقترنا به التأييد والتسديد ؛ قد شمّر ذيله ، وأسهر ليله ، حليف النصب ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرّجا ويتلقاه متطرفا ؛ لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والنزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ونبذ المحاكلة واللجاجة ، وإجالة الرأي عند غموض الحق ، والتأتي بلطيف المأتى ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتّضح ، والتفريق بين التمويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابةُ المراد ومصادفة المرتاد[1] » .

وكان صاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتباً ، وكان يتميز عن العلماء في لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، وكانوا في خراسان يظهرون متطلّسين متحنّكين ؛ وكانت فارس مركز الكتاب ، وكانوا في مدينة شيراز يترفعون على العلماء[2] . ولكن خراسان كانت جنة العلماء ، ولا يزال العلماء بها إلى اليوم يتمتعون بجاه واحترام لا نظير لهما في سائر البلاد . ومن أمثلة ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان ، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانه ، ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به . وكان يَخرج من كل بلد أصحابُ البضائع بضائعَهم ، وينثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم ، حتى وصلوا إلى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاعات وهي تقع على رءوس الناس ؛ وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهن وألقينها إليه ، وكان

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ١ ص ٤ .
(٢) المقدسي ص ٤٤٠ .

قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة ، فكان يتبرك بهن ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه[1] .

وكان في كل جامع كبير مكتبة ، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجامع[2] . ويقال : إن خزانة الكتب بمرو كانت تحوي كتب يزدجرد ، لأنه حملها إليها وتركها[3] . وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب ؛ فكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها ؛ وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة، كل منها عشرون ورقة ، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب . أما في مصر فكانت للخليفة العزيز (المتوفى عام ٣٨٦ هـ ٩٩٦ م) خزانة كتب كبيرة ؛ وقد ذُكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد ، فأمر خُزّان دفاتره ، فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة ، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد ؛ وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار ؛ فأمر العزيز الخزّان ، فأخرجوا ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه . وذُكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد ،

---

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ٩١ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ في ترجمة أبي نصر المنازي .

(٣) كتاب بغداد لطيفور ص ١٥٧ ؛ وقد ترنّم ياقوت بذكرى مكاتب مرو مع تأخر الزمن به . وكان قد مضى بمرو ثلاث سنين ، فتغنى بأيامه فيها شعراً جميلا . وكان بها على عهده اثنتا عشرة خزانة ، بإحداها نحو من اثني عشر ألف مجلد ؛ يقول ياقوت « وكانت (الخزائن) سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن ، تكون قيمتها مائتي دينار ؛ فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنساني حبها كل بلد والهاني عن الأهل والولد » (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٩ — ٥١٠ من الطبعة الأوربية) .

فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها[1] . وقد أراد المتأخرون أن يقدّروا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة ، فيقول المقريزي إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب ويذكر عن ابن أبي واصل أنه كان بها ما يزيد على مائة وعشرين ألف مجلد . وقال ابن الطوير إن خزانة الكتب كانت تحتوي على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب[2] .

ولنذكر ما كان في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة: كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتابا ، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م ما يزيد على المائة بقليل ، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة بامبرج سنة ١١٣٠ م ستة وتسعون كتابا فقط[3] . وقد أطلع رئيس الفراشين المقدسيّ على خزانة الكتب التي كانت في دار عضد الدولة ؛ والمقدسي يصفها بأنها « حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ؛ ولم يبق كتاب صنّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها . وهي أزج طويل في صفّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه . وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ،

(١) المقريزي (الخطط ج ١ ص ٤٠٨) نقلا عن المسبّحي المؤرخ الثقة (توفي عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) الذي كان معاصراً للعزيز بالله ... على أن الارقام تختلف بين مخطوط وآخر ، فيقول ابن الطوير إن من عجائب خزانة العزيز بالله أنه كان بها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري ، على أن ابن الطوير متأخر (المقريزي ج ١ ص ٤٠٩) .

(٢) المقريزي (الخطط) ج ١ ص ٤٠٩ .

(٣) Th. Gottlieb Ueber Mittelalterliche Bibliotheken, S. 22, 23, 87.

والدفاتر منضّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه[1] » .

وكان أكبر عشاق الكتب المولعين بها ولعاً شديداً في القرن الثالث الهجري الجاحظ ، وكثيراً ما يذكر بذلك ؛ والفتح بن خاقان ؛ وإسماعيل ابن إسحاق القاضي .

فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ؛ وقد حكى بعض المؤرخين المتأخرين أنه مات في حب الكتب ، فقد روي أنه مات بوقوع مجلد عليه ؛ وكان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس عليها ، وكان عليلا فسقطت عليه فقتلته[2] .

وأما الفتح بن خاقان ، وكان من كبار رجال دار الخلافة ، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمّه أو خفّه وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده إليه .

وأما إسماعيل بن إسحاق فإني ما دخلت عليه الا رأيته ينظر في كتاب أو يقلّب كتباً أو ينفضها[3] » .

وفي سنة ٢٧٥ هـ ـ ٨٨٨ م توفي السجستاني المحدّث ، وكان له كمّ واسع وكمّ ضيق ، فقيل له في ذلك ، فقال : الواسع للكتب والآخر لا أحتاج إليه[4] .

---

(١) المقدسي ص ٤٤٩ .
(٢) تاريخ أبي الفدا تحت سنة ٢٥٥ هـ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١١٦ ـ ١١٧ ؛ والارشاد لياقوت ج ٦ ص ٥٧ ، غرر الفوائد للمرتضى طبعة طهران ١٢٧٢ هـ .
(٤) ابو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٧٩ .

وقد عمل عليّ بن يحيى المنجم ، وكان ممن جالس الخلفاء ، حوالي منتصف القرن الثالث الهجري خزانة كتب عظيمة في ضيعته ، وسماها خزانة الحكمة ، وكان يقصدها الناس من كل بلد،فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم،والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم أبو معشر المنجّم من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم ؛ فوُصفت له الخزانة ، فمضى ورآها ، وهاله أمرُها ؛ « فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلّم فيها علم النجوم ، وأغرق فيه حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والإسلام أيضاً[1] » .

وفي سنة ٢٨٢ هـ ــ ٨٨٥ م توفي أحد علماء أصفهان وكبار أصحاب الضياع فيها ، ويقال إنه أنفق في شراء كتبه ثلثمائة ألف درهم[2] .

وفي سنة ٣١٢ هـ ــ ٩٢٤ م توفي محمد بن نصر الحاجب وخلّف كتباً بأكثر من ألفي دينار[3] .

وفي سنة ٣٥٧ هـ ــ ٩٦٧ م صودر حبشي بن معز الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، فكان من جملة ما أُخذ منه خمسة عشر ألف مجلّد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد[3] .

وفي سنة ٣٥٥ هـ ــ ٩٦٥ م نهب قوم من الغزاة دار الوزير أبي الفضل ابن العميد بالريّ ؛ فلما انصرف إلى داره ليلا لم يجد فيها ما

---

(١) الارشاد ج ٥ ص ٤٦٧ .
(٢) تاريخ أصفهان لابي نعيم مخطوط ليد ص ٥١ ب .
(٣) عريب ص ١٢١ نقلا من الصولي ؛ وكان للصولي هذا مكتبة كبيرة ؛ انظر المنتظم لابن الجوزي ص ٧٩ ب .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ٣١٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ .

يجلس عليه ، ولا كوزاً واحد يشرب فيه ؛ وكان ابن مسكويه المؤرخ في ذلك الحين خازناً لكتب ابن العميد ؛ وهو يقص علينا القصة ، فيقول : « فأنفذ إليه أبو حمزة العلوي فرشاً وآلة ، واشتغل قلب الوزير ابن العميد بدفاتره ، ولم يكن شيء أعزّ عليه منها ، وكانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب ، يُحمل على مائة وِقْر ، فلما رآني سألني عنها فقلت : هي بحالها لم تمسسها يد ، فسُرِّي عنه ، ووقال : أشهد أنك ميمون النقيبة؛ أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها ؛ ورأيته قد أسفر وجهه ، وقال : باكرْ بها غداً إلى الموضع الفلاني ففعلت ، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله[1] » .

وقد استدعى السلطان نوح بن منصور الساماني الصاحب بن عبّاد (المتوفى ٣٨٤ هـ ــ ٩٩٤ م) ليوليه وزارته ، فكان مما اعتذر به أنه لا يستطيع حمل أمواله ، وأن عنده من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر ، وكان فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات ، ولما ورد السلطان محمود الري استخرج من بيت كتب الصاحب كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه[2] ، وكذلك لم يجد البيروني من قبل ولا الفردوسي من محمود هذا مشجعاً ولا حامياً .

وكان القاضي أبو المطرف (المتوفى عام ٤٠٢ هـ ــ ١٠١١ م) قاضي الجماعة بقرطبة ؛ وقد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً ؛ وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه وبالغ في

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٥ .

ثمنه ، وكان لا يعير كتاباً من أصوله البتة ، وإذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير . ويحكى أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه عاماً كاملا في مسجده ، واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار[1] .

ولما أراد البرقاني العالم البغدادي المتوفى عام ٤٢٥ هـ ـ ١٠٣٣ م أن ينتقل احتاج إلى ستين من الأعدال ، وإلى صندوقين ليحمل فيها كتبه عند انتقاله[2] . وقد دخل أبو يوسف القزويني المعتزلي (المتوفى عام ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م) بغداد ومعه عشرة جمال عليها كتب[3] .

وقد أظهر المانوية من قبل عناية كبيرة بزخرفة كتبهم ، ففي سنة ٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م أُحرقت على باب العامة ببغداد صورةُ ماني ، وأربعة أعدال من كتب الزنادقة ، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على هذه الكتب ، وكان له قدر[4] . وقد قلّد أصحابُ الحلاج الذي قتل عام ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١ م المانوية في زخرفة الكتب ، فكانت كتبهم تُكتب على ورق صيني ، وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطّن بالديباج والحرير ، ويجلّد بالأدم الجيد[5] .

وكانت الكتب التي يرسلها ملك الروم مزخرفة ؛ وقد وصل لنا من وصف بعضها ما يجعلها تحفة فنية ؛ ففي سنة ٣٢٦ هـ ـ ٩٣٧ م وصل كتاب ملك الروم إلى الخليفة الراضي ببغداد ، وكانت الكتابة بالرومية بالذهب والترجمة بالعربية بالفضة[6] . وبعد ذلك ورد على الخليفة عبد

---

(١) كتاب الصلة في تاريخ علماء الاندلس لابن بشكوال طبعة مجريط ١٨٨٢ ج ١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

(٢) انظر Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 335 .

(٣) طبقات السبكي ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٤) المنتظم ص ٢٣ ا .

(٥) عريب ص ٩٠ نقلا عن ابن مسكويه .

(٦) المنتظم ص ٥٩ ا .

الرحمن الناصر بقرطبة كتاب" من صاحب القسطنطينية ، وكان في ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقي ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح (عليه السلام) وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبّسة بالديباج[1] .

وكانت أشعار الخليفة المعتمد مكتوبة بالذهب[2] .

ولما تولى قاضي القضاة عبد الجبار منصبه ، كان الوزير ابن عباد المتوفى عام ٣٨٦ هـ ــ ٩٩٦ م هو الذي أنشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بزخرفته ، ويقال إنه كان سبعمائة سطر كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف أبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة ؛ وقد أُهدي هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوزير نظام الملك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتاب المجوّدين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلافَ القرّاء بين سطوره بالحمرة،وتفسير غريبه بالخضرة، وإعرابه بالزرقة ، وكتب بالذهب علامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد ، وما يُكتب في التعازي والتهاني[3] . وكان أكبر ما يُعنى به عشاق الكتب ، الكتب التي كتبها كبار الخطاطين والتي لأصحابها في النسخ أصل منسوب .

---

(١) نفح الطيب للمقري طبعة دوزي ج ١ ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ .

(٢) وقد أطلع المكتفي الصولي على هذه الأشعار ؛ انظر كتاب الديارات للشابشتي ص ٣٩ ب .

(٣) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٣٠ .

على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية أخرى تزيد على دور الكتب بالتعليم ، أو على الأقل بإجراء الأرزاق على من يلازمها ؛ فيحكى عن أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي المتوفى عام ٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م أنه أسس داراً للعلم في بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب لعلم ، لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب ، وكان معسراً، أعطاه ورَقاً وورِقا ؛ وكان ابن حمدان يجلس فيها ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ، ثم يملي حكاياتٍ مستطابة وطرفا من الفقه وما يتعلق به[1] .

وقد عمل القاضي ابن حبّان (المتوفى عام ٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) في مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق ؛ ولم تكن الكتب تُعار خارج الخزانة[2] .

وقد أنشأ أبو علي بن سوّار الكاتب أحد رجال حاشية عضدالدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م) دار كتب في مدينة رام هرمز على شاطيء بحر فارس ، كما بنى داراً أخرى بالبصرة ، وجعل فيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ فيهما ، وكان في الأولى منهما أبداً شيخ يُدْرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة[3] .

وفي سنة ٣٨٣ هـ أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بني بويه داراً للعلم في الكرخ غربي بغداد، ونقل إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها؛ وكان بها مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن النسّاخ ، هذا إلى عشرة

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٢) Wüstenfeld AGGW. 37 .

(٣) المقدسي ص ٤١٣ وكتاب الفهرست ص ١٣٩ .

آلاف وأربعمائة مجلد أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون، وردّ النظرَ في أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة[1] .

وكذلك اتخذ الشريف الرضي (المتوفى عام ٤٠٦ هـ ـ ١٠١٥ م) نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم ، وفتحها لطلبة العلم ، وعيَّن لهم جميع ما يحتاجون إليه .

ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ؛ فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة ، وهي خزانة كتب ليس غير ؛ أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها .

وقد أنشئت في مصر أيضاً مثل هذه الدور ؛ فقد اشترى العزيزبالله الخليفة الفاطمي في سنة ٣٧٨ هـ ـ ٩٨٨ م داراً إلى جانب الجامع الأزهر، وجعلها لخمس وثلاثين من العلماء . وكان هؤلاء يعقدون مجالسهم العلمية بالمسجد في كل يوم جمعة بعد الصلاة حتى صلاة العصر . فالجامعة الأزهرية التي هي أكبر معهد علمي إسلامي اليوم نشأت في القرن الرابع الهجري .و كان الوزير ابن كلّس يحب أهل العلم والأدب ويقرّبهم ؛ وكان يُجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على

---

(١) المنتظم ص ١٣٥ ا ، ورسائل أبي العلاء ص ٥٢ ، ومقدمة مرجليوث لهذه الرسائل ص ٢٤؛ وقد أحرقت هذه الدار عام ٤٥٠ هـ ـ ١٠٥٨ م (ابن الأثير ج ٩ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧). وعلى أن الكتب التي كانت من قبل في حوزة رجال مشهورين لها شأن هام لأنها تحفظ نوعاً من السند الصحيح لماتحويه وإقراراً به ؛ ولذلك يعنى القارىء بكتابة اسمه على غطاء الكتاب . ويحدثنا ياقوت (الارشاد ج ٦ ص ٣٥٩) عن خازن هذه الدار ، المتوفى عام ٥١٠ هـ، كيف كانت ألكتب تهلك بأكل البراغيث لها وعيثهم فيها .

(٢) ديوان الشريف طبعة بيروت ص ٣ من طبعة سنة ١٣٠٧ هـ .

جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين[1] • ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ففتح في سنة ٣٩٥ هـ الدار الملقّبة بدار العلم[2] بالقاهرة ، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائرُ الناس إليها يقرءون وينسخون ، وأقيم لها خزّان وبوّابون ، ورُتّب فيها قوم يدرسون للناس العلوم؛ولكن الحاكم أبطل ذلك بعد قليل من الزمان[3] • وكان في هذه الدار ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والمحابر والورق ؛ وقد وصلت إلينا ميزانية هذه الدار ، فكان ينفق عليها في كل سنة ٢٥٧ ديناراً من العين المغربي • فمن ذلك :

للورق	٩٠	ديناراً
للخازن	٤٨	«
للفراشين	١٥	«
للناظرين في الورق والحبر والأقلام	١٢	«
لمرمّة الكتب	١٢	«
ثمن الماء	١٢	«
ثمن الحصر العبداني	١٠	دنانير
ثمن لبود للفرش في الشتاء	٥	«
ثمن طنافس في الشتاء	٤	«
لمرمة الستارة	١	دينار

وقد بقيت هذه الدار إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش ؛

(١) ذكر ذلك معاصره وشريكه في الوطن يحيى بن سعيد ص ١٠٨ ا •

(٢) تسمى أيضاً دار الحكمة ، المقريزي ج ١ ص ٤٥٨ •

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٦ ا •

لأنه اجتمع بها فريق من العلماء ، فاستفسد بعضهم عقولَ جماعة ، وأخرجهم عن الصواب[1] .

وكانت معظم دروس الفقه والكلام تُعطى في المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس . وكان هذا يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة في المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكن ؛ واذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء : دوِّروا وجوهكم إلى المجلس[2] .

وقد أحصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجلسا من مجالس العلم[3] .

وكان جامع المنصور ببغداد ، وهو أقدم مسجد جامع بها ، أشهر مركز للتعليم في المملكة الإسلامية . ويُحكى أن الخطيب البغدادي[4] لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات أخذاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ماء زمزم لما شُرب له ؛ فالحاجة الأولى أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يملي الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي .

وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م) ، وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهاني ، إلى أسطوانة

---

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٢) المقدسي ص ٢٠٥ — . وفي سنة ٣١٤ هـ — ٩٢٦ م برد الهواء برداً شديداً وسقط ببغداد ثلج كثير ،وجمدت دجلة بأسرها بالموصل حتى عبر الناس عليها وجلس المحدث المعروف بابي زكرة في وسط دجلة على الجمد ، واملى الحديث (المنتظم لابن الجوزي ص ٣١ ا) .

(٣) المقدسي ص ٢٠٥ .

(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٦ .

بجامع المنصور خمسين سنة لم يتغير محلّه منها[1] .

وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ ، وكان ذلك طبيعياً ؛ لأن الفقهاء يعلمون العلم الذي يؤهل أصحابه لتولّي مناصب يعيشون منها ، كما تقدم القول ؛ ولكن لو قارنا عدد التلاميذ في ذلك العصر لوجدناه صغيراً بالنسبة لما نراه اليوم ، وهذا يدل على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ؛ فقد كان أبو حامد بن محمد الاسفراييني المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ؛ إمامَ أصحاب الشافعي ، حتى قيل إنه أفقه وأنظر منه ؛ وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه[2] . وكان أبو الطيّب الصعلوكي الفقيه الأديب مفتي نيسابور وهي مركز علماء خراسان؛ ويقال إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم في عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م[3] . وكان يقعد بين يدي أحد أصحاب الجويني « الإمام الفرد » (المتوفى عام ٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) في كل يوم ثلثمائة من الأئمة والطلبة[4] ؛ هذا على حين أننا نجد اليوم في كشغر مثلا ؛ مع أنها ليست مركزاً دينياً كبيراً ، أن أكثر من خمسمائة طالب يحضرون دروس أكبر العلماء فيها[5] .

وكان عدد الطلاب يُعرف بإحصاء محابرهم التي يضعونها أمامهم

---

(١) الارشاد ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) Wüstenfeld, AGGW 37. Nr. 287. ، وطبقات السبكي ج ٣ ص ٢٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٣ يذكر اربعمائة طالب .

(٣) التهذيب للنووي طبعة فستنفلد ص ٣٠٧ وطبقات السبكي ج ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٤) السبكي ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٥) Hartmann, Chinesisch-Turkestan, S. 45.

والتي كانت أهم عتاد الطالب[1] . ولما قدم محمد بن جرير الطبري بغداد قصده الحنابلة ، فسألوه عن أحمد بن حنبل ، وعن حديث الجلوس على العرش فقال : أما أحمد فلا يُعدّ خلافه ؛ فوثبوا ورموه بمحابرهم غاضبين[2] . وكان إذا مات العالم كسر تلاميذه المحابر والأقلام، وطافوا في البلد نائحين مبالغين في الصياح ؛ فلما مات الجويني المتقدم الذكر ، وكان خطيباً مشهوراً أيضاً ؛ كسِّر منبره ، واشتركت نيسابور كلها في حزن العلماء عليه ، « فلم تفتح الأبواب في البلد ، ووضعت المناديل على الرءوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه[3] .

وكان الطلبة يحضرون كتبهم في شيء يسمى قارورة ، ولعلها سميت بهذا الاسم من قبيل الفكاهة العلمية[4] .

وكان الإملاء فيما مضى من الزمان يعتبر أعلى مراتب التعليم[5] ، وكثيراً ما كان المتكلمون واللغويون في القرن الثالث الهجري يتبعون طريقة الإملاء خاصة ؛ فيُحكى أن الجبّائي المعتزلي أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقة ، وما رؤي ينظر في كتاب إلا يوما في زيج الخوارزمي[6] . وقد أملى أبو علي القالي خمس

---

(١) السبكي ج ٣ ص ١٧٠ ؛ والنووي نفس الاشارة .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٣٦ .

(٣) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 365 ، وانظر طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٤) الارشاد ج ٢ ص ١٠ ؛ وأغلب الظن أن القارورة هي المحبرة كما يمكن أن يؤخذ من النص : « دخلت طالباً للحديث فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث ، وليست معي قارورة ، فرأيت شابا عليه سمة الجمال فاستأذنته في كتب الحديث من قارورته » (المترجم) ، على أن المؤلف يقول إن كلمة قارورة تدل على ما يشبه الصندوق .

(٥) المزهر للسيوطي ج ٢ ص ١٩٩ طبعة مصر ١٩٣٥، Goldziher, SWA, 69 S. 20 .

(٦) المعتزلة لابن المرتضى ص ٤٧ .

مجلدات[1] ، وكان المستملي يكتب أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » •

وفي القرن الرابع الهجري ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدّثين في الإملاء ، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه أحد الطلبة ، والمدرس يشرح « كما يدرّس الإنسان المختصرات[2] » • ويقال إن آخر من أملى من اللغويين هو أبو القاسم الزجاجي المتوفى عام ٣٣٩ هـ ــ ٩٥٠ م[3] • أما إملاء الحديث فقد بقي كما صرح بذلك السيوطي • ولما عزم الوزير الصاحب بن عباد (المتوفى عام ٣٨٥ هـ ــ ٩٩٥ م) على إملاء الحديث خرج متطلّسا متحنّكا على زي أهل العلم ، واتخذ لنفسه بيتاً سماه بيت التوبة ، وقعد للإملاء فحضر الخلق الكثير ، «وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة كلٌّ يبلغ صاحبه[4]»؛ ولكن أصحاب الإملاء اختصروا فيه حتى إن أغلب العلمـاء كانوا يختصرون في أماليهم ويطيلون في تدريسهم[5] •

وعندنا من خبر كتاب الياقوت في اللغة لأبي عمرو المطرز (المتوفى عام ٣٤٥ هـ ــ ٩٥٦ م) ما يرينا كيف كان ينشأ الكتاب من الإملاء : ابتدأ المؤلف بإملاء هذا الكتاب يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦ هـ ــ ٩٣٧ م في جامع المنصور ببغداد ارتجالا من غير كتاب ولا دستور ، ومضى في الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره ؛ ثم

---

(١) السيوطي في المزهر •

(٢) السبكي ج ٣ ص ٢٥٩ •

(٣) المزهر للسيوطي •

(٤) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٢ •

(٥) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ ، ويظهر انه في عصر حاجي خليفة كان المحدثون قد تركوا الاملاء نهائيا • انظر : Marçais, Le Taqrib de en-Nawawi, JA 1901, 18, S. 87 (وكتاب التقريب مطبوع بالعربية ومعروف ــ المترجم) •

رأى الزيادة فيه فزاد في أضعاف ما أملى ، وكتب هذه الزيادة أحد تلاميذه ؛ ثم قرأه عليه أبو إسحاق الطبري وسمعه الناس ، ثم زاد فيه بعد ذلك ، وقريء عليه بالزيادة يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٣٢٩ هـ ــ ٩٤١ م ؛ وفرغ منه في ربيع الثاني سنة ٣٣١ هـ ــ ٩٤٢ م ، وحضرت نسخ جميع من كتب فقورنت ؛ ثم زاد المؤلف بعد ذلك أشياء أخرى كتبها محمد بن وهب ، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبي إسحاق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب ولا يكون بعدها زيادة[1] .

وكان تغيُّر طريقة التعليم سبباً في إيجاد نوع جديد من المؤسسات العلمية ؛ ذلك أنه لما انتشرت طريقة التدريس نشأت المدارس ، ولعل من أكبر الأسباب في ذلك أن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس لما يتبعه من مناظرة وجدل قد يخرج بأصحابه أحياناً عن الأدب الذي يجب مراعاته للمسجد ؛ فالقرن الرابع هو الذي أظهر هذه المعاهد الجديدة التي بقيت إلى أيامنا . ويدل مجموع الأخبار التي انتهت إلينا على أن نيسابور كانت مهد هذه المعاهد ، وكانت أكبر مراكز العلم في خراسان . ويقول الحاكم النيسابوري المؤرخ الثقة (المتوفى عام ٤٠٦ هـ ــ ١٠١٥ م) صاحب تاريخ نيسابور إن أول مدرسة هي التي بُنيت لمعاصره أبي إسحاق الإسفراييني (المتوفى عام ٤١٨ هـ ــ ١٠٢٧م) بنيسابور[2] . أما المدرسة التي بنيت لابن فورك (المتوفى عام ٤٠٦ هـ)

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٧٦ .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ١١١ ، ١٣٧ ؛ ويقول المقريزي (الخطط ج ٢ ص ٣٦٣) إن أول من حُفظ عنه أنه بنى مدرسة في الاسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية التي بنيت للبيهقي (المتوفى عام ٤٥٤ هـ ــ ١٠٦٢ م) . ويقول الذهبي إن أول المدارس المدرسة النظامية (السبكي ج ٣ ص ١٣٧) ، ولا توجد كلمة مدرسة عند الجوهري ولكنها وردت في رسائل الهمداني (ص ٢٤٧) .

فهي أحدث عهداً من تلك المدرسة بقليل • وكان كل من الإسفراييني وابن فورك أشعرياً متحمساً ، فلا بد أن يكونا قد آثرا البحث في المسائل الكلامية ، بل آثرا طريقة التدريس على مجرد رواية الأحاديث[1] •

على أنه كان بنيسابور رجل من كبار الأئمة وأولي الرياسة ، وهو أبو بكر البستي المتوفى عام ٤٢٩ هـ ـــ ١٠٣٧ م ، وقد بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره ، ووقف عليها جملة من ماله الكثير • وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والمناظرين بنيسابور[2] •

وكان المستملي في المجالس الكبيرة يجلس علـــى مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين وليعيد كلام المدرس حتى يسمعه من كان بعيداً عنه • وكان العالم يبتدىء درسه بحمد الله والصلاة على نبيه بعد قراءة قارىء حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللسامعين[3] • وبعد أن يستنصت المستملي الناس يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبي ؛ ثم يقول للمحدِّث : من أو ما ذكرت رحمك الله ؟

وكلما ورد ذكر النبي أو أحد الصحابة أو نحوهم[4] صلى على النبي ورضّى عن الصحابة • وفي حوالي عام ٣٠٠ هـ كان ابن كيسان

---

(١) ويريد الأستاذ ريبيرا (Ribera) في مقالة : Origen del Colegio Nidami de Bagdad وهـو بحث شيق ضمـن Homenajo a Don Fr. Codera Zaragoza 1904, S. 3. ff. ان يثبت ان المدارس في اصلها من مؤسسات الكرامية ؛ ولكن لا برهان له على ذلك .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٣٣ .

(٣) انظر الفصل الخاص بعلوم الدين .

(٤) Nawawi, Taqrib. trad. Marçais, JA, 1901, 18, S. 88. والطبعة العربية ، النوع السابع والعشرون ؛ وهذه كانت هي العادة الجارية في القرن الرابع كما يدل على ذلك ما روي من أن الخطيب البغدادي كان يأمر المستملي أن يرفع صوته بذلك .

النحوي يبدأ مجلسه بأخذ القرآن والقراءات ، ثم بأحاديث الرسول عليه السلام ؛ « فإذا قرىء خبر غريب أو لفظة شاذة أبان عنها وتكلّم عليها وسأل أصحابه عن معناها[1] » . وكان يجوز للسامع في المجلس أن يقف ويسأل المدرس ، ويدل على ذلك ما حكي عن أبي عبيدة اللغوي من أن رجلا حضر مجلسه فسأله سؤالا سخيفاً يدل على الجهل وسوء الفهم ؛ ثم قام ثان وثالث فسألا مثل ذلك ، فأخذ أبو عبيدة نعليه ، واشتد ساعياً في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته : من أين حُشرت البهائم عليَّ اليوم[2] .

على أنه قد بقي في القرن الرابع ذلك التهيب الشديد للحديث ، وقد كان معروفاً من قبل ، فكان يبلغ من ورع البعض أنه يتهيب رواية الحديث[3] ؛ وقد حكى البرقاني (المتوفى عام ٤٢٥ هـ ــ ١٠٣٤ م) أن أستاذه كان يروي الأحاديث متهيباً متحرزاً ، وأن تلاميذه كانوا إذا تكلم مع أحد ، يذهبون جانباً ويكتبون الأحاديث التي ترد في كلامه دون أن يفطن هو لذلك[4] . وكان أبو سهل الصعلوكي يُطلب منه التحديث فيمتنع أشد الامتناع ؛ ولم يقعد لذلك إلا في آخر عمره عندما بلغ السبعين[5] . على أن التحديث كان يعتبر نوعا من العبادة يحتاج إلى آداب خاصة : فيستحب للمحدث قبل أن يجلس للحديث أن يتطهّر

---

(١) الارشاد ج ٦ ص ٢٨٢ .

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر Goldziher, DMG, 1907, S. 861 ، وقد حكي السمرقندي (بستان العارفين ص ١٠) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى انه قال : ادركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان منهم محدِّث إلا ودّ أن اخاه كفاه الحديث ولا مفتٍ إلا ود أن اخاه كفاه الفتوى .

(٤) انظر ما ذكره مارسيه في هامش ترجمته لكتاب التقريب للنووي : JA, 1901, 17 . S. 196 Anm. 2.

(٥) الطبقات للسبكي ج ٢ ص ١٦١ .

ويتطيّب ويسرح لحيته ، وأن يجلس متمكناً بوقار ، فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره ، وعليه أن يقبل على الحاضرين كلهم[1] .

ويروى لنا من القرنين الثاني والثالث للهجرة أنه كانت تـرمى رقاع في حلقة بعض العلماء الصالحين أمام العالم ، وتتضمن هذه الرقعة طلبَ دعاء لمريض أو صاحب حاجة ، فيقبض العالم عليها ويقرؤها ، ويدعو لصاحبها ، ويؤمّن على دعائه من حضر ، ثم يمضي في درسه[2] .

وقد رويت لنا من القرن الرابع هذه الحكاية التالية : لما عزم الصاحب بن عباد على إملاء الحديث ، وهو وزير ، « خرج يوماً متطلّساً متحنّكا بزي أهل العلم فقال : قد علمتم قدمي في العلم ، فأقروا له بذلك ، وأنا متلبّس بهذا الأمر ، وجميع ما أنفقته من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي وجدي ، ومع هذا لا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أني تائب إلى الله من ذنب أذنبته ، واتخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت التوبة ، ولبث أسبوعاً على ذلك ، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ، ثم خرج وقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة ، كل يبلغ صاحبه ، فكتب الناس حتى القاضي عبد الجبار[3] » .

وكان أبو الحسن الدار قطني (المتوفى عام ٣٨٥ هـ ــ ٩٩٥ م) يقرأ عليه تلاميذه ، فإذا أخطأ أحدهم سبّح أو قرأ شيئا من القرآن بقصد

---

(١) التقريب للنووي ترجمة مارسيه Marçais JA, 1901, 18, S. 85 f. (النوع السابع والعشرون من الطبعة العربية) ، ويذكر مارسيه عن الغزالي أن سفيان الثوري كان يجلس الفقراء في الصف الأول .

(٢) الارشاد لياقوت، ج ٦ ص ٣٨٤، ومروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٨٥ وما يليها.

(٣) الارشاد ج ٢ ص ٣١٢ .

التصحيح ، من الآيات التي تكون ملائمة لذلك[1] . وتوفي أحد العلماء في سنة ٤٠٦ هـ ـــ ١٠١٥ م . وكان يبتديء كل يوم بتدريس القرآن ، ثم يدرس الحديث ، وكان يجلس على حال واحد لا يتحرك ولا يعبث في شيء من أعضائه ، ولا يغير شيئاً من هيئته ؛ وكان يقرأ بنفسه حتى يستنفد قوته ويبلغ النهاية في جهده في القراءة[2] .

وكان أبو الحسن الباهلي يدرس في كل جمعة مرة واحدة ، وكان يرخي الستر بينه وبين تلاميذه كي لا يروه ، وسئل عن سبب إرساله الحجاب بينه وبين الناس فأجاب : إنهم يرون السوقة ، وهم أهل الغفلة ، فيروني بالعين التي يرون بها أولئك ؛ « وكان من شدة اشتغال قلبه بالله مثل واله ٍ أو مجنون ، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره[3] » . وكان بعض العلماء إذا انتهى مجلسه يقول : قوموا ؛ فيقوم تلاميذه ، ويأخذ هو يدعو الله[4] .

وقد اختلف العلماء متى يبدأ الإنسان في سماع الحديث ؛ فذهب جماعة إلى أنه يستحب أن يبتديء الإنسان بسماع الحديث بعد ثلاثين سنة ؛ وقال آخرون بعد العشرين ؛ ونقل القاضي عياض ، قاضي قرطبة (المتوفى عام ٥٤٤ هـ ـــ ١١٤٩ م) أن مذهب المحدّثين أنفسهم أن أول زمن يصح فيه السماع خمس سنين ؛ ويذكر حديث" للبخاري (كتاب العلم ، الباب الثامن عشر) لإثبات هذا الرأي . ويقول النووي (المتوفى عام ٤٧٦ هـ ـــ ١٠٨٣ م) إن العمل استقر على ذلك في زمانه . ويحكى

(١) طبقات السبكي ج ٢ ص ٣١٢ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ١٦٣ ا .

(٣) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩٢ .

أن الحميدي المحدّث المشهور كان أبوه يحمله على كتفه[1] إلى مجلس الحديث ؛ ولهذا يذكر مؤرخو الحديث السن الذي بدأ عنده كل محدّث في سماع الحديث • وكان يندر أن يذهب الولد لسماع الحديث وهو في السادسة من العمر • ويقال إن القاضي التنوخي المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م ، ممن سمع الحديث وهو في سن ست[2] • ويقال إن أبا نعيم الأصفهاني أكبر محدّثي عصره سمع الحديث وهو ابن ثمان[3] • والغالب أن يُبدأ في سماع الحديث في الحادية عشرة ، وفي هذا السن سمع الحديثَ الخطيبُ البغدادي المحدّث المشهور وثلاثة من شيوخه[4] ؛ وكذلك ابن الجوزي ، فقد كتب الحديث وله إحدى عشرة سنة[5] • وكان بعض المحدثين لا يقبل في مجلسه من لم يكن ملتحياً ، خوفاً من قصص الغرام فيما يظهر • ويُذكر أن صبيا كان شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومُنع من ذلك فاتخذ لنفسه لحية مصطنعة[6] •

وقد اختُلف أيضا في السن التي يجوز للرجل فيها أن يتصدى لتدريس الحديث ؛ فذهب النووي إلى أنه يجوز للإنسان أن يجلس لذلك في أي سن متى احتيج إلى ما عنده ؛ ويجب على الشيخ المسن أن يمسك عن التحديث ، إذا خشي التخليط بهرم أو خرف أو عمى[7] •

وكان الأسفراييني أكبر أئمة الشافعية في القرن الرابع الهجري ،

---

(١) التقريب للنووي ترجمة مارسيه . انظر Marçais, JA. 1901, 17, 193 f. والنسخة العربية : النوع الرابع والعشرون .

(٢) المنتظم ص ١٣٦ ب .

(٣) السبكي ج ٣ ص ٨ .

(٤) تاريخ بغداد JRAS, 1912, S. 50. .

(٥) المنتظم ص ١٣٧ ب .

(٦) Wüstenfeld Schafiiten, AGGW 37. Nr. 88. ؛ انظر أيضا الفصل الخاص بالأخلاق والعادات في الجزء الثاني من الكتاب .

(٧) التقريب للنووي ترجمة مارسيه JA, 1901, 18, S. 84. ، (والنسخة العربية : =

طالباً فقيراً ، وكان يشتغل حمّالا[1] . وكان آخرون في وقت طلبهم للحديث يسكنون في مئذنة المسجد الذي يستمعون فيه الحديث[2] . ويحكى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات (المتوفى عام ٣١٢ هـ ــ ٩٢٤ م) أنه كان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم ، سوى ما يصلهم به متفرّقا ، وعند مديحهم إياه ؛ فلما كان في وزارته الأخيرة تذكّر طلاب الحديث ، وقال : لعل الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق ودونه ويصرف ذلك في ثمن ورق وحبر ، وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم ، وأطلق لهم من خزانته عشرين ألف درهم[3] .

يدلنا هذا على أن المعاهد العلمية التي كان يستطيع الطلاب أن يلجأوا إليها لم تكن قد ظهرت ، وكان جزء كبير من مثل هذه العطايا لا يُصرف إلى الطلاب ، بل لغيرهم بواسطة ذوي الجاه ، كما يصرح بها صاحب كتاب الوزراء . وكان العالم إذا لم يكن فقيها صاحب منصب ، ولم يجد ما يعيش منه ، اشتغل بنسخ الكتب كما حُكِيَ عن أبي زكريا يحيى بن عديّ المتوفى عام ٣٦٤ هـ ــ ٩٧٤ م ، وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع ، ومذهبه مذهب النصارى اليعقوبيين ؛ وذُكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري ، وأنه كان يكتب في اليوم والليلة

= آداب المحدِّث ، في النوع السابع والعشرين) . وقد كان المحدِّثون المتأخرون قساةً في حكمهم على العمي من المحدثين ؛ فقد أراد البعض أن يسحبوا منهم كل ثقة في أمر الحديث ، وهذا يدل على ما أصبح للكتابة من الشأن وعلى نقصان قيمة الذاكرة وما كان لها من التقدير فيما مضى . وقد قال الخطيب البغدادي إن الأعمى في منزلة البصير الأمي ــ نفس المصدر ص ٦٣ ، (والنوع السادس والعشرون) .

(١) AGGW, 37, Nr. 287 ، وفي طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٦ أنه كان في أول أمره يحرس في بعض الدور .

(٢) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

مائة ورقة[1] . وكان بنيسابور ورّاق يسمى أبا حاتم ورّق بها خمسين سنة ، وهو القائل :

إن الوراقــة حــرفة مذمومــة   محرومــة عيشي بهــا زمــنُ
إن عِشْتُ عشتُ وليس لي أكل   أو مُتُّ مُتُّ وليس لي كفن[2]

وكان أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة المتوفى عام ٤٣٩ هـ ـ ١٠٨٦ م يعول والدة وزوجة وبنتاً من الوراقة ؛ وفي سنة واحدة كتب صحيح مسلم سبع مرات ، وهو يقول : « فلما كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت ، ومنادٍ ينادي ابن الخاضبة ، فأُحضرت ، فقيل لي : أدخل الجنة ؛ فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجليّ على الأخرى وقلت : آه استرحت والله من النسخ » [3] .

وقد قيل إن من آفات العلم خيانة الورّاقين . وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا[4] .

ولم تكن حرفة التعليم تدرّ شيئاً كثيراً ؛ فقد ذهب طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وغيرهما إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً عن تعليمه القرآن والحديث[5] ، وأجاز ذلك آخرون ؛ ولكنهم جعلوا معلم الحديث في درجة أعلى لأنه يعلّم

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٦٤ ؛ وأخبار الحكماء للقفطي ص ٣٦١ من الطبعة الأوروبية .
(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣١٩ .
(٣) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٣٣٧ .
(٤) يذكر هذا كثيراً ولا سيما في تراجم المالكية .
(٥) انظر مقدمة بستان العارفين للسمرقندي،والتقريب للنووي ,Marçais, JA, 1901, 17, S. 143. وانظر أيضاً بستان العارفين ص ٤٤ ـ ٤٥ .

ابتغاء الثواب الأخروي . وفي القرن الثامن الهجري امتنع النووي أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية ، وكان الرجل إذا انتهى من مجلس علم قعد له من غير أجر ، قال له الطالب : آجرك الله ، وهو يقول: نفعك الله[1] . وفي سنة ٣٤٦ هـ ـ ٩٥٧ م توفي أبو العباس الأصم ، وكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم ، وقد ظهر به الصمم وهو ابن ثلاثين سنة ، ثم استحكم حتى كان لا يسمع نهيق الحمار ، وكان إذا ذهب إلى المسجد للتحديث وجد السكة قد امتلأت بالناس ، وكانوا يقومون له ويحملونه على عواتقهم إلى مسجده . وكان لا يأخذ شيئاً على التحديث ، وإنما كان يورّق ويأكل من كسب يده[2] . وحكي عن أبي بكر الجوزقي محدّث نيسابور المتوفى عام ٣٨٨ هـ ـ ٩٩٨ م أنه قال : «أنفقت في الحديث مائة ألف درهم ما كسبت به درهما[3]» . وكان أبو بكر الخطيب البغدادي يوماً في جامع صور ، فدخل عليه بعض العلوية وأعطاه ثلثمائة دينار وضعها على سجادة الخطيب ، فقام الخطيب محمرّ الوجه ، وأخذ السجادة وخرج من المسجد ، وترك العلوي يلتقط الدنانير من شقوق الحصير[4] .

أما إذا كان أحدٌ معلم صبيان أو معلم كتّاب ، كما كان أبو زيد البلخي العالم المشهور المتوفى عام ٣٢٢ هـ ـ ٩٣٣ م[5] ، فمعنى هذا عيش مرّ وحرفة محتقرة . وقد ألف الجاحظ كتاباً في المعلمين ملأه بالحكايات التي تدل على حماقاتهم وقلة عقلهم ورأيهم . ومن أمثال العامة : أحمق من معلم[6] . ولعل كثيرا مما لحق المعلمين من ضروب

---

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٩٧ .
(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ١٨٧ .
(٣) السبكي ج ٢ ص ١٦٩ .
(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٤ .
(٥) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ .
(٦) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٠٠ طبعة مصر ١٣١١ هـ .

الاستهزاء إنما يقع إثمهُ على الروايات اليونانية الهزلية ؛ لأن المعلم فيها كان من الشخصيات المضحكة . وقد ذكر ابن قتيبة عن السندي أنه كان لا يستحلف المكاري ولا الحائك ولا الملاّح ، ويجعل القول قول المدعي مع يمينه ، ويقول : اللهم إني أستخيرك في الحمّال ومعلم الصبيان[1] . وكان ابن حبيب أحد علماء اللغة والأخبار والشعر (توفي عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) يقول إذا قلت للرجل : ما صناعتك ؟ فقال : معلم ، فاصفع.[2] . ويحكي ابن حوقل عن أهل صقلية أنهم كانوا يكثرون التغذي بالبصل النيء ، « وما فيهم من لا يأكله في كل يوم ، ويؤكل في داره صباحاً ومساء من سائر طبقاتهم ، وهو الذي أفسد تخيُّلهم ، وضر أدمغتهم ، وحيّر حواسهم ، وغير عقولهم ، ونقص أفهامهم ، وأفسد سحنة وجوههم ، فأحال مزاجهم ، حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على غير ما هي عليه . والذي دخل تحت العدة أن فيها أزيد من ثلثمائة معلم يؤدبون الصبيان ؛ وهم يرون أنهم أفضلهم ، وأنهم أهل الله ، وهم شهودهم وأمناؤهم ؛ هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم وخفة أدمعتهم ؛ وإنما لجأوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولا عن الحرب[3] » . وكان يُدفع للمعلم أجرُه أحياناً عدا المال أشياء مما يأكله الناس وينتفعون به ، ولذلك كانت « رغفانُ المعلم » مثلا يُضرب في الاختلاف وشدة التفاوت ، لأن رغفان المعلم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في الغنى والفقر ، والجود والبخل . وقد أنشد الجاحظ للرقاشي في معلم :

مختلف الخبز خفيف الرغيف   منتشر الزاد لئيم الوصيف

---

(١) عيون الاخبار طبعة بروكلمان ص ٩٣ .

(٢) الارشاد ج ٦ ص ٤٧٣ .

(٣) ابن حوقل ص ٨٦ — ٨٧ .

وأنشد لأبي الشمقمق :

خبـز المعلم والبقـال متفق   واللون مختلف والطعم والصور

أما المعلمون الذين يؤدبون الأولاد في البيوت الغنية فكانوا أحسن حالا ؛ يقول الجاحظ[1] : « يكون الرجل نحوياً عروضياً ... وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً ؛ ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ، ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم[2] »، وكان عند قائد لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه في الشهر سبعون ديناراً ، وذلك في القرن الثالث الهجري . وكان مثل هذا المعلم يظل تحت إشراف من اختاره ، وهو الذي يقدّر رزقه ، ويطوف عليه ويتعهد من بين يديه من الصبيان ؛ وهو يصرفه ويبدّل به غيره إذا لـم يعجبه[3] . وكان مؤدبو الأمراء أحسن المؤدبين حالا ، وكان الذين يُختارون لتأديب أبناء الأمراء هم علماء اللغة المشهورون ؛ فمن ذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر ، وكان من أجود أمراء زمانه ، اختار لتأديب ابنه طاهر أحمدَ بن يحيى ثعلب النحوي اللغوي إمام الكوفيين ، فأفرد له داراً في داره كان يقيم فيها هو وتلميذه ، وكان يتغذى معه ؛ وقد أقام له الأمير مع ذلك في اليوم سبع وظائف من الخبز الخشكار ووظيفة من الخبز السميد

---

(١) عمد المنسوب للثعالبي ZDMG, VI, ؛ وثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ؛ وكان يوم الثلاثاء ويوم الجمعة يوم عطلة مدرسية (انظر ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣ ، ومقدمة متز لكتاب حكاية أبي القاسم الازدي ص ٥٧) ، وفيما يختص بالعصور المتأخرة (انظر كتاب ألف باء ج ١ ص ٢٠٨ ، والمدخل ج ٢ ص ١٦٨) ؛ وكان الصبيان يكتبون على الواحهم بالطباشير (مقدسي ص ٤٤٠ ؟) ، وكان المعلم يؤدبهم بأن يضربهم بالسير (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٣) .

(٢) البيان للجاحظ ج ١ ص ١٥١ .

(٣) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٢٢ .

وسبعة أرطال من اللحم وعلوفة رأس ، وأجرى له في الشهر ألف درهم[1] .

وفي سنة ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م احتفل أبو القاسم بن الوزير الخاقاني بدخول ابنه الكتّاب ، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفسا ، وأمر الداعي بإعطاء المعلم ألف دينار ؛ وأُكرم الناس ، وأكلوا[2] ؛ وكان يلازم المأمون في الكتاب غلام" لمعلمه ، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه ، فأخذ اللوح من يده وغلب على غلمان المأمون فمسحه وجاء به فوضعه على المنديل في حجره[3] .

وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقا من السلطان ، وكانوا فريقين : فقهاء وعلماء ؛ وثمّ فريق ثالث أكثر رزقا ،وهم الندماء الذين يجالسون الحضرة ؛ وكان البعض يأخذ رزقا في هذه الطوائف كلها كالزجّاج المتوفى عام ٣١٠ هـ فقد كان له رزق في الندماء ، ورزق في الفقهاء ، ورزق في العلماء ، ومبلغ ذلك ثلثمائة دينار ، وكانت له منزلة عظيمة[4] . وقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ خمسين دينارا في كل شهر حينما قدم بغداد فقيرا[5] . وكذلك أجرى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب على أبي نصر الفارابي الفيلسوف التركي المتوفى عام ٣٣٩ هـ ـ ٩٥٠ م أربعة دراهم كل يوم ، فاقتصر عليها[6] .

ويندر أن نجد في هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ٧٩ ب .

(٣) المحاسن والمساويء للبيهقي الطبعة الاوروبية ص ٦٢٠ .

(٤) الفهرست ص ٦١ .

(٥) Wüstenfeld, AGGW. 37, Nr. 92.

(٦) تاريخ أبي الفدا تحت عام ٣٣٩ هـ (ج ٢ ص ٤٥٨) .

يعيش منها إلى جانب العلم . فيحكى أن أبا بكر الصبغي المتوفى عام ٣٤٤ هـ ــ ٩٥٥ م كان يبيع الصبغ بنفسه أو يعمله بنفسه في الحانوت على عادة العلماء المتقدمين الذين يتسببون في المعاش ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدّثين[١] . وقد أوصى الصبغي لأحد العلماء في أمور مدرسته « دار السنّة » ، وفوّض إليه تولية أوقافه في ذلك[٢] . وكان دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السجزي (المتوفى عام ٣٥١ هـ ــ ٩٦٢ م) شيخ أهل الحديث ، وكان فقيهاً ، ويقال إنه لم يكن في الدنيا من التجار أيسر منه ؛ وقد خلّف ثلثمائة ألف دينار ؛ ويحكى أنه بعث بالمسند إلى رجل لينظر فيه ، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً ؛ « وكان يقول : ليس في الدنيا مثل داري ، لأنه ليس في الدنيا مثل بغداد، ولا ببغداد مثل القطيعة ، ولا بالقطيعة مثل درب أبي خلف ، ولا في الدرب مثل داري »[٣] . وكذلك كان بمصر أبو العباس أحمد بن محمد الديبلي الخياط المتوفى عام ٣٧٣ هـ ، وكان فقيها جيد المعرفة على مذهب الشافعي ، وكان قوته وكسبه من خياطته ، وكان يخيط قميصا في جمعة بدرهم ودرنقين ، طعامه وكسوته منها غلاء ورخصاً ، « وما ارتفق من أحد بمصر بشربة ماء »[٤] . وكان بمصر عالم آخر توفي عام ٤٩٢ هـ ــ ١١٠٩ م ، وكان يبيع الخِلَع لأولاد الملوك[٥] .على أننا نجد أن أبا عمر المطرّز المتوفى عام ٣٤٥ هـ ــ ٩٥٦ م ، وكان أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين ، قد منعه اشتغاله بالعلوم عن اكتساب الرزق ، فلم يزل مضيّقا

---

(١) السبكي ج ٢ ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٦ .

(٣) السبكي ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٢ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٧ .

عليه [1] . ويقول أحمد بن فارس اللغوي المتوفى عام ٣٦٩ هـ ـــ ٩٧٩ م:

إذا كنت في حاجـة مرسـلا   وأنـت بهـا كلِف" مغـرم
فأرسـل حكيما ولا توصـه   وذاك الحكيـم هو الدرهمُ

وكان يقول :

يا ليت لي ألف دينـار موجّهـة   وأن حظي منها فلس فلاّس
قالوا : فما لك منها؟ قلت تخدمني   لهاومنأجلها الحمقىمن الناس [2]

وأخيراً دخل علماء الإسلام في نهاية هذا العصر في جملة العظماء وأصحاب الألقاب ، وكان الأسفراييني الأصغر المتوفى عام ٤١٨ هـ ـــ ١٠٢٧ م بنيسابور أول من لقب بين العلماء بركن الدين[3] . وفي ذلك العصر ظهر لقب على سبيل التكريم وهو لقب شيخ الإسلام الذي صار له شأن كبير فيما بعد ، وكان ظهوره عند فريقين مختلفين ، وذلك أن أهل السنّة في خراسان لقّبوا به أحد علمائهم ، فثارت نفوس المجسّمة بمدينة هرات وعمدوا إلى شيخ لهم ألّف كتاباً في ذم الكلام فلقّبوه به[4] .

---

(١) تاريخ أبي الفدا تحت عام ٣٤٥ هـ (ج ٢ ص ٤٦٤) .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٩ .

(٣) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 316 ، وكان احمد بن عبد الله ابو محمد المزني المغلي الهروي المتوفى عام ٣٦٥ هـ ـ ٩٦٦ م إمام أهل العلم والوجوه وأولياء السلطان بخراسان في عصره مع رتبة الوزارة وعلو القدر عند السلطان ، وكان يقال له الشيخ الجليل ببخارى . وكان فوق الوزراء لعظمته ، وكانوا يصدرون عن رايه ، (طبقات السبكي ج ٢ ص ٨٥ ـ ٨٦) .

(٤) طبقات السبكي ج ٣ ص ٤٧ ، ١١٧ .

ولم يكن يخلو الحال من شخصيات مضحكة بين المعلمين كالتي نجدها في المجلات الهزلية فقد كان بين المبرّد وثعلب منافراتٌ كثيرة ، والناس يختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه ، وكان يسعى بينهما السعاة ، وينقلون لأحدهما هجاء الآخر ؛ وكانا يتناظران[1] . ويُحكى أن قتادة السدوسي قال مرة : ما نسيت شيئا قط ؛ ثم قال : يا غلام ! ناولني نعلي ، قال : نعلك في رجلك[2] . وكان ابن خالويه اللغوي عالما غليظا ، فيحكى أنه وقع بينه وبين المتنبي كلامٌ في مجلس سيف الدولة ، فوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح كان معه ؛ فخرج المتنبي ودمه يسيل على ثيابه[3] . وكان نفطويه مشهوراً بعلمه كما كان مشهوراً بالقذارة والصنان ونتن الرائحة ؛ وقد أثرت في عقل الجوهري صاحب المعجم المشهور (المتوفى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م) كثرةُ عمله ، فقد صنّف كتاب الصحاح في اللغة حتى وصل إلى باب الضاد ؛ ثم اعترته وسوسةٌ فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور ، فصعد إلى سطحه ، وقال : أيها الناس ! إني عملت في الدنيا شيئا لم أُسبق إليه ؛ فسأعمل للآخرة شيئا لم أُسبق إليه ، وضمّ الى جنبيه مِصراعَيْ باب وتأبّطهما بحبل ، وصعد مكاناً عاليا من الجامع وزعم أنه يطير ، فوقع فمات .

*

(١) الارشاد ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٠٢ .

(٣) ابن خلكان (الوفيات) طبعة فستنفلد ج ١ ص ٦٥ .

الفصل الثالث عشر

علوم الدين

في القرن الرابع الهجري مرّ علم الكلام الإسلامي أو علم العقائد في أهم أدوار حياته ، وهو دور تحرّره من الفقه ، بعد أن ظل حتى ذلك الحين خادما له[1] ، وكانت جميع كتب الكلام المعتبرة عند جمهور الأمة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية . ومرجع الفضل في حدوث هذا التغير إلى المعتزلة الذين كانوا طول القرن الثالث الهجري يعالجون مسائل كلامية محضة ، وهم في القرن الرابع يضطرون خصومهم إلى الإجابة عن هذه المسائل . وكانوا أول فرقة إسلامية تحررت من نزعات الفقهاء كلها ، فكانوا هم الفرقة « الكلامية » الوحيدة[2] التي تعالج الكلام وحده بين الفرق الخمس الكبرى التي كان المسلمون منقسمين إليها في ذلك العهد ، وهي أهل السنّة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج[3] . وقالوا إن كل مجتهد مصيب في الفروع[4] . وكان منهم رجال في جميع المذاهب الفقهية حتى بين أصحاب الحديث الذين يُعتبرون عادة ألدّ أعداء المتكلمين[5] .

---

(١) هذا الحكم يحتاج إلى تقييد ؛ فإن علم الكلام استقل علما بذاته في القرن الثالث . وفي هذا القرن أيضاً تكونت مبادىء علم الكلام السنّي (المترجم) .

(٢) المقدسي ص ٣٧ .

(٣) ابن حزم مثلا ج ٢ ص ١١١ .

(٤) المقدسي ص ٣٨ ؛ والمعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .

(٥) المقدسي ص ٤٣٩ .

ومن جهة أخرى كان الصوفية خصوما ألدّاء لجميع الفقهاء ، ولم يقنعوا قط من التشنيع عليهم؛وقد عبَّروا عن احتقارهم لعلم الفقه الذي يسمونه علم الدنيا تعبيراً قاسيا ؛ ومن أمثلة ذلك ما يقوله المكي المتوفى عام ٣٨٦ هـ ٩٩٦ م أخذاً عن السيد المسيح عليه السلام ؛ فهو يقول : « وروينا عن عيسى عليه السلام : مَثَلُ علماء السوء مَثَلُ صخرة وقعت على فم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا تترك الماء يَخلُص إلى الزرع ؛ وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة ، فلا هُم نفذوا ، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل ؛ قال : ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ، ظاهرها حسن وباطنها نتن ، ومثل القبور المشيدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى »[1] .

وقد انتصر الصوفية في هذا الباب ؛ ففي القرن التالي جاء الغزالي إمام جمهور المسلمين المتأخرين ، فجاهر بأن علم الفقه علم دنيوي لا ديني[2] . ونجد بين الصوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم جملة ، حتى إنه يُحكى عن أبي عبد الله بن خفيف المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م أنه كان يوصي الناس بأن يشتغلوا بالعلم ولا يغتروا بكلام الصوفية ، ويقول إنه كان يخبيء المحبرة والورق في ثيابه ويذهب إلى أهل العلم خفية ؛ فإذا علم به الصوفية خاصموه وقالوا : لا تفلح[3] . وقد فرّق الصوفية مرة أخرى بين المعرفة (أي علم الحقائق) وبين العلم (بمعنى العلوم المألوفة للناس) . يقول الحلاّج المتوفى عام ٣٠٩ هـ — ٩٢٢ م مستهزئاً بالعلم : « يا عجباً ممن لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء ، كيف يعرف مكوّن الأشياء ! من لا يعرف المجمل والمفصل ، ولا يعرف الآخر والأول والتصاريف والعلل والحقائق والحيل

---

(١) قوت القلوب لابي طالب المكي ج ١ ص ١٤١ طبعة مصر ١٣١٠ هـ .

(٢) Goldziher, Zahiriten, S. 182.

(٣) Amedroz, notes on some sufi lives, JRAS., 1912, S. 556.

لا تصح له معرفة من لم يزل » • ويحكي الحلاّج في موضع آخر : « رأيت طيراً من طيور الصوفية عليه جناحان ، وأنكر شأني حين بقي على الطيران ، فسألني عن الصفاء ، فقلت له : اقطع جناحك بمقارض الفناء ، وإلا فلا تتبعني ، فقال : بجناح أطير ، فقلت له : ويحك ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فوقع يومئذ في بحر الفهم وغرق »[1] • ولكن نجد قوماً آخرين ، كالجنيد المتوفى عام ٢٩٨ هـ — ٩١٠ م ، يصرّحون بأن العلم أرفع من المعرفة وأتمّ وأشمل[2] • ونجد بين العلماء كالشافعية مثلاً كثيراً من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة ؛ وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا ؛ فقد كانت هي الحركة العلمية التي ضمت أعظم القوى الدينية في ذلك العهد ؛والحركة الصوفية في القرنين الثالث والرابع أوجدت في الإسلام ثلاثة مباديء أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهي : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبي محمد عليه السلام ؛ ولا تزال هذه المباديء الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية[3] •

وقد زاد الإقبال على دراسة القرآن والحديث ، لأن ذلك واجب من أول الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة[4] • ولكن نشأ في القرن الرابع رسم جديد ، وهو الذي يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله ،ومن غير إجازة مكتوبة تخوّله حق الرواية[1] ؛ وبهذا

---

(١) كتاب الطواسين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ٢٣ ، ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٥ . على أن النصين الاولين لا يحويان بصراحة تقابلا وتعارضاً بين المعرفة والعلم ، بل فيهما معنى غير هذا ، ولا أرى تعارضاً بينهما وبين ما يحكى من الجنيد .   (المترجم) .

(٣) انظر الفصل الخاص بالدين .

(٤) بستان العارفين للسمرقندي على هامش تنبيه الغافلين ص ٣ .

حلّت دراسة الكتب محل الأسفار التي كان يقوم بها طلاب الحديث من قبل للقاء رجاله . وقد استطاع ابن يونس الصفدي المتوفى عام ٣٤٧ هـ ــ ٩٥٨ م أن يكون إماماً متيقظا حافظا في الحديث ، وإن كان لم يرحل ، ولا سمع بغير مصر[٢] . وكان مَثَلُ العالم الذي يطلب الحديث مثلَ التاجر أو عامل السلطان في كثرة غشيانه للخانات التي يأوي إليها المسافرون أو في طوافه في السكك ؛ وهكذا بقي شأنه في الحركة والتجوال زماناً طويلا . وفي سنة ٣٩٥ هـ ــ ١٠٠٥ م توفي ابن مندة « خاتمة الرحّالين » الذين رحلوا لسماع الحديث ؛ وقد جمع ألفاً وسبعمائة حديث ، ورجع إلى وطنه ومعه أربعون وِقْراً من الكتب[٣] . ويقول أبو حاتم السمرقندي (المتوفى عام ٣٥٤ هـ ــ ٩٦٥ م) : لعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والإسكندرية[٤] . ويُروى عن أبي يعقوب السرخسي (المتوفى عام ٤٢٩ هـ ــ ١٠٣٧ م) أنه طلب الحديث فأكثر ، حتى زاد عدد شيوخه على ألف ومائتي شيخ[٥] . على أن الغزالي على شهرته ومع أنه صار أكبر حجة للعلم عند أهل القرون التي جاءت بعده ، لم يسافر في طلب العلم إلا قليلا : فقد خرج من بلده طوس ، وسمع بجرجان في الشمال ، ودرس في نيسابور ، وكانت أكبر مدينة علمية في بلاده ؛ وهذا كل ما عُرف من أسفاره لطلب العلم . وقد

---

(١) Goldziher, Muh. Studien, II, 190 ff. ، وقد ذكر النووي أن من العلماء من أجاز صحة رواية الحديث كتابة ، وذلك منذ القرن الثاني الهجري ؛ ونجد أمثلة كثيرة لمثل هذه الرواية في المجموعات الفقهية الشرعية .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) الزرقاني ج ١ ص ٢٣٠ ؛ Goldziher, Muh Studien, II, 180

(٤) السبكي ج ٢ ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٤ .

بيّن صاحب كتاب بستان العارفين[1] في القرن الرابع اختلاف الآراء في هذا الباب أوضح بيان . ومن أمثلة النقد الذي وُجّه للمحدثين أن النوبختي يصف أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني (المتوفي عام ٣٥٦ هـ ــ ٩٦٧ م) ، وهو الذي سمع منه الدارقطني المحدّث المشهور ، بأنه أكذب الناس ؛ لأنه « كان يدخل سوق الورّاقين ، وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئا كثيراً من الصحف ، ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها »[2] .

على أن المحدثين كانوا يُعتبرون أكبر العلماء شأناً ؛ وكان يُعدون من أعظم رجال الإسلام ، ولا يفوت المؤرخين ذكرُ وفاتهم إلى جانب القليلين الذين يختارون ذكرهم ؛ وهم يقصون الحكايات العجيبة التي تدل على مقدرتهم في الحفظ . فيُحكى أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث (المتوفى عام ٣١٦ هـ ــ ٩٢٨ م) كان محدّث العراق ، وكان يحدّث في دار الوزير على بن عيسى ، وقد نصب له السلطان منبراً حدّث عليه ؛ وقد خرج إلى سجستان فسأله أهلها أن يحدثهم فقال : ما معي أصل ، فقالوا : ابن أبي داود وأصول ! فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث ، فلما قدم بغداد ، قال البغداديون : مضى ابن أبي داود إلى سجستان ولعب بالناس ؛ ثم فيّجُوا فيْجاً بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكُتِبت ، وجيء بها وعُرضت على الحفّاظ فخطأوه في ستة أحاديث ، لم يكن أخطأ إلا في ثلاثة منها[3] . ويُحكى أن ابن عقدة (المتوفى عام ٣٣٢ هـ ــ ٩٤٣ م) كان يحفظ بالأسانيد والمتون خمسين ومائتي ألف حديث[4] .

---

(١) بستان العارفين للسمرقندي ص ١٨ وما يليها (أ) .

(٢) تاريخ بغداد طبعة كرنكو : JRAS, 1912, S. 71

(٣) المنتظم ص ١٣٦ أ ، السبكي ج ٢ ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(٤) المنتظم ص ٧٢ ب .

وكان قاضي الموصل المتوفى عام ٣٥٥ هـ ــ ٩٦٦ م يحفظ مائتي ألف حديث عن ظهر قلب[١] وفي سنة ٤٠١ هـ ــ ١٠١٠ م مات بمصر الحافظ ميسر ، وكان عنده درج طويل طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوء الوجهين فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث[٢] . ويحكي العلماء مع الفخر ما جرى لأبي الفضل الهمذاني بنيسابور مع الحاكم النيسابوري ، ذلك أن أبا الفضل لما ورد نيسابور ، وتعصب الناس له ، ولُقّب بديع الزمان أُعجب بنفسه ، إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت بين يديه مرة وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فأنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ في الحديث ، ثم قال : وهل حفظ الحديث مما يُذكر ؟ فسمع به الحاكم النيسابوري فوجّه إليه بجزء وأجّله جمعة في حفظه . فردّ الهمذاني إليه الجزء بعد جمعة ، وقال : من يحفظ هذا ! محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان ، أسام مختلفة ، وألفاظ متباينة ، فقال له الحاكم : فاعرف نفسك ، واعلم أن حفظ هذا أضيق مما أنت فيه[٣] .

أما من حيث السرعة في تعلّم الحديث فنستطيع معرفة ذلك مما حُكي عن الخطيب البغدادي أنه قرأ صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزي في خمسة أيام[٤] .

وأكبر محدّثي القرن الرابع هما أبو الحسن علي الدارقطني المتوفى عام ٣٨٥ هـ ــ ٩٩٥ م والحاكم النيسابوري المتوفى عام ٤٠٥ هـ ــ

---

(١) Goldziher. Muh. Studien, II, 200.

(٢) سكردان السلطان على هامش المخلاة ص ١٨٨ .

(٣) طبقات السبكي ج ٣ ص ٦٦ ــ ٦٧ .

(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧ ، وتسمى عند ابن بشكوال (ج ١ ص ١٣٣) كريمة المروزية .

١٠١٤ م • وقد خلفهما في القرن الخامس أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م • وقد وجدوا من كتب الحديث التي جمعت في القرن الثالث الهجري موضوعاً لبحثهم بما كان في هذه الكتب من تبويب وما كان فيها من تناقض • ولذلك قاموا بتأليف كتب جديدة في الحديث ، فمثلاً ألّف الدارقطني كتابا في السنّة ؛ وقد استدعاه الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات من بغداد وبرّه بمال كثير ، وأنفق عليه نفقة واسعة ، وخرّج له المسند ، وكان لهذا الوزير مجالسُ إملاء كتبها الدارقطني وآخر معه وخرّجاها[1] ؛ أو هم قاموا بتأليف الاستدراكات أو المستدركات ، كما فعل الدارقطني والحاكم، لاعتقادهما أن كثيراً من الحديث الصحيح قد فات جامعيه الأولين ؛ أو بعمل المخرّجات أو المستخرجات ، وقد فعل ذلك كلُّ محدّث كبير في القرن الرابع[2] •

وكذلك ظهرت في القرن الرابع كتبٌ جديدة تعالج تصحيفات الحديث ، ومنها كتب للخطيب وللدارقطني[3] • وقد اعتنى نُقّاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء ؛ ثم نظروا في الأساس الذي ينبني عليه هذا الحكم ، أعني الصفات التي يجب توفرها في المحدّث الثقة ، وهو ما يعرف بالجرح والتعديل • ويقال إن أول من ألف في هذا الباب يحيى بن كتان المتوفى عام ١٩٨ هـ — ٩١٤ م[4] • وبعد أن اشتغل العلماء بتأليف

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٠٨ ؛ وقد كتب تلاميذ مسلم خاصة كتبا في الصحيح ، ومنهم أبو حامد (المتوفى عام ٣٢٥ هـ) وابو سعيد (المتوفى عام ٣٥٣ هـ) — طبقات السبكي ج ٢ ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) Goldziher, Muh. Studien, II. 257, 273. ، وقد ذكر النووي في شرحه على مسلم (ج ١ ص ١٧) تلاميذ الدارقطني .

(٣) ترجمة مارسيه للتقريب للنووي ، انظر Marçais, JA, 1901, 18, S. 115 f. Goldziher, Muh. Studien, II, 241.

(٤) ترجمة مارسيه للنووي JA. 1900, 16, 321 .

كتب الحديث الكبرى المعتمد عليها بدأوا في الفحص عن الرجال المذكورين فيها وألفوا الكتب في رواة الصحيحين وهكذا . وقد أدّت بهم حاجتهم إلى السند المتصل[1] أن يتجاوزوا البحث في حياة الرواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لهم ؛ وهكذا و جدت « تواريخ » القرن الثالث الهجري مثل تاريخ البخاري المتوفى عام ٢٥٦ هـ ــ ٨٧٠ م ، ومثل الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ ــ ٨٤٥ م التي روعي في تأليفها الزمان والمكان ؛ وكذلك ظهرت تواريخ المدن ، وهي المؤلفات التي ظهرت في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، وتَمَثّل كمالُها في تاريخ نيسابور الذي ألفه النيسابوري المتوفى عام ٤٠٦ هـ ــ ١٠١٥ م والذي يرى السبكي أنه يشتمل على تراجم أوفى وأكمل من تراجم الخطيب البغدادي[2] ، وفي تاريخ أصفهان لأبي نعيم المتوفى عام ٤٣٠ هـ ــ ١٠٣٨ م ، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ ــ ١٠٧١ م .

ويدلنا على مقدار الدقة التي أظهرها العلماء في طريقة النقد ما ذُكر عن الخطيب من أنه ألف كتاباً في « رواية الآباء عن الأبناء » وآخر في « رواية الصحابة عن التابعين »[3] . وكانت هذه المعارف المتعلقة برجال الحديث تنال أعظم التقدير في ذلك الوقت ؛ ويُحكى عن القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزي المتوفى عام ٣٦٢ هـ ــ ٩٧٢ م ، والمشهور بأنه أستاذ أبي حيان التوحيدي الكاتب الكبير أنه كان بحراً يتدفق

(١) ويقال إن الشافعي (المتوفى عام ٢٠٤ هـ) أول من أثار هذه المسألة (انظر ما ذكره مارسيه في المصدر المتقدم حكاية عند ابن عبد البر (المتوفى عام ٤٦٣ هـ) .

(٢) طبقات السبكي ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٨ .

حفظاً للسِيَر وقياما بالأخبار ، « وكان يزعم أن السِيَر بحر الفتيا وخزانة القضاء ، وعلى قدر اطلاع الفقيه عليها يكون استنباطه[1] » . وأكبر ما كان يثير إعجاب الناس في الخطيب البغدادي دقته وقدرته على نقد الوثائق المكتوبة وإثبات تزويرها اعتماداً على معرفته بتواريخ حياة الرجال الذين يتذكرون فيها[2] . وفي القرن الرابع الهجري ألف الكرابيسي المتوفى عام ٣٨٧ هـ ـ ٩٨٨ م كتاباً في أسماء الرواة وألقابهم ؛ وقد اعتبر هذا الكتاب أحسن الكتب قديمها وحديثها[3] .

على أن الدراسات التاريخية لم تكن محمودة عند العلماء ؛ ويحكى عن ابن إسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ ـ ٧٧٦ م أنه سأل أحد التلاميذ الذين يدرسون التاريخ مستهزئاً بـه : مـن الذي كان يحمل لواء الجالوت[4] ؛ أما الآن فيحكي لنا أبو القاسم الزنجي عن المحدثين الذين سمع منهم في أول القرن الرابع الهجري قصصا تاريخية محضة مثل أخبار المبيّضة ، ومقتل حجر بن عدي زعيم الشيعة ، وكتاب صفّين ، وكتاب الجمل ونحوها[5] . ولكن الاتجاه تغير فيما بعد حتى نجد النووي يعيب ابن عبد البرّ المتوفى عام ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١ م بأنه أفسد كتابه بما ضمنه من أخبار المؤرخين[6] .

وكذلك وُضعت الأصول التي يبنى عليها نقد الحديث وتكامل بناؤها في القرن الرابع ، وأُخذت مصطلحاتها من هذا العصر أيضا . وقد

(١) السبكي ج ٢ ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) الارشاد ج ١ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(٣) مارسيه في ترجمته للتقريب للنووي: Marçais, JA, 1901, 18, S. 133

(٤) Goldziher, Muh. Studien II 207.

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

(٦) التقريب للنووي JA., 1901, 18, S., 123.

رتب ابن أبي حاتم المتوفى عام ٣٢٧ هـ ـ ٩٣٩ م ألفاظ الجرح والتعديل مراتب فأعلاها : « ثقة » أو « مُتْقن » أو « ثَبْت » أو « حجة » أو « عدل » أو « حافظ » أو « ضابط » ، والثانية « صَدُوق » أو « محله الصدق » أو « لا بأس به[١] » ؛ ويقال إن الخطابي المتوفى عام ٣٨٨ هـ ـ ٩٩٨ م هو أول من عيَّن أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ؛ ثم حدد الدارقطني المتوفى عام ٣٨٥ هـ ٩٩٥ م معنى التعليق ؛ وجاء الحاكم المتوفى عام ٤٠٥ هـ ـ ١٠١٥ م فجعل أصول الحديث علماً مستقلا ووضع هيكله الذي بقي في جملته إلى أيامنا ، بحيث إن القرون التالية لم تُضِفْ في هذا الباب لما تمَّ في القرن الرابع الهجري إلا أشياء ثانوية ؛ بل إن تقسيم الرواة إلى أنواع صار هو المستعمل منذ عصر الحاكم[٢] ؛ ويرجع إلى الخطيب ما جرى عليه كتّاب الحديث من وضع نقطة في وسط الدائرة التي تكتب في نهاية الحديث بعد التصحيح بالمقارنة والمقابلة[٣] .

أما الدور الثاني في الناحية العلمية الدينية فقد قام به مُقرئو القرآن . ونجد أن المقدسي مثلا لا يَغْفَل في كلامه عن البلاد التي وصفها عن ذكر أصحاب القراءات فيها ، وإن كان قد أبان عن عدم محبته للمقرئين بأن وصفهم بأنهم لا ينفكون من الطمع وسوء السمعة[٤] . وقد وضع ابن مجاهد حوالي عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م أصول هذه

---

(١) نفس المصدر JA, 1901, 17, S. 146 ، وانظر Goldziher, Muh. Studien, II, S. 142.

(٢) التقريب JA. 1900, 16, S. 330 ff. ؛ وكذلك فعل ابن حيان المتوفى عام ٣٥٤ هـ ، انظر نفس المصدر ص ٤٨٧ هامش رقم ١ .

(٣) التقريب للنووي في JA. 1901, 17, S. 528 .

(٤) المقدسي ص ٤١ .

الناحية[1] . وقد قامت حوالي هذا الوقت خلافات شديدة حول قراءة القرآن ، وتدخلت الحكومة ، فاضطهدت بعض أصحاب القراءات ؛ مثلا ضرب الوزيرُ أبو علي بن مقلة ابنَ شنبوذ المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م بالسوط واضطره أن يتبرأ من قراءات قرأ بها ، وأخذ خطه بالتوبة عنها فكتب : « يقول محمد بن أيوب : قد كنت أقرأ حروفا تخالف مصحف عثمان المجمع عليه والذي اتفق أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على قراءته ، ثم بان لي أن ذلك خطأ ، وأنا منه تائب وعنه مُقْلِع وإلى الله جل اسمه منه بريء ؛ إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه ولا يُقرأ غيره[2] » . ولكن ابن شنبوذ خلّف تلاميذ منهم محمد ابن أحمد بن إبراهيم أبو الفرج الشنبوذي المتوفى عام ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م[3] . على أن قراءات ابن شنبوذ وغيره التي انتهت إلينا لا خطر فيها مطلقاً[4] . ولكن كانت مسألة القراءات مسألة خطيرة ؛ لأن الاعتقاد بأن القرآن كلام الله من شأنه أن يحتم هذا . وفي سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م توفي أبو بكر العطار المقريء ؛ وكان قد قرأ بحروف تخالف الإجماع ؛ واستخرج لها وجوهاً من اللغة ذكرها في كتابه الاحتجاج للقراء ؛ وقراءاته تقوم على تصحيف الكلمات واستخراج وجوه بعيدة لها ؛ وزعم العطار

---

(١) توفي ابن مجاهد سنة ٣٢٤ هـ ٩٤٥ م ، وكان وافر اللحية عظيم الهامة ، وكان يدعو الله في دبر كل صلاة أن يجعله ممن يقرأ في قبره ؛ وقد رآه بعض الناس في المنام يقرأ (المنتظم لابن الجوزي ص ٥٦ ا) .

(٢) الاوراق للصولي ص ٨٢ ، والفهرست لابن النديم ص ٣١ — ٣٢ ، والارشاد لياقوت ج ٦ ص ٣٠٠ وما يليها ؛ Nöldeke, Gesch. d. Korans S. 274 .

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٣٨ من طبعة Meursinge ، ومسكويه ج ٥ ص ٤٤٧ والمنتظم ص ٥٤ ا .

(٤) ولكنها تحرف القرآن عن معانيه الظاهرة المعقولة . (المترجم)

أن كل ما صح في العربية من كلمات توافق خط المصحف فقراءتها جائزة، وشاعت عنه هذه القراءات الغريبة ، فأنكرها أهل العلم ووصل الأمر إلى السلطان ، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، فأذعن بالتوبة وكُتب محضر بتوبته ، وأثبت جماعة من الحاضرين خطوطهم في المحضر بالشهادة ؛ وقيل إنه لم ينزع عن تلك الحروف ، وكان يقرأ بها إلى حين وفاته ، واستغوى بعض أصاغر المسلمين من أهل الغفلة والغباوة[1] .

وفي سنة ٣٩٨ هـ ــ ١٠٠٨ م أظهر بعض الشيعة مصحفا ذكروا أنه مصحف ابن مسعود ؛ وكان مخالفا للمصاحف ، فأشار الفقهاء والقضاة بإحراقه ، وأُحرق بمحضرهم ، ثم ورد إلى الخليفة كتاب بأن رجلا من أهل جسر النهروان حضر المشهد ليلة النصف من شعبان ، ودعا على من أحرق المصحف وسبّه ، فقُتل[2] .

وكما أن المذاهب الفقهية الأربعة حلت محل غيرها ، فكذلك حلت الحروف السبعة الشرعية المتفق عليها محل القراءات الشاذة في القرن الرابع الهجري[3] ؛ وفي هذا القرن أيضا ظهرت كتب فيما سمي بالقراءات الثمان[4] .

---

(١) المنتظم ص ١٩٨ ا ، والارشاد ج ٦ ص ٤٩٩ .

(٢) المنتظم ص ١٥٢ ب ، وطبقات السبكي ج ٣ ص ٢٦ .

(٣) Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 275. ، والفهرست لابن النديم ص ٣١ وما بعدها ؛ وبستان العارفين للسمرقندي ص ٧٣ .

(٤) Nöldeke, Gesch. d. Korans, S. 299. ؛ وقد كتب ابو غانم المصري المتوفى عام ٣٣٣ هـ في الاختلاف بين القراءات السبع ، وكذلك الف مصري آخر ، وهو فارس ابن احمد الحمصي المتوفى عام ٤٠١ هـ كتاب المنشأ في القراءات الثمان . انظر حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

على أن جواز تفسير القرآن لم يكن أمراً مسلّما به في القرن الرابع دون استيفاء شروطه ؛ فيحكي لنا الطبري (من أمثلة التحرّج في ذلك) أن الشعبي مرّ على السّديّ ، وهو يفسر القرآن فقال : « لأن يُضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا »[1] .

ويخبرنا السمرقندي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى في يد رجل مصحفاً ، وقد كتب عند كل آيــة تفسيرها ، فدعي بمقراض فقرضه[2] . ونقل للسيوطي عن الأصمعي مثلا أنه كان شديد التأله ، فكان لا يفسر شيئا من القرآن ولا شيئا من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن ، وكذلك الحديث تحرّجا[3] .

على أن الطبري قد ذكر أمثلة على أن الصحابة ، وخصوصا ابن عباس ، كانوا يفسرون القرآن تفسيراً محموداً[4] . ولكن نقده[5] يدل على أن الفريق الذي كان يحجم عن تفسير القرآن كان قويا جداً . وقد روي عن النبي عليه السلام حديث" من شأنه أن يوفق بين الفريقين ، وهو قوله « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؛ فكل تفسير يجب أن يستند إلى أثر وارد عن النبي ، ولا يجوز أن يُعتمد فيه على الرأي ؛ ولا يكون القول بالرأي إلا في التفسير اللغوي للألفاظ[6] . على أننا نجد في تفسير الطبري نفسه دليلا على أن المفسّر يستطيع رغم

---

(١) تفسير الطبري ج ١ ص ٣٠ طبعة المطبعة اليمنية بمصر .

(٢) بستان العارفين ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) المزهر للسيوطي ج ٢ ص ٢٠٤ انظر أيضا : Goldziher, SWA, Bd. 72, S. 630

(٤) التفسير للطبري ج ١ ص ٢٦ .

(٥) ص ٢٦ — ٣٠ .

(٦) تفسير الطبري ج ١ ص ٢٧ .

هذه القيود أن يقول في تفسيره بحذق ومهارة أشياء كثيرة ينبغي ألا تقال في التفسير[1] ؛ هذا مع العلم بأن العلماء يقولون عن تفسير الطبري إنه لم يؤلّف مثله ، لأن صاحبه جمع فيه بين الرواية والدراية ، ولم يشاركه في ذلك أحد لا قبله ولا بعده[2] .

على أن السمرقندي مع حريته الكبيرة في الرأي ، ومع كونه حنفياً، قد تكلم في هذه المسألة بلا لبس ، ومنع كل تفسير بالرأي ؛ وكلُّ ما أجازه هو أن يحكي المفسر ما سمعه من بعض الأئمة على سبيل الحكاية ؛ وإذا أراد أن يستخرج حكما من الآية فلا بأس أن يقول المراد من الآية كذا وكذا ؛ أعني أن التفسير عند السمرقندي يكون على صورة الفصول المتعلقة بتفسير القرآن عند البخاري ومسلم ، وهو ما يفعله الفريق الثاني من المفسرين عند السيوطي ؛ وهم المفسرون المحدثون الذين صنفوا التفاسير مسندة مورداً فيها أقوالَ الصحابة والتابعين بالإسناد[3] . ثم إن السمرقندي يسمح بأن تستنبط التفاسير الفلسفية والآراء الفقهية في الأحكام والأوامر من ذلك[4] .

والجديد الذي نلاحظه في تفسير القرآن في هذا القرن وفي القرن الذي تقدمه هو تعاون المعتزلة واجتهادهم في تفسير القرآن . وممن ألف في التفسير منهم أبو علي الجبائي ؛ ويقول الأشعري تلميذه وخصمه وابن زوجته إنه في هذا التفسير ما روى حرفاً واحداً عن المفسرين ، وإنما

---

(1) مثلا ج ١ ص ٥٨ عند الكلام عن القدر .

(2) طبقات المفسرين للسيوطي طبعة Meursinge ص ٣٠ .

(3) نفس المصدر ص ٢ .

(4) بستان العارفين ص ٧٥ وما بعدها ؛ ولم أستطع ان احقق إلى اي حد عمل السمرقندي بهذه الاحكام في تفسيره الذي لا يزال مخطوطاً .

اعتمد على ما وسوس به في صدره وشيطانه[1] .

على أن أهل المغرب السنّيين تردّدوا في اتباع الأشعري في تفسيره للقرآن ، وكانوا يتركون التأويل ويمرّون المتشابهات كما جاءت اقتداء بالسلف ، حتى جاء ابن تومرت وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية[2] .

وقد ألّف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى عام ٣٨٥ هـ ـ ٩٩٥ م ، وهو عالم بالكلام والفقه والنحو واللغة ، تفسيراً للقرآن ، وقد بلغ من قيمة هذا التفسير أنه قيل للصاحب ابن عباد : هلاّ صنّفت تفسيراً ! فقال : وهل ترك لنا علي ابن عيسى شيئاً[3] ؟ وكذلك ألّف أبو بكر النقّاش المعتزلي المتوفى ببغداد عام ٣٥١ هـ ـ ٩٦٢ م ، تفسيراً كبيراً يقع في اثني عشر ألف ورقة[4] ، و « كان يكذب في الحديث »[5] . وكذلك صنّف أبو بكر الإدفوي المصري المتوفى عام ٣٨٨ هـ ـ ٩٩٨ م تفسيراً يقع في مائة وعشرين مجلد[6] . ولم يزد عليه في عظم التأليف إلا عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة ببغداد المتوفى عام ٤٨٣ هـ ـ ١٠٩٠ م فإنه ألّف تفسيراً في ثلثمائة مجلد منها سبعة مجلدات في الفاتحة[7] .

ونستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة عن طريقة هؤلاء المفسرين إذا

---

(١) W. Spitta, Zur Gesch, Abu'l Hassan al Asch'ari's, Leipzig, 1876, S. 127. 128.

(٢) Goldziher, ZDMG, 41. S. 59. نقلا عن تاريخ البربر لابن خلدون ج ١ ص ٢٩٩ .

(٣) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ ؛ والمفسرين للسيوطي ص ٢٤ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٣٣ ؛ والارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٧ .

(٥) السيوطي ص ٣٠ .

(٦) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٣٣ .

(٧) السيوطي ص ١٩ ؛ ويقول السبكي (الطبقات ج ٣ ص ٢٣٠) إن هذا التفسير سبعمائة مجلد .

عرفنا أن عبيد الله الأسدي المعتزلي المتوفى عام ٣٨٧ هـ ـــ ٩٩٧ م صنّف تفسيراً للقرآن ذكر فيه في بسم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وجها[١] .

ولما كانت كل فرقة من الفرق في هذا العصر تعتدّ بالقرآن وترجع إليه بحيث كان مصدرها الأكبر للاستشهاد ومستودعها الذي تتسلح به في أدلتها فقد كان لا بدّ للقرآن ، ككل كتاب مقدّس ، أن يتعرض لكثير من التكلف في التفسير . وقد اشتهر الصوفية والشيعة بأنهم أصحاب تأويلات ؛ وقد جروا على عادة مألوفة من قبل وهي الخروج عن ظاهر القرآن بالتأويل البعيد لإثبات دعاويهم[٢] . وحاول بعض الشيعة أن يؤوّلوا كثيراً من الأسماء الواردة في القرآن بأنها أسماء أشخاص ؛ فقالوا إن البقرة التي أُمر قوم موسى بذبحها[٣] هي عائشة ، وإن الجِبْت والطاغوت[٤] هما معاوية وعمرو بن العاص[٥] .

أما المفسرون العلماء فكانوا على خلاف ذلك ؛ ومنهم أبو زيد البلخي (المتوفى عام ٣٢٢ هـ ـــ ٩٣٤ م) الذي تتلمذ للكندي ببغداد ، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم والطب وعلوم الطبيعة . كان البلخي يتنزه عما يقال في القرآن من تأويل بعيد ولا يقول إلا بالظاهر المستفيض من التفسير والتأويل ؛ وقد بيّن ذلك في كتابه المسمى نظم القرآن[٦] . ثم

---

(١) السيوطي ص ٢٢ ؛ ويرى ابن قتيبة خصم المعتزلة أنهم في تفسيرهم للقرآن ردوه إلى مذاهبهم وحملوه على نحلهم وجاء في إثبات صحة تأويلهم بشواهد لا تعرف (تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ وما بعدها) .

(٢) Goldziher, Zahiriten, S. 132. نقلا عن ابن حزم ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) سورة البقرة آية ٦٧ .

(٤) سورة النساء آية ٥١ ، ٦٠ .

(٥) وهذا هو تفسير الروافض للقرآن عند ابن قتيبة في مختلف الحديث ، ص ٨٤ وما بعدها .

(٦) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٨ ؛ ولم يذكر صاحب الفهرست هذا الكتاب .

صنف كتابا في البحث عن التأويلات أغضب فيه رجلا قرمطيا ، فقطع هذا القرمطي عن البلخي صِلاتٍ كان يُجريها عليه[1] .

وكذلك كان لا بدّ للغويين من التدقيق في الألفاظ حتى أمكن وضع مصطلحات دينية خاصة تتميز عن اللغة المألوفة[2] . على أنه وإن كان أصحاب المذهب الظاهري بأجمعهم قد جعلوا أساس مذهبهم الأخذ بالظاهر في تفسير كتب الشريعة ، وأولها القرآن ، فإن أحداً منهم لم يصنّف تفسيراً للقرآن ، وذلك لأسباب بيّنة ، وهي أن التفسير الحرفي للقرآن لم يكن يرُوق المسلمين في ذلك العهد كما أنه لا يرُوقها اليوم .

وقد كانت القصص القديمة العربية واليهودية والمسيحية المذكورة في القرآن ميداناً خاصا لاختلاف ونزاع شديد ؛ وكانت هي النقطة التي يواجه العلم فيها مشكلة الخوارق ، لأن هذه القصص لا تعرف من تقدم محمداً عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام إلا بأنهم أصحاب معجزات؛ ولذلك نجد أن أشهر الكتب التي ألفها أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى عام ٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م ، والذي كان أوحد زمانه في علم القرآن ، بعد تفسيره المشهور للقرآن ، هو كتابه المسمى العرائس في قصص الأنبياء[3] .

وقد أولع البعض بالغرائب ليقصوها على الناس ؛ وتكلم المطهر المقدسي عن هذا الفريق ، فوصفهم بأن « الحديث لهم عن جمل طار

---

(١) الفهرست ص ١٣٨ والارشاد لياقوت ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) Goldziher, Zahiriten, S. 134.

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٥ ؛ وقد ألف أبو رجاء الأسواني من قبل (توفي في سنة ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م) قصيدة ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء بلغت مائة ألف وثلاثين ألف بيت (طبقات السبكي ج ٢ ص ١٠٨ ، وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣١٩).

أشهى إليهم من الحديث عن جمل سار ، ورؤيا مرّيَّة آثر عندهم من رواية مَرْوية »[1] . وأنكر قوم العجائب رأساً ، وصرفها آخرون إلى تأويل منحول[2]. وقد ألّف الرازي الطبيب المشهور حوالي عام ٣٠٠ هـ كتاباً سماه مخاريق الأنبياء لم يستجز المطهر ذكرَ ما فيه « فإنه المفسد للقلب ، المذهب للدين ، الهادم للمروءة ، المورث البغض للأنبياء صلوات الله عليهم »[3] .

وقد حاول البعض أن يوفقوا بين ما في القرآن وبين العقل ، فكان ما وصلوا إليه توفيقاً مضحكا غير مُحْكَم كالذي تأدى إليه البروتستانتيون الذين فسروا الإنجيل تفسيراً عقليا . فمثلا تألم بعض العقليين من أن يكون الأطفال قد غرقوا مع آبائهم في الطوفان بغير ذنب؛ فقالوا إن الله أعقم أرحام النساء قبل الطوفان ، فلم تحمل منهن واحدة خمس عشرة سنة ، حتى لم يأت الغرق إلا على مستحق للعذاب[4] ؛ وذهب آخرون إلى أن سفينة نوح إنما هي مَثَل" للدين الذي جاء به ؛ فأما لبثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فهو مَثَل" لبقاء شريعته[5]. وزعم قوم أنه يجوز أن يكون خروج الناقة المنسوبة لصالح عليه السلام من الصخرة معناه حجة دامغة وسلطان قاهر أذعن له القوم ، وأن يكون شربها ماء العين معناه إبطالُ تلك الحجة جميعَ ما خالفها . وقال البعض يشبه أن يكون خبأها تحت الصخرة ، ثم أخرجها ؛ وزعم آخرون أن اسم الناقة كناية عن رجل وامرأة[6] . وزعم غير هؤلاء أن إبراهيم عليه

---

(١) كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسي طبعة هوار ج ١ ص ٤ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٠ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢ ، وانظر أيضا التفصيل في مجلة RHR, Bd 50, 1904 في مقالة لهوار عنوانها : Le Rationalisme Musulman a u IVsiècle

(٦) البدء والتاريخ للمطهر المقدسي ج ٣ ص ٤٢ .

السلام سحر القوم الذين أوقدوا له النار وطرحوه فيها ، وأُطلي ببعض الأدوية التي يبطل معها عمل النار ؛ وساق هؤلاء قصة لبعض الهند وشبهوا إبراهيم بها[1] • أما أصحاب الفيل الذين أهلكهم الله بحجارة ألقتها عليهم طير" أبابيل ، فقد أوّل البعض هذا بأن القوم أحرقتهم ثمار اليمن ، وأوبأهم ماؤها وهواؤها ، فحصبوا ، وجدروا فهلكوا[2] •

أما عين القطر التي وردت في قوله تعالى : « وَأَسَلْنَا له عَيْنَ القِطْر »[3] ، فهي إشارة إلى ما اهتدى سليمان الى استخراجه من معدنه كسائر الجواهر • والهدهد الذي لم يَرَه حين تفقّد الطير[4] كناية عن رجل ، وكذلك أُوّل النمل في قوله تعالى : حتى إذا أَتَوْا على وادي النملِ ••• الآية[5] ، بأنهم قوم ضعاف خافوا خبط عسكر سليمان ؛ والجن والشياطين الذين سُخِّروا لسليمان هم عتاة الناس وأشِداؤهم وحُذاقهم وعرفاؤهم بالأمور الغامضة[6] •

أما المعجزات الوحيدة التي وجّه العلماء إليها اهتمامهم ، فيما عدا القرآن ، فهي معجزات محمد عليه السلام ؛ وهي ، وإن لم ترد في القرآن، فقد ذكر في الأحاديث التي جُمعت في القرن الثالث الهجري نحوُ المائتين منها •

وقد حاول بعض العقليين أن يؤوّلوا هذه المعجزات ؛ فمثلا قالوا إن أبصار من اجتمع من قريش ليلة الدار للفتك بالنبي لم تَعْمَ حقيقة ،

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٥ •
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٨٧ •
(٣) سورة سبأ آية ١٢ •
(٤) سورة النمل آية ٢٠ •
(٥) سورة النمل آية ١٨ •
(٦) البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٠٩ •

بل هم أعماهم الحقد والغيظ والغضب . ولم يكن إبليس هو الذي كلّم المتآمرين ليعينهم بالرأي ، بل هو رجل ممن يعمل بعمل إبليس ، فسُمي بذلك[1] .

على أنه كان بين المسلمين المثقفين طائفة ممن حسن إسلامهم قالوا بهذه المعجزات من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك . وقد ألّف المطهر بن طاهر المقدسي حوالي عام ٣٥٥ هـ ـ ٩٦٦ م كتابه المسمى البدء والتاريخ ليحمي الإسلام ممن يشحنون صدور العامة بترّهات الأباطيل،ويقصون عليهم غرائب العجائب ، معتقدين كل غريب وحاكين كل أسطورة ، وليحميه أيضا من الشكّاك الذين لا يؤمنون بشيء . وهو لا يمل من الإعراب عن رأيه بالتصديق بما نزل به الوحي وبما جاءت به السنّة الصحيحة ، وهو كذلك لا يستطيع إخفاء سروره حينما يوَفّق إلى تأييد إحدى المعجزات بأدلة العقل الذي يعتبره « أُمّ العلوم كلها » . وهو يجيب على من ينكر ما ورد في الحديث من رفع إدريس إلى السماء بأن « أعظم منه هذا الغيم الراكد في الجو ، وهذه الأرض في ثقلها واقفة في السماء كما ترى »[2] . وأما من أنكر قصة يونس وأحال إمكان بقاء روح حي في بطن حيوان ، فإن المطهر يرد عليهم بقوله : « أوليس الجنين في بطن أمه بمتنفس[3] حي ؟ فهل يعجز من أبقى الأجنّة في ظلَم الأرحام أن يبقي الأرواح في أجسام المحبوسين حتى لا يصل إليهم الهواء ؟ »[4]. وهذا نوع من الدفاع عن الدين قد ألفناه نحن من قبل ؛ ونستطيع أن نستشف ما تنطوي عليه نفس المطهر من سرور خفي ، حينما يعالج المعجزات النبوية بطريقة عقلية ، ويبين جريانها على سنن الطبيعة ؛ وقد

---

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٣ والصفحات التالية .

(٢) البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٣ .

(٣) في الأصل متنفس ؛ وأظنها خطأ . (المترجم)

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٢ ـ ١١٣ .

تحمس لوضع مبدأ يقوم على أن الشيء قد يكون معجزة في وقت ، ويكون بعينه غير معجزة في وقت آخر ، ويكون معجزة لقوم وغير معجزة لقوم آخرين[١] .

ويروى عن النبي عليه السلام أنه وعد أمّته بقوله : « يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتي يبين لهم أمر دينهم » . وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء « المجدّدين » الذين يموت كل واحد منهم في أوائل قرنه ؛ وقد اختار العلماء في حوالي عام ٤٠٠ هـ ثلاثة رشحوهم لهذه المهمة ، وكلهم لم يكونوا ذوي شأن عظيم[٢] ؛ وفي حوالي عام ٣٠٠ هـ لم يقع اختيارهم إلا على الأشعري المتوفى عام ٣٤٣ هـ — ٩٣٦ م[٣] . ويدلّ هذا على قلة العلماء بين جمهور أهل السنة ، لأن أعظم مفكري الإسلام في ذلك العهد كانوا جميعاً بين صفوف المعتزلة الذين كانت تنبعث من عندهم جميع المسائل التي يعالجها المتكلمون .

ولم يكن المعتزلة من حيث هم فرقة لها مذهبها الخاص أشد مخالفة لأهل السنة من الشيعة في ذلك العهد ، ذلك أن من الفريقين ، كما قال ابن حزم ، من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد ، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب[٤] . وفي القرن الرابع الهجري كانت مخالفة المعتزلة

---

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) لما ألف متز كتابه لم يكن القاضي أبو بكر الباقلاني ، أعظم متكلمي القرن الرابع ، معروفا للباحثين ، كما ينبغي له ؛ وقد اعتبر المجدد الموعود به على رأس المائة الرابعة ؛ راجع مقدمة كتاب التمهيد ط . القاهرة ١٩٤٧ ص ٩ ، والملحق ص ٢٤٤ (المترجم)

(٣) Goldziher, Zur Charakteristik es—Suyûtis SWA, Bd. 69, S. 8 ff. وقد اختلف العلماء هل لكل قرن مجدد واحد أم له مجدد في كل علم من علوم الدين ؟ كان الذهبي يذهب إلى هذا الرأي الأخير ، ويقول كان على رأس المائة الثالثة ابن سريج في الفقه والاشعري في أصول الدين والنسائي في الحديث . (انظر طبقات السبكي ج ٢ ص ٨٩) .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٢ ص ١١١ .

لجمهور المسلمين مخالفة كلامية محضة لا تخرج عن حدود مسائل علم الكلام ، وهي شبيهة بخلاف الصوفية ؛ لأن هؤلاء اعتبروا فرقة إلى جانب الفرق الأخرى الكبيرة[1] . أما في العبادات فقد كان المعتزلة في الغالب متفقين مع أهل السنة ؛ هــذا إلى أنه كان بين المعتزلة شـيعة كالزيدية ؛ وكان من هؤلاء بعض أهل البيت مثل أبي عبد الله الداعي ، وهو أحد تلاميذ أبي عبد الله البصري[2] . وكان من الشيعة المعتزلة المشهورين إلى جانب من تقدم أبو الحسن الراوندي[3] والرماني اللغوي[4] المتوفى عام ٣٨٤ هـ ـــ ٩٩٤ م ، وكان أساتذتهم كلهم تقريبا فرْسا هاجروا إلى العراق أو استوطنوا أصفهان ؛ بل يقال إن الجبائي المتوفى عام ٣٠٣ هـ ـــ ٩١٥ م ألّف تفسيراً للقرآن بالفارسية[5] . وكان موضوع بحث المعتزلة علم العقائد بمعناه المحدود ، وأول ما عالجوا من ذلك مسألة القدر وما يتصل بها من وصف أفعال الله بالخير والشر . وكانت هذه المسألة أكبر ما أثار اهتمام أدمغتهم التي تأثرت بمذهب زرادشت . وكان إمام المعتزلة في عصر المأمون أبو الهذيل العلاّف وأكبر ما ظهرت فيه مقدرته وانتصاراته ردوده على الثنوية[6] . وفي أواخر القرن الثالث الهجري أخرج المعتزلة أكبر مدافع عن مذاهب الثنوية ، وهو ابن الراوندي الذي كان من المعتزلة ، ثم انسلخ عنهم ، وشنّع عليهم حتى استعانوا بالسلطان على قتله[7] . وفي القرن الرابع الهجري

---

(١) البدء والتاريخ للمطهر المقدسي ج ١ ص ١٦ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٣ .

(٣) انظر فيما يتعلق به مقدمة نيبرج لكتاب الانتصار للخياط ط . القاهرة ١٩٢٥ ، وما كتبه عنه ريتر في مجلة Der Islam مجلد ١٩ (١٩٣١) من ص ١ ـ ١٧ ، وكراوس في مجلة الدراسات الشرقية (RSO) التي تصدر في روما ، مجلد ١٤ (١٩٣٤) ص ٩٣ ـ ١٢٩ ، ٣٣٥ ـ ٣٧٩ . (المترجم)

(٤) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٢٤ .

(٥) Spitta, el—Asch'ari, 87.

(٦) المعتز بن المرتضى ص ٢٥ ـ ٢٧ .

(٧) نفس المصدر ص ٥٣ ـ ٥٤ .

كان نصيب المعتزلة في أصفهان على الأقل[1] نصيب الصوفية من أنهم دخل فيهم بعض الشيعة فانتسبوا بسبب ذلك لعلي وردوا سند مذهبهم إليه[2] . ويذكر الخوارزمي أن المعتزلة يعتدّون بالحسن البصري ــ الذي يعتد الصوفية به ويدّعونه لأنفسهم ــ اعتداد الشيعي بالوصيّ، واعتداد الزيدية بزيد بن علي ، والإمامية بالمهدي[3] . ونجد آثاراً متفرقة تدل على أثر مذاهب الغنوسطيين في المعتزلة مثل ما يحكى عن أحمد بن حائط من قوله إن للعالم خالقين : أحدهما قديم وهو الله تعالى؛ والآخر حادث ، وهو كلمة الله عز وجل ، عيسى بن مريم ، التي بها خلق العالم[4] . وكان بعض المعتزلة في القرن الرابع يتكلمون في القدر وفي تحديد معنى الفسق والإيمان . ولكن كانت عمدتهم التي يتمسكون بها هي الكلام في التوحيد وما يوصف به الله تعالى ؛ ثم يزيد بعضهم غير ذلك[5] . ولا يخلو ذلك من تأثير الفلسفة اليونانية التي كان لها أثر

---

(1) نفس المصدر ص ٦١ ــ ٦٢ .

(2) نفس المصدر ص ٥ ــ ٦ .

(3) اليتيمة للثعالبي ج ٤ ص ١٢٠ .

(4) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٩٧ .

(5) كان هؤلاء القليلون الذين لم يزالوا يعالجون البحث في مسألة الاختيار والقدرة الانسانية يسمون « القدرية » ؛ وليس من السهل بيان معنى هذه الكلمة ؛ فالقدرية عند ابن قتيبة هم الذين اضافوا القدر إلى انفسهم (تأويل مختلف الحديث ص ٩٨) ، يعني أنهم أصحاب الاختيار ، وهم الذين يخالفون الجبرية ؛ ولكن هذا التفسير متناقض ؛ لأن لفظ القدرية كان يطلق قديماً على القائلين بالقدر من الله خيره وشره . ويحكي عن زيد بن علي أنه قال : « ابرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ، ومن المرجئة الذين اطمعوا الفساق في عفو الله » (كتاب المعتزلة لابن المرتضى ص ١٢) . أما في القرن الثالث فكانوا يقولون على وجه التدقيق إن الله تعالى يخلق الخير وإن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة مختلف الحديث طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥)، والاشعري في الابانة كما ذكر ذلك (Spitta S. 131)، وبسبب هذه الاثنينية ، سمي المعتزلة « مجوس الأمة الاسلامية » (ابن قتيبة ص ٩٦) ؛ ويحكى عن أحدهم انه قال لرجل من اهل الذمة: ألا تسلم يا فلان؟ فقال: حتى يريد الله؛ فقال له: قد أراد الله . ولكن إبليس لا يدعك ؛ فقال له الذمي : فأنا مع أقواهما (ابن قتيبة ص ٩٨ ــ ٩٩) . وبسبب هذه الاثنينية أيضا ، سمي القائلون بالاختيار قدرية في حين أن أصحاب الاختيار =

فعال في تحريك الخواطر في أثناء القرن الثالث، وإن كان تأثيرها مقصوراً على الطبقة العليا من المتكلمين كالنظام والجاحظ[1] ، ومن تأثير علم العقائد المسيحي الذي كان طول تلك المدة مهتما ببيان وحدة الذات وتنزّهها عن الكثرة[2] . ولما كان المعتزلة قد جعلوا عمدة بحثهم الكلام في ذات الله وصفاته ، فلم يقتصر الأمر على أن صارت هذه المسألة أهم مسائل العقائد الإسلامية حتى اليوم ، بل أدى كلامهم في هذه المسألة إلى طبع الفلسفة العربية بطابع خاص ، كما أن مباحثهم في هذا الموضوع كان لها أثر في مذهب سپينوزا ، ونفذ التأثير من مذهب سپينوزا إلى الفكر الأوربي . ويقول ابن حزم إن المعتزلة هم الذين اخترعوا لفظ الصفات ، وكان المستعمل قبل ذلك هو كلمة « النعوت » أو « الأسامي »[3] .

أما ما يمتاز به المعتزلة من الخصال فيقول المقدسي[4] : إنهم

= يقولون: إن إطلاق اسم القدرية على من يقول بالقدر خيره وشره من الله أولى (الشهرستاني على هامش ابن حزم ج ١ ص ٥٤، وابن قتيبة ص ٩٧) . وفي القرن الرابع، يقول المقدسي : إن المعتزلة غلبوا على القدرية (ص ٣٧) ، ويقول الاشعري (Spitta, 131) ما يدل على أن القدرية هم المعتزلة ، ويقول المقدسي – إلى جانب ما تقدم من غلبة المعتزلة على القدرية – إنه لا يميز إحداهما من الأخرى إلا كل نحرير (ص ٣٨) . وقد حاول القاضي عبد الجبار بالري،حوالي أول القرن الخامس ، وكان القاضي أكبر شيوخ المعتزلة في عصره ، أن يثبت من الأحاديث أن اسم القدرية لا ينبغي أن يطلق على المعتزلة ، بل على القائلين بالقدر خيره وشره من الله) انظر مقالة الأستاذ شرينر : Schreiner. ZDMG 52, S. 209 f.

(١) S. Horovitz : p über en Einfuss der griechishosen philosophie auf die Entwicklung des Kalam, Breslau 1909. ؛ (ولكن الاشتغال بالمباحث الفلسفية والتأثر بها ، شمل كثيرين غير الجاحظ واستاذه النظام . المترجم) .

(٢) Becker, ZA, Bd 26, 175 ff. .

(٣) البخاري : كتاب التوحيد نقلا عن جولدزيهر Goldziher, Zahiriten, S. 145, Anm. 1.

(٤) المقدسي ص ٤١ .

لا ينفكون من أربع خصال : اللطافة والدراية والفسق والسخرية .
ومما يدل على أن المعتزلة كانوا مولعين بالمناظرة والجدل[1] أن مذهبهم كله يقوم على الجدل[2] ، ولذلك قال المعتزلة إن المختلفيْن كلاهما على صواب[3] . ومع ذلك كانوا متكاتفين حتى إن تكاتفهم في القرن الرابع كان مضرب المثل ، وحتى تمثل الخوارزمي باعتداد المعتزلي بالمعتزلي[4] . وكان المتكلمون ينظرون في كل شيء ، « وأرادوا معرفة كل شيء »[5] . وكان من يسمون بالفلاسفة ينظرون إليهم بعين التصغير ، « كما ينظر الباحث في علم النفس التجريبي إلى صاحب ما بعد الطبيعة »[6] وكان الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليد واللجاج ، وأنهم « انفتح باب الحيرة عليهم وسُدّ باب اليقين عنهم ، ولهذا قلّ تألههم وتنزههم ،وصاروا يقولون بتكافؤ الأدلة»[7] .
ولما كان المتكلمون ينكرون السحر بجميع صوَره والتنجيم ، بل أنكروا كرامات الأولياء[8] فإننا نستطيع أن نعتبرهم من دعاة حرية الفكر والاستنارة ، رغم مذهبهم الكلامي ، وما كان لهم فيه من

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) وقد كان القفال أبو بكر الشاشي ، المتوفى عام ٣٣٦ هـ (أو ٣٣٥) ، احد ائمة الشافعية ، أول من صنف في الجدل (أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٢١ طبعة ليدن) .

(٣) بستان العارفين للسمرقندي ص ١٥ .

(٤) رسائل الخوارزمي ص ٦٣ (؟) .

(٥) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٠٩ (؟) .

(٦) كتاب معاني النفس.Goldziher, AGGW, N. F., 10, S. 13 ff .

(٧) انظر Goldziher, ZDMG, Bd, 62, S. 2 ff.، نقلا عن التوحيدي في المقابسات (طبعة بمباي ص ٥٢) . على أن المتكلمين من جانبهم يطعنون في الفلاسفة ، فيحكى أن رجلا سوفسطائيا أنكر الضروريات في مجلس أبي القاسم البلخي . وألحقها بالخيالات ؛ فقام البلخي إلى بغل جاء السوفسطائي راكبا عليه وخبّأه ، ثم قام السوفسطائي من غير أن يقتنع ، فلما لم يجد البغل، رجع إلى أبي القاسم، فقال له أبو القاسم : لعلك تركته في غير هذا الموضع ، أو لعلك لم تأت راكبا ، وخيل إليك ذلك تخييلا ؛ وجاءه بأنواع من هذا الكلام ، حتى رجع عن مذهبه (المعتزلة لابن المرتضى ص ٥١) .

(٨) لم يكن هذا مذهب المتكلمين جميعا . (المترجم)

تدقيقات . جاء في كتاب الإرشاد لياقوت : « اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمي العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلي بن عبد الله اللطفي ، وأبو زيد البلخي » ، والأول والثالث من هؤلاء الثلاثة ــ ولا أعرف من أمر الثاني شيئاً ــ رجلان يمثلان الفكر الحر على نحو جدير بالتقدير ؛ أما الجاحظ « فيزيد لفظه على معناه » ؛ وأما أبو زيد « فيتوافق لفظه ومعناه[1] ، والجاحظ يشبه ڤولتير Voltaire ؛ أما أبو زيد (وقد توفي عام ٣٢٢ هـ ــ ٩٣٣ م ، وقد جاوز الثمانين) فقد كان أثبت وأكثر اتزاناً ، وهو يشبه الإسكندر همبولت Alexander Humboldt بين دعاة الفكر الحر في القرن التاسع عشر .

وقد جمع إلى دراسة الفلسفة دراسة التنجيم والطب والجغرافيا وعلوم الطبيعة ؛ وألف كتاباً سماه نظم القرآن ، تكلم فيه بكلام لطيف ، وكان يتنزه عن التأويل البعيد للقرآن.وكان الحسين بن علي المروروزي يجري عليه صلات دائمة ، فلما أملى كتابه في البحث عن التأويلات قطعها عنه ؛ وكان الجيهاني يُجري عليه صلات أيضاً ،فلما أملى كتاب القرابين والذبائح حرمه إياها ، وكان الحسين قرمطيا والجيهاني ثنويا . وهاك مثالا من نظر خصوم الجاحظ إليه فيما كتبه ابن قتيبة : « هو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استشارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يَعظُم وتصغير العظيم حتى يصغُر ؛ ويبلغ به الأقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يُفضِّل علياً رضي الله عنه ومرة يؤخره ؛ ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتبعه : قال الجماز ، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش . ويَجِلُّ رسول الله صلى

---

(١) الارشاد ج ١ ص ١٤١ ــ ١٤٨ .

الله عليه وسلم عن أن يذكر في كتاب ذكرا فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر وسطرين ؟ ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوز في الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيكَ الضعَفة من المسلمين . وتجده يقصد في كتابه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشُرّاب النبيذ ، ويستهزيء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوّده المشركون،وقد كان يجب أن يبيّضه المسلمون حين أسلموا ، ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة ، فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادُم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أُمّه في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة، وأشباه هذا...وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل »[1] . وقد رُويت عن المعتزلة أقوال أخرى يقشعر لها جلد المسلم الحق ويمجها قلبه ، فيذكر ابن قتيبة أن ثُمامة بن أشرس كان ينتقص الإسلام ويرسل لسانه بما لا يكون من رجل يعرف الله ويؤمن به ، « ومن المحفوظ منه المشهور أنه رأى قوماً يَتَعادَوْنَ يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فَوْتَ الصلاة فقال : انظروا إلى البقر ! انظروا إلى الحمير ! ثم قال لرجل من إخوانه : ما صنع هذا العربي بالناس ! »[2] .

وفي القرن الثالث الهجري كان أهل السنة ينظرون إلى المعتزلة بعين الكراهية والاحتقار ، ثم خرج الأشعري حوالي آخر القرن الثالث على المعتزلة ، بعد أن كان منهم ، وبدأ يحاربهم بسلاحهم ، وعلى هذا

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧١ ــ ٧٢ طبعة مصر ١٣٢٦ هـ .
(٢) ابن قتيبة ص ٦٠ .

نشأ في القرن الرابع الهجري المذهبُ الكلامي الرسمي القائم على العلم والنظر العقلي ، وكان مذهب الأشعري مذهب توفيق ، وذلك شأن كل مذهب رسمي ، ولذلك سمي مذهباً أوسط[١] ؛ وقد حسب الأشعري أن في قدرته أن يوفق بين مذهب أهل السنة وبين العقل ، وأعلن فيما كتبه تمسكه بمذهب الحنابلة ؛ يقول الأشعري : « قولُنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسُّكُ بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ؛ ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولمن خالف قولَه قولَه مُجانِبون ؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال »[٢] .

ولكن الحنابلة كانوا يخاصمون الأشعري[٣]،فيقول ابن الجوزي إن الأشعري ظل معتزليا دائما[٤] ؛ وقد قُدِّر لمذهب الأشعري ما يقدر عادة لغيره من المذاهب التي تميل إلى التوسط والتوفيق بين ما اختلف؛ فانحرف عنه أهم تلاميذ الأشعري مائلين إلى رأي الخصوم العقليين ، وأكبر ما نجد ذلك عند الباقلاني المتوفى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م ؛ فإنه أدخل في علم العقائد مسألة الجزء الذي لا يتجزأ ، والخلاء ، وغير ذلك من الأشياء الغريبة عنه[٥] . وكان القاضي عبد الجبار بالريِّ (توفي

---

(١) Spitta. Asch'ari, 46 ، وكان أسلاف الأشعرية الأقربون بين المتكلمين هم : الكلابية الذين اندمجوا في الأشاعرة في القرن الرابع ، وكانوا ينكرون الجبر (مقدسي ص ٣٧).

(٢) Spitta, 133.

(٣) نفس المصدر ص ١١١ .

(٤) المنتظم ص ٧١ ب ، على أن ابن الجوزي إنما قال : إن الأشعري ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلا (أربعين سنة) ثم تركه وأتى بمقالة خبط بها عقائد الناس . (المترجم)

(٥) Schreiner, Or. Konger. Stockholm, I, 1, S. 82. ، نقلا عن ابن خلدون (المقدمة ، الفصل الخاص بعلم الكلام) ؛ (راجع مقدمة كتاب التمهيد للباقلاني ، طبعة القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣ وما بعدها ــ المترجم) .

سنة ٤١٥ هـ ـ ١٠٢٤ م) في ابتداء حاله يذهب في الأصول مذهب الأشعرية ، ثم انتقل إلى خصومهم ـ المعتزلة ـ وإليه انتهت الرياسة فيهم حتى صار شيخهم وعالمهم غير مدافَع[١] . وكان الصاحب بن عباد قد أحسن إليه وقدّمه وولاّه القضاء ؛ فلما توفي الصاحبُ قال عبد الجبار : لا أرى الترحم عليه ، لأنه مات من غير توبة ظهرت منه ؛ فنسب عبد الجبار إلى قلة الوفاء[٢] . ونرى من هذا أن المعتزلة لا يستحقون كل ما ينسب إليهم من أنهم أصحاب الفكر الحر .

وفي غضون القرن الرابع الهجري كان أصحاب مذهب السنّة القدماء يحاربون الشيعة الذين صعّروا خدودهم ببغداد ، ويضيّقون على متكلمي المعتزلة في سائر البلاد، حتى نغصوا عليهم العيش ؛ ولكنهم على الرغم من استهوائهم للعامة وإثارتهم لهم لم ينجحوا في ذلك إلا قليلا ، ولا نسمع من أمثلة هذا الاضطهاد إلا قليلا[٣] ؛ ولم يكن مذهب الأشعري قد قوي في ذلك العهد بحيث يُعتبر خصما ويُهاجَم ، فإنه لم ينشر في العراق إلا منذ نحو سنة ٣٨٠ هـ[٤] ، وعند ذلك بدأت تظهر آثار الاضطهاد له ؛ وقد حاول الحنابلة أن يمنعوا الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١ م من دخول المسجد الجامع ببغداد ، لأنه كان يذهب مذهب الأشعري[٥] ؛ وكان أكابر الأشاعرة في ذلك العهد يُضطَهدون وينفون في أيام طغرل بك . وقربَ أواخر القرن الرابع تحاملت الحنابلة على رجل من كبار الأشاعرة ذوي النفوذ ،

---

(١) المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٧ .

(٣) Zwei besonders characktsristiche.... bei Goldziher, ZDMG, 62 S. 8.

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٥) كان الخطيب البغدادي يتعصب على الحنابلة (المنتظم ص ١١٨ ب) .

وهو القشيري المتوفى عام ٥١٤ هـ ــ ١١٢٠ م ؛ ووقع بسبب تَهْييج الحنابلة قتال" في الشوارع ، واضطر القشيري إلى ترك بغداد[١] . ومن هذه الحادثة أرّخ ابن عساكر مبدأ وقوع الانحراف بين الحنابلة والأشاعرة[٢] . ولم ينتشر مذهب الأشاعرة ، وهو المذهب الكلامي الجديد الذي قدّر له أن يصير مذهب جمهور المسلمين إلا انتشاراً بطيئاً في المملكة الإسلامية ؛ ففي أقصى المشرق كان الماتريدية ينافسون الأشاعرة ، وذلك على الرغم مما بين الفريقين من تشابه في أصل المذهب، وكان لا بد للأشاعرة أيضاً أن يدرأوا هجمات الحنابلة الذين كان شيخهم حوالي عام ٤٠٠ هـ ــ ١٠١٠ م يلعن أبا الحسن الأشعري أمام الملأ وينال من الأشاعرة[٣] ، وأن يقاوموا أيضاً هجمات الكرامية الذين تحزّبوا على الأشاعرة ، ورفعوا أمرهم إلى السلطان محمود بن سبكتكين مدّعين أن الأشاعرة يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس نبياً اليوم وأن رسالته انقطعت بموته ، ولم يكن هذا معتقداً للأشاعرة[٤] .

أما في المغرب فقد انتشر مذهب الأشاعرة من بلد إلى آخر ، فقامت لهم سوق في صقلية والقَيروان والأندلس ، « ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين »[٥] . ولم يكن مذهب الأشاعرة معروفاً قط في شمال إفريقية حتى حمله إليها محمد بن تومرت حوالي عام ٥٠٠ هـ ــ ١١٠٧ م[٦] .

---

(١) Goldziher, ZDMG, 62, S. 8.

(٢) Spitta, Asch'ari, S. 145.

(٣) طبقات السبكي ج ٣ ص ١١٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤ .

(٥) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٦) Goldziher, ZDMG, 41, S. 30 ff.

وكانت الحكومة في أوائل القرن الخامس الهجري تتدخل نوعاً من التدخل الرسمي لفض المنازعات المذهبية ، ففي عام ٤٠٨ هـ ـ ١٠١٧ م أصدر الخليفة القادر كتاباً ضدّ المعتزلة ، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام ، وأنذرهم ـ إن خالفوا أمره ـ بحلول النكال والعقوبة . وامتثل السلطانُ محمود في غَزْنَة أمرَ أمير المؤمنين واستنّ بسنّته في قتل المخالفين ونفيهم وحبسهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، « وصار ذلك سنة في الإسلام »[1]. وصدر في بغداد كتابٌ آخر سُمّي الاعتقاد القادري ، وذلك في سنة ٤٣٣ هـ ـ ١٠٤١ م وقُرِيء في الدواوين ، « وكتبَ الفقهاء خطوطَهم فيه أن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر » ، وكان هذا أول اعتقاد رسمي يعلنه الخليفة[2] ، وكان معنى ذلك نهاية تطور علم الكلام ؛ ويستطيع الرجل الثاقب النظر أن يتبين في كل كلمة من هذا الاعتقاد جراثيم المنازعات التي مضت عليها قرون ، وهاك نصه : « على الإنسان أن يعلم أن الله عزّ وجلّ وحدَه لا شريك له ، « لم يَلِدْ ولم يُولَد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، لم يتّخِذْ صاحبةً ولا ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وهو أوّلٌ لم يَزَلْ ، وآخرٌ لا يزال ، قادرٌ على كل شيء ، غير عاجز عن شيء ، إذا أراد شيئا قال له كن ، فيكون ، غنيٌّ غيرُ محتاج الى شيء ، « لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنةٌ ولا نَوْمٌ » « يُطْعِمُ ولا يُطْعَم » ، لا يستوحش من وَحْدَةٍ ولا يأنسُ بشيء ، وهو الغني عن كل شيء ، لا تُخلِقُه الدهورُ والأزمانُ ، وكيف تغيّرُه الدهورُ وهو خالقُ الدهور

(١) المنتظم ص ١٦٥ ب .

(٢) على أن ما حدث في أيام المأمون من أمر المحنة ، وإصدار الكتب بعضها تلو البعض في العقيدة التي يجب ان يحمل الناس عليها ، هو ايضاً اعتقاد رسمي أصدره الخليفة ، وهو اول اعتقاد . (المترجم)

والأزمان ، والليل والنهار ، والضوء والظلمة ، والسموات والأرض ، وما فيها من أنواع الخلق ، والبر والبحر وما فيهما ، وكل شيء حي أو موات أو جماد ؟ كان ربُّنا وحده لا شيءَ معه ، ولا مكان يحويه ، فخلق كلَّ شيء بقُدْرَتِه ، وخلق العرشَ لا لحاجته إليه ، فاستوى عليه كيف شاءَ وأراد ، لا استقرار راحةٍ ، كما يستريح الخَلْق ؛ وهو مدبِّر السموات والأرضين ومدبر ما فيها ومن في البر والبحر ، لا مدبر غيره ، ولا حافظ سواه ، يرزقهم ويُمْرِضُهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم ؛ والخلق كلهم عاجزون ، الملائكة والنبيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون ،وهو القادر بقدرةٍ ، والعالم بعلم أزليّ غير مُسْتَفادٍ ، وهو السميع بسمع والمُبْصِرُ بِبَصَر ، يَعْرِفُ صِفتَهما من نفسه ، ولا يبلغ كُنْهَهُما أحدٌ من خلقه ، متكلمٌ بكلام ، لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين ، لا يوصَف إلاّ بما وصف به نفسَه أو وصفه به نبيُّه عليه السلام ؛ وكلُّ صفة وصفَ بها نفسَه أو وصفَه بها رسوله فهي صفةٌ حقيقية لا مجازية ؛ ويَعْلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق ، تكلم به تكليما ، وأنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل بعد ما سمعه جبريل منه ، فتلاه جبريل على محمد ، وتلاه محمد على أصحابه ، وتلاه أصحابه على الأمة ، ولم يَصِرْ بتلاوة المخلوقين مخلوقاً ، لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به ، فهو غير مخلوق فبكل حال متلوًّا ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً ؛ ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافرٌ ، حلالُ الدم بعد الاستتابة منه ؛ ويعلم أن الإيمان قولٌ وعملٌ ونيّةٌ : قول باللسان ، وعمل بالأركان والجوارح ، وتصديقٌ به ،يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهو ذو أجزاء ، فأرفع أجزائه لا إله الا الله ، وأدناها إماطة

الأذى عن الطريق ؛ والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان ، والصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ؛ والإنسان لا يدري كيف هو مكتوب عند الله ، ولا بماذا يُخْتَمُ له ، فلذلك نقول إنه مؤمن إن شاء الله ، وأرجو أن أكون مؤمناً ، ولا يضرّه الاستثناء والرجا ، ولا يكون بهما شاكا ولا مُرتاباً ، لأنه يريد بذلك ما هو مغيَّبٌ عنه من أمر آخرته وخاتمته؛ وكلُّ شيء يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ويُعمل لخالص وجهه من أنواع الطاعات فرائضها وسننِها ونفائِلها فهو كلّه من الإيمان منسوب إليه ، ولا يكون للإيمان نهاية أبداً ، لأنه لا نهاية للفضائل ولا للمتنوع في الفرائض أبداً • ويجب أن نُحِبَّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلَّهم ، ونعلم أنهم خيرُ الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن خَيْرَهم كلِّهم وأفضلَهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفّان ، ثم علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، ونشهدَ للعشرة بالجنة ، ونترحَّم على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن سبَّ عائشة فلا حظ له في الإسلام ، ولا نقول في معاوية إلا خيراً ، ولا ندخل في شيء شَجَرَ بينهم ، ونترحّم على جماعتهم ، قال الله تعالى : « والذينَ جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم[1] » ، وقال فيهم « ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ ،إخواناً على سُرُر متقابلين[2] » ولا يكَفَّر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها ، فإنه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ ، حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر ، وإن لم يجحدها ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الحشر ، آية ١٠ .

(٢) سورة الحجر ، آية ٤٧ .

بين العبد والكفر ترك الصلاة ؛ فمن تركها فقد كفر ، ولا يزال كافرا حتى يندَم ويعيدها ، فإن مات قبل أن يعيد لم يُصَلَّ عليه وحُشر مع فرعون وهامان وقارون وأُبَيّ بن خلف . وسائر الأعمال لا يُكفَرُ بتركها ، وإن كان يفسَّق حتى يجحدَها ؛ ثم قال : هذا قول أهل السنة والجماعة الذي من تمسك به كان على الحق المبين ، وعلى منهاج الدين والطريق الواضح ورُجِيَ به النجاةُ من النار ودخول الجنة إن شاء الله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الدينُ النصيحة ، قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ؛ وقال عليه السلام : أيّما عبد جاءته موعظة من الله تعالى في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها بشكر ، وإلا كانت حجة عليه من الله تعالى ليزداد بها إثما ويَزْدادَ بها من الله سخطا ، جَعَلَنا الله لآلائه شاكرين ولنعمائه ذاكرين وبالسنة معتصمين ، وغَفَرَ لنا ولجميع المسلمين[1]» .

وكان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى ؛ وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى سبباً في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى ، وهو علم مقارنة الملل ؛ ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين ؛ ذلك أن النوبختي ، وهو مؤلف أول كتاب له شأن في الآراء والديانات ، كان من نَقَلَة كتب اليونان إلى لسان العرب[2] . وكذلك ألّف المسعودي كتابين في الديانات[3] . ولم يكن المسعودي متكلما ؛ ثم جاء المسبِّحي

---

(١) المنتظم ص ١٩٥ ب ـ ١٩٦ ا .

(٢) الفهرست ص ١٧٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

المتوفى عام ٤٢٠ هـ ــ ١٠٢٩ م ، وكان ممن اشتغل في الدواوين ، ومن مؤلفاته كتابُ دَرْكُ البغية في وصف الأديان والعبادات ، وهو كتاب مطول على طريقة المسبِّحي ، ويقع في ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة ؛ وإذن فقد عني هذا المؤلف الأديب العالم بالبحث في الأديان إلى جانب اشتغاله بأمور الدولة ؛ وهذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي يتصل بعلوم الدين من بين كتب المسبِّحي ؛ ومرجع عنايته بذلك إلى أن أسرته من حرّان ، ولذلك عني بما كان يعنى به الصابئة[1] . ثم أقبل على البحث في الملل بعضُ المتكلمين الميالين إلى معرفة ما غاب عنهم ، فمن ذلك كتاب المِلل والنِّحل ، (وقد صار هذا الاسم شائعاً بين المؤلفين في هذا الباب) لأبي منصور البغدادي المتوفى عام ٤٢٩هـ ــ ١٠٣٨م[2] ؛ ثم جاء ابن حزم الأندلسي المتوفى عام ٤٥٦ هـ ــ ١٠٦٤ م فألف كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ورد فيه على مختلف المذاهب متحمساً في ذلك للدفاع عن الإسلام ، وفي أوائل القرن الخامس الهجري ألف أبو الريحان البيروني المتوفى عام ٤٤٠ هـ ــ ١٠٤٨ م كتابه المسمَّى « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، وجعله كتابَ حكاية لمذاهب الهند على وجهها لا كتاب حجاج وجدل ، ولذلك لم يناقض الخصوم ، ولم يتحرج من حكاية كلامهم ، وإنْ بايَن الحقَّ[3] ، فكان هذا الكتاب كتاب بحث علمي نزيه : ومما ينبغي أن نلاحظه أن عقيدة مؤرخي النِّحل كانت في الغالب موضعاً لشكوك

(١) المغرب لابن سعيد ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٣٩ .

(٣) كتاب الهند للبيروني طبعة سخاو ص ٤ .

الشاكّين وطعنهم ؛ وقد نقل ياقوت[1] عن صاحب تاريخ خوارزم ما اتهم به الشهرستاني[2] من التخبُّط في الاعتقاد ، والميل إلى الإلحاد لأنه ـــ في زعم مؤرخ خوارزم ـــ مع وفور فضله وكمال عقله أعرض عن نور الشريعة واشتغل بظلمات الفلسفة ، ولم يكن في مجالس وعظه « قال الله » ولا « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ولا جواب" من المسائل الشرعية[3] .

*

---

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٣ من الطبعة الأوربية ، وانظر Goldziher, SWA. 73, S. 552,.

(٢) المتوفى عام ٥٤٨ هـ وهو صاحب الكتاب المشهور المسمى الملل والنحل .

(٣) وكتاب الشهرستاني المشهور ، أعني كتاب الملل والنحل ، خير ما يذكر في باب علم مقارنة الملل وتاريخها وأصولها عند المسلمين . (المترجم)

الفصل الرابع عشر

المذاهب الفقهية

كان القرن الرابع أهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الإسلامي ؛ فيقال إنه في هذا القرن وقف التكوين المستقل للتشريع الإسلامي المبني على الاجتهاد المطلق وعلى الحكم بالرأي في فهم القرآن والحديث[1] .

ومضى عصر الابتكار في التشريع ، واعتبر العلماء الأولون كالمعصومين ، وأصبح الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه الخاص إلا في المسائل الصغيرة ؛ وهذا يشبه ما حدث عند اليهود من مجيء الربانيين الذين كان قصاراهم التناقش في آراء القدماء ، وذلك بعد مضي عهد علماء الكتاب الذين يعلمون الكتاب ويحق لهم الاجتهاد .

ولكن هذا إنما هو اعتبار المسألة من وجهة النظر الإسلامية[2] . والواقع أنه ظهر في هذا الميدان الفقهي ما ظهر في غيره من الميادين ، وأهم ما حدث هو تسرب آراء في التشريع مما كان قبل عهد الإسلام إلى الفقه الإسلامي ، كما حييت من جديد بعض النظريات اليونانية والرومانية القديمة . وكان يمثلها الفقهاء ، ويخالفهم أصحاب الحديث

---

(١) Snouck Hurgronje, RHR, 37, S. 176.

(٢) راجع مثلا ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن الفقه . (المترجم)

المتمسكون بالسنة القديمة والذين يقيسون الحياة بمقياس نصوص الوحي والسنة النبوية . ولم يشأ هؤلاء المتمسكون بالقديم أن ينزلوا عن مكانهم بسهولة . فقد كانت لهم الغلبة في إقليمين من أهم أقاليم المملكة الإسلامية وهما فارس والشام ؛ وكذلك كانت لأهل الحديث غلبة في السند ، كما كانت همذان وأجنادها أصحاب حديث[1] .

وكان أهم المذاهب بين أصحاب الحديث : الحنابلة ، والأوزاعية والثورية[2] . ولم يكن الحنابلة في ذلك ــ خلافاً لما صار إليه الحال فيما بعد ــ يعتبرون من جملة الفقهاء ، وفي سنة ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م ذُكر أصحاب المذاهب فكانوا : الشافعية والمالكية والثورية أصحاب سفيان الثوري ، والحنفية والداوودية[3] . وفي أواخر القرن الرابع كانوا : الحنفية والمالكية والشافعية والداوودية[4] . ولم يذكر الحنابلة بين الفقهاء في هاتين المدتين ؛ ولما توفي محمد بن جرير الطبري عام ٣١٠ هـ ــ ٩٢٣ م دُفِن بداره ليلاً ، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً ؛ وكان ذلك بتأثير الحنابلة ، وقد تعصب عليه هؤلاء ، لأنه جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فسُئل في ذلك فقال : لم يكن فقيهاً ، وإنما كان محدِّثاً[5] . ولم ينل الحنابلة الاعتراف بأنهم فقهاء إلا أخيراً[6] . أما مذاهب غيرهم من أصحاب الحديث فلم تستطع البقاء ، ففي القرن الثالث الهجري غلب المالكية على أصحاب

---

(١) المقدسي ص ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٢٥ وما بعدها ، والمقدسي ص ٣٧ .

(٣) طبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٤) المقدسي ص ٣٧ .

(٥) المنتظم لابن الجوزي تحت عام ٣١٠ هـ نقلا عن ثابت بن سنان ، وابن الأثير ج ٨ ص ٩٨ نقلا عن مسكويه ؛ Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 80 .

(٦) حوالي عام ٥٠٠ هـ كما يقول الغزالي (انظر كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبري ، طبعة كرن (Kern) ، مصر ١٣٢٠ هـ ــ ١٩٠٢ م ، ص ١٤) .

الأوزاعي في الأندلس[1] . وكان قاضي دمشق المتوفى عام ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م أوزاعي المذهب[2] ؛ وكان للأوزاعية على عهد المقدسي مجلس بجامع دمشق[3] . ويرى المقدسي أيضاً أن مذهب الأوزاعي لم ينتشر أكثر من ذلك لأنه كان مُتَطَرِّفاً ، فقلَّ الواردون عليه والناقلون عنه ؛ « ولو كان على سابلة الحج لنَقَلَ مذهبَه أهلُ الشرق والغرب[4] » ؛ وكذلك يَعُدُّ المقدسي مذهبَ سفيان الثوري بين المذاهب المندرسة ، بعد أن كان لهذا المذهب جَلَبَةٌ في أصفهان والدينور[5] . وفي سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م توفي أبو بكر عبد الغفار بن عبد الرحمن الدينوري، ولم يكن ببغداد مُفْتٍ على مذهب سفيان الثوري غيره ، وهو آخر من أفتى بجامع المنصور على مذهب الثوري[6] . ولم تكن المذاهب قد استقرت على رأس المائة الثالثة ، رغم ما قيل من أنه في هذا التاريخ كان قد بطل نحوٌ من خمسمائة مذهب[7] .

وقد أسس داوودُ الأصفهاني (المتوفى عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م) مذهباً كان له شأن ، وهو مذهب الظاهرية ؛ وقد عَظُم شأن هذا المذهب في الشرق في القرن الرابع الهجري ، وكان بين أتباعه كثير من أصحاب

(١) انظر فيما يتعلق بهذا كتاب Fagnan, Homenaje a Don Fr. Codera, Zaragosa, 1904. S. 108.

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٤٧ طبعة ليدن .

(٣) المقدسي ص ١٧٩ .

(٤) المقدسي ص ١٤٤ .

(٥) المقدسي ص ٣٧ ، ٣٩٥ .

(٦) أبو المحاسن طبعة كليفورنيا ص ١٢٠ ، ويقول أبو المحاسن : لعل هذا بالشرق ، وأما بالغرب فدام مذهب الثوري بعد هذا التاريخ عدة سنين . (المترجم)

(٧) كتاب اختلاف الفقهاء للطبري ص ١٤ ، نقلا عن كتاب عمدة العارفين ؛ وكانت مذاهب أصحاب الحديث كثيرة جداً ، وإنما كان ذلك لكثرة ما في الأحاديث من غموض .

الجاه بإيران[1] . وكان الداوودية بفارس يتقلّدون الأعمال والقضاء ، وكانت لهم الغلبة ، لأن السلطان عضد الدولة كان يتقلد هذا المذهب[2] . وقد أنكر الظاهرية أشد الإنكار ما فعله الشافعي من محاولة التوفيق بين المنهج الفقهي القديم الذي انتهى إليه وبين المنهج الجديد[3] ؛ وكان مذهب الظاهرية سبباً في وضوح المناهج ، شأن غيره من مذاهب المتطرفين ، وكانت القاعدة الكبرى التي استندوا إليها هي التمسك بحرفيَّة النصوص تمسكا دقيقاً . ولكن هذه قاعدة علمية ، وسرعان ما أدركوا أن الفقه ليس علماً نظريا ، بل هو عمل ؛ ولم يكن الأثر الأكبر لمنهجهم القائم على محو اللبس ، في الفقه ، بل كان في المباحث التاريخية واللغوية . ويرى المقدسي أن أكبر خصال أصحاب داوود هي : الكبر ، والحدة ، والكلام ، واليسار[4] .

وقد أسس أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المتوفى عام ٣١٠ هـ ــ ٩٢٣ م مذهباً خاصاً به ، وقد ظل الناس بعد موته عدة شهور يجتمعون للصلاة على قبره ليلا ونهاراً[5] . وكان للطبري

---

(١) Goldziher, Zahiriten S. 110.

(٢) المقدسي ص ٤٣٩ .

(٣) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٨ ، ولا توجد هنا مطابقة تامة ، وإنما ينسب للظاهرية إنكار القياس . (المترجم)

(٤) المقدسي ص ٤١ .

(٥) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 80. ؛ ويذكر أبو المحاسن (طبعة كليفورنيا ص ١٢٦ تحت سنة ٤١٠ هـ ــ ١٠١٩ م) ، وفاة عالم ، كان يتفقه على مذهب الطبري . ومما صنفه القاضي عبد الله بن محمد بن الخصيب المعروف بالقاضي الخصيبي ، المتوفى عام ٣٤٧ هـ ــ ٩٥٨ م ، كتاب في الرد على الطبري (ملحق القضاة للكندي ص ٥٧٧) ؛ انظر أيضاً طبقات السبكي ج ٢ ص ١٣٩ وما يليها .

صاحب" يسمى ابن شجرة وتوفي سنة ٣٥٠ هـ ــ ٩٦١ م ، وقد ناهز التسعين ؛ وكان جريري المذهب ، ثم خالف أستاذه وأصبح يختار لنفسه ، ولا يضع لأحد من الأئمة أصلا ؛ ومع هذا تقلد قضاء الكوفة[١]، وهذا دليل على مرونة الظروف وعدم التعصب بسبب الاختلاف في الرأي ؛ وكذلك كان ابن حربويه الشافعي المذهب ، قاضي مصر المتوفى عام ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م بعد أن جاوز المائة ، يختار في أحكامه ، « وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه ؛ فلم ينكر عليه أحد" ، لأن أبا عبيد (كنية ابن حربويه) كان لا يُطْعَنُ عليه في علم ، ولا تلحقه تهمة في رُشْدِه ، ولا يحيف في حكم[٢] » .

وبالإجمال استقرت المذاهب الفقهية الكبرى في ذلك العصر وتوطّدت أركانها على النحو الذي نجده اليوم ، إذا استثنينا البلاد التي آل أمرها إلى الشيعة ؛ ولم يبرز مذهب الإمام أحمد خارج العراق إلا في القرن الرابع الهجري[٣] .

وفي هذا القرن فتح مذهب الشافعي ــ وهو أهم المذاهب اليوم ــ البلاد التي يحتلها اليوم ، وكان أكبر مراكزه مكة والمدينة[٤] . ويقول السبكي : « وأما بلاد الحجاز فلم تَبْرَحْ أيضاً منذ ظهور مذهب الشافعي ، وإلى يومنا هذا ، في أيدي الشافعية القضاءُ والخطابةُ والإمامة بمكة والمدينة ، والناس من خمسمائة وثلاث وستين سنة يخطبون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصلون على

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ١٨ .

(٢) ملحق الكندي ص ٥٢٨ ؛ وطبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠١ ــ ٣٠٢ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٢٨ .

(٤) رسائل الخوارزمي ص ٦٣ ، ولم يقل المقدسي شيئاً في هذه المسألة .

مذهب ابن عمه محمد بن إدريس ، يَقنُتون في الفجر ، ويجهرون بالتسمية ، ويفردون الإقامة إلى غير ذلك ، وهو صلى الله عليه وسلم حاضر" يبصر ويسمع ، وفي ذلك أوضح دليل على أن هذا المذهب صواب عند الله تعالى[1] . » ؛ ولم يكن للشافعي أتباع كثيرون في العراق ، وكان الغالب على فقهاء هذا الإقليم وقضاته أصحاب أبي حنيفة[2] ، وإن كان قد وَلِيَ قضاء القضاة ببغداد أحد الشافعية سنة ٣٣٨ هـ — ٩٤٩ م[3] ؛ وقد أفلح الشافعية في التغلب على الحنفية بالمشرق[4] ، وكان أكبر حصن لهم في الشام ومصر . وكان أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي (المتوفى عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م) أول من ولي قضاء مصر من الشافعية ، وهو أول من أدخل في دمشق مذهب الشافعي وحكم به ، ولم يَلِ بعده قضاءَ مصر ولا قضاء الشام إلا شافعيُّ المذهب ، بعد أن كان الغالب على أهل دمشق مذهب الأوزاعي[5] .

وكان ينافسهم في مصر المالكية الذين استولوا على مصر منذ منتصف القرن الثاني الهجري . وفي سنة ٣٢٦هـ — ٩٣٨م كان للمالكيين في المسجد الجامع خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ، ولأصحاب أبي

---

(١) طبقات السبكي ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) المقدسي ص ١٢٧ .

(٣) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٤) يقول السيوطي في طبقات المفسرين (ص ٣٦ من الطبعة الاوربية) إن الامام ابا بكر الشاشي الفقيه الشافعي ، المعروف بالقفال ، المتوفى عام ٣٦٥ هـ — ٩٧٨ م هو الذي نشر فقه الشافعي فيما وراء النهر ، ويقول المقدسي (ص ٤٦٨ — ٤٦٩) إن الغلبة بكرمان لأصحاب الشافعي .

(٥) ملحق القضاة للكندي ص ٥١٨ ؛ وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٨٦ ؛ ولكن قاضي دمشق ، المتوفى عام ٣٤٧ هـ كان أوزاعي المذهب (أبو المحاسن ، طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٤٧ ، وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٤).

حنيفة ثلاث حلقات فقط[١] . وفي عهد المقدسي تولى إمامة مسجد ابن طولون أحد الشافعية لأول مرة ، ولم يقدّم في محراب هذا المسجد إمام" قط قبله إلا وهو يتفقه لمالك[٢] ، وكان معظم الفقهاء بمصر من أصحاب مالك . ويقول السيوطي إن أبا بكر النعالي المتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م كان إمام المالكية بمصر ، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها[٣] . ولهذا اشتدت الدولة الفاطمية في محاربة المالكية ؛ ففي سنة ٣٨١ هـ — ٩٨٩ م مثلا ضُرب رجل بمصر وطيف به في المدينة ، لأنه وُجد عنده كتابُ الموطّأ لمالك بن أنس[٤] ؛ ولما زالت دولة الفاطميين وحلت محلها دولة الأيوبيين ، وهم من الأكراد الشافعية ، أكملوا انتصار هذا المذهب بإيثارهم للفقهاء الشافعية ؛ ولكن الصعيد بقي في الجملة مالكي المذهب إلى أيامنا ، ولم ينتشر مذهب الشافعي غربا أكثر من ذلك ؛ وقد اقتسم المالكية والحنفية بلاد المغرب ؛ وكان مذهب الحنفية بفضل مرونته أكثر ملاءمة للحكومة الفاطمية من مذهب مالك ، ولكن لما خرجت بلاد المغرب من يد الفاطميين سنة ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م لم يقتصر البلاءعلى مذهبهم الشيعي فقط بل شمل مذهب الأحناف السنّيين الذين كانوا يظلونهم برعايتهم ، وانتقل المغرب إلى مذهب مالك ، ولا يزال عليه إلى اليوم[٥] ؛ أما في الأندلس فكانت

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٢٤ .

(٢) المقدسي ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢١٢ .

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٤١ .

(٥) مقدمة جولدزيهر لكتاب محمد بن تومرت ص ٢٣ .

السيادة المطلقة لمذهب مالك[1] .

أما في بغداد نفسها فقد كان الحنابلة ، دون سائر أهل السنة ، أكبر من أقلق بال الحكومة ؛ ثم إنهم اشتدوا في محاربة الشيعة ببغداد ؛ وقد بنوا ببغداد مسجداً « وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة[2] » ؛ ثم عظم أمرهم حتى أرهجوا بغداد ، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد ، وكانوا مثلا في عام ٣٢٣ هـ ــ ٩٣٥ م إذا مر بهم شافعيُّ المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت[3] . ولكنهم ادّخروا أشد غضبهم للشيعة ، ولمن خاصمهم من المتكلمين ؛ وكان الشافعية أشد الفقهاء قدرة على النظر والشغب ، وهاتان الخصلتان من ضمن الخصال التي وصفهم بها المقدسي[4] . والمؤرخ عرضة للخطأ في هذه المسائل لأن معظم معارفنا عن هذه الحركات مستقاة من مصادر شافعية ؛ ولكن الشافعية كان لا يخلو منهم نزاع فقهي ، وكانوا خصوماً لمن عداهم لا يعدلون عن الخصومة ، على حين كان خصومهم يتصالحون ويبحثون عن طريق للوفاق ؛ على أن المذاهب كانت في الجملة على وفاق ومسالمة تامة في القرن الرابع . ونجد العلماء ــ كالمقدسي ــ يوصّون بترك الخلاف ، ولزوم أحد المذاهب ، وترك الغلو في الدين ، وكف اللسان عن تمزيق المسلمين[5] .

ولم يكن الانتقال من مذهب إلى آخر بالأمر العسير : فيحكى أن

---

(١) المقدسي ص ٢٣٦ ، ويقول المقدسي : « أما في الاندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون : لا نعرف إلا كتاب الله ، وموطأ مالك ؛ فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه ، فإن عثروا على معتزلي أو شيعي او نحوهما وربما قتلوه » . (المترجم)

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٣٥ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(٤) المقدسي ص ٤١ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٦٦ .

أحمد بن فارس ، أكبر اللغويين المتوفى عام ٣٦٩ هـ ــ ٩٨٠ م كان شافعيا ، فصار مالكياً وقال : دخلتني الحَميّة لهذا البلد ، يعني الري ، كيف لا يكون فيه رجل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميع الألسنة[١] . وقد اختير لإمامة مسجد ابن طولون بمصر أحد الشافعية بعد أن كان لا يقدّم فيه إلا مالكي ؛ وكان ذلك لسبب بسيط ، وهو أنه لم يوجد أطيب منه[٢] . ولما سُئل المقدسي عن سبب تفقهه لأبي حنيفة ، مع أنه شاميّ وأهلُ ناحيته أصحاب حديث يتفقهون للشافعي ، أجاب بأنه استحسن مذهبه لخلالٍ ذكرها[٣] . ولم تظهر المنافسة بين المذاهب في صورة شديدة إلا في القرن التالي عندما فنيت المذاهب الصغرى ، وبقيت المذاهب الكبرى وحدها في ميدان الخلاف ؛ عند ذلك قويت المنافسة ، وصار أصحاب المذاهب يستعين بعضهم على بعض بالسلطان ، خصوصا في المشرق[٤] .

*

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٧ .

(٢) المقدسي ص ٢٠٣ .

(٣) المقدسي ص ١٢٧ ، يقول المقدسي : إن هذه الخلال ثلاث : اولها اعتماد ابي حنيفة على قول علي رضي الله عنه ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام : انا مدينة العلم وعليّ بابها ؛ وثانيها أن أبا حنيفة كان اقدم الائمة ، واقربهم إلى الصحابة ، واورعهم واعبدهم ، وقد رويت التوصية بالعتيق ؛ والثالثة ان المقدسي رآه اصاب عياناً في مسالة اخطأ فيها الجميع ، وهي انه كان لا يجوّز اخذ الاجرة على القرب . فقال السائل للمقدسي : دققت النظر يا مقدسي واحتطت لنفسك .   (المترجم)

(٤) انظر نصوص ابن الاثير التي ذكرها سنوك هورجروني ، في (مجلة ــ تاريخ الأديان) :Snouck Hurgronje, RHR, 37, S. 178.

الفصل الخامس عشر

القضاة

لم يفكر المسلمون إلا قليلا في المبدأ الذي يقضي بالفصل الأساسي بين السلطتين : القضائية والتنفيذية ، وكان هذا أيضاً هو شأن أوروبا المسيحية حتى أحدث العصور . فقد كان النبي هو القاضي الأعلى للمسلمين ، وكذلك كان خليفته من بعده ، وكان ولاته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه ؛ ثم إن كثرة الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة ، كما يحكى عن المختار ، فإنه كان يجلس للقضاء بنفسه ، وقد نشط في ذلك وأحسن ، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة[1] . ولهذا السبب نفسه لم يحدَّد اختصاص القاضي بالنسبة لاختصاص الوالي تحديداً دقيقاً . وقد احتفظ الوالي لنفسه بما كان « يعجز عنه القاضي »[2] ؛ وإذا لم يقبل الوالي حكم القاضي لم يكن أمام القاضي إلا أن ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس في منزله مضرباً على الأقل[3] . ولكن مثل هذا الإهمال لحكم القاضي لم يكن كثير الوقوع ؛ فلم يذكر الكندي صاحب تاريخ القضاة بمصر من أمثلة

---

(١) Wellhausen, Die religiös-politischen Oppositionsparteien im alten Islam, S. 78.

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) القضاة للكندي ص ٣٢٦ – ٣٢٧ ، ٣٥٦ ، ٤٢٧ .

التصادم بين حكم القاضي وبين الوالي في مسائل مما يمسّ الأحوال الشخصية إلا حادثتين طوال القرون الأولى ؛ وكانت إحدى هاتين الحادثتين مسألة هامة جداً من حيث المبدأ ؛ وذلك أن امرأة تزوجها رجل ليس من أكفائها ، فقام بعض أوليائها وأنكروا الزواج ، وترافعوا إلى القاضي ليفسخ النكاح ، فأبى ؛ فذهبوا إلى الأمير فأمر القاضي بفسخ النكاح ، فامتنع أيضاً ؛ ثم فرق الأمير بينهما[1] . ونجد هنا اصطداماً بين مبدأين : المبدأ العربي القائم على الأرستقراطية والدم ، ومبدأ الإسلام الديمقراطي الذي يحكم على الناس لا باعتبار الدم بل على قاعدة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكان من أثر القضاة على الإدارة الإقطاعية في عهد العباسيين أنْ خرج القاضي من سلطان الوالي ، وصار يُعَيِّنه الخليفة مباشرة أو يُقِرُّ تعيينه على الأقل . وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة ولّى قضاةَ الأمصار من قِبَله[2] . ولما قدم هارون بن عبد الله قاضياً على مصر من قِبَل المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ = ٨١٣ ــ ٨٣٣ م) جلس معه صاحبُ البريد في مجلسه ، فأخرجه منه ، وقال : هذا مجلس أمير المؤمنين ، ليس يجلس فيه أحد إلا بأمره[3] . وظل تعيين القضاة من حق الخليفة حتى في العصور السيئة ، باعتبار أن القضاء آخرُ ما بقي من المناصب الهامة ؛ ولما بويع للمستكفي عام ٣٣٣ هـ ــ ٩٤٤ م ، وجلس على عرش الخلافة ،

---

(١) الكندي ص ٣٦٧ ، والمثال الآخر في ص ٤٢٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، طبعة هوتسما ج ٢ ص ٤٦٨ . وكان عبد الله بن لهيعة الحضرمي ، الذي ولي قضاء مصر في مستهل عام ١٥٥ هـ ــ ٧٧٢ م ، أول قاض ولي مصر من قبل الخليفة (القضاة للكندي ص ٣٦٨) . وكان أول قاض قضى بالمدينة من قبل الخليفة هو عبد الله ابن عمران التيمي من قبل الخليفة المهدي (تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٤) . وأما فيما يتعلق بقضاة الاسلام الأولين الذين يحكى أن الخليفة هو الذي كان يعينهم ، فالظاهر ان حكاياتهم موضوعة ، كما هو الحال في الخطابات التي ينسب لعمر انه كان يوجهها إلى القضاة والولاة .

(٣) الكندي ص ٤٤٤ .

سأل عن القضاة وكشف عن أمر الشهود بالحضرة ، فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم ، فامتثل القضاة ما أمر به وقال العامة ساخرين : « إلى هنا بلغ سلطانه وانتهى في الخلافة أمرُهُ ونهيه »[1] ؛ وفي سنة ٣٢٤ هـ ـــ ٩٣٥ م سلّم الأخشيد قضاء مصر إلى أبي بكر بن الحداد ، فألف البعض فيه الأشعار متهكمين ، لأنه تولى القضاء من قِبَل الأخشيد لا من قِبَل الخليفة[2] • وفي سنة ٣٩٤ هـ ـــ ١٠٠٤ م قلد السلطانُ بهاء الدولة النقيبُ أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي نقابة العلويين بالعراق وقضاء القضاة والحجَّ والمظالمَ ، فلم ينظر في قضاء القضاة لامتناع الخليفة القادر بالله من الإذن له بذلك ، هذا مع عظم سلطان بهاء الدولة[3] • ولا يزال من الحقوق القليلة الباقية التي يمتاز بها الخليفة اليوم تعيينه قاضي القضاة بمصر[4] •

وقد عظم شأن القضاة وقوي مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بني العباس ؛ فقد كانت العادة أن الولاة يَحْضِرُون القضاة إلى مجالسهم ؛ فلما قَدِم محمد بن مسروق الكندي قاضياً على مصر من قِبَل الرشيد عام ١٧٧ هـ ـــ ٧٩٣ م أرسل إليه الأمير عبدُ الله بن المسيّب يأمره بحضور مجلسه ، فقال : لو كنتُ تقدمتُ إليك في هذا لفعلت بك وفعلت يا كذا وكذا ، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ[5] • بل نجد أن الآية قد انعكست في القرن الثالث الهجري ، فكان الولاة

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٣٧٨ •

(٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ١١٤ وما بعدها •

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٤٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩ •

(٤) Gottheil, The Cadi, SA der REES, 1908, S. 7, Anm. 3 (وقد بطل ذلك من عهد قريب) •

(٥) الكندي ص ٣٨٨ ، وقد ذكرت المحاولتان الوحيدتان اللتان اريد فيها الجمع بين القضاء والامرة لرجل واحد ، وهما تتعلقان بالقاضي الأندلسي أسد ، المتوفى عام ٣١٣ هـ ، وبالقاضي شريك بن عبد الله في عهد المهدي (١٥٨ ـــ ١٥٩ هـ) ؛ كتاب العيون ص ٣٧٢ (والمؤلف يشير إلى الجزء الذي طبعه من هذا الكتاب دي غوي بليدن سنة ١٨٧١ ، المترجم)•

يحضرون مجلس القاضي في كل صباح[1] إلى أيام القاضي ابن حربويه عام ٣٢٩ هـ ـ ٩٤١ م ، فكان آخر من ركب إليه الأمراء ، لأنه كان لا يقوم للأمير إذا أتاه[2] .

وكان هذا القاضي مثلاً أعلى للعدالة ، لا يُطعن في حكمه ولا تلحقه تهمة ، وكان لا يؤمِّر أحداً من ولاة مصر ، بل كان يدعوهم بأسمائهم ؛ ويحكى من تصميمه أن مؤنساً الخادم ، وهو أكبر أمراء المقتدر ، وكان في خدمته سبعون أميراً سوى أصحابه ، وكان يُخطب له على جميع المنابر مع الخليفة ، عرض له بمصر مرض ، فأرسل إلى القاضي يطلب شهوداً يُشهدهم أنه أوصى بوقف على سبيل البر ، فقال القاضي : لا أفعل حتى يَثْبُتَ عندي أن مؤنساً حر ، وقال : إن لم يَرِدْ عليَّ كتابُ المقتدر أنه أعتقه ، وإلا فلا أفعل . ولما وصل الكتاب أبى القاضي إلا أن يشهد عدلان أنه كتاب أمير المؤمنين ، هذا ومؤنس أكبر أمراء الإسلام . وكان ابن حربويه مهيباً وافر الحرمة ، لم يَرَه أحدٌ يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يغسل يده ، وإنما يفعل ذلك في خلوة . ولا رآه أحد يتمخَّط ولا يبصق ولا يحك جسمهُ ، ولا يمسح وجهه ؛ وكان إذا ركب لا يلتفت ولا يتحدث مع أحد ، ولا يصلح رداءه ، وكان عليه من الوقار والحشمة ما يتذاكره أهل بلده ؛ وكان

---

(1) Wüstenfeld. AGGW, 37, Nr. 91. ؛ (وطبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠٢) .
(المترجم)

(2) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٠١ ، وملحق الكندي ص ٥٢٨ ؛ ويحكى مثل هذا عن الوزير الصاحب بن عباد ، ذلك انه قصد القاضي أبا السائب ، فتثاقل في القيام له ، وتحفز تحفزاً ، أراه به ضعف حركته ، فأخذ الصاحب بضبعه ، وأقامه ، وقال : نعين القاضي على قضاه حقوق إخوانه ، فخجل أبو السائب واعتذر للصاحب ، وتحكي القصة بعينها بين القاضي ورجل آخر ؛ ويقال : إن الصاحب انتحلها لنفسه ، لانه كان يحب الفخر وانتحال الفضائل (الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٣٨) .

يختار في أحكامه ، ويرى أن من قلد فهو متعصب أو غبي ؛ وحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه ، فلم ينكر عليه أحد ، ولم يكن يلحق علمَه طعن ، ولا رشدَه تهمة . وكان لا يحيف في حكم[1] . وقد اختصم عنده رجلان ، وكان المدَّعى عليه قد سبق إليه وجعل نفسه المدَّعي صاحبَ الحق ، فضحك خصمه متعجباً ؛ وعند ذلك صاح ابن حربويه صيحة ملأت الدار ، وقال : « ممَّ تضحك ، لا أضحك الله سنك ، تضحك في مجلس ، الله مطلع عليك فيه ، ويحك ! تضحك وقاضيك بين الجنة والنار ؟ » ؛ فأرعب القاضي الرجل ، ومرض ثلاثة أشهر ، وكان إذا عاده صاحبه يقول له : صيحةُ القاضي في قلبي إلى الساعة وأحسبها تقتلني[2] .

وكان القاضي أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الأسفرائيني قاضي بغداد المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م رفيع الجاه في الدنيا ؛ وقد وقع من الخليفة ما أوجب أن كتب إليه الشيخ أبو حامد : اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولاّنيها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك[3] .

ومما يدل على رهبة منصب القضاء واحترامه في ذلك العهد أننا نجد الأمراء والوزراء كثيراً ما يساقون إلى السجن ، ولا يُحكى مثلُ ذلك إلا عن قليل من القضاة ، ولم يَمُتْ في أثناء السجن إلا قاضٍ واحد ، ولا يُعلم أن قاضياً مات في السجن سواه ، وهو القاضي أبو أميَّة المتوفى عام ٣٠٠ هـ ، وكان أمر هذا القاضي غريبا ؛ فإنه كان قليل العلم ، وكان يتجر في البز ببغداد ، فاستتر عنده الوزير ابن الفرات أيام

---

(١) طبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وملحق الكندي ص ٥٢٨ .

(٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ٣٠٤ — ٣٠٦ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٦ ؛ وانظر أيضا Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 287.

محنته ، وقال له : إن وُلّيتُ الوزارة فأي شيء تحب أن أصنع بك ؟ فقال : تقلدني شيئا من أعمال السلطان ، قال : ويحك ! لا يجيء منك عاملٌ ولا أمير ولا قائد ولا كاتب ولا صاحب شرطة ، فأيش أقلدك ؟ قال : لا أدري ، قال : أقلدك القضاء ، قال : قد رضيت . ثم خرج ابن الفرات ، وولي الوزارة وأحسن إلى أبي أميَّة ، وولاه قضاء البصرة وواسط والأهواز ؛ وربما أراد بذلك أن يغيظ الفقهاء ؛ ولكن عفة أبي أمية وتصوُّنَه غطيا على نقصه في العلم ، وكان يتيه على أمير البصرة ، ولا يركب إليه ، حتى ورد على الأمير كتابٌ مع طائر بنكبة ابن الفرات والقبض عليه ، فقبض على أبي أمية وأدخله السجن ؛ فأقام فيه مدة ، ثم مات[1] .

على أن دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية النظرية ترمق منصب القضاء بعين الرضا ؛ ونجد الكلام في قبول القضاء وعدم قبوله يمتد حتى إلى القرن الرابع الهجري ، ويقول السمرقندي المتوفى عام ٣٧٥ هـ ـ ٩٨٥ م : اختلف الناس في قبول القضاء : قال بعضهم : لا ينبغي أن يُقبل القضاء ، وقال بعضهم : إذا وُلي رجل بغير طلب منه فلا بأس بأن يقبل إذا كان يصلح لذلك الأمر[2] . وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رُويت عن النبي عليه السلام من شأنها أن تُرهب القضاة حتى العادل منهم[3] .

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٧ ب .

(٢) بستان العارفين ص ٣٨ .

(٣) من أمثلة ذلك ما ذكره السمرقندي، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه السلام، قال : « يُجاء بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أن لم يكن قضى بين اثنين » ، وعن أبي هريرة : « من جُعل قاضياً فكأنما ذبح بغير سكين » . (المترجم)

ولما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنّة على القضاء أرسل إليه عمرو بكتاب أمير المؤمنين ، فقال كعب والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ، ثم يعود فيها أبداً إذا أنجاه الله منها ، وأبى أن يقبل القضاء[١] .

وفي سنة ٧٠ هـ — ٦٨٩ م تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة ، فلما بلغ أباه ذلك قال : إنا لله وإنا اليه راجعون ، هلك الرجل ، ويروى أنه قال : هلك ابني وأهلك[٢] .

ولا أعلم كيف كان موقف المسيحيين الأولين من مسألة القضاء ؛ أما المسلمون فإنهم تمسكوا بالوصية التي جاءت في خطبة الجبل (إنجيل متى) من عدم التعرض للحكم على الناس .

ويحكي لنا من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قلابة مثلاً دُعي للقضاء ، فهرب من العراق حتى أتى الشام ، فوافق ذلك عزل قاضيها ، فهرب واختفى حتى أتى بلاد اليمامة ؛ وروي عن سفيان الثوري أنه دعي إلى القضاء ، فهرب إلى البصرة حيث مات وهو متوار ؛ وروي عن أبي حنيفة أنه ابتلي بالضرب والحبس فلم يقبل حتى مات[٣] ؛ وقد حكى الطبري أن قوماً من أهل الحديث تحاموا حديث أبي يوسف القاضي من أجل غلبة الرأي عليه مع صحبة السلطان وتقلده القضاء[٤] . وفي عهد الخليفة المهدي ألزم قاضي المدينة ولاية القضاء

---

(١) الكندي ص ٣٠٢ .

(٢) الكندي ص ٣١٥ .

(٣) بستان العارفين للسمرقندي ص ٣٩ ؛ وتجد أمثلة اخرى في كتاب كشف المحجوب ، ترجمة نكلسون ص ٩٣ .

(٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ترجمة رقم ٨٣٤ من طبعة فستنفلد .

بعد أن أشرف عليه والي المدينة بضرب السياط[1] . وكان القاضي شريك قد ولي القضاء حوالي هذا العصر بعد تأبٍّ ، وذهب إلى الصيرفي ليأخذ رزقه ، فضايقه في النقد فقال له الصيرفي : إنك لم تبع به بزّاً ، فقال له شريك : بل والله بعت أكثر من البز ، بعت به ديني[2] . بل يحكى عن بعض العلماء أنه أظهر الجنون هرباً من تولي منصب القضاء[3] .

وكان الصوفية بنوع خاص يقفون من القضاة الذين يسمونهم علماء الدنيا على طرفي نقيض ، ويقولون : « إن العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء ، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين » ؛ ويحكي لنا أبو طالب المكي أن إسماعيل بن إسحاق القاضي كان من علماء أهل الدنيا ، ومن سادة الفضلاء وعقلائهم ؛ وكان مؤاخياً لأبي الحسن بن أبي الورد ، وكان هذا من أهل المعرفة ، فلما ولي إسماعيلُ القضاء هجره ابن أبي الورد ، ثم إنه اضطر إلى أن دخل عليه في شهادة ، فضرب ابن أبي الورد على كتف إسماعيل القاضي ، وقال : يا إسماعيل ! علمٌ أَجلَسَك هذا المجلس لقد كان الجهل خيراً منه ؛ فوضع إسماعيل رداءه على وجهه وبكى حتى بلّه[4] .

وكان الحنفية فيما يتعلق بالقضاء أول من خضع لما اقتضته ظروف الحياة ، وهذا شأنهم بالإجمال فيما عدا ذلك ؛ ويحكى عن الفقيه الشافعي ابن خيران المتوفى عام ٣١٠ هـ ــ ٩٢٢ م أنه كان يعيب صاحبه

---

(١) تاريخ بغداد JRAS, 1912, 54. ، ج ١١ ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧ طبعة مصر ١٩٣١ .

(٢) ابن خلكان ترجمة رقم ٢٩٠ .

(٣) تجد أمثلة أخرى ذكرها أمدروز في مقالة عن منصب القضاء في الأحكام السلطانية ، وذلك في مجلة : JRAS, 1910, S. 775. .

(٤) قوت القلوب ج ١ ص ١٥٧ طبعة مصر ١٣١٠ هـ .

ابن سريج على تولي القضاء ، ويقول له : هذا الأمر لم يكن في أصحابنا، إنما كان في أصحاب أبي حنيفة • وكان ابن خيران قد امتنع من تولي قضاء بغداد ، فوكّل الوزير به في داره ، وختم الباب بضعة عشر يوماً[1] • ولكن أبا بكر الرازي المتوفى عام ٣٧٠ هـ ــ ٩٨٠ م ، وكان إمام أهل الرأي في عصره ، خوطب في أن يلي قضاء القضاة فامتنع وأعيد عليه الخطاب فلم يفعل[2] • وكانت العادة حتى أواخر القرن الرابع تقضي ألاّ يقبل أحد منصب القضاء إلا بعد إحجام وتردد •

ولما صُرف أبو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة ، وحل محله أبو الحسن ابن أبي الشوارب وذلك في عام ٣٩٩ هـ ــ ١٠٠٩ م قال العصفري الشاعر[3] :

عندي حديثٌ ظريفٌ ... بمثلــــه يُتَغَنَّــى
مِنْ قاضيين يُعزَّى ... هــذا ، وذاكَ يُهنَّــى
فــذا يقول : اكرهونا ... وذا يقــول : استرحنا

---

(١) AGGW, 37, Nr. 81. ، وهكذا وقع لابن سريج ، المتوفى عام ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م ؛ فقد اراد الوزير على بن عيسى ان يوليه القضاء ، فامتنع ، فسمر عليه بابه ؛ فلما عوتب في ذلك ، قال : إنه اراد أن يتسامع الناس ان رجلا من أصحاب الشافعي يعامل بمثل هذا لتقلد القضاء ، فيصر على الامتناع ، ويزهد في الدنيا . وكان ابن سريج قاضياً على شيراز من قبل (انظر طبقات السبكي ج ٢ ص ٩٢) ، ويقول السبكي (ج ٢ ص ٢١٣) إن الوزير كان يقصد من ختم دار ابن خيران أن يقال : إنه كان في زمانه من يوكل به ليقلد القضاء فلا يفعل ؛ ويحكي السبكي (ج ٢ ص ٢١٤) عن ابن زولاق المؤرخ المصري ، المتوفى عام ٣٨٧ هـ ــ ٩٩٨ م أن الناس كانوا يأتون بأولادهم الصغار ليشاهدوا باب ابن خيران ، وهو مسمور ويقولون لهم : انظروا حتى تحدثوا بهذا .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ١١٧ ب .

(٣) نفس المصدر ص ١٥٤ ا ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ١٤٩ ؛ وابو المحاسن ، طبعة كليفورنيا ص ١٠٣ .

ويكذبـان جميعـاً فمـن يصـدّق منـا

وقد اختلف هل يأخذ القاضي عن القضاء رزقاً ؟ ويقال إن عمر ابن الخطاب منع من ذلك[1] . أما الخصّاف الفقيه الحنفي المتوفى عام ٢٦١ هـ ـ ٨٧٤ م فقد حاول أن يثبت جواز أخذ القاضي لرزق من بيت المال مستنداً في ذلك إلى أحاديث نبوية وإلى أمثلة جرت في الصدر الأول[2] .

ولما ولي القضاء بمصر ابن حجيرة سنة ٧٠ هـ ـ ٦٨٩ م كان رزقه في السنة من القضاء مائتي دينار ، وكان لابن حجيرة إلى جانب ولاية القضاء القَصَص وإدارة بيت المال ؛ وكان رزقه من القصص ومن إدارة بيت المال أربعمائة دينار ، وكان عطاؤه مائتي دينار ، وكانت جائزته مائتي دينار ، فكان مجموع رزقه في السنة ألف دينار[3] ، وفي سنة ١٣١ هـ ـ ٧٤٨ م كان رزق قاضي مصر عبد الرحمن بن سالم عشرين ديناراً في الشهر[4] ، ولكن هذا المبلغ كان فيما يظهر لا يكاد يكفي للإنفاق على كُتّاب القاضي وعلى غير ذلك مما يتطلبه ديوانه ؛ ومع أن القاضي ابن حجيرة كان يأخذ ألف دينار في كل سنة ، فكان لا يحول عليه الحول وعنده منها شيء يَتفضّل على أهله وإخوانه[5] .

وقد دخل رجل على قاضي الفسطاط في سنة ٩٠ هـ ـ ٧٠٩ م وقد

---

(١) Gotthell, The Cadi, S. 8.

(٢) كتاب ادب القاضي مخطوط ليدن رقم ٥٥٠ ص ٢٥ ا .

(٣) الكندي ص ٣١٧ .

(٤) الكندي ص ٣٥٤ .

(٥) نفس المصدر ص ٣١٧ .

تغدّى ، فقال : أتتغدّى ؟ قال : نعم ، فأتت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء ، فقال ابلـُلْ ، وكل ، فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز[1] . وكان القاضي خير بن نعيم الحضرمي الذي تولى القضاء والقصص بمصر عام ١٢٠ هـ ـــ ٧٣٨ م يتّجر ــ إلى جانب منصبه ــ بالزيت ، فقال له رجل حديث السنّ من حضرموت كان يلازمه : وأنت أيضاً تتّجر ! يحكي لنا هذا الحضرمي الصغير فيقول : « فضرب (خير بن نعيم) بيده على كتفي ، ثم قال انتظر حتى تجوع ببطن غيرك ، قلت في نفسي كيف يجوع إنسان ببطن غيره ؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم[2] » .

وكان القاضي أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد الرعيني الذي ولي قضاء مصر عام ١٤٤ هـ ـــ ٧٦١ م ، متحرّزاً جداً فيما يتعلق برزقه ، « فكان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازةً أو اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل ، وقال : إنما أنا عاملٌ للمسلمين ، فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحلُّ لي أخذ مالهم » ؛ « وكان يعمل الأرسان ، كل يوم رسنين ، واحدا ينفقه على نفسه وأهله ، وآخر يبعث به إلى إخوان له من أهل الإسكندرية ، لكل واحد منهم رسن ، وكان ذلك في سبيل الله[3] » .

وكما أن العباسيين جعلوا للقاضي منصباً رفيعاً مستقلا فإنهم رفعوا رزقه أيضاً ، فكان رزق عبد الله بن لهيعة الذي ولي القضاء على مصر من قبل المنصور عام ١٥٥ هـ ثلاثين ديناراً في كل شهر[4] ؛ وكان رزق

(١) نفس المصدر ص ٣٣١ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٥٢ .
(٣) الكندي ص ٣٦٣ – ٣٦٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٣٦٩ .

المُفضَّل بن فضالة قاضي مصر من قبل المهدي ثلاثين ديناراً في كل شهر أيضاً ، وكان يأخذ عسلا بدل عشرة منها[1] . أما في عصر المأمون بما كان فيه من كرم فقد أجرى والي مصر على القاضي الفضل بن غانم الذي ولي القضاء عام ١٩٨ هـ مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر ؛ وكان الفضل أول قاض أُجري عليه هذا الرزق الكبير[2] .

ولما تولى مصر عبد الله بن طاهر ، كان مشهوراً بالكرم ، قلّد عيسى بن المنكدر القضاء عام ٢١٢ هـ ؛ ولما عرف أنه مُقِلّ أجرى عليه سبعة دنانير كل يوم ، « فجرت في القضاء إلى اليوم[3] » . ويحدثنا المسعودي عن إبراهيم بن جابر القاضي أنه كان ببغداد « يعالج الفقر ويتلقاه من خالقه بالرضا ناصراً للفقر على الغنى ، فما مضت أيام حتى لقيته بحلب من جند قنّسرين والعواصم من أرض الشام ، وذلك في سنة ٣٠٩ هـ ــ ٩٢١ م ، وإذا هو بالضد مما عهدته متولّيا للقضاء على ما وصفنا ، ناصراً ومشرّفاً للغنى على الفقر ... وقد أُخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوبا تستريّا وقصبا وأشباه ذلك من الثياب على مقراض واحد ، وخلّف مالا عظيما لغيره[4] .

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يُضعّف للحسين بن علي بن النعمان رزقه وصلاته

---

(١) نفس المصدر ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٢١ ، وفي ص ٤٣٥ أن رزقه كان مائة وثلاثة وستين ديناراً ، وفي ص ٥٠٧ أن المتوكل أجرى على خلفه مثل رزقه .

(٣) نفس المصدر ص ٤٣٥ ؛ وفي نصوص أخرى : أن رزقه غير ذلك ، ويحكي السبكي (ج٢ ص ٣٠٢) نقلا عن ابن زولاق المتوفى عام ٣٨٧ هـ ــ ٩٩٨ م أن رزق القاضي ابن حربويه الذي عزل عن القضاء سنة ٣١١ هـ ــ ٩٢٣ م كان مائة وعشرين ديناراً في الشهر .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٨٨ ــ ١٩٠ .

وإقطاعاته، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه[1].

ويحدثنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري أن رزق قاضي القضاة بمصر ألفا دينار في الشهر[2] . ويذكر في ملحق أخبار القضاة للكندي أن دخل القاضي عبد الحاكم بن سعيد الفارقي في السنة كان يزيد على عشرين ألف دينار[3] .

وكان القاضي في المشرق يعطى رزقه من بيت المال[4] ، ولكن عندنا من النصوص ما يدل على أنه كان لا يأخذ شيئاً من رزقه ، إما لأنه كان لا يكفيه أورغبة عن رزق القضاء على سبيل اتقاء الشبهة والرغبة في التحرز ؛ ويظهر أن الأمر الأخير هو الحق ، فإن الحسن بن عبد الله (المتوفى عام ٣٦٩ هـ - ٩٧٨ م) لبث على قضاء مدينة سيراف خمسين عاما ، ومع أن هذه المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة ، فقد كان الحسن يعيش مما يبيعه من منسوخاته المشهورة بجودة خطها[5] .

وقد امتنع قاضي المدينة في عهد المهدي أن يأخذ رزقا ، لأنه لم يرد أن يصيب مالا من هذا المنصب الذي يكرهه[6] .

---

(١) الكندي ص ٥٩٧ .

(٢) ناصر خسرو ص ١٦١ .

(٣) الكندي ص ٦١٣ ؛ أما ما ذكر في ص ٤٩٩ من ان دخله كان خمسين الف دينار في السنة ، فيجب ان يؤخذ على انه ما يحصل عليه بغير حق . ونجد في بيان المقريزي (الخطط ج ١ ص ٤٠١) لنفقات الفاطميين ان رزق قاضي القضاة كان مائة دينار في الشهر .

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١١٥ .

(٥) Huart, Calligr. S. 77.

(٦) تاريخ بغداد JR. A. S., 1912, S. 54 و ج ١١ ص ٢٧٧ من طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ .

ولما ولي قضاء القضاة ببغداد محمد بن صالح بن أم شيبان الهاشمي في سنة ٣٦٣ هـ ـ ٩٧٢ م وكان يتفقه لمالك اشترط عند تولي منصبه شروطا منها ألا يتناول على القضاء أجراً ، ولا يقبل شفاعة في فعل ما لا يجوز ولا في إثبات حق ، ولا يغير ملبوسه[١] .

وكان عليّ بن المحسن التنوخي المتوفى عام ٤٤٧ هـ ـ ١٠٥٥ م قد تقلد قضاء عدة نواح ، وكان دخله كل شهر من القضاء ودار الضرب التي كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً في الشهر[٢] .

وفي سنة ٣٣٤ هـ ـ ٩٤٥ م كبس اللصوص دار أحد القضاة ببغداد ، وأخذوا جميع ما كان في منزله ولم يكن شيئاً مذكوراً ، لأنه كان مشهوراً بالفقر ؛ وكانوا يقدّرون أن للقاضي مالاً ، فضربوه ليستخرجوه منه ، فهرب إلى السطوح ورمى بنفسه إلى ما جاوره فسقط فمات[٣] .

وفي سنة ٣٥٢ هـ ـ ٩٦٣ م تقلّد أبو بشر عمر بن أكثم القضاء ببغداد ، على ألا يأخذ رزقا[٤] .

وكان للقاضي أبي الطيب الطبري عمامة وقميص بينه وبين أخيه ، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت ، وإذا خرج هذا احتاج ذلك أن يقعد[٥] .

---

(١) ملحق القضاة للكندي ص ٥٧٣ ، وابن الجوزي في المنتظم ص ١٠٥ ب ، ولذلك حكاية اخرى عند السبكي في طبقاته ج ٣ ص ٨٤ .
(٢) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٠٢ .
(٣) المنتظم ص ١٧٥ .
(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٥٧ .
(٥) ابن خلكان ترجمة رقم ٣٠٦ من طبعة فستنفلد .

وكان أبو بكر محمد بن المظفر الشامي قاضي قضاة بغداد المتوفى عام ٤٨٨ هـ ـــ ١٠٩٥ م زاهداً ورعا ؛ وقد شرط عند تولي القضاء ألا يأخذ رزقا ؛ وكان له كراء بيت قدره في الشهر دينار ونصف ، وكان من ذلك قوته ، وكان له عمامة من الكتان وقميص من القطن الخشن ؛ وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز ، فإذا أراد الأكل جعل من الفتيت في قصعته ، ووضع عليه قليلا من الماء وأكل منه[١] .

وكذلك كان أحمد بن يحيى القاضي الأندلسي يختلف إلى غلة كان يعمرها بالعمل ليعيش منها[٢] . ويحدثنا بيترمان (Petermann) وهو في دمشق عام ١٨٥٢ م : « في كل سنة يُرْسَلُ قاضٍ جديد" من القسطنطينية يختاره شيخ الإسلام ويرسله ؛ وهو يأخذ نصيباً ثابتاً من تركة كل من يموت (قيل لي إنه الربع ، وهو كثير بالطبع) ، ويأخذ نصف العشر عن كل قضية يحكم فيها ، وهذا هو المقدار الذي يدفعه كل فرد من رعايا الباب العالي عن القضية التي يتقدم بها (ولو خسرها). أما الرعايا الأوربيون فإنهم يدفعون خمس العشر[٣] » .

وفي مراكش اليوم يأخذ القضاة ، باعتبارهم عمّالا دينيين ، أرزاقَهم من الحبوس (الأوقاف الخيرية) . ولما كان هذا نادراً فإنهم يُتركون لقبول الهدايا من المتحاكمين إليهم[٤] .

وفي سنة ٣٥٠ هـ ـــ ٩٦١ م تقلد أبو العباس بن أبي الشوارب

---

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) ابن بشكوال ج ١ ص ٦٠ .

(٣) Petermann, Reisen im Orient. S. 98 .

(٤) انظر Revue du monde Musulman, XIII S. 517 .

قضاء بغداد ، بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معزّ الدولة مائتي ألف درهم في كل سنة . وكان هذا القاضي « مع قبح فعله قبيح الصورة مشوّهها[1] » ، وقد اتّهم «بالغلمان والشهوات والخمور[2]» ؛ ولكن الأمور لم تَسِرْ معه على عادتها ، فقد خُلع عليه من دار السلطان وامتنع الخليفة من أن يصل إليه ، ولم يأذن له الخليفة أن يصل إليه في يوم موكب ولا غيره ؛ ثم عُزل من منصبه بعد عامين ، وتولى مكانه أبو بشر عمر بن أكثم وأُعفي مما كان يحمله ابن أبي الشوارب ، وأُمر بألا يمضي شيئاً من أحكام ابن أبي الشوارب وسجلاته ، لأنه اشترى منصبه شراء[3] .

وقد كان القاضي توبة بن نمر الحضرمي المتوفى عام ١٢٠ هـ — ٧٣٨ م أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس ؛ وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وأيدي أوصيائهم ، فأراد توبة أن يضع يده عليها حفظا لها ، « فلم يمت حتى صارت الأحباس ديواناً عظيما »[4] ؛ وكان القاضي إلى جانب هذا يتولى أموال اليتامى ؛ ومنذ عام ١٣٣ هـ — ٧٥١ م أوردها القاضي خير بن نعيم بيت المال وسجّل في كل مال منها سجلا بما يدخل منها وما يخرج[5] . وفي سنة ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م توفي القاضي

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٢) تذكرة ابن حمدون عند أمدروز (في Amedroz, JRAS 1910, S. 789) ؛ وكان الولع بالغلمان من رذائل القضاة المعروفة (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٨) ؛ ومن القضاة : من كان مشهوراً باللواط ، ومنهم من كان مشهوراً بالأبنة (محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٥ ، والمستطرف ج ٢ ص ١٩٩) ؛ وكان يحيى بن أكثم قاضي قضاة المأمون لواطاً مشهوراً ؛ وقد هجا البحتري (الديوان ج ٢ ص ١٧٥ من طبعة القسطنطينية) ابن ابي الشوارب قاضي القضاة بمثل هذه الرذيلة . وقد ذهب ابن خلدون في مقدمته إلى نفي ما اتهم به القاضي يحيى بن أكثم من الميل إلى الغلمان فليرجع القارىء إلى ذلك إذا أراد .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٠ ، ٤٠٧ .

(٤) الكندي ص ٣٤٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٥٥ .

محمد بن النعمان ، فوجد عليه من أموال اليتامى ستة وثلاثون ألف دينار ، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تُصادر أمواله ، وأُرسل فهد النصراني ، كاتب الوزير ، فاحتاط عليها ، وشرع في البيع وفي تغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم (وهم خيار أهل البلد) إلى أن تحصل نصف الديْن ؛ وأمر الحاكم ألا يودع بعد ذلك عند أحد الشهود مالٌ يتيم ولا غائب ؛ وأفرد موضع يوضع فيه المال ويختم عليه أربعة من الشهود لا يفتح إلا بحضورهم[1] .

ولم يدخل في اختصاص القاضي النظر في المواريث بصورة نهائية إلا في القرن الرابع الهجري[2] ، ثم صار إليه أخيراً الإشراف على سجون البلاد التي يلي قضاءها ، واختص القضاة من ذلك بما سمي « حبوس القضاة » ، وهي الخاصة بمن يحبس لديْن عليه ، وذلك في مقابل حبوس المعونة التي يُحبس فيها أصحاب الجنايات . وفي سنة ٤٠٢هـ — ١٠١١م أمر فخر الدولة ليلة الفطر بتأمل من في حبوس القضاة ، فمن كان محبوساً على دينار إلى عشرة أُطلق ، وما كان أكثر من ذلك كُفل ، وأُخرج ليعود بعد التعييد ، وأوعز بتمييز من في حبس المعونة ، فمن صَغُرت جنايته أُطلق ووقعت توبته[3] .

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدموا للقاضي برقاع في الرقعة منها اسم المدّعي واسم خصمه وأبيه ؛ وكان الكاتب يأخذ هذه الرقعة عند باب المسجد قبل مجيء القاضي ، ولا يزال يأخذها حتى يحضر القاضي ؛

---

(١) ملحق الكندي ص ٣٩٥ .
(٢) انظر الفصل الخاص بالأمور المالية (الفصل الثامن) .
(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٥٧ ب .

وإذا كانت الرقاع كثيرة لا يقدر القاضي أن يدعو بها كلها في يوم ، فرّقها في كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك على قدر طاقته في الجلوس والصبر[1] .

وكانت جلسات القاضي للحكم علنية ؛ وقد خاصم رجلٌ المأمونَ مرة ، وأذن المأمون للقاضي يحيى بن أكثم في القضاء بينهما في دار الخلافة ؛ فقال القاضي : فإني أبدأ بالعامة أولا ليصح المجلس للقضاء ، ثم أمر بفتح الباب وقعد في ناحية من دار الخلافة ، وأذن للعامة في الدخول ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس ؛ ثم قضى بين الخليفة وخصمه[2] . ومن أجل أن جلسات القضاء كانت علنية ، فقد كان القاضي في أول الأمر يجلس في مكان لا يُمنع أحد من المسلمين من الدخول إليه ، وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستنداً إلى أسطوانة من أساطين المسجد[3] ؛ وكذلك كان القاضي يجلس أحياناً للقضاء في داره ، ويحكى عن خير بن نعيم الذي تولى قضاء مصر عام ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م أنه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره ، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجري بين الخصوم من الكلام[4] .

وقد ولي قضاء مصر إبراهيم بن الجراح سنة ٢٠٥ هـ ـ ٩١٩ م ، وقد سخط المصريون عليـه ، وكان مُصَلاّه موضوعاً في المسجد الجامع . فجاء المصريون وألقوه في الطريق ، فجلس للحكم في منزله ، ولم يعد للمسجد الجامع حتى صُرف . ولم يكن هذا القاضي بالمذموم في أول الأمر ، حتى قدم عليه ابنه من العراق ؛ فأفسد أموره وخدعه

---

(١) كتاب ادب القاضي مخطوط بمكتبة ليدن رقم ٥٥٠ ص ١٩ .
(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي طبعة شقالي ص ٤٣٢ .
(٣) الاغاني ج ١٠ ص ١٢٣ .
(٤) الكندي ص ٣٥١ .

وأخذ الرشا من الناس ، فسخط المصريون على القاضي[1] .

ولما ولي القاضي هرون بن عبد الله قضاء مصر سنة ٢١٧ هـ - ٨٣٢ م جعل مجلسه في الشتاء في مقدَّم المسجد ، واستدبر القبلة ، وأسند ظهره بجدار المسجد ، « ومنع المصلين أن يقربوا منه ، وباعد كتّابه عنه ، وباعد الخصوم ، وكان أول من فعل ذلك » . واتخذ مجلساً للصيف في صحن المسجد وأسند ظهره للحائط الغربي[2] .

وقد رأى أهلُ السنة بعد انتصارهم حوالي منتصف القرن الثالث الهجري أن جلوس القاضي في المسجد ينافي ما يجب لبيوت الله من الحرمة ، فأمر المعتضد سنة ٢٧٩ هـ ألا يقعد القضاة في المسجد[3] . ولكن هذا الأمر لم يثمر إلا قليلا ، فقد كان قاضي القضاة ببغداد حوالي عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م يجلس للقضاء في داره[4] ؛ أما في مصر فكان القاضي يجلس للقضاء في داره أحياناً ، وفي الجامع أحياناً أخرى[5] .

ولما تولى أبو عمر محمد بن الحسين البسطامي (المتوفى عام ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م) قضاء نيسابور أُجلس في مجلس القضاء في المسجد في الساعة التي قُرِىء فيها عهده[6] .

---

(١) الكندي ص ٤٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٣) أبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٨٧ . (غير أن كلمة قاض في هذا النص محرفة عن كلمة قاصّ ، بدليل أن القصاص هم الذين منعوا من القعود في المساجد ؛ وفي النص أيضاً أنه منع معهم أصحاب النجوم ؛ ويؤيد هذا تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ من الطبعة الأوربية (عام ٢٧٩ ، ٢٨٤ هـ)) . (المترجم)

(٤) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٩٤ .

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ١١٤ .

(٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٩ .

يقول المعري شاكياً حال العدول وسوء فعلهم[1] :

في البدو خُرّابُ أذواد مسوّمةٍ وفي الجوامع والأسواق خُرّاب
فهؤلاء تسمّوا بالعدول أو التّجـــار واسم أولاك القوم أعراب

ويقول في العدول في موضع آخر[2] :

عدول لهم ظلم الضعيف سجيةٌ يسمّون أعراب القرى والجوامع

أما في عصر الفاطميين فكان قاضي القضاة بالقاهرة يجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند حرير . وكان الشهود يجلسون حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم ؛ وبين يديه خمسة من الحجاب ، اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم إليه ؛ وأمامه كرسي الدواة ، وهي دواة محلاة بالفضة تحمل إليه من خزائن القصور[3] .

وكان المتحاكمون إلى القاضي في العصر الأول يبسطون قضيتهم وهم وقوف بين يديه ، وقد أتى الأمير الأموي عبد الملك بن مروان النصيري إلى القاضي خير بن نعيم يخاصم ابن عم له ، فقعدَ على مفرش القاضي ، فقال له القاضي :قم مع ابن عمك ، فغضب الأمير ، وقام ولم يخاصم[4] .

ثم صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدي القاضي صفّاً متساوين .

وقد وقع بين أم المهدي وبين أبي جعفر المنصور خصومة ؛ فقالت

---

(1) Kremer, ZDMG, 30 S. 49 .
(2) Kremer, ZDMG, 31 S. 478 .
(3) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٠٢ .
(4) الكندي ص ٣٥٦ .

لا أرضى إلا بحكم غوث بن سليمان ، وكان هذا قاضيا على مصر من قِبَل المهدي ؛ فحُمل إلى العراق للحكم بينهما ، فوكّلت أم المهدي عنها وكيلا ، جلس أمام القاضي ، فطلب القاضي من أمير المؤمنين أن يساوي خصمه في مجلسه فانحطّ عن فرشه ، وجلس مع الخصم ؛ وبعد النظر في القضية حكم القاضي لأم المهدي على أمير المؤمنين[1] .

وقد جاء في مصدر أن المأمون شكاه رجل إلى القاضي يحيى بن أكثم ، فنودي الخليفة ليجلس مع خصمه ، فأقبل ، ومعه غلام يحمل مُصَلّى ، فأمره القاضي بالجلوس ، فطرح المصلى ليقعد عليه ، فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ! لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح للخصم مصلى آخر فجلس عليه[2] .

وقد خوصم مولى السيدة زبيدة ، زوجة الرشيد ، ووكيلها إلى القاضي محمد بن مسروق ؛ فأمر بإحضاره ، فجلس متربعاً ، فأمر به ابن مسروق فبطح وضُرب عشراً[3] ؛ هذا مع أنه وكيل السيدة ذات النفوذ العظيم .

وقد تعرض أهل النظر للبحث في جميع الأمور الصغيرة التي قد تؤثر على عدالة القاضي ؛ هل يجوز للمتخاصمين أن يسلّموا على القاضي ؟ إذا سلم عليه أحد الخصمين فقال : « السلام عليكم » ينبغي للقاضي أن يقول : « وعليكم » ، ولا يزيد على ذلك شيئا ، لأن هذا يكفي ؛ أما إن قال : « وعليكم السلام » فإن كلمة السلام زيادة في الجواب . ولهذا ذهب قوم إلى أنه لا ينبغي للخصوم أن يسلّموا على القاضي[4] .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٧٤ — ٣٧٦ .

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٥٣٣ .

(٣) الكندي ص ٣٩٢ .

(٤) أدب القاضي مخطوط ليدن رقم ٥٥٠ ص ٢٢ ا .

وكذلك شدد أهل العدالة على القاضي في ألا يؤثر على المتخاصمين أقل تأثير ،فلا يصيح على أحدهم ليستخرج منه الإجابة التي يريدها[1]. وقد كانت هذه المعاملة اللينة من القضاة لمن يختصم إليهم وعجز القضاة أحياناً عن إلزام أحد الخصمين بإعطاء المال لصاحبه ، سبباً في أن اختـُرِعَت عند أهل الفكاهة بمصر قصة القاضي النطّاح الذي ثبَّت في قلنسوته قـَرْنـَيْ ثور لينطح بهما المعاند من المتخاصمين . وقد سمع الخليفة الحاكم بذلك ، فلام القاضي على ما فعل ، فطلب القاضي من الخليفة أن يجلس وراء الستار في مجلس القضاء ليرى بنفسه مقدار بلادة الناس ؛ فحضر الخليفة ، ومثل بين يدي القاضي خصمان يطالب أحدهما الآخر بمائة دينار ؛ فاعترف المدّعى عليه بالدّين ، ولكنه طلب أن يدفعه مقسّطا ؛ فاقترح القاضي في أول الأمر أن يدفع عشرة دنانير في كل شهر ، ولكنه اعترض فخفض القاضي ذلك إلى خمسة دنانير ، ثم إلى دينارين ، ثم إلى دينار ، ثم نصف دينار ، فأظهر العجز ؛ وأخيراً سأله القاضي أن يبين ما يستطيع أن يدفعه ، فقال إنه يدفع ربع دينار في كل عام ؛ ولكنه شرط أن يبقى خصمه في السجن ، لأنه إن أُطلق وعجز هو عن أداء ما عليه فربما قتله . عند ذلك سأل الحاكمُ القاضي : كم نطحته ؟ فقال : واحدة ، فقال الحاكم : انطحه مرتين ، أو انطحه مرة وأنا أنطحه الأخرى[2] .

وكان القاضي يلبس السواد على هيئة عمّال بني العباس ؛ وكان المفضل بن فضالة قاضي مصر من قِبَل المهدي عام ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م

---

(١) فلا يضحك في وجه أحدهما أو يسارّه ، أو يومىء إليه بشيء دون خصمه لئلا ينكسر قلب أحدهما ويقعد عن الحجة تاركا الحق لصاحبه ؛ ويجب عليه أن يدني الضعيف حتى يشتد قلبه ، ويتعهد الغريب حتى يقوى في المطالبة بحقه ، هذا ولا يجوز له أن يمازح الخصوم ، ولا أن يفعل ما ينافي هيبة القاضي . (المترجم)

(٢) de Sacy, Religion des Druses, CCCCXXVIII.

يعتمّ بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة[1]. ولما ولي الحارث بن مسكين قضاء مصر عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م طُلب إليه أن يلبس السواد ، فامتنع فخوّفه أصحابُه سطوةَ السلطان به ، وقالوا له : يقال إنك من موالي بني أمية ، فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف[2] . وفي غضون القرن الثالث الهجري كانت القلنسوة ، وتسمى أيضاً الدّنّيَّة في لغة المستهزئين ، هي لباس القضاة الذي يميزهم ؛ وكانت تُلبس مع الطيلسان[3] .

ولما صُرف القاضي أحمد التنوخي عن القضاء ، ثم أعيد إليه قال : أحب أن يكون بين الصرف والقبر فرجة ، ولا أنزل من القلنسوة إلى الحفرة[4] .

وقد شبّه أحد الكتّاب رجلا فقد الملاَحة فقال مثل قاض بلا دنّيَّة[5] .

وكان ببغداد في سنة ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م قاض يعرف بأحمد بن سيّار ، وكانت له هيبة وجبَّة مهولة ولحية طويلة ، فقدم إليه امرأتان ادّعت إحداهما على الأخرى ، فقال لهذه : ما تقولين في دعواها ؟ قالت : أفزع، أيّد الله القاضي. قال : مماذا ، قالت : «لحية طولها ذراع ، ووجه طوله ذراع،ودنّيَّة طولهاذراع ، فأخذتني هيبتها » ؛ فوضع

---

(١) الكندي ص ٣٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٦٩ . وكان محمد بن بشير قاضي قرطبة في عهد الخليفة الحكم حسن الهيئة نظيف الملبس ، وكان يخرج إلى المسجد ويقعد للحكم في إزار مورد ولمة مفرقة ، (أخبار مجموعة ص ١٢٧ ، البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي ج ٢ ، ص ٨١ طبعة ليدن) .

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ١٢٣ والارشاد لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ ، ج ٦ ص ٢٠٩ ، ورسائل الهمداني ص ١٦٨ وملحق الكندي ص ٥٨٦ .

(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٩٢ .

(٥) كتاب الديارات للشابشتي ص ٨١ ا .

القاضي دنيّته ، وغطى بكمّه لحيته ، وقال : قد نقصتك ذراعين ، أجيبيني عن دعوتها[1] .

وكان القضاة الفاطميين يحملون سيفاً[2] .

وكان موظفو ديوان قاضي القضاة ببغداد في سنة ٣٣٦ هـ هم :

الكاتب ، وقد رُتّب له في كل شهر ثلثمائة درهم .

الحاجب ، ورزقه مائة وخمسون درهماً في الشهر .

ومن يعرض الأحكام ، وراتبه في الشهر مائة درهم .

وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان ، ولهم ستمائة درهم[3] .

ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر ما يستلفت النظر في النظام القضائي، وهو إيجاد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضي ؛ ويخبرنا الكندي وهو مؤرخ ثقة ، عن نشأة الشهود ، فيقول : كان القضاة إذا شهد عندهم أحد" ، وكان معروفاً بالسلامة ، قَبِلَهُ القاضي ؛ وإن كان غير معروف بها أُوقف ، وإن كان الشاهد مجهولا لا يُعرف سُئل عنه جيرانه ، فما ذكروه من خير أو شر عُمل به ؛ حتى كان غوث بن سليمان في خلافة المنصور ،فكان أول من سأل عن الشهود بمصر في السرّ ،

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية (JRAS, 1911 p. 669, Note. I) ، والظاهر أن قضاة مصر في النصف الأول من القرن الرابع كانوا يلبسون طيلساناً أزرق (كتاب الديارات ص ١٣١ ا) ؛ وكذلك كان أحد القضاة ببغداد حوالي عام ٤٠٠ هـ يلبس طيلساناً أزرق (الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٦١) ، وكذلك كان العدول يلبسون قلانس سوداء طويلة ، ويسخر أحد شعراء القرن الرابع من القلانس ، فيشبه قلنسوة القاضي بأنها غراب نوح بلا جناح (انظر محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٩) .

(٢) ملحق الكندي ص ٥٨٩ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٧٤ ، والمنتظم لابن الجوزي ص ١٠٥ ب .

وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزور في زمن غوث ، وكان من عدّل عنده قَبِله ، ثم يعود الشاهد واحداً من الناس ، ولم يكن أحد يوسم بالشهادة ولا يشار إليه بها[1] .

ثم إن القاضي المفضل بن فضالة عين رجلا يسمى صاحب المسائل ليسأل عن الشهود ويشهد عليهم ؛ وكان المفضل أول من استعمل هذا العامل ، فتحدث الناس أنه كان يرتشي من أقوام ليذكرهم بالعدالة[2] .
ثم جاء القاضي العمري على قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ ـ ٨٠١ م فاتخذ الشهود « وجعل أسماءهم في كتاب ، وهو أول من فعل ذلك ، ودوّنهم وأسقط سائر الناس ؛ ثم فعلت القضاة ذلك من بعده حتى اليوم[3] » .

وقد سخر الشعراء من هذا القاضي لأنه اتخذ من أهل المدينة من موالي قريش والأنصار وغيرهم نحواً من مائة شاهد[4] ، ثم أسقط جمعاً منهم ، وحطّ عليهم نحواً من ثلاثين رجلا ممن ألبّ عليه من الفرس[5] .

ومن الشهود نشأت بطانة القاضي ، وقد أمر القاضي لهيعة بن عيسى الذي تولى القضاء بمصر عام ١٩٩ هـ صاحب مسائله أن يجدّد السؤال عن القود والموسومين بالشهادة في كل ستة أشهر ، ليقف من حدثت له جرحة ؛ واتخذ من بين الشهود قوماً جعلهم بطانته ، وكانوا نحواً من ثلاثين رجلا[6] .

---

(١) الكندي ص ٣٦١ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٨٥ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٩٤ .
(٤) الكندي ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ .
(٥) نفس المصدر ص ٤٠٢ .
(٦) نفس المصدر ص ٤٢٢ .

وقد اهتم أحد القضاة ، وهو عيسى بن المنكدر الذي تولى القضاء عام ٢١٢ هـ ، بأمر الشهود اهتماما كبيراً ، فكان يتنكر بالليل ، ويغطّي رأسه ، ويمشي في السكك ليسأل عن الشهود[١]. ونجد في عهدٍ بولاية القضاء في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر أن التَثَبُّت في شهادة الشهود والمبالغة في المسألة عنهم، والفحص عن وجوه عدالتهم ، والبحث عن حالاتهم ، من أهم واجبات القاضي[٢] .

وكان عضد الدولة لا يجعل للشفاعات طريقاً ، ويحكى أن مُقَدَّم جيشه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ، ويُعَدِّله ، فقال عضد الدولة : « ليس هذا من أشغالك ، وإنما الذي يتعلّق بك الخطاب في زيادة قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم ، وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي وليس لنا ولا لك الكلام فيه»[٣].

ويحكى أن الخليفة الحاكم جرى في هذه المسألة ، مسألة العدول، على ما عرف عنه من فعل الشيء ثم نقضه ؛ ففي سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤م سأله جماعة من المصريين أن يؤهّلهم للعدالة ، فأذن لهم في ذلك ، وتشبّه بهم غيرهم في سؤاله ،حتى بلغ عدد العدول ألفا ومائتين ونيّفا ؛ فأعلمه قاضي القضاة أن كثيراً منهم لا يستحقون العدالة ، ولا يُوثَق بهم في شهادة ؛ فأذن له ، على حسب عادته ، بتصفحهم وإقرار من يرى إقراره منهم[٤] .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٣٧ .

(٢) مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ص ١٢ ب .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥ .

(٤) يحيى بن سعيد مخطوط باريس ص ١٢٤ ا — ب ، وملحق الكندي ص ٦١٢ .

ولما كان هؤلاء العدول يختارهم القاضي ويعدّلهم بنفسه ، فإنهم كانوا يعزلون بعزله أو موته[1] .

وكان القاضي إسماعيل بن عبد الواحد ، قاضي مصر سنة ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م يلزم الشهود أن يركبوا معه[2] .

وحوالي ذلك الوقت كان الرسم أن يجلس مع القاضي عند نظره في القضايا أربعة شهود ، اثنان يجلسان عن يمينه واثنان عن يساره[3] .

وفي القرن الرابع الهجري نجد الشهود قد أصبحوا نوعاً من العمال الثابتين ، بعد أن كانوا في أول الأمر من حاشية القضاة الأمناء الذين يوثق بشهادتهم . وهذا القرن أيضاً هو الذي أوجد هذا النظام الذي لا يزال باقياً إلى اليوم وأحلّه محل النظام الإسلامي القديم ، بل نجد أن القاضي التميمي في القرن الثالث الهجري بالبصرة قد عين في أثناء ولايته ستة وثلاثين ألف شاهد ، منهم عشرون ألفاً لم يشهدوا بعد تعيينهم ، فلم يحظوا بشرف منصبهم[4] . وكان ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م نحو من ألف وثمانمائة شاهد .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٨ .

(٢) ملحق الكندي ص ٥٤٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٩ ، ٥٩٠ .

(٤) Amedroz. JRAS, 1910, 779 ff. نقلا عن نشوار المحاضرة للتنوخي مخطوط باريس . انظر أيضاً رسائل الصابي ص ١٢٢ . ويسمى كبير الشهود مقدمهم ووجههم (كندي ص ٥٨٨ ، ٥٨٩) وقد تكلم المسعودي (مروج ج ٨ ص ٣٧٨) ، وهو بمصر عام ٣٣٣ هـ عن الشهود ببغداد ، وقد سمي الشهود في خراسان والمغرب في النصف الثاني من القرن الرابع بالعدول (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٣ ، ومسكويه في مواضع كثيرة ، وقاموس دوزي ، ومقدمة ابن خلدون ترجمة دي سلان ص ٤٥٦) وقد بقيت هذه التسمية بمراكش إلى اليوم (انظر مجلة العالم الاسلامي Revue du monde musulman, XIII, 517 ff.) أما الشهود الذين لا يقومون بالشهادة ويرشحون لها فيسمون الموسومين بالعدالة (الكندي ص ٤٢٢ ورسائل الصابي ص ١٢٢) .

وفي سنة ٣٢٢ هـ ـ ٩٣٤ م أكثر الشهودُ الترددَ على القاضي محمد بن موسى بمصر ، فقال لهم : مالكم معاش عندنا ، فلا يجيء أحد منكم إلا لحاجة أو لشهادة[١] . فكأن الشهود أرادوا أن يكونوا موظفين ، ولكن القاضي كان على الرأي القديم في أمر الشهود .

وفي سنة ٣٨٢ ـ ٩٩٢ م بلغ عدد الشهود ببغداد ثلاثمائة وثلاثة ، ولكن هذا العدد كان يعتبر كثيراً[٢] ، وفي أواخر القرن الرابع أنقص قاضي القضاة بالقاهرة عددَ الشهود[٣] .

وقد أوصى الدمشقيُّ التاجرَ الماهرَ أن يحتاط في شهادة من يشهدون على العقود التي يريد إمضاها ، فيسأل عنهم إن لم يكن خبيراً بهم ، حتى يعرف المشهورين بالأمانة والنزاهة في الدين واليسار فيأخذ بشهاداتهم ؛ وذلك لأنه في أكثر الأوقات يدخل في الشهود من لا يستحق منزلة العدالة لعناية به أو جاه بعض أقاربه ويلبث مدة ، ثم ربما حدث أمر آخر فيُسقَط الشاهد وتضيع قيمة الكتاب أو العقد الذي شهد عليه[٤] .

وكان ينوب عن القاضي شاهد" في كل محكمة من المحاكم الخمس الصغرى ليحكم فيها باعتباره قاضياً مستقلا يحكم في القضايا الصغيرة[٥] .

---

(١) الكندي ص ٥٤٩ ، وامدروز Amedroz, JRAS. 1910, S. 783. نقلا عن رفع الاصر لابن حجر مخطوط باريس رقم ٢١٤٩ ص ١١٢٨ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ٦٣ ا ، ١٣٤ ا ، Amedroz, JRAS. 1910 S. 779 ff. نقلا عن رفع الاصر ، وعن تاريخ الذهبي .

(٣) رفع الاصر ، ص ٢٨ ا ، الكندي ص ٥٩٦ .

(٤) الاشارة إلى محاسن التجارة لأبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ص ٣٥ ـ ٣٦ من طبعة مصر ١٣١٨ هـ .

(٥) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٢٣ (؟)

وكان الشهود في عصر لين Lane يجلسون في دهليز المحكمة الكبرى ، ويقدم الشاكي قضيته لمن يجده غير مشغول منهم ، فيقيدها هذا ، ويأخذ عن تقييدها قرشاً أو أكثر ، فإن كانت القضية صغيرة ، ورضي المدعى عليه بحكم الشاهد حكم هذا فيها ، وإلا أدخل الخصمين إلى القاضي .

وقد أوصى الخليفة الطائع في عهده لقاضي القضاة[1] أبي محمد بن معروف ، وهو العهد الذي كتبه الصابي في سنة ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م ، وصية متكررة بالإكثار من تلاوة القرآن وأن يتخذ إماماً يهتدي بآياته ، وبالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وبالجلوس للخصوم وفتح بابه لهم على العموم ، وأن يوازي بين الفريقين المتحاكمين إليه ، ولا يحابي مليّاً على ذِمّي . وأمره بالقصد في مشيته ، وبالغض من صوته ، وحذف الفضول من لفظه ، وأن يخفف من حركاته ولفتاته ، ويتوقى من سائر جنباته وجهاته ، وأن يستصحب كاتباً دَرِبا بالمحاضرات والسجلات ، ماهراً في القضايا والحكومة غير مقصر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين في طهارة ذيله ونقاء جيبه ، وحاجباً سديداً رشيداً لا يسِفُ إلى دنيئة ، ولا يقبل رشوة ، ولا يلتمس جُعلا ،

(١) يقال إن أول من لقب بهذا اللقب هو أبو يوسف قاضي الرشيد الذي كان يرشح القضاة للتعيين بالبلاد (خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٣٣) ؛ وكان يحيى بن أكثم قاضي المأمون يمتحن القضاة الذين يراد توليتهم (طيفور في كتاب بغداد ص ٢٥٨) ؛ فكان يسألهم في مسائل مشكلة من الشريعة ، وكان مما امتحن به رجلا أنه سأله : ما تقول في رجلين زوج كل واحد منهما للآخر أمه ، فولد لكل واحد من امرأته ولد ، ما قرابة ما بين الولدين ، فلم يعرفها ، فقال له يحيى : كل واحد من الولدين عم الآخر لأمه (عيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٨٦) ؛ وكان يعين قاض من كل مذهب من المذاهب الأربعة وذلك بعد عصر الحروب الصليبية — انظر كتاب زبدة كشف الممالك للظاهري طبعة Ravaisse ص ٩٢ . وفي سنة ٦٦٤ هـ ضم الملك الظاهر بيبرس القضاة الثلاثة إلى الشافعية ، بعد أن كان القضاة للشافعية مصراً وشاما (طبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٤) .

وخلفاء يرد إليهم ما بعد من العمل عن مقرّه ، وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه ، ويجعل لكل من هذه الطوائف رِزْقاً يكفّه ويكفيه ، وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أماناتهم ؛ وأمره أن يضبط ما يجري في عمله من الوقوف الثابتة في ديوان حكمه ، ويحتاط على أموال الأيتام ويسندها إلى أعفّ وأوثق القوّام ؛ وأمره إنْ ورد عليه أمر يُعْيِيه الفصل فيه أن يردّه إلى كتاب الله ، فإن وجد فيه الحكم وإلا ففي السنة ، فإن أدركه وإلا استفتى ذوي الفقه والفهم وأهل الدراية ، وأمره ألا ينقض حكما حكم به من كان قبله إلا إذا كان خارجاً عن الإجماع وأنكره جميع العلماء ، عند ذلك ينقضه نقضاً يشيع ويذيع[1].
وهذا الإجماع الذي ينعقد من جماعة العلماء الذين لا يخضعون لسلطة أخرى هو المحكمة الإسلامية العليا ، وهؤلاء العلماء الذين يبدون رأيهم في ميدان الأحكام القضائية الهامة هم المظهر الذي أثبتت فيه الديمقراطية الإسلامية وجودها ، لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين.

وكان في الحياة الديوانية نزعة قوية إلى جعل المناصب وراثية من الأب إلى الابن ؛ وأظهرُ ما كان ذلك في مناصب القضاء . ففي القرنين الثالث والرابع تقلد قضاء القضاة من أسرة واحدة هي أسرة أبي الشوارب ثمانيةُ رجال ببغداد ، هذا عدا ستة عشر قاضياً آخرين من

(1) رسائل الصابي ص ١١٥ وما بعدها ؛ وفي أوائل القرن الرابع الهجري حكم القاضي بفسخ زواج بكر كرهت زوجها ، لأن اباها لم يكن قد استأذنها عند العقد ، فأراد الزوج جمع كلمة الفقهاء على صحة النكاح ، واخذ خطوطهم بصحة العقد ، وخشي القاضي من اجتماع كلمة الفقهاء على فساد حكمه ، فاشار عليه صديق له أن يسجل حكمه بفسخ النكاح ويشهد بذلك . فأفسد على الزوج وعلى الفقهاء تدبيرهم (ملحق الكندي ص ٥٦٦) .

هذه الأسرة[1] . وظل بنو أبي بردة منذ حوالي عام ٣٢٥ هـ ــ ٩٣٧م يتقلدون قضاء القضاة بفارس أجيالا كثيرة ، كما ظلّوا قروناً كثيرة منذ ٤٠٠ هـ قضاة في غزنة[2] . وكذلك توارث آل النعمان قضاء القضاة ثمانين سنة في عهد الفاطميين بمصر[3] .

وقد زادت شوكة هذه الأسَر التي توارثت القضاء زيادة هائلة ، وذلك لأن نظام الاستخلاف في المناصب ظهــر في القضاء ،كما كان في مناصب الولاية وحكم الأقاليم ، ونجد في صور المخاطبات التي ترجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري أنه كان بمصر قاضٍ واحد ، وأن فارس والأهواز كانا يُجمعان لقاض واحد[4] . وكان القاضي عبد الجبــار قاضي قضاة بني بويه يجمع بين قضاء الريّ وهمــذان والجبال[5] . وكان قاضي مكة في سنة ٣٣٦ هـ ــ ٩٤٧ م له قضاء مصر وغيرها[6] . وفي عهد الفاطميين كان ربما جمع قضـــاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاضٍ واحــد[7] . ونجد في العهــد الذي كتب لقاضي القضاة محمد بن صالح الهاشمي سنة ٣٦٣ هـ ــ ٩٧٤ م ما يجعله قاضياً على المملكة الإسلامية كلها تقريباً من البلاد الواقعة غرب جبال فارس

---

(١) انظر ما حكاه .Amedroz, 1910, S. 780 نقلا عن تذكرة ابن حمدون ، مخطوط لندن ؛ وانظر أيضاً المنتظم لابن الجوزي ص ١٧٤ ب .

(٢) ابن البلخي .JRAS, 1912, S. 14 f .

(٣) Gottheil, a distinguished family of fatimide Cadis in the tenth century, JAOS, 1906. S. 217 ff.

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٧ .

(٥) الارشاد ج ٢ ص ٣١٤ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ج ٩ ص ٧٧ .

(٧) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٦ من طبعة دار الكتب المصرية .

إلى مصر ، وكان تحته حكام في البلاد عُهِدَ إليه في تصفّح أحوالهم واستشراف ما يجري من الأحكام في سائر النواحي[1] .

وكان هناك إلى جانب القضاء النظرُ في المظالم ، وكان الناظر في المظالم ينظر في كل « حكم يعجز عنه القاضي ، فينظر فيه من هو أقوى منه يداً[2] » . وكان القضاء والنظر في المظالم يقومان جنباً لجنب في جميع البلاد الإسلامية[3] . ولكن اختصاص كل من هذين القضاءين لم يتحَدّد تحديداً دقيقاً ؛ وكانت المسألة الهامة دائماً هي هذه : أيهما أقوى : سلطان الإسلام الذي يمثله القاضي أم السلطة الدنيوية ؟ وكانت الأمور المتعلقة بالحدود تقدم إلى صاحب المظالم[4] . وكان القاضي أحياناً ينظر في المظالم ، وكان قاضي القضاة بنوع خاص ينظر في المظالم بدار السلطان[5] . وكان الوزير هو الذي يعين أصحاب المظالم في البلاد[6] .

---

(1) المنتظم ص ١٠٥ ب .

(2) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٠٧ ، وإني لانتفع في هذا المقام مع الشكر ببحث امدروز .Amedroz, JRAS, 1911, S. 635 ff

(3) فيما يتعلق بالتركستان انظر Schwarz. Ture stan,. 210 . اما في مصر في عهد محمد علي فانظر ...Lane, Manners and Customs في أول الفصل التاسع وفيما يتعلق بمكة انظر Snouck Hurgronje, Mekka, 1, 182 .

(4) Amedroz, JRAS, 1911 S. 664 .

(5) كان ينظر في المظالم بمصر قاضي الأخشيد الذي ولي القضاء سنة ٣٢٤هـ — ٩٣٦م ، انظر طبقات السبكي ج ٢ ص ١١٣ — ١١٤ . وفي سنة ٣٣١ هـ أفرد للنظر في المظالم قاض مستقل (الكندي ص ٥٧٢) . وفيما يتعلق ببغداد في سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م انظر المنتظم ص ١٤٩ ب . وفي الاهواز تقلد القاضي التنوخي عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م القضاء والمظالم (الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٣٢) . وعندما لا ينظر القاضي في المظالم كانت ترسل إليه قصص المتظلمين بعد التوقيع فيها (انظر كتاب الوزراء ص ١٥١) .

(6) عريب ص ٥٠ ، والارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٣٢ .

وقد حاول رجال الشرع مرتين في القرن الرابع الهجري أن يشرفوا على أعمال الشرطة ؛ ففي سنة ٣٠٦ هـ ـ ٩١٨ م أمر الخليفة المقتدر يُمْناً الطولوني صاحب الشرطة ببغداد بأن يُجْلِس في كل ربع من الأرباع فقيهاً يسمع من الناس ظلاماتهم ، ويفتي في مسائلهم حتى لا يجري على أحد ظلم[١] ؛ فكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب الشرطة من الفقهاء يشرفون على أعمال أصحاب الشرطة لتكون مطابقة لفتواهم ، ويقول ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ ـ بعد ذكر هذا النظام : « فضعفت هيبة السلطة بذلك ، وطمع اللصوص والعيّارون ، وكثرت الفتن ، وكُبست دور التجار ، وأُخذت ثياب الناس في الطرق المنقطعة[٢] » .

وكذلك نصَّب الخليفة الحاكم بمصر في الشرطة وفي كل بلد شاهدين من العدول ، وأمر ألا يُقامَ على ذى جريرة أو مرتكب جريمة حدٌّ إلا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين أنه مستوجب لذلك[٣] . ولكن هاتين المحاولتين لم يكن لهما تأثير ؛ بل نجد الآية قد انعكست ، فكانت ترفع الظلاماتُ من حكم القضاة إلى أصحاب المظالم ، ولا سيما إلى الوزير الذي يجلس للمظالم ؛ وهذا يخالف النظرية الفقهية . وقد جاء وصف لجمهور المستصرخين إلى الوزير الذي كان يقعد للمظالم بأنهم كانوا « قوماً كثيرين قد قصدوا من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مُستَصرخين متظلّمين ، فهذا من أمير وهذا من عامل ، وهذا من قاض وهذا من متعزّز[٤] » .

---

(١) عريب ص ٧١ .

(٢) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة مخطوط باريس رقم ٥٧٢ ص ١٨٦ ا .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ا .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٠٧ .

وقد حدث حوالي سنة ٤٣٠ هـ ـ ١٠٣٩ م أن مات رجل بمصر وترك مالا جزيلا ، ولم يخلّف سوى بنت واحدة ؛ فورثت جميع المال ، وتطاول الناس لتزوُّجها لكثرة مالها ، ومن جملتهم القاضي عبد الحاكم ابن سعيد الفارقي ؛ فامتنعت عليه ، فحنق عليها ، وأقام أربعة شهود بأنها سفيهة ،وأخذ مالها ؛ فهربت إلى الوزير ، وعرّفته بما فعله القاضي، فعمل محضراً برشدها وأشهد عليه ، وأمر بإحضار القاضي ؛ فأحضر مُهاناً ، وأُخذ المال منه ، وأنيب ولده عنه في الأحكام ، ولزم داره فلم يخرج منها ؛ ثم قبض الوزير على الشهود الذين شهدوا بسفهها ، فأودعهم السجن ، وخلع على من شهد لها بالرشد[1] .

وقد داوم أحمد بن طولون صاحب مصر النظر في المظالم بكل عناية ، « حتى استغنى الناس عن القاضي» ، وحتى كان القاضي ربما نعس في محله ، ثم انصرف إلى منزله ولم يَتَقَدَّمْ إليه أحد . ولم يكن في مصر قاضٍ في ذلك العهد سبع سنين ، فكان كل شيء يُرَدُّ إلى الناظر في المظالم[2] .

وكذلك كان كافور الأخشيدي الأسود يجلس للمظالم حتى « كان القاضي كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم[3] » .

وفي سنة ٣٦٩ هـ ـ ٩٧٩ م وقع نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضي ؛ وذلك أن صاحب الشرطة حكم في شيء ليس من اختصاصه ،

---

(١) Amedroz, JRAS, 1910, S. 793. نقلا عن رفع الاصر مخطوط باريس رقم ٢١٤٩ ص ٦٠ ا ـ ب ؛ انظر ايضا JRAS, 1911, S. 663 ، وملحق الكندي ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ، ص ٦١٣ .

(٢) ملحق الكندي ص ٥١٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٨٣ ، ٥٨٤ .

فأنكر القاضي حكمه ، واعترض فيه ؛ فوقّع الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيما حكم به[1] .

وفي حوالي سنة ٤٠٠ هـ منع القاضي أصحابَ الشرطة من التكلم في الأحكام الشرعية ، ثم أنهى الخليفةُ النزاعَ بأن أضاف للقاضي النظر في المظالم[2] .

وكانت الظلامات تقدم مكتوبة[3] ، وكان يحدث أحياناً حوالي عام ٣٢٠ هـ ـــ ٩٣٢ م أن تُرمى الرقعة في ورق المظالم أمام القاضي في المجلس[4] .

وكانت الأحكام تصدر مكتوبة ، وقد جرت بعض هذه التوقيعات مجرى النصوص الأدبية المشهورة التي تؤثَر لحسنها ، وهي شبيهة بحواشي فريدريك الأكبر التي كان يكتبها على هامش ما يرفع إليه[5] .

وكان يخصّص في دار الخلافة يومٌ في الأسبوع لسماع المظالم ، وكذلك كان الحال من قبل في العصر البوزنطي ؛ ففي سنة ٤٩٦ م كان حاكم الرها يجلس كل يوم جمعة في الكنيسة للقضاء[6] .

---

(١) نفس المصدر ص ٥٩١ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٠٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٥٢ ، ١٠٧ . وكان على صاحب ديوان المظالم أن يعمل بجميع القصص جامعاً يُعرَض على الخليفة في كل اسبوع (انظر كتاب الخراج لقدامة مخطوط باريس ٥٩٠٧ ص ٢٣ ب) .

(٤) كتاب الوزراء ص ٥٢ ، وملحق الكندي ص ٥٤١ .

(٥) ومن هذه التوقيعات توقيعات طاهر التي ذكرها طيفور في كتاب بغداد ص ٥٠ ب وتوقيعات المأمون عند البيهقي في المحاسن والمساوىء ص ٥٣٤ وما بعدها ، وتوقيعات الصاحب بن عباد عند الثعالبي في خاص الخاص طبعة القاهرة ١٩٠٩ م ص ٧٣ .

(٦) Josua Stylites, S. 29.

وفي عصر الخليفة المأمون مثلا خُصِّص يومُ الأحد للنظر في المظالم[١] .

وكان أحمد بن طولون بمصر يجلس لذلك يومين في الأسبوع[٢].

وكان الأخشيد يجلس للمظالم بنفسه كل يوم أربعاء[٣] ؛ وبعده كان كافور يجلس كل سبت ، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد[٤] .

وأول من جلس من الخلفاء المهدي وآخرهم المهتدي (٢٥٥ ــ ٢٥٦ هـ = ٨٦٨ ــ ٨٦٩ م)[٥] . وكان المهتدي يجلس للمظالم وينظر فيما يرفعه إليه العام والخاص ، وقد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها وسماها قبة المظالم ؛ وكان تقياً ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤمّ بهم[٦]. وكان إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم في الأروقة والمنازل عند تحرك البرد ؛ فإذا جلس المتظلم « أمر بأن يدّفأ ويجلس ليسكن ويثوب إلى عقله ، ويتذكر حجته ثم يُدنيه ، ويسمع منه ، ويقول : متى يلحن المتظلم بحجته إذا لم يُفْعَلْ به هذا ، وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد ؟ »[٧] .

---

(١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣ طبعة إنجر (Enger) .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٣٩ .

(٤) ملحق الكندي ص ٥٧٧ ، والمقريزي ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٥) المقريزي نفس النص نقلا عن الماوردي ، ويذكر هنا أن الاخشيد وابنه كانا يجلسان للمظالم يوم السبت ، واللمحة التاريخية التي ذكرها المقريزي مأخوذة من الاحكام السلطانية ص ١٢٨ والصفحات التالية .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٢ .

(٧) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٥٧٧ ــ ٥٧٨ .

وكان مما وعد به الخليفة القاهر ، وهو يطلب الخلافة ، أن يقعد للنظر في المظالم بنفسه[1] .

وفي عهد الخليفة المعتضد قام مقامَ الخليفة في النظر في مظالم العامة الوزيرُ عبيدُ الله بن سليمان ، وناب عنه القائد بدر في النظر في مظالم الخاصة ، وكان يوم المظالم يوم الجمعة[2] . ولكنا نجد الوزير في أوائل القرن الرابع يجلس للمظالم يوم الثلاثاء ، وكان أكثر الكتاب يحضر مجلسه[3] .

وفي سنة ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م جلست للمظالم قهرمانة" لأم المقتدر تسمى ثمل[4] .

ولما كان النظر في المظالم غير مقيَّد بتدقيقات الفقهاء ، فقد كان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي . وقد بين الماوردي بما له من قدرة على الإحصاء وبيان الفروق أن الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء من عشرة أوجه : أهمها أن لنظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة بكفّ الخصوم عن التجاحد ومنع الظَلَمة من التغالب والتجاذب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة المحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا

(١) Amedroz, JRAS, 1911, S. 657 ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٦ .

(٤) عريب ص ٧١ ؛ وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٠٣ ؛ وقد اختلف في المرأة : هل تقضي ؟ فقال ابو حنيفة يجوز ان تقضي فيما تصح فيه شهادتها ، واغلب العلماء على انها لا تقضي ، وشذ الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ فجوز قضاءها في جميع الأحكام (الماوردي ص ١٠٧ ــ ١٠٨) ، ثم اشترط فيما بعد في القاضي أن يكون ذكراً ، أما في النظر في المظالم فلم يشترط ذلك .

أعضلوا إلى وساطة الأمناء ، ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراضٍ ، وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم ؛ وعادة القضاة تكليف المدعي إحضار بيّنة ، ولا يسمعون البيّنة إلا بعد سؤاله[1] . ولكن هذا كله لا يعدو الكلام النظري ، وكان يعمل في كل بلد بحسب قانونها وعاداتها . وكانت الوسائل القديمة التي أثبتت التجربة قيمتها كالضرب مثلاً منتشرة ، وإن كانت محرّمة على القاضي[2] .

*

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٢) انظر الفصل الخاص بالاخلاق والعادات (الفصل العشرون) .

الفصل السادس عشر

علم اللغة

فتح القرن الرابع الهجري فتحاً جديداً في كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية ، وهما : النحو ، وعمل المعاجم . وقد تخلص علم اللغة ، كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية ؛ ويصف السيوطي طريقة علماء اللغة المتقدمين في تعليمهم فيقول : « وظائف الحافظ في اللغة أربعة ، أحدُها — وهي العليا — الإملاء ، كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء ... وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدِّثين سواء : يكتب المستملي أوّل القائمة : مجلسٌ أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، ويذكر التاريخ ؛ثم يورد المملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريبٌ يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره ؛ وقد كان هذا في الصدر الأول فاشياً كثيراً ، ثم مات الحفاظ وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد واستمرّ إملاء الحديث ... وآخر من عَلِمتُه أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي ، له أمالٍ كثيرة في مجلد ضخم ؛ وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، ولم أقِفْ على أمالٍ لأحد غيره »[1] .

---

(١) المزهر للسيوطي ج ٢ ص ١٩٦ من طبعة القاهرة سنة ١٣٣٥ هـ .

كان هؤلاء العلماء المتقدمون يضعون معارفهم بعضها إلى جانب بعض ، مفككة لا رباط بينها ، وكان اهتمامهم يَنْصَبّ على الجزئيات : على حادثة واحدة ، أو صورة من صور التعبير واحدة ، أو كلمة واحدة ، كما نجد ذلك في كتاب المبرّد (المتوفى عام ٢٨٥ هـ ـ ٨٩٨ م) ، بل في كتب القالي (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ـ ٩٦٧ م) وهي كتب مؤلفة من علوم اللغة ومن القصص والتاريخ ، وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي المعروف بغلام ثعلب (توفي سنة ٣٤٥ هـ ـ ٩٥٦ م) يجعل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين . فمثلاً كان يسأله بعضهم : أيها الشيخ ما القنطرة عند العرب[1] ؟ .

أما أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري فقد شعروا بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه ، وإلى تناوُل مادة بحثهم على طريقة منظّمة . وقد كان لمعرفة العرب بعلوم اليونان اللسانية أثر كبير في ذلك . وكان البحث يدور في مجلس عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧١ هـ ـ ٩٨١ م) حول الفرق بين النحو العربي والنحو اليوناني ، وأصل استنباطهما ؛ وقد ميز أبو سليمان السجستاني النزعة الجديدة في النحو بأن قال : « نحوُ العرب فِطرة ، ونحونا فِطنَة[2] » . وإذا وجدنا ابن فارس (المتوفى عام ٣٩٥ هـ ـ ١٠٠٥ م) يؤلف لأول مرة « مقدمة في النحو » فينبغي ألا نرى في هذا سوى وليد للمقدمات (إيساغوجي) التي كتبها علماء اللغة اليونان .

وأكبر ما تم على أيدي علماء اللغة هو تحديدُ معاني الكلمات وعملُ المعاجم ؛ ونجد هنا حداً واضحاً يفصل بين عهدين وطريقتين ؛ وكان حمزة الأصفهاني (المتوفى بين ٣٥٠ ، ٣٦٠ هـ = ٩٦١ ، ٩٧٠ م)

---

(١) المنتظم ص ١٨٥ ، وليس في النص ما يدل على أن هذه كانت طريقته . (المترجم)

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٨٣ من الطبعة الأوربية .

خاتمة اللغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلا على عبارات للخطباء والبلغاء والذين ألّفوا كتباً من المترادف وأخرى يستعين بهـا الخطباء في الخطابة ؛ ففي كتاب الموازنة مثـلا ذكر أربعمائة كلمة في معنى « الشقي » ، وكذلك جمع في كتاب الأمثال أكثر ما يعرض في لغة الخطباء من عبارات المفاضلة من نحو أبيض من الثلج وأجشع من الفيل، وقد كان جَمْعُه وافياً ، بحيث لم يضف علماء القرون التالية شيئاً إليها؛ وكان سَلَفُه قد جمع من هذه العبارات ثلثمائة وتسعين فجمع هو ألفا وثمانمائة ، ولم يفعل الميداني (المتوفى عام ٥١٨ هـ ــ ١١٢٤ م) أكثر من نقل ما كتبه حمزة ، واستطاع أن يزيد على كل فصل مثلا واحـداً أو مثلين أو أربعة على الأكثر . وكذلك أخذ الميداني كل الشروح عن سلفه[١] . وفيما يتعلق بالأمثال الخالصة نجد أن أكبر كتاب هو الذي ألفه في القرن الرابع الحسن العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥هـ ــ ١٠٠٥م).

على أن المدرسة الجديدة أظهرت بعد جيل ما كانت تعني،ويتجلى ذلك في كتاب الصحاح للجوهري (المتوفى عام ٣٩٢ هـ ــ ١٠٠١ م) . وتدل كل مقارنة لهذا المعجم بالمعجم الكبير الذي ألفه ابن دريد (المتوفى عام ٣٢١ هـ ــ ٩٣٣ م) على مقدار التقدم في المنهج وفي الوضوح . ويقول ابن فارس المتوفى (عام ٣٩٥ هـ ــ ١٠٠٥ م) في مقدمة معجمه المسمى بالمجمـل : « والمقصود من كتابنـا هذا مـن أوله إلى آخره التقريب والإبانة عما ائتلف من حروف العربية فكان كلاما[٢] » ؛ وكان شأن الجوهري عظيمـا حتى إن الكتب الكثيرة أُلّفت في الطعن فيه والدفاع عنه[٣] ، بل نجد السيوطي (المتوفى عام ٩١١ هـ ــ ١٥٠٥ م)

---

(١) Mittwoch. MSOS, 1910, S. 148 f. (?) .

(٢) Goldziher. Beitr Zur Gesch. d. Sprachgelehrsamkeit bei den Arabern, SWA. phil. hist. Kl. 37, S. 518.

(٣) Goldziher, SWA, 72. S. 587 : Zur Gauhari Literatur.

قد ألّف بمكة في الدفاع عن الجوهري كتاب « اللفظ الجوهري ، في رد خباط الجوجري » ، وكتاب الكرّ على عبد البر . وكان السيوطي قاسياً بنوع خاص على الجوجري معاصره (المتوفى عام ٨٨٩ هـ — ١٤٨٤ م) ؛ فقد أفحش في الكلام عليه وأتى فيه من الازدراء وإساءة الأدب ما يستحق التعزير عليه[١] .

وكل المعاجم التي عملت بعد الجوهري هي أشبه بتوسيع وشرح لقاموسه ،وهنا نجد أيضاً — أعني في علم اللغة — نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد بقي أثره قروناً متطاولة .

وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة" جدّية للاشتقاق اللغوي ، وبقيت عصراً طويلا ، وكان أستاذ هـذه الدراسة ابن جنّي الموصلي (المتوف عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م) . وكانت أمه جارية رومية ، وهو الذي ينسب إليه ابتـداع مبحث جديـد في علم اللغة ، وهو المسمى باشتقاق الأكبر[٢] ، وهو البحث الذي لا يزال يؤتي ثمره إلى اليوم ، والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ؛ ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا .

وبقيت لغة" التخاطب الدارجة إلى جانب لغـة الكتابة ؛ وكان الفرق بينهما كبيراً ، حتى نجد المؤرخين يذكرون مع العجب أن يكون في بغداد في القرن الثالث الهجري من يستطيع الكلام الصحيح من غير تكلّف للإعراب ، بل كأن ذلك له كالطبع[٣] .

---

(١) طبقات المفسرين للسيوطي ص ٢٤ — ٢٥ من إضافات الناشر الأوروبي .

(٢) Goldziher, SWA, 67, S. 250 نقلا عن المزهر للسيوطي (ج ١ ص ١٦٤) . وانظر ج ١ ص ٢٠١ من طبعة مصر سنة ١٣٢٥ هـ . وفي الكتاب الثاني (الفصل الثلاثين) من كتاب الخصائص تناول ابن جني الكلام في الاشتقاق الأكبر (انظر O. Rescher, Studien über Ibn Ginni, ZA, 1909, S. 20).

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٣١ .

وكان ما ظهر في الأدب من عناية بالعامّة وبحياتهم مما جعل علماء اللغة يهتمون بدراسة لغة العامة ، وما يعرض فيها من خطأ ، فألّف أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (المتوفى عام ٣٣٠هـ ــ ٩٤١م) كتاباً في لحن العامة ، ثم ألّف ابن خالويه (المتوفى عام ٣٧٠هـ ــ ٩٨٠م) بحلب كتاب « ليس في كلام العرب[1] » . أما ما ترك لعلماء اللغة وخصوصاً للحريري فهو موضوع لبحث جديد .

*

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ، طبعة مجريط ١٨٨٤ ص ٥٦ .

الفصل السابع عشر

الأدب

إن اختلاط دم الأمة العربية ونضوب قوة الطبقة العليا فيها ، التي كانت بيدها القيادة ، وبروز الشعوب الشرقية القديمة التي كانت تتألف من أجناس مختلطة ، كل هذه تتجلى أوضح ما تكون في الأدب . فمنذ حوالي عام ٢٠٠ هـ ـ ٨٠٠ م بدأ الأدب يتحرك بحركات جديدة ، وأصبحت القصيدة التي جرت عادة شعراء العرب القدماء أن يسيروا عليها في التغنّي بأسمى ما في حياة البداوة من مشاعر شيئاً طويلاً على الجيل الجديد ، وبدت مسرفةً في تصوير الشعور ، وأخذت تفقد ما كانت تتمتع به من تفرد بالسيادة . وعمل أهل المدن ، بعد أن صاروا هم الطبقة الممتازة ، على تأخير القصائد وما كانت تتضمنه من مادة شعر البطولة وكذلك على تأخير اللغة القوية البارعة التي تفيض بالحياة والبطولة إلى المحل الثاني شيئاً فشيئاً ، وأخذت الأساليب البدوية الخشنة تفسح المجال للعبارات الليّنة ، ومال الناس إلى الأوزان القصيرة ميلاً نندهش له .

وأصبح ميل الشعراء إلى أن يبعثوا في النفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقلّ من ميلهم إلى أخذ ألباب الناس بمادة جديدة للأدب ، وبمعانٍ دقيقة وعبارات وأخيلة جميلة . وتيقظ في الناس ميلٌ إلى الطرائف المستحدثة ــ وهو أخطر شيء على شعر البطولة بجميع أنواعه ــ

وعاد الأدب مرة أخرى إلى كشف ما يحيط بالإنسان في حاضره ، وأصبح يلذّ له البحث فيما حوله من حياة متشعبة النواحي ، وإن لم تكن حياة بطولة وروح سامية وبدأ العامة ــ وخصوصاً عامة المدن غير المتعلمين ــ يدخلون في الأدب العربي ، وهم لم يقتصروا على تعلم القصائد والحُكم عليها بنظرهم الخاص وعلى التغني بها على أوزانهم الشعبية ، بل إن الكلام المرسل أيضاً أصبح عندهم يستعمل في التعبير عن كل ما جدّ في الحياة من نواح متنوعة . وهكذا نشأ النثر في الأدب ، بعد أن كان حتى ذلك الحين مقصوراً على العلماء وأهل الدين ، أو على الأكثر على كتب شعبيّة قليلة نُقلت عن الفارسية . ويحكى عن قوم حوالي عام ٢٥٠ هـ ــ ٨٦٤ م أنهم فضّلوا الكلام المنثور على المنظوم[١] .

١ ـ النثر

كان التقدير والإجلال للكلام المنثور ، إلى جانب تقدير الشعر ، ذلك التقدير الذي هو مبدأ كل نثر جيد ، أكبر فضيلة للعرب القدماء ؛ وهم قد فاقوا في ذلك جميع الشعوب ، فكان في كل قبيلة خطباء إلى جانب الشعراء يساوونهم في المكانة ، وكانت ملكة الخطابة تعتبر أشبه بملكة خارقة ، حتى نشأ الاعتقاد في بعض القبائل أنه لا ينشأ فيها خطيب قط إلا مات من قبله[٢] .

وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفاً للملكة الشعرية إلى درجة أن المؤرخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان في الشعر مُجيداً في الرسائل والخطب[٣] . وقد بلغ من شدة تقدير الناس

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ٣٤٧ ــ ٣٤٨ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ١٧٣ .

(٣) نفس المصدر ج ٢٠ ص ٣٥ ؛ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، طبعة بروكلمان ص ٥٤٩ .

للفظ الحسن أنه أصاب أهل مكة سنة ٢٠٨ هـ ــ ٨٢٣ م سَيْل" مات بسببه خلق كثير ، فكتب والي المدينة إلى الخليفة المأمون طالباً عطفه ومعونته لمن جرف السيل أموالهم وهدم بنيانهم ؛ فأنفذ إلى أهل مكة أموالا كثيرة ، وكتب مع ذلك كتاباً حسن العبارة ، فكان كتابه « أسرَّ إلى أهل مكة من الأموال التي أنفذها إليهم »[1] .

وأول صورة تجلى فيها اهتمام الأدباء بما يحيط بهم إقبالـُهم على دراسة أخلاق العامة ، فمثلاً حوالي ذلك الوقت ألـَّف أبو عقـَّال الكاتب كتاباً في أخلاق العوام ، وصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم وسماه الملهي[2] ؛ وكذلك ألـَّف القاضي محمد بن إسحاق الصيمري ، قاضي صيمر (المتوفى عام ٢٧٥ هـ ــ ٨٨٨ م) ، كتاب مساوىء العوام وأخبار السِفـْلـَة والأغتام[3] .

وكذلك كان وصف حياة المدن من الموضوعات التي أحب الجاحظ معالجتها[4] . وهذا الأديب (المتوفى عام ٢٥٥ هـ ــ ٨٦٩ م) والذي يـُحكي الكثير من الحكايات الطريفة عن دمامة خلقته ــ كانت عيناه جاحظتين ، وكان جدّه أسود[5] ــ هو أبو النثر العربي الجديد ويعتبره الثعالبي أوّل كـُتـَّاب النثر[6] .

وكان من عادة الوزير ابن العميد أكبر كتـّاب الرسائل الديوانية

---

(١) كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦ .
(٢) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٨ .
(٣) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٠١ ــ ٤٠٣ .
(٤) طراز المجالس لشهاب الدين الخفاجي طبعة مصر ١٢٨٤ هـ ص ٦٧ وما بعدها .
(٥) الارشاد ج ٦ ص ٥٦ .
(٦) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٨ ، وقد سمى الباخرزي الثعالبي نفسه بأنه جاحظ نيسابور ؛ انظر مقدمة كتاب الاعجاز والايجاز للثعالبي طبعة القاهرة ١٨٩٧ م ص ٥ .

إذا ورد حضرته أحد من منتحلي العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد وعن الجاحظ[1] ؛ ولذلك دُعي ابن العميد الجاحظ الأخير[2] .

ويحكى عن ثابت بن قرة العالم المشهور أنه قال : ما أحسد هذه الأمة (الإسلامية) إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثاني الحسن البصري ، والثالث أبو عثمان الجاحظ[3] . وقد صنف أبو حيان التوحيدي ــ الذي ربما كان أعظم كتّاب النثر العربي على الإطلاق ــ كتاباً في تقريظ الجاحظ ؛ وبلغ من مزيد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ وبيّن عِظَم مكانتهم[4] . وبلغ من تقديره للجاحظ أنه كان يسلك مسلكه في تصانيفه ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه[5] .

وقد كتب الجاحظ في كل شيء ، من الكتابة في المعلمين[6] إلى الكلام عن بني هاشم[7] ؛ ومن ذكر اللصوص[8] إلى الكلام عن الضّباب ؛ ومن الكلام في صفات الله إلى الكلام في قبائح ما يحكى من كيد النساء .

---

(١) لطائف المعارف للثعالبي طبعة أوربا ص ١٠٥ ، والارشاد لياقوت ج ١ ص ٦٨٦ (؟).

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣ .

(٣) الارشاد ج ٦ ص ٦٩ ــ ٧٠ .

(٤) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٨٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٨٠ .

(٦) المستطرف ج ٢ ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ طبعة مصر ١٣٠٢ هـ . اما مقدار تأثر الجاحظ فيما كتبه من السخرية بالمعلمين بكتب اليونان الهزلية التي كانت شخصية المعلم من أكبر صورها فهو موضوع للبحث ، انظر Reich, Mimus, 1, 443 .

(٧) زهر الآداب للحصري على هامش العقد الفريد ج ١ ص ٥٦ وما بعدها .

(٨) ذكر التنوخي في الفرج بعد الشدة (ج ٢ ص ١٠٦) كتاباً للجاحظ يسمى كتاب اللصوص .

وكان أسلوب الجاحظ مستحدثاً لم يستحكم في التجربة ، وكثيراً ما يشوب طريقته في الكتابة الثرثرة والاستطراد إلى حد الإملال ؛ ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع لذة المعجبين بالجاحظ ؛ وكانوا يشعرون بأنه إنقاذ لهم من طريقة العلماء السائدة إلى ذلك الحين والتي كانت ثقيلة لكثرة ما فيها من الجد وإظهار العلم ؛ وكان المعجبون بالجاحظ يعتبرون الثرثرة الطبيعية الجميلة فنّاً تعمّد الجاحظ أن يعالجه . وقد قدر المسعودي حوالي عام ٣٣٢ هـ ـــ ٩٤٣ م قدرة الجاحظ على التنسيق ومدَحَ متانة بناء تآليفه بقوله : « وكان إذا تخوّف مَلَلَ القارىء وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة » . ويذكر المسعودي كتب الجاحظ فيبدأ بالبيان والتبيين، ويقول إنه أشرف كتب الجاحظ « لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستَحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ، ما لو اقتصّر عليه مقتصر لاكتفى به[1] . » ويشبه المسعودي المصنف المجيد بأنه حاطب ليل ، لأنه يذكر في تصنيفه من كل نوع[2] .

ثم إن التصوف الذي جاء حوالي أوائل القرن الثالث الهجري على أثر اضمحلال الروح العربية ونضوب قوتها ساعد كثيراً على نشر الأدب وجعله شعبياً وعلى نشر الكتب بين الجماهير ، وصبغها بصبغتهم ، وساعد مساعدات كبيرة على تقوية المذهب الواقعي الطبيعي ـــ كما فعل ذلك أيضاً في الآداب الأخرى ـــ هذا إلى أن أهل التصوف كانوا يشنعون على العلماء وعلمهم ، ويعتمدون في الغالب على عامة الناس ؛

(١) المسعودي في مروج الذهب ج ٨ ص ٣٤ ؛ وقد ظل هذا التنويع بين الجد والهزل منسوباً للجاحظ عند مؤرخي الأدب ؛ وقد ذكره كثير من الأدباء . انظر مثلا رسائل الخوارزمي ص ١٨٣ .

(٢) مروج الذهب مثلا ج ٤ ص ٢٥ .

وكان هذا التصوف يتجه إلى وعظ العامة وتحليل حياتهم والعناية بحاجاتهم ، وقد تأثر بكلامهم وأساليبهم . وأخيراً فإنه يتضح لنا أنه لولا اضمحلال الطريقة والروح العربية القديمة لما دخل السجع في البلاغة العربية في ذلك العصر .

وكان لا يزال في مأثور العرب قليلٌ من النثر الوثني المسجوع ؛ وكان المسلمون ينفرون من هذا السجع نفورَ المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية من الأوزان القديمة الباقية عن اليونان والرومان . ويبين لنا الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ ــ ٨٦٨ م) علة كراهية الأسجاع ، فيقول : « وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ... قالوا فوقع النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم[1] » .

على أن المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام وكان لهم الشأن الأكبر في ذلك العهد كانوا قد ألفوا استعمال السجع في مواعظهم الدينية ؛ وكذلك يظهر أنه « حوالي منتصف القرن الثالث الهجري دخل السجع عند المسلمين في الخطب الرسمية ، ونجد كثيراً منه في كتاب وجّهه الخليفة للمسلمين ، وإن لم يكن كله مسجوعا[2] » .

وكانت طريقة كتابة الرسائل مجالا للتمرين على إظهار صور البلاغة

---

(١) كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١١٣ .

(٢) Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie. 1, S. 65 f.

وأساليبها ؛ ولم يَعْدَم قط بين الأدباء من لم يأبه للاعتبارات الدينية في كراهية السجع ، فكان يكتب سجعاً كالسجع العربي القديم الذي كان لا يزال موضع إعجاب : ويحدثنا الجاحظ أن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي[1] ؛ وكان في هذه الرسالة شيء من السجع .

على أن الرسائل الديوانية كانت هي مقياس العرف اللغوي العام ؛ ونجد وزير الخليفة المأمون حوالي عام ٢٠٠ هـ يكتب كتابة مرسلة لا سجع فيها[2] ؛ وقد انتهى إلينا لابن ثوابة الكاتب (المتوفى عام ٢٧٧ هـ ــ ٨٩٠ م) رسالة فيها بعض السجع ؛ وكان هذا الكاتب معروفاً بالتكلف في كتابته[3] ؛ وكذلك نجد الكتاب الذي أُنشيء للعن الأمويين ، وكان يُراد قراءته على جميع المنابر ببغداد سنة ٢٨٤ هـ ــ ٨٩٧ م ، نثراً مرسلا ، وإن كان لا يخلومن أثر طفيف للسجع[4] . وحوالي هذا الوقت كتب أحد المنشئين في الديوان من غير سجع[5] .

على أن السجع قد أصبح حوالي عام ٣٠٠ هـ هو الطريقة الجديدة المستحدثة عند كبراء بغداد ، فنجد الخليفة المقتدر يكتب إلى عمال البلاد سجعاً[6] ؛ وكذلك كان الوزير علي بن عيسى يحلي كتبه بالسجع

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) الكندي ص ٤٤٥ ــ ٤٤٦ ، وفي مواضع كثيرة من كتاب بغداد لطيفور ، ويجد القارىء كتاباً من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر ، وهو نثر مرسل لا سجع فيه ــ انظر رسالة في الصداقة للتوحيدي ص ٥٤ ــ ٥٥ من طبعة قسطنطينية .

(٣) الارشاد ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٢١٦٦ وما بعدها .

(٥) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٦٣ . ولكن الرسالة التي يشير إليها المؤلف هنا فيها سجع ، وكاتبها ابن ثوابة نفسه ، والعيب هنا أن المؤلف يعتمد على أمر جزئي يبني عليه قاعدة؛ وقد فعل هذا كثيراً في أثناء كتابه. ومما يدل على الاضطراب في استنتجاته أن ابن ثوابة كان منشئاً في ديوان المقتدر ، ويقول المؤلف إن المقتدر كان يكتب إلى عماله سجعاً. (المترجم)

(٦) كتاب الوزراء ص ٣٣٧ وما بعدها .

الكثير[1] ؛ ولكن أمر السجع لم يصل في سائر أجزاء المملكة إلى ما وصل إليه ببغداد ؛ فكانت رسائل الوزير ابن خاقان المسجوعة تقع لدى عمال الولايات موقع الشيء الغريب[2] ، وكان أصحاب الدواوين في البلاد يكتبون على الطريقة القديمة من غير سجع[3] ؛ ثم انتشر السجع. قال ابن خفاجة « من كتّاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخلّ به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي وأبو الفرج المعروف بالببّغاء ؛ ومنهم من كان يتركه ويتجنبه ، وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ؛ وطريقة غير هؤلاء استعماله مرة ورفضه أخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير والإكراه والتكلف[4] ».

ويحكى عن الوزير ابن عباد ، وزير البويهيين ، أنه كان ولوعا بالسجع إلى حد الإفراط فيه ؛ ويقول التوحيدي عن هذا الوزير : « وكان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد . قلت لابن المسيبي . أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة ... لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتي بها ويستعملها[5] » . ويقول نقلا عن ابن العميد إن الصاحب خرج من الري متوجهاً إلى أصفهان ، فجاوز في طريقه قرية كالمدينة إلى قرية غامرة وماء

(١) الارشاد ج ٦ ص ٢٨٠ ، وكتاب الوزراء ص ٢٧٧ .
(٢) انظر مثلا من سجعه في كتاب الوزراء ص ٢٧٧ .
(٣) انظر مثلا كتاب صاحب الأخبار إلى بغداد من بلدة الدينور – هريب ص ٣٩–٤٠ .
(٤) ابن خفاجة في مقدمة كتاب الخطب لابن نباتة ص ١٦ .
(٥) الارشاد ج ٢ ص ٢٩١ .

ملح ، لا لشيء إلا ليكتب قائلا : كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار[1] ؛ وهذا ما حكاه التوحيدي ، وكان أثلب أهل زمانه ؛ وهو الذي يقول عن ابن عباد أيضاً إنه كان عنده أبو طالب العلوي ، فلحقه غشي بسبب كلام ابن عباد المسجوع ، فرش على وجهه ماء الورد[2] . وهذا هو شأن السجع إلى اليوم[3] .

ورسائل القرن الرابع الهجري هي أدق آية من ازدهار الفن الإسلامي ؛ ومادتها هي أنفس ما عالجته يد الفنان ، وهي اللغة ؛ ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للرشاقة الرقيقة ، وامتلاكهم لناصية البيان في صورته الصعبة ، وتلاعبهم بذلك تلاعباً ؛ وليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء في ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان وأعلامه ، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة أن تنشر كتباً للناس . وكان من أولئك الوزراء : الخصيبي ، وابن مقلة[4] ، والمهلبي[5] ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والإسكافي وزير السامانيين . ويحكى أن الإسكافي كان أكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير الباع[6] . وهذا يدل على التمييز الدقيق بين نوعي الرسائل .

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) الارشاد ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٣) مع شواذ قليلة جداً ، فقد كان وزير مشهور من وزراء المرابطين الاولين يتجنب السجع ، « وكان على طريقة قدماء الكتاب » ؛ انظر المعجب في أخبار المغرب للمراكشي طبعة مصر ص ١٠٤ .

(٤) رسائل الخوارزمي ص ٣٥ .

(٥) الفهرست ص ١٣٤ .

(٦) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١١٩ ، ج ٤ ص ٣١ ، وكتاب الارشاد ج ٥ ص ٣٣١ .

وكانت الرسائل الهامة مثل كتب تولية العمال ونحوها تكتب في ديوان خاص يسمى ديوان الرسائل ، وهو ديوان لم تَخْلُ منه حكومة ما • وقد بلغ من العناية بهذا الديوان أنه قُلّد ببغداد لإبراهيم بن هلال الصابي (المتوفى عام ٣٨٤ هـ ـ ٩٩٤ م) ، وكان أكبر المنشئين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ؛ مع أن الصابي ظل طول حياته يعتنق دين الصابئة ، ويصر عليه ؛ وقد عرضت عليه الوزارة ، إن أسلم ، فأبى[1] • ولما مات ألّف نقيبُ العلويين ، مع علو منزلته في الدين ، قصيدة في رثاء هذا الذي رفض الإسلام ؛ وهذا يدل على أن قيمة الإنشاء الجيد كانت في نظرهم أعظم من قيمة صحة العقيدة • وكان الصابي يعرف قدر نفسه ، وهو يقول مفتخراً :

وقد عَلِمَ السلطان أني أمينُه	وكاتبُه الكافي السديدُ المُوفَّقُ
فيُمناي يُمناه، ولفظي لفظُه،	وعيني له عينٌ،بها الدهر يَرْمُقُ
ولي فِقَرٌ تضحى الملوك فقيرة	إليها لدى أحداثها حين تطرقُ[2]

وتنقسم رسائله كلها قسمين : في الجزء الأول إجمال للخطاب الذي تُراد الإجابة عنه ، وهذا القسم كان يتيح المجال لإظهار الأدب في الثناء على المُرْسِل وامتداحه والدعاء له ؛ فمثلا كتب الصابي عن الوزير ابن بقية إلى قاضي القضاة ، فقال في أول الكتاب : « وصل كتاب قاضي القضاة بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبته ، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته[3] » ؛ ثم يمضي في الإجابة عن الكتاب مبتدئاً بقوله : وفهمته ••• ولا تزال رسائل الصابي تُقرأ

(١) الارشاد ج ١ ص ٣٢٤ •

(٢) رسائل الصابي طبعة بعبدا بلبنان ١٨٩٨ م ص ٨ •

(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٧٧ •

إلى اليوم لذة يحس بها القاريء وإعجاب بامتلاكه عنان البيان : وهي تلبس موضوعها ثوباً من جمال الإنشاء القشيب ؛ وحتى لو كان الكتاب يتناول أخباراً عملية رسمية ليس من شأنها أن تناسب ملكة البيان . وكان الصابي يدبّج رسائله بعبارات جميلة مسهبة مسجوعة في أولها وآخرها ، مليئة بضروب المجازات والاستعارات وأنواع الجناس ؛ ومع هذا لا يختفي المعنى بين ضغط الألفاظ ، ولا يطغى عليه جمال الألفاظ وموسيقى السجع ، بحيث يستطيع القاريء أن يفهم المراد من غير تلك المشقة التي يعانيها الإنسان في فهم رسائل من جاء بعده . وحتى لو ترجمت هذه الرسائل ، وجُرّدت من كل ما تتحلى به ، وعُرضت على صورة تُفقدُها الكثير من جمالها ، فإنها لا تزال خليقة بالقراءة . ولنذكر من أمثلة الرسائل الديوانية التي كتبها الصابي كتاباً عن عز الدولة إلى ابن عمه عضد الدولة جواباً عن كتاب عضد الدولة الذي أخبره فيه بفتح جبال القفص والبلّوص سنة ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م :

« ... وصل كتاب سيدي الأمير عضد الدولة أدام الله عزه ! بما سهل الله على يده ويسَّره بيُمْنه وبركته من فتح جبال القفص والبلوص، وما بلغه ، أدام الله علوّه ! من أهلها المعادين كانوا للملّة ، العادلين عن سبيل الله ، حتى استنزلهم عن مَعْقِل بعد معقل ، واستباحهم في موبل بعد موبل ، وقتل حُماتَهم ، وأفنى كُماتَهم ، وأباد خضراءهم وغبراءهم ، وعفى معالمهم وآثارهم ، وألجأهم إلى الإذعان وطلب الأمان، وتسليم الرهائن ، والإفراج عن الذخائر ، والاستقامة على سواء الدين، والدخول في عصمة المسلمين ؛ وفهمتُه وحمدت الله على ما منح الأمير عضد الدولة ، حمدَ المتحقّق بما أفاء الله عليه ، المغتبط بما أزلّه إليه ، المشارك له فيما يخصه،المساهم له فيما يمسّه ؛ ووجدتُ الأثر فيه كبيراً بمؤثّره ، والتدبير جليلا كمدبّره ؛ وتلك عادة الأمير ، أيده الله ! في

الصمد للفاسد حتى يصلح ، وللمعتاص حتى يسمح ، وعادة الله عنده في المعونة الضامنة للنجاح ، الكافلة بالفلاح ؛ فما تَرِدُ عليّ من جهته بشرى إلا كنت متوقعاً لتالية لها أخرى ، ولا أستقل منها بشكر ماضٍ سالفٍ إلا ارتهنني بترقّب حادثٍ مُستأنف ، والله أسأل أن يهنئه نعمته ، ويملأه موهبته ، ويبلغه في الدين والدنيا آماله ؛ ويجمل فيهما أحواله ، ويجعل رايته منصورة على أعدائه ، صغروا أم كبروا ، وكلمته العليا عليهم ، قلوا أم كثروا ، ويمكنه من نواصيهم ، سالموا أم حاربوا ، ويقودهم إلى التسليم له ، رضوا أم كرهوا ؛ ولا أَعْدَمَه فيما اختصه به من حباء وكرامة ، وظاهَرَه عنده من إعلاء وأنافة ، مزيداً تَتَّصل مُدَّته إليه ، وتحل عائدته عليه بحوله وطوله ؛ والأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه وليّ مواصلتي بما يبهجني من أخباره ، ويغبطني من آثاره ، ويسرني من عافيته ، ويؤنسني من سلامته ، وامتثله من أمره ونهيه ، وأقف عنده من حده ورسمه ، إن شاء الله[1] » .

ثم انتقل استعمال الأساليب المُحَلاّت بالسجع من رسائل السلطانية إلى الرسائل الإخوانية ؛ على أنه في القرن الثالث الهجري كتب الأمير الشاعر ابن المعتز إلى الأمير الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رسالة تعزية عن وفاة زوجته ، وقد ردّ عبيد الله على ابن المعتز شاكراً ، وكلا الرسالتين نثر مرسل ، ولا سجع فيهما[2] . أما في القرن الرابع فكان لا يخطر على البال أن تكتب مثل هذه الرسائل من غير أن يكون فيها سجع ؛ وقد عظم شأن هذا الفن ، فن كتابة الرسائل الجيدة ، في أواخر القرن الرابع حتى كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من هذه

(١) رسائل الصابي ص ٥٦ — ٥٨ .

(٢) كتاب الديارات للشابشتي ص ٤٦ أ وما بعدها .

الصناعة ، كما عاش الشعراء قديماً من التكسب بالشعر • وكان أبو بكر الخوارزمي ، (المتوفى عـام ٣٨٣ هـ ـــ ٩٩٣ م) ، أشـهر كتاب الرسائل الإخوانية ؛ وقد ظل زماناً طويلا أكبر كتاب العرب •

كان أصل الخوارزمي من طبرستان ، ومولده ومنشؤه بخوارزم؛ وقد تقلب في البلاد ، وشرّق وغرّب ، واتصل بجميع الأمراء تقريباً في شرق المملكة الإسلامية • فورد بخارى ونيسابور ، وهراة ، وأصفهان، وشيراز ، وغيرها[١] • وكانت رسائله توجّه إلى الأمـراء والوزراء والقضاة والعمال والعلماء واللغويين،وكان موضوعها ما يرد في الرسائل عادة من التهنئة بالأعياد، وبارتفاع المنصب، وبالنجاة من الشر ، والتعزية بالوفاة، والكتابة بعد نكبة أو محنة أو خلع ، والكتابة بمناسبة المرض ، أو الخروج لحرب ، أو للشكر على هدية • ومن رسائله رسالة كتبها إلى صاحب ديوان الخراج جاء فيها : « حيث صرت أُلزَمُ خراجاً التزم بنو المدبِّر أضعافَه للبحتري ، وأُضايَق في ضيعةٍ وهب أمثالَها محمدُ بن الهيثم الغنوي لأبي تمام الطائي •••• وقد عرف الشيخ أَني لا أقيم على الخَسْف ، ولا أُحِلُّ إلا خُطة النَّصَف ، فإن رأى ألا يفجع خراسان بلسانها ، ولا يخليها من سيفها وسنانها ، فعل » فوَضَع صاحب الخراج عنه خراجَ سنة[٢] •

ويظهر أن صيت الخوارزمي جذب إليه كثيراً مـن التلاميـذ ، وخصوصاً من الفقهاء ؛ ونجد في رسائله الكثيرَ موجَّها إلى تلاميذه الجدد أو القدماء ؛ ومنها رسالة شكر فيها رجلا على اصطناعه فقيهاً من تلاميذه[٣] • ومن أمثلة ما كتبه لبعض تلاميذه : « كتَبْتُك ، يا ولدي،

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٢٣ والصفحات التالية •
(٢) رسائل الخوارزمي ص ٨١ •
(٣) رسائل الخوارزمي ص ١١٩ •

عندي تحف وشمامات وأنوار وباكورات ، أفرح بأولها ، وأنتظر ورود ثانيها ، وأشكرك على ماضيها ، وأعدّ الأيام والليالي على باقيها ، فكثّر عليّ سوادها ، ووفّر عليّ أعدادها ، واعلم أني أحبك حباً مستكناً وباديا •

أحبّك ما لو كان بين معاشر   من الناس أعداء لجرّ التصافيا

وأني آنس بك حاضراً ، وأشتاق إليك غائباً ، شوقاً لو عرفته لتكبرت على الورى ، ولم تقم وزناً لأهل الدنيا ، وكنت لا تنظر اليهم إلا بمؤخر عينك ، ولا تكلمهم إلا ببعض شفتيك[1] » •

ولو قارنا بين رسائل الخوارزمي ورسائل الصابي لوجدنا هذه أكثر اتزاناً ، وأقل مبالغة ، وأقرب إلى الواقع ؛ وكان أهم ما عند الخوارزمي المحسّنات البديعية والسلاسة ؛ أما موضوع الرسالة فهو بمثابة خيط ينسج الفنان حوله ثمرات خياله وبلاغته ، كما يلتف النبات المتسلق حول الخيط الذي ينصب له ؛ وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربي القديم كثير من وجوه الشبه ، من شغف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس ، والتشبيهات الحسنة ، وقلق نفس الكاتب ؛ غير أن ما كانت تنطوي عليه الفروسية قديماً من نبل العاطفة وقوتها قد تغير وصار موضع سخرية ؛ وهذه هي الصورة الوحيدة التي أتيحت له في مجتمعات المدن •

أما الصفات الرئيسية التي اتصف بها أسلوب الخوارزمي ، فهي أيضاً صفات الأسلوب الساخر : وهي المبالغة والتكرار والحشو ؛ وهو يعمد إليها باعتبارها طريقة فنية في الكتابة ؛ فمن ذلك في إحدى رسائله: « فلان أبطأ عليّ ، فليت شعري الريح قلعته ، أم الأرض ابتلعته ، أم

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٧٦ •

الأفعى نهشته ، أم السباع افترسته ، أم الغول أغوته ، أم الشياطين استهوته ، أم أصابته بائقة ، أم أحرقته صاعقة ، أم رفسته الجمال ، أم اغتاله الجمّال ، أم انتكس على ظهر جمل ، أم تدحرج من رأس جبل ، أم وقع في بير ، أم انهار عليه جرف شفير ، أم جفت يداه ، أم قعدت رجلاه ، أم ضرّ به الجذام ، أم أصابه البرسام ، أم جمس غلاماً فقتله ، أم تاه في البر ، أم أغرق في البحر ، أم مات من الحرّ ، أم سال به سيل زاعب ، أم وقع فيه سهم من سهام الآجال صائب ، أم عَمِل عَمَل أهل لوط ، فأرسلت عليه حجارة من طين منضود مسوّمةً عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ! »[1] . وكتب إلى رجل طلب نسخة من رسائله : « ... ولو قدرت لجعلت الورق من جلدي، بل من صحن خدي، والقلم من بناني ، والمداد من أجفاني »[2] . وقد تؤتينا مبالغته في كثير من الأحيان مجموعةً قيمة من الأحوال المتعارضة التي تعرض في حياة ذلك العصر ، كالذي كتبه الخوارزمي إلى أبي علي البلعمي لما فارق الحضرة وورد نيسابور ، ومما قاله في وصف حاله : « ... حتى لقد ركبت غير دابتي ، وأكلت غير نفقتي ، ونزلت بيتاً بكراً ، وأكلت خبزاً بسراً ، وحرمت العيني ، وشربت الزبيبي ، ولبست الصوف في المصيف ، والبردى في الخريف ، وكوتبت مواجهةً ، وخوطبت بالكاف مشافهة ، وأُجلستُ في صف النعال ، أعني أُخريات الرجال ، وناظرني من كان يدرس عليَّ ، وخالفني من كان يختلف إليَّ ، وحتى لقد نشزَت عليّ جاريتي ، وحزنت دابتي ، وتقدمني في المسير رفيقي الذي جمعني وإياه طريقي، وحتى إني أخذت الدرهم الجيد، فصار في يدي ستوقاً، وقطعت الثوب المشترى فصار على بدني مسروقاً ، وغسلت ثيابي في تموز ،

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٦ . انظر أيضاً ص ٦٨ .

فغابت الشمس وطلع السحاب ، وسافرت في حُزَيران ، فعصفت الريحُ وسد الأفقَ الضبابُ ، وفقدت كل شيء ملكته ، غير عرضي الذي عهده الشيخ معي وصبري الذي عرفه مني »[1] وقد يصل باستعمال الحشو والتكرار إلى ملاطفة من يوجه إليه الخطاب وتملقه ، ويذكر لنا مع ذلك مجموعة من الكتب التي يستطيع الإنسان أن يرجع إليها حينما يريد أن يكتب خطاباً من السجع الحسن ؛ فقد جاء في إحدى رسائله : « ذكر السيد أنه كتب جواب كتابي من الظهر إلى العصر ؛ ولقد استبطأته على ما أعرفه من بُعد غوره ، وغزارة بحره ، ولكنني أغلقت لهذا الجواب بابي ، وأرخيت له حجابي ، وضممت إلى نشر كتب آدابي ، وجلست من الدواوين بين آل الجراح وآل بويه وبني الخصيب وبني مقلة ؛ ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شداد ، وحشرت من الآخرة ابن المقفع البصري ، وسهل بن هارون الفارسي ، وابن عبدان المصري ، والحسن ابن وهب الحارثي ، وأحمد بن يوسف المأموني ، ووضعت عن يميني عهد أردشير بن بابكان ، وعن يساري كتاب البيان والتبيين ، وبين يديّ فصول بزرجمهر بن البختكان ، وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب، عين الزمان ، وزين الشيب والشبان ؛ فما زلت أسرق من هذا كلمة ، وأنظر من ذاك فقرة ، وأستعير من هناك نادرة وثيقة ، أغصب الأحياء على بيانهم ، وأنبش الموتى من أكفانهم ، وأنا في أثنــاء ذلك رَطْبُ اللسان بالدعاء ، رطب العين بالبكاء ، أدعو الله بالتوفيق والتسديد ، وبالعصمة والتأييد »[2] .

على أن الخوارزمي كان في نظر معاصره الهمذاني (وكان هذا أصغر سنا من الأول) لا يحسن من الكتابة « إلا هذه الطريقة الساذجة

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٣٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٥ .

وهذا النوعَ الواحد المتداول بكل قلم ، المتناول لكلّ يد وفم »[1] .

وكان أبو الفضل الهمذاني هو زعيم الطريقة الجديدة والمحامي لها ؛ فارق همذان سنة ٣٨٠ هـ وهو مُقْتَبَلُ الشبيبة ، غضُّ الحداثة (كان يناهز الثانية والعشرين) ؛ وورد حضرة الصاحب فتزوّد من ثمارها ؛ ثم ورد جرجان ، وأقام بها مدة ، ووافى نيسابور سنة ٣٩٢ هـ[2] ، أي بعد أن فارق وطنه باثني عشر عاماً ؛ ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً في عُلُوِّ أمره ، وبُعْدِ صيته ، إذ لم يكن في الحسبان أن ينبري للخوارزمي أحدٌ ؛ فلما تصدى الهمذاني لمساجلته ، وجرت بينهما مكاتبات ومناظرات ومناضلات ، وغَلّب هذا قومٌ وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتصاولين ، طار ذكر الهمذاني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ؛ ثم أجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجو للهمذاني ، وتصرّفت به أحوالٌ جميلة ، وأسفارٌ كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلد إلا دخلها ، واستفاد خيرها ؛ وألقى عصاه بهراة ، ثم صاهر أبا علي الحسين بن محمد الخشنامي ، وهو الفاضل الكريم الأصل ، فانتظمت أحوال أبي الفضل بهذه المصاهرة ، واقتنى بمعونة صهره ومشورته ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشده وأربى على الأربعين سنة ناداه ربه فلباه في سنة ٣٩٨هـ ، « فقامت عليه نوادب الأدب وانثلم حدُّ القلم »[3] .

---

(١) رسائل الهمذاني طبعة بيروت ص ٧٦ .

(٢) هذا هو الصواب كما في الارشاد لياقوت (ج ١ ص ٩٦) ، لا ٣٨٢ هـ كما في يتيمة الدهر للثعالبي (ج ٤ ص ١٦٨) .

(٣) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ — ١٦٨ . ويذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٦٨ =

كان أبو الفضل مشهوراً بذكاء القريحة وقوة الحفظ ، وكان يُنشَدُ القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يُخِلّ بمعنى[1] . وكان من العجائب التي يقدر عليها ، ويعجز عنها الخوارزمي أنه كان يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ فيه جوابه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قرىء من أوله الى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً ، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل ، من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها ، أو خالياً من الألف واللام ، أو من الحروف العوامل ، أو أول سطوره كلها ميم وآخرها ميم ، أو كتاباً إذا قرىء معرجاً وسُرد معوّجاً كان شعراً ، أو إذا فسر على وجه كان مدحاً ، وإذا فسر على وجه كان قدحاً[2] . وكان هذا وأشباهه يعتبر أعلى درجات القدرة على الإنشاء في ذلك العصر .

وكذلك يعيب الهمذانيُّ الجاحظَ بأن كلامه سهل ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ « مُنْقاد لعُريان الكلام يستعمله ، نَفُور من معتاصه يُهْمِلُه[3] . »

غير أن رسائل الهمذاني التي انتهت إلينا ليس فيها لحسن الحظ مثل هذه الإشارات المعتاصة ، فهي قد كفتنا مشقة ذلك ، ولكنها أكثر التواء وتكلفاً من رسائل الخوارزمي وأحفل بالتشبيهات البعيدة المطلب وبأنواع الجناس .

= ـ ٦٩ من طبعة فستنفلد) ان بديع الزمان مات من السكتة ، وعجل بدفنه ، فأفاق في قبره ، وسمع صوته بالليل ، فنبشوا عنه فوجدوه قد مات من هول القبر .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ .

(٢) رسائل الهمذاني ص ٧٤ .

(٣) مقامات الهمذاني طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ٧٢ .

وقد ظهر شيء جديد تجاوز أسلوب الرسائل ، وهو الميـــل إلى القصص والحكاية ؛ فنجد الأدباء يذكرون في سياق رسائلهم بين حين وآخر حكاياتٍ طويلةً أو قصيرةً على سبيل التمثيل ؛ فمثلا يشبّه الهمذاني في إحدى رسائله حال الطامع الذي يذهب به الأمل والطمع بعيداً ، والخيرُ منه قريب ، بحال الرجل البخاري الذي ضاع حمارُه ، يقول الهمذاني : « ... ثم لم يكن مَثَلي معه إلا مَثَل البخاري الذي ضاع حماره ، وخرج في طلبه ، حتى عبر جيحون بسببه ، يَطْلُبُه في كل مَنْهَلةٍ ، وينشده في كل مرحلة ، وهو لا يجـده ، حتى جاوز خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ؛ فلما لم يجده ، وأيس ، عاد ، وقد طالت أسفاره ، ولم يَحْصُل حماره ، حتى إذا حصَل في بلده ، بين أهله وولده ، أحبّ الله أن يَلْطُف به لُطْفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى اصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه وثغره وحزامه قائماً على المعلف ينشّ ... »[1] .

وهو يقول مُدَلِّلا على أن الإنسان يظل هواه دائماً مع وطنه : « إن الإبل على غلظ أكبادها لتحنّ الى بلادها ، وإن الطير لتقطع عرض البحر إلى مظانها » .

ويَحْكي عن ذي اليمينين طاهر بن الحسين أنه « لما وَلِيَ مصر وافاها مضروبةً قبابُها ، مفروشةً أرضُها ، مزخرفة جدرانُها ، والناس ركباناً ورجالا ، والنّثار يمينا وشمالا ؛ فأطرق لا ينطق حرفاً ، ولا يرفع طرفاً ، ولا يهشّ إلى أحد ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما أصنع بهذا ، وليس في النظّارة عجائز بوشنج (وهي بلده)!؟ »[2] .

---

(١) رسائل الهمذاني ص ١٧٤ – ١٧٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٠ .

وكذلك يحكي الهمذاني حكاية التاجر مع ولده ويتمثل بها ؛ وكان التاجر قد جهز ولده بمال للتجارة ، وأوصاه عندما خرج من بلده بأن يحذر النفس وسلطانها . وكان مما قاله له : ستحدثك النفس بمعنى اسمه القَرَم ، ويخبرك السفهاء عن شيء يقال له الكَرَم ؛ وقد جرَّبتُ الأول فوجدته أسرع في المال من السوس ، ونظرت إلى الثاني فوجدته أشأم من البسوس ؛ ودعني من قولهم : أليس الله كريماً ؟ بلى ، ولكن كرمه يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ؛ فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصني ، ولا يريشك حتى يَبْرِيَنِي ، فهو خذلان ؛ فلما فصلت العير لجّت بالفتى همةُ العلم ، فأنفق ما معه من المال في طلبه ، « فلما انسلخ من طارفه وتالده رجع بالقرآن وتفاسيره إلى والده ، فقيراً لا يملك نقيراً ، وقال : يا أبتِ جئتك بسلطان الدهر ، وعزّ الأبد ، وحياة الخُلْد ؛ جئتك بالقرآن وتفاسيره ، والحديث بأسانيده ، والفقه بأبازيره ، والكلام بأفانينه ، والشعر بغريبه ، والنحو بتصاريفه واللغة بأصولها ، فاجْنِ العلم نَوْراً ونُوراً والآداب حُرّاً وحُوراً ؛ فأتى به إلى السوق وقدّمه للصراف والبزاز والعطار والخباز والقصاب ، وانتهى إلى البقال ؛ فساومه عن باقة بقل ، وقال : انتقِ تفسيرَ أي سورة شئت ، فتنحّى البقال ، وقال : إنما نبيع بالكِسْرة المكسَّرة لا بالسورة المفسَّرة ، فأخذ الوالدُ ترابا بيده ، ووضعه على رأس ولده ، وقال : يا ابن المشئومة ، ذهبتَ بقناطير ، وجئت بأساطير ، لا يبيع بها ذو عقل باقةَ بقل[1] » .

وإذا كنا نجد عند الهمذاني ميلا إلى القصص والحكاية ، فقد كان يقابل ذلك عند الصاحب بن عبّاد ومن يتصل به اهتمام خاص شديد بالجوّالين المكدين وحكاياتهم ومخاطراتهم ولغتهم . وكان

(١) رسائل الهمذاني ص ٣٩٣ وما بعدها .

الصاحب بن عباد نفسه يحفظ « مناكاة بني ساسان » حفظاً عجيباً ؛ ويعجبه من أبي دُلَف الخزرجي الشاعر وفورُ حظه منها ؛ وكانا يتجاذبان أهدابهـا ؛ وكان أبو دلف هذا شـاعراً كثير الملح والطرف « أخلَق التسعين في الأطراف والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب في خدمة العلوم والآداب » ، وقد دوّخ البلاد ، فطاف بالهند والصين ، « وكان ينتاب حضرة الصاحب ابن عبّاد ، ويكثر المقام عنده ... ويتزود كتبه في أسفاره ، فتجري مجرى السفاتج في قضاء أوطاره[1] » .

ولم تقتصر دقة ملاحظته بالعين والأذن على أحوال البلاد الأجنبية، بل شملت أحطّ طبقات أمته ، وهي الطبقة التي يجهلهـا المثقفون في العادة جهلهـم لما ليس في بلادهم ؛ وكان الجاحظ أيضاً هو أول مـن كشف عن هذه الناحية ؛ فقد تكلم قبل ذلك العهد بمائة وخمسين سنة عن المُكَدّين ، وأسمائهم ، وما يمتازون به ، ويحتالون به[2] ؛ ثم جاء البيهقي في أوائل القرن الرابع فنقـل عن الجاحظ ، وتوسّع في الكلام عن أصناف المكدين وأفعالهم ونوادرهم[3] .

أما أبو دلف فإنه ألف قصيدة طويلة في أصناف المكدين وشرحها شرحاً وافياً كافياً وتقدم كثيراً على كل من الجاحظ والبيهقي[4] .

ويرجع الفضل في حفزه على ذلك إلى الأحنف العكبري الشاعر ؛ فقد كان الأحنف أيضاً جوّالا ، طاف البلاد ، وتغنى تغنياً مؤثراً بحرمانه

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٤ — ١٧٥ .
(٢) كتاب البخلاء للجاحظ ، طبعة فان فلوتن ص ٤٧ وما بعدها .
(٣) المحاسن والمساوىء ص ٦٢٢ — ٦٢٧ .
(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٥ وما بعدها .

من وطن يأوي إليه ؛ ولكنه التزم طريقة الشعراء الحقيقيين ، فلم يحاول أن يذكر في شعره كل الألفاظ الصعلوكية التي تبين أصناف المُكَدّين وألفاظهم ؛ وإنما ترك بعض ذلك لأبي دُلَف[1] .

أما الهمذاني فقد ظهر في هذا الميدان متميزاً بنزعة خاصة إلى الحكايات القصصية التمثيلية القصيرة التي تغلب عليها الصبغة البلاغية، وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقامات ، منها واحدة تسمى الرصافية ، وهي معرض تجتمع فيه الاصطلاحات المتعلقة بالمكدين ، كما هو الحال في قصيدة أبي دلف[2] . والهمذاني نفسه يشير إلى تأثره في مقاماته بأبي دُلف ؛ وذلك بأن أخذ من قصيدته الأبيات التي ذكرها في المقامة الأولى[3] . وقد قدح الخوارزمي في الهمذاني بأنه لم يحسن سوى هذه المقامات ؛ فثارت لهذه التهمة ثائرة الهمذاني[4] . ومن أسف أننا لا نعرف الناحية التي أعجبت الخوارزمي في هذه المقامات .

أما عندنا فالتقدم الكبير الذي نلاحظه هو أن جميع المقامات تدور كلها حول رجل واحد هو أبو الفتح الأسكندري ؛ وبذلك تقوم الحكايات المختلفة الأشكال على أساس واحد ، وهذا تمهيد للكتابة

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٥ . على أنه يقال في هذا النص إنه كان للعكبري قصيدة دالية في المناكاة وذكر المكدين . (المترجم) .

(٢) يفتخر الهمداني (رسائل ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ، ٥١٦) بأنه أملى في الكدية اربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ؛ ولكن لم يصل إلينا إلا نحو من خمسين مقامة منها ؛ وينبغي الا نعتبر الاربعمائة رقماً دقيقاً ، فإن الهمداني يؤكد في رسائله (ص ٧٤) انه يقدر على اربعمائة صنف من الترسل .

(٣) اليتيمة ج ٣ ص ١٧٦ . على ان المقامات لم يذكر تاريخ تاليفها ، فيقول الحصري (على هامش العقد الفريد ج ١ ص ٢٨٠) إن المقامة الحمدانية (ص ١٥٠ وما بعدها من طبعة بيروت) امليت سنة ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م .

(٤) رسائل الهمداني ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

الروائية على صورة أكبر ؛ ولم يكن قد بقي على الهمذاني إلا خطوة واحدة ليأتي لنا بقصص المحتالين واللصوص من أخف وألطف نوع لم يصل إليه أحد إلى اليوم • ولكن هذه الخطوة لم تتم مع الأسف ؛ ولم يكن ذلك لنقص أو قصور في القدرة على نسج القصص وربط أجزائها؛ فهذه القدرة كانت موجودة ، ونحن نلاحظها في القصص الشعبية ؛ ولكن السبب هو أن المقامات كانت ولا تزال أدباً يؤلـَّف للبلغاء ، وهؤلاء لا يعنون بربط أجزاء القصة بعضها ببعض ، وإنما يعنون بالألفاظ والأساليب البليغة • وقد أوجدت هذه المقامات ميلا إلى الخطب ذات الأساليب الوضاءة التي تشبه « السواريخ » التي تنطلق لامعة ، ثم تفنى ولا تترك أثراً ؛وكذلك أساليب البلغاء لم يكن لها ، رغم جمالها، أثر في وضع قصة طويلة متماسكة الأجزاء •

على أنه قد جـُمعت أشعار الهمذاني أيضاً[1] ؛ وهي قصائد تدل على أن صاحبها كان بفطرته كاتباً موهوباً ، ولم يكن شاعراً ؛ فهي أساليب بلاغية محضة مجردة من كل عاطفة شعرية ، وفيها فرط تكلف في الألفاظ والمعاني ، فمثلاً يقول الهمذاني :

إذا سجع القمريُّ راسلتُ لحنه بإيقاع دمعٍ للغناء موافق[2]

وهو يتلاعب في شعره بعلم اللسان فيكتب قصيدة معرّاة من الواو ، وهو ما لم يستطع الصاحب بن عباد أن يفعله ، مع أنه استطاع عمل قصائد كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء[3] •

---

(١) طبع ديوانه بمصر عام ١٣٢١ هـ ، ومخطوط باريس (٢١٤٧) أدق وأوفى •

(٢) الديوان ص ٥٩ ، والظاهر ان المؤلف لا يعجبه تشبيه الدمع بالايقاع الموسيقي • (المترجم)

(٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٢٣ ؛ والديوان مخطوط باريس ص ٥٤ أ ــ ب •

وتدل عناية الحصري[1] (المتوفى عام ٤٥٣ هـ ـ ١٠٦١ م) برسائل الهمذاني على أن الهمذاني قد غلب على من تقدمه ؛ فالحصري يذكر أجزاء طويلة من رسائل الهمذاني ؛ أما الخوارزمي فلا يذكره أصلاً .

وكان أبو العلاء المعرّي (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م) أكبر كتاب النثر في عصر الحصري . ويقول ناصر خسرو الرحالة الفارسي الذي ورد المعرّة سنة ٤٢٨ هـ ـ ١٠٣٧ م « إن فضلاء الشام والمغرب والعراق يقرّون أنه لا نظير له في هذا العصر ، ولن يكون له نظير » ، وقد أشـاد الرحالة الفارسي إشادة خاصـة بوصف كتاب لأبي العلاء « جاء فيه بكلمات مرموزة وأمثلة بألفاظ فصيحة وعجيبة، بحيث لا يقف عليه الناس إلا قليل منهم ، وهؤلاء يقرؤونه عليه أيضا »[2] .

وكان ذلك هو المثل الأعلى للنثر الجيد في ذلك العصر ؛ وقـد ادّخر أبو العلاء التعبيرات العويصة لقصائده ، ولكنا نجد الأسجاع قد صارت في رسائله أقصر مما نجده عند الهمذاني ، كما أننا نجـد تشبيهاته أكثر تكلفاً ؛ وكثيرا ما تطغى الصناعة والتكلّف اللفظيّان على الغرض من الرسالة ، حتى يجد القاريء مشقة في الوصول إلى معرفته ؛ وكثيراً ما نجد في رسائله تشبيهات متكلفة مطوّلة كثيراً بالنسبة لما عرف من قبل ، فمن ذلك قوله : « وأسفي لفراق سيدي الشيخ ، أدام الله عزه ، أسف ساق حرّ ، ساقه الطرب إلى الحر ، توارى بالوريقة ، من حر الوديقة ، كأنه قينة" وراء ستر ، أو كبير حجب من الهتر ، في عنقه طوق ، كرب يفصمه الشوق ، لو قدر لانتزعه باليد ، من المقلّد أسفاً

---

(١) زهر الآداب المطبوع بمصر على هامش العقد الفريد .

(٢) ناصر خسرو ص ١١ من طبعة شيفر . (وهذا النص نقلته إلى العربية عن كتاب سفر نامه ص ١٦ من طبعة كاوياني ببرلين ـ المترجم) .

على إلفٍ ، غادره للكمد ، أي حِلف ، أرسله، فهلك ، نوح ، فالحمائم عليه تنوح ، يسمعك بالغناء أصناف الغناء ، ويظهر في الغصون خبيّ الوجد المصون » ، وهلمّ جرّا[1] .

ونجد الكلام تلمع من ثناياه الإشارات اللطيفة وأنواع الجناس اللفظي ، ونكاد نجد في كل جملة صدى من ذلك قليلا أو كثيراً .

وهذا التعبير عن الشوق للمرسل إليه هو الموضوع الذي تبدأ به الرسائل عادة . على أننا نجد الهمذاني قد عبر عن شوقه بما هو أبسط من ذلك ، مثال ذلك قوله : « معاذ الله أن أشتاق إلى حضرته ، لكنني أفتقر إليها افتقار الجسد إلى الحياة ، والحوت الى الفرات»[2] .

أما بعد ذلك فنجد الكتّاب يعبِّرون عن الشوق ، ويبالغون في التمثل بالحمام أو نحوه مما لم تجر به عادة .

فمثلا يقول أبو العلاء : « وشوقي إليه وإلى الجماعة الذين عرفتهم بمدينة السلام كالنسيم لا يجمد ، ونار فارس ليس تخمد ؛ وفقري إلى لقائه ولقائهم فقرُ الذي أملق إلى الصلة ، وبيت الشعر إلى القافية المتصلة » .

ويقول أيضاً : « شوقي إلى مولاي الشيخ مناسب طول الدهر لا ينفد بسنة وشهر ، وكلما ذهب زمان صادف ، أعقبه من الأزمنة رادف » .

ويقول : « شوقي إلى سيدي الشيخ شوق البلاد الممحلة ، إلى السحابة المنسحلة ، وانتظاري لقدومه انتظار تاجر مكة وفد الأعاجم ».

---

(١) وسائل أبي العلاء نشرة مرجليوث ص ٤٦ ــ ٤٧ ، ص ٥٢ .
(٢) وسائل الهمداني ص ٨ .

ويقول أيضاً : « وأنا والجماعة نبعث إلى سيدي الشيخ مع راكب الطريق ونسيم الريح الخريق ، والعقيق المومض ، والخيال المتعرض ، سلاما تأرّجُ رحالُ الرفقة إذا استودعته ، وتبتهج قلوب النفر إن الآذان منهم سمعته[1] » .

أو نجد في بعض الرسائل مبالغة في المجاملة والملاطفة لا حد لها ؛ فمن ذلك أن أحد الأدباء أهدى إلى أحد الأمراء مختصراً لكتاب مشهور في النحو ، فعبّر المعري عن إعجابه بالمختصر بأن شبّهه في دقته وإحاطته بما في الأصل بالفرات،جرى من سمّ الخياط ؛ وأول ما نجده في رسائله رسالته التي بعث بها إلى رجل بمصر، وفي أولها يقول :«إن كان للآداب، أطال الله بقاء سيدنا ، نسيمٌ يتضوّع ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فغمنا على بعد الدار أرجُ أدبه ، ومحا الليلَ عنا ذكاؤُه بتلَهّبه ، وخوّل الاسماع شنوفا غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ؛ وذلك أنا معشر أهل هذه البلدة وُهب لنا شرف عظيم ،وأُلقي إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحبر ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءتُه تُسك ، وختامُه ، بل سائره ، مسك ؛ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ؛ أُجلّ عن التقبيل ، فظلالُه المقبَّلة ، ونُزّه أن يبتذل ، فنسخه المبتذلة ؛ وإنه عندنا لكتاب عزيز ... وإنما المنازل التي ينزلها السيد كالشهب الشآمية الموفية على العشرين بثمانية، نزل بها الزبرقان فتشهرت،ونسبت العرب إليهاكلّ سحابة أمطرت[2]» . وكتب أبو العلاء إلى رجل أخبره بأنه سيزور بلدته المعرّة ، فوصفها له بقوله : « مثله بقدوم هذه الناحية مثل النسر الذي هو من ملوك الطير وعظمائها ، تتصل من أوصاله رائحة المسك ، يهبط على نبيلة جد وبيلة،

---

(١) رسائل أبي العلاء ص ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٨٨ .
(٢) رسائل أبي العلاء ص ٣ وما بعدها .

وهذه جمل من صفة المعرّة : هي ضد ما قال الله عز وجلّ : (مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ...) اسمها طِيَرة ، وعند الله تُرجى الخيرة ، المورد بها محتبس ، وظاهر ترابها في الصيف يبس ، ليس لها ماءٌ جارٍ ، ولا تغرس بها غرائب الأشجار ، وإذا أُبرز لأهلها ذِبْحٌ ، يؤمّل به الريح ، تحسبه صبغ بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر ، وقد يجيئها وقت يكون فيها جدي المعز في العزة كجدي الفرقد ، ومثل حمل الكواكب حمل النقد ، ويبكر فقيرها على الهداية قبل أبي الفرخين ابن دأية ، حتى يقف ببائع الرسل ، فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان[1] » .

والفن العظيم الذي يتجلى في هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة تشبه « السواريخ » جعل اللغة سلسة القياد إلى درجة نادرة ، قوية التعبير برغم الاختصار ، وهو الطريقةالتي استند إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما في نفوسهم مراعين في ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية في التعبير .

وقد بلغ أبو حيان التوحيدي (المتوفى حوالي عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م) مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة ، وكان على ذروة من ذراها . وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادراً عليه ؛ غير أننا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء . ولم يُكتَب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبو حيان ؛ ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين في البديع ، فيجري عليها ويعظم أصحابها ، ولقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره ، وكان يعاني

---

(١) نفس المصدر ص ٥٥ .

وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ، ويتقدّم عليهم ؛ وهو يقول : « فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرفق ومشفق ؛ والله لربما صليت في المسجد ، فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي ؛ فإن اتفق فبقّال ، أو عصّار ، أو ندّاف ، أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه ، وأسكرني بنَتْنِه ؛ فقد أمسيت غريب الحال غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، ومحتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً ما لا بد من حلوله ؛ فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول[1] » .

وفي آخر حياته أحرق كتبه ، فلما عُذل في ذلك قال : « إني فقدت ولداً نجيبا ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ؛ فشق عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها ... وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة ، فما صح لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حِفاظ ؛ ولقد اضطررت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة ، في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة[2] » .

وكتابه في ذم الوزيرين مشحون بالثلب المقذع ، وقد ظل الناس زمانا طويلا يعتقدون أن هذا الكتاب يجلب النحس على من يقتنيه .

وآخر مظهر لضعف الذوق العربي الأصيل أنه منذ القرن الثالث

---

(١) رسالة في الصداقة والصديق طبع القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٥ — ٦ . ويقول ابو حيان إنه كتب هذه الرسالة « لما بلغت شمسه رأس الحائط » (ص ١٩٩) .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

الهجري بدأت قصص السمر الأجنبية تحتل مكاناً كبيراً في الأدب العربي[1] . وكانت الإسرائيليات وقصص البحريين تقوم ، حتى ذلك الحين ، بحاجة من يريد التسلية . أما منذ القرن الثالث فقد أضيف إلى ذلك ما ترجم من قصص الهند والفرس ، وكان أهمها في ذلك العصر حكايات ألف ليلة وليلة أو « هزار أفسان » ، (ألف حكاية) ، وهو اسمها الفارسي ، وإن كانت هذه الحكايات دون المائتي سمر موزعة على ألف ليلة[2] .

غير أن هذه الحكايات لم تكن تروق الأدباء الذين يؤثرون قراءة النثر الفني الذي يهز أرجاء النفس والذي لا يخلو إلى جانب ذلك من زخرفة ؛ فكانوا يرون أنها « كتاب" غث" بارد الحديث[3] » ؛ وكذلك نجد أبا العلاء ، الفنان الكبير ،يتكلم عن كتاب كليلة ودمنة كلام من لم يتحمس له ؛ فيقول إنه لم يَقْتَنِ هذا الكتاب ، ولم يتمكن علمه بما فيه ، ولم يستكمله سماعا[4] .

---

(١) جاء في اخبار العرب ان احسن الناس جوابا واحضرهم قريش ثم العرب ، وان الموالي تأتي أجوبتها بعد فكرة وروية (أمالي المرتضى ج ١ ص ١٩٧ طبعة القاهرة ١٩٢٥ م).

(٢) هل كانت قصص السندباد ضمن حكايات الف ليلة وليلة ؟ كانت تلك القصص موجودة قائمة بذاتها ، على تفاوت في طولها ؛ وكذلك كان يعرف أنها من كتب الهند (مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٩٠ ، والفهرست لابن النديم ص ٣٠٥) . وقد ذكر الصولي في الأوراق (مخطوط باريس ص ٩) وابن الحجاج الشاعر (ديوان ابن الحجاج المتوفى عام ٣٩١ هـ ــ ١٠٠٠ م) (مخطوط مدينة جوتا ص ١١ ا) أن هذا الكتاب ، كتاب السندباد من كتب الحكايات المحبوبة ، التي يميل إليها الناس ميلا خاصا . ويقال إن مؤلفه طبيب هندي يسمى سندباد ، وهو يحتوي على كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك (مروج الذهب ج ١ ص ١٦٢) .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٣٠٤ .

(٤) رسائل ابي العلاء المعري طبعة مرجليوث ص ١٠٢ .

ولكن روح ذلك العصر الجديدة التي خرجت عن النزعة العربية الأولى كانت تتجه إلى ما هو أجنبي ، وسرعان ما وجدنا حتى من العلماء والمعتبرين من الأدباء من لم يجد غضاضة على مكانته أن يؤلف أسماراً من النثر السهل ، غايتها مجرد التسلية ؛ فمثلا ابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ، صاحب تاريخ الوزراء ، بتأليف كتاب على نسق كتاب ألف ليلة وليلة ، فاختار ألف سمر من أسمار العرب وغيرهم ، وكتب منها أربعمائة وثمانين سمراً ، ولكن المنيّة عاجلته قبل تتميمه الألف . ومما يجب ملاحظته أن الجهشياري لم يهتم لوصل قصصه بعضها ببعض ؛ ولهذا الوصل سحره وتأثيره الخاص فينا ، لأنه يحببنا في مواصلة القراءة بل جعل الجهشياري كل سمر قائماً بذاته ، ويكفي لليلة واحدة[1] . ومن هذا النوع الكتبُ المسلّيةُ التي ألّفها القاضي التنوخي (المتوفى عام ٣٨٤ هـ ــ ٩٩٤ م) . وأخيراً جاء المؤرّخ الكبير مسكويه (المتوفى حوالي عام ٤٢٠ هـ ــ ١٠٢٩ م) ، وكان أكبر مؤرخي القرن الرابع ، فألّف كتاب « أُنس الفريد » ، « وهو أحسن كتاب صُنّف في الحكايات القصار والفوائد اللطاف[2] » .

وهذه القصص الجديدة هي من نوع يغاير كل المغايرة القصصَ القديمة التي ألفها ابن قتيبة وصاحب العقد ؛ ففيها نجد لأول مرة تمام الأسلوب القصصي الإسلامي ، أعني طريقة القصص التي ليست عربية خالصة : وإلى جانبها انتشرت كتبٌ شعبية كثيرة لا يُعرَف مؤلفوها ؛ منها قصص في الفروسية كالتي تحكي عن عروة بن عبد الله ، وأبي عمر الأعرج ، وكتبٌ في النوادر والحكايات مثل حكايات جحا وحكايات ابن المعاملي المغني المشهور ، وكتبٌ هزلية مثل قصة عاشق البقرة ،

---

(١) الفهرست ص ٣٠٤ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطي ص ٣٣١ ــ ٣٣٢ من الطبعة الأوروبية .

والسنور والفأر[1] ، وخرء الطائر ، وكتاب ذات الطيب ، ثم مجموعة كبيرة من القصص الغرامية وخصوصاً حكايات الشعراء المشهورين وأهل الدهاء من النساء العاشقات . وكذلك شغلت قصص الحب بين الآدميين وبين الجن مكاناً كبيراً[2] ؛ وقد ذكر المؤرخ حمزة الأصفهاني حوالي عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م أنه كان في عصره من كتب السمر التي تتداولها الأيدي ما يقرب من سبعين كتاباً[3] . وكان من بين هذه الكتب القصصُ التي كان يؤثرها أهل الطبقة الراقية والتي يغلب عليها الوَلَهُ واللذةُ بسفح الدموع ؛ وكان يثير تولّهَ العشاق ما روي عن بني عذرة من أن أحدهم « كان يموت إذا عشق » ، وعن أبطال القصص الغرامية الذين يموتون من شدة الفقد ، وتتضعضع أعضاؤهم من شدة الوجد[4] .

وإلى هنا وقف النثر العربي إلى اليوم .

٢ - الشعر

كانت مدن العراق الكبرى مهداً لشعر المُحْدَثين ؛ أما قائدهم فيعتبر بشّار بن برد الذي نشأ بالبصرة ، وتوفي عام ١٦٨هـ — ٧٨٤م[5].

---

(١) الأوراق للصولي ص ٩ .

(٢) الفهرست ص ٣٠٨ .

(٣) كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء عليهم الصلاة والسلام تأليف حمزة بن حسن الاصفهاني طبعة جوتفالد ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) الموشّى للوشّاء ، طبعة ليدن ١٣٠٢ هـ ص ٦٤ وما بعدها .

(٥) ألف المرزباني (المتوفى عام ٣٧٨ هـ) كتابا كبيراً في اخبار الشعراء المحدثين وجعل اولهم بشار بن برد وآخرهم ابن المعتز (الفهرست ص ١٣٢) . ويقول ابن خلاّد الشاعر =

وكان أبوه طيّاناً يضرب اللبن[1] . وقد وُلد بشار أعمى ، وكان ضخما طويلا عظيم الخلق والوجه ؛ وقد سخر منه رجل بأن قال له كأنك فيل عرضك أثقل من طولك ؛ وذلك عندما رُوي له قولُ بشار :

في حُلّتي جسمُ فتى ناحل   لو هبّت الريحُ به طاحا[2]

وكان بشار إذا أراد أن ينشد شعراً صفّق بيديه ، وتنحنح ، وبصق عن يمينه وشماله ، ثم ينشد ، فيأتي بالعجيب[3] . ويُحكى عن رجل أنه قال : « عهدي بالبصرة وليس فيها غَزِلٌ ولا غَزِلَةٌ إلا يروي من شعر بشار ؛ ولا نائحة ، ولا مغنّية إلا تتكسّب به ، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخشى معرّة لسانه[4] » . على أن بشاراً قصد بغداد وأنشد قصائده أمام الخليفة المهدي ؛ ويقال : إنه ألف اثني عشر

= في شطر بيت له : والآخرون يقودهم بشار (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٥) ؛ وهو يسمي قائد المحدثين (حمزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس طبعة القاهرة ١٨٩٨ م ، ص ١٠ ــ ١١ ، والحصري على هامش العقد ج ٢ ص ٢١) .

(١) الأغاني ج ٣ ص ٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ و ٦٥ . ويحكي عن رجل أنه قال : مررت بشار ، وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس (نفس المصدر ص ٥٦) .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢ . وكذلك كان البحتري من أبغض الناس إنشاداً ، فكان يتشدق ويتزاور في مشيه مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى ، ويشير بكمه ويقول : أحسنتُ والله ؛ ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنتَ ، هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله (الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٠٤) . وكان في بعض البلاد في أثناء القرن الرابع الهجري شعراء يظهرون شذوذ الشعراء كما كان الحال في العصور المتقدمة ؛ ويحكى عن أحدهم أنه دخل على بعض الولاة ، وقد طين وجهه بطين أحمر ، ولبس لبادا أحمر وعمامة حمراء ، وأمسك عكازا أحمر ، ولبس في رجليه خفين أحمرين (كتاب الديارات ص ٨٦ ب) .

(٤) الأغاني ج ٣ ص ٢٦ .

ألف قصيدة من الشعر ، وهو من أحسن ما يؤثر[1] .

وكانت لغة شعر بشار هي لغة كل الشعراء القدماء ؛ ويذكر أنه كان ينزل بظاهر البصرة قوم" من أعراب قيس عيلان ؛ وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره[2] ؛ وكان بشار عليما بأسرار اللغة حتى اعتبره اللغويون حجة . ولكن هذا كله كان على الطريقة القديمة ، فلم يبتكر الشعراء المحدثون صوراً جديدة ، ولا هم اكتشفوا مادة جديدة إلا نادراً ، وإن كانوا قد افتتحوا قصائدهم بذكر الورد والنيلوفر وما أشبههما من أزهار الرياض والبساتين ، على حين كان أهل البادية يفتتحون قصائدهم بذكر الخزامى والبهار والعرار ونحوها من زهر البريّة[3] ، وإن كانوا أيضاً تركوا وصف حمار الوحش إلى وصف البهائم ، كما فعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف الكاتب الذي كان يتولى ديوان الرسائل للمأمون[4] ، أو إلى وصف القطط المنزلية ، كما فعل ابن العلاف (المتوفى عام ٣١٨ هـ — ٩٣٠ م)[5] .

---

(١) وقد قتل بشار ، وهو يناهز الستين أو نيف على السبعين ؛ وقد نكبه الدهر بفقد جميع أصدقائه قبل ذلك . وقد قال في أشعاره إنه لم يبق إلا الناس الذين لا يعرفون ما هو الكلام ؛ وقد ذم المهدي ، فسُعي به إليه ، وقيل له إنه زنديق ؛ فأمر بضربه ضرب التلف حتى مات ؛ فألقيت جثته بالبطيحة ، فحمله الماء إلى دجلة البصرة ؛ فأخذ ودفن ، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ؛ رُؤيت تسير خلف جنازته وتصيح : وا سيداه وا سيداه ! (الأغاني ج ٣ ص ٧١ — ٧٢) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٣ ص ٥٢ .

(٣) العمدة لابن رشيق ص ١٥٠ طبعة مصر ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .

(٤) الأغاني ج ٢٠ ص ٥٦ .

(٥) الدميري ج ٢ ص ٣٢١ . لابن العلاف قصيدة طويلة رثى بها هراً ، وقد اختلف في سبب عملها ، فقيل : كان له قط حقيقة ؛ فقتله الجيران ، فرثاه . وقيل : بل رثى بها صديقه ابن المعتز ، ولم يصرح بذكره خوفا من المقتدر ، فورى بالقط . وقيل : بل هويت =

أمّا الجديد فكان هو البحث عن الطرائف البديعة التي تخالف المألوف والتي تسمّى الطيّبة[1] ، وهو أثر من آثار تدهور الحضارة التي دخلت في الشعر العربي حينما آلت القيادة إلى الأخلاط الذين سكنوا المدن •

وحدث في الشعر ما حدث في النثر ، ذلك أن الميل إلى الطرائف والمسليات قتل في الناس الميل إلى شعر البطولة القديم ؛ وقد امتُدح الجاحظ ، لأنه كان مؤسس الطريقة الجديدة التي تجمع بين الجد والهزل ، وكذلك نال بشار" — زعيم الشعراء المحدثين — إعجابَ أبي زيد اللغوي والأصمعي • وأول ما أعجبهما فيه أنه كان يجدّ ويهزل ، على حين أن منافسيه من المتمسكين بمذهب الأوائل لم يكونوا يحسنون إلا واحداً من هذين[2] • وكذلك أعجب الأصمعي في بشّار أنه كان أكثر تصرفاً في فنون الشعر ، وأغزر وأوسع بديعاً من غيره[3] • أما إسحاق الموصلي الذي كان يتحمس لمذهب القدماء فقد كان لا يعتدّ بشعر بشار ، ويقول : هو كثير التخليط في شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً ، فمنها المتناهي في الجودة ومنها غير الجيد ، وهو يذكر لبشار هذين البيتين :

إنمــا عظــم سليمي حبّتــي   قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيــت منهــا بصــلا   غلب المسكُ على ريح البصل

= جارية لعلي ابن عيسى الوزير غلاما لابن العلاف، ففطن بهما علي بن عيسى، فقتلهما جميعا. فرثى ابن العلاف غلامه وكنى بالهر (تاريخ أبي الفدا ج ٢ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ تحت عام ٣١٨) ، وقد كتب الصاحب بن عباد مرثية لقط عارض فيها ابن العلاف (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣) .

(١) أخذت كلمة « طيب » تظهر في صفة ذلك ، وهي من الكلمات المحبوبة عند الجاحظ ؛ انظر . Van Vloten, Livre des Avares, S. III.

(٢) الاغاني ج ٣ ص ٢٥ .

(٣) الاغاني ج ٣ ص ٢٤ .

ويقول إن هذا يزري بشعره ، مهما كان فيه من الجيد[1] .

وكان « الطيب » ، وهو البديع المستطرف ، في نظر الشعراء القدماء ، شيئاً زائفاً ، لا حقيقة وراءه ؛ ولكنه انتشر عند المحدثين ، وكانت الكلمة الجارية في وصف الشعر الحسن في القرن الثالث هي « البديع » ، أي الطريف المستحدث[2] . وقد كتب ابن المعتز (المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م) — وهو من أكبر الشعراء — كتاباً خاصاً بهذا المعنى .

وقد تبوّأت المعاني المقام الأول ، كما هو الحال في كل شعر غايته الجري وراء المستطرفات وكان الشعراء يتلمسون العباراتِ ذات المعاني الرائعة والتنويع في تأليف الأبيات الشعرية وفيما تتضمنه من تشبيهات وتصورات . ومن هنا جاءت المعاني التي زادها بشار بن برد وأصحابه ، فإنهم أتوا « بمعانٍ ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي »[3] . وقيل لبشار : بِمَ فَقْتَ أهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ قال : « لأني لم أقبل كل ما تورده عليّ قريحتي، ويناجيني به طبعي ، ويبعث به فكري ؛ ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ؛ فسرت إليها بفكر جيّد ، وغريزة قوية ؛ فأحكمتُ سَبْرَها ، وانتقيتُ حُرَّها ، وكشفتُ عن حقائقها ، واحترزتُ عن مُتَكَلَّفِها »[4] .

(١) نفس المصدر ص ٢٨ .

(٢) وتتصل كلمة « بديع » من حيث الاشتقاق بمعنى ما هو فريد في بابه أو غريب أو مستحدث .

(٣) العمدة ج ٢ ص ١٨٥ .

(٤) نفس المصدر .

ومن شعر بشار الذي يُعتبر « مستحدثاً » ومثالا للمعاني المبتكرة والشعر الجيد قوله في وصف حُبّه ، وهو المكفوف البصر ، لصوت امرأة تكلمت معه :

يا قوم! أُذْني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا: بمن لا ترى تهذي، فقلت لهم: الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وهو يزيد هذا المعنى بساطة ودقة في صورة أخرى له، حيث يقول :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها قلبي ، وأمسى به من حبها أثرُ :
أنّى، ولم ترها، تهذي! فقلت لهم: إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر[1]

وكانت عادة الشعراء ، فيما سلف ، أنهم كانوا يشبهون الخدود بالورد ؛ أما اليوم فإن الورد يشبّه بالخدود يضاف بعضها إلى بعض .

وقد أنشد أحد الشعراء أمام رجل هذا البيت :

عشيّة حيّاني بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

فأُعجب السامع حتى زحف إلى المنشد وطلب الزيادة[2] . وقد نال أعظمَ الإعجاب ، واعتُبر من « البديع » قولُ ابن الرومي (المتوفى عام ٢٨٠ هـ ــ ٨٩٣ م) :

يجذب من نقرته طرةً إلى مدى يقصر عن نيله
فوَجْهه يأخذ من رأسه أَخْذ نهار الصيف من ليله

وهو يشير بالليل والنهار إلى لون الشاعر الأسود وجمال بياض جلد الرأس[3] .

---

(١) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ ؛ وتجد صورة أخرى لهذه الابيات في الاغاني ج ٣ ص ٦٧ ، وقد كان عمر بن أبي ربيعة هو صاحب طريقة قالوا وقلت في شعر الغزل .

(٢) كتاب الديارات ص ٥ ب .

(٣) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ .

وكان ابن الرومي هذا متطرفاً في حكمه على الشعراء المحدثين ، حتى كان يزعم أن بشاراً أشعر الناس جميعا ممن تقدم وتأخر[1] ، وهو حكم كان يقفّ له شَعَر الأدباء واللغويين في ذلك العصر .

على أن ابن رشيق ، ناقد الشعر المعروف (المتوفى عام ٤٦٣ هـ ـــ ١٠٧١ م) ، قرر بعد ذلك بمائتي عام أن ابن الرومي نفسه أكبر الشعراء المحدثين . وهو يروي له البيت المتقدم ويقدّمه بقوله : فقال ابن الرومي ، وأحسن ما شاء[2] .

وهذه الطريقة الجديدة قوّت ما عند الشعراء الموهوبين من ميل طبيعي إلى الاستقلال في رؤية الأشياء بعيونهم لا بعيون المتقدمين وإلى الابتكار في عبارتهم ، تقوية كبيرة ، وأصبح لا يحمد لهم أن يسيروا على المناهج السهلة المطروقة . ولهذه الطريقة الجديدة يرجع الفضل في هذه الملاحة الطبيعية التي تشبه الكَحَل من غير تكحّل والتي نجدها مثلا في رثاء بشار لبُنَيَّةٍ صغيرة له[3] :

يا بنتَ من لم يَكُ يهوى بنتا	مـــا كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حللت في الحشى وحتى	فتتت قلبي من جوى فانفتا
لأنتِ خيرٌ مـــن غلام بتـــا	يصبح سكران ويمسي بهتـــا

أو ما قيل في وداع جارية[4] :

تقول غداة البين إحدى نسائهم :	ليَ الكبدُ الحرّي ،فسِرْ !ولكالصبر
وقد خَنَقتها عبرةٌ ، فدموعها	على خدها بيضٌ وفي نحرها صفر

(١) حمزة الاصفهاني في ديوان ابي نواس طبعة القاهرة ١٨٩٨ ص ١٠ .
(٢) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٤ (؟) .
(٣) الأغاني ج ٣ ص ٦٣ .
(٤) حلبة الكميت ص ١٩١ .

أو في أنواع التصوير القوية التي نجدها عند أبي نواس[1] . (المتوفى حوالي عام ١٩٥ هـ ـ ٨١٠ م) والتي تذكرنا بما في أغانينا الشعبية من نحو تشبيهه فعل الحب بالقلب بفعل القط بالفأر[2] .

أو في التمثيل الرفيع الذي نجده عند ابن المعتز (المتوفى عام ٢٩٦ هـ ـ ٩٠٩ م) في قوله[3] :

وجلجل رعد مـن بعيد كأنه　　أميرٌ على رأس اليفاع خطيب

أو قوله[4] :

رددتُ إلى التقى نفسي، فقرَّت،　　كما رُدَّ الحسامُ إلى القراب

أو قوله في إحدى الخمريات[5] :

فانظرْ إلى دنيا ربيع ! أقبلت　　مثـلَ النساء تبرّجت لزناة
والكمأة الصفراء بادٍ حجمُها،　　فبكلِّ أرضٍ موسمٌ لحياة

أو قوله[6] :

زارني، والدجى أصمُّ الحواشي،　　والثريّـا في الغـرب كالعنقود

(١) نشأ ابو نواس في البصرة ، وكثيراً ما كان يتبع بشاراً ويصب على قوالب معانيه ، كما يقول حمزة الأصفهاني (ديوان ابي نواس ص ١٠) . ويحكي عن الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ ـ ٨٦٩ م انه قال : لا أعرف بعد بشار مولّداً أشعر من ابي نواس (ديوان ابي نواس ص ٩) .

(٢) ديوان ابي نواس ، مخطوط فينا رقم ٧٣٤ ص ١٦٧ ب (؟) .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٥ . وكذلك يقول ابو تمام (في الديوان طبعة بيروت ١٨٨٩ م ، ص ٣٧٠) :

فقام فيها الرعد كالخطيب　　وحنت الريح حنين النوب

(٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٦ .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٤ .

(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ١١٠ .

وهلال السماء طوق عروس | بات يجلى على غلائل سود

أو قوله[1] :

أطال الدهرُ في بغداد همّي | وقد يشقى المسافر أو يفوز
ظللت بها على كُرهٍ مقيماً | كعنين تعانقه عجوز

وكثيراً ما يكون في شعر هؤلاء الشعراء ابتكار" كبير فمن ذلك قول أبي نواس :

تقول غداةَ البين إحدى نسائهم | ليَ الكبدُ الحرّي،فسِرْ!ولك الصبر
وقد خَضَبَتْها عبرة" ، فلدمعها | على خدّها خَدٌ وفي نحرها نحر[2]

أو قول ابن المعتز[3] :

انظُرْ إلى حُسْنِ هلال بدا | يهتك من أنواره الحِنْدسا
كمِنْجَلٍ قد صيغ من فضة | يحصد من زهر الدجى نرجسا

أو قول ابن الرومي[4] :

وقد نشرت أيدي السحاب مطارفا
على الأرض دُكْناً وهي خُضْر" على الأرض
يطرّزها قوسُ الغمام بأصفر | على أحمر في أخضر وسط مُبْيَض"
كأذيال خود أقبلت في غلائل | مصبّغة،والبعضُ أقْصَرُ من بعض

ونجد هذا الجريَ وراء ما هو غير مألوف من المعاني الجديدة

(١) نفس المصدر ص ١٢٢ .
(٢) ديوان أبي نواس ص ٨ .
(٣) الديوان ج ٢ ص ١٢٢ .
(٤) العمدة ج ٢ ص ١٨٤ .

يتمشى في الشعر العربي طول القرن الرابع الهجري ؛ وهو قد أيقظ جميع حواس الشاعر ونبّهها تنبيها كبيراً ، ليستخرج أعمق ما في باطن الأشياء من أسرار ، وليكشف عن أغرب خصائصها . وأول ما نلاحظه أن الشعر لم يكن له بدّ من أن يقوم مقام الفن التصويري ؛ فالكثير مما يعبر عنه الشعر ما هو إلا تصوير ورسم لما تجيش به نفس الشاعر ويضطر إلى إبرازه في صورة من الألفاظ . وقد قويت في الشعراء رغبة عظيمة للنظر بأعينهم ، وقامت في نفوسهم حاجة إلى النظر في الأشياء نظرة فنية ، وإلى الإبانة عنها إبانة توضحها لهم . وهذا ما لم يعرفه العرب الأولون ؛ فقد كان فنهم فنّا لغوياً أداته الألفاظ . وقد اتصل العرب بشعوب أخرى تختلف عنهم اختلافا تاما ؛ وقد كان لهذه الشعوب فنونٌ غير الفنون الكلامية ، ولكن العرب لما غلبوا عليهم علموهم الكلام لا التصوير ، أي أنهم وضعوا في أيديهم القلم بدلا من ريشة الرسام المصوِّر ؛ ولما آل الأمر إلى هذه الشعوب وأصبحت هي القابضة على زمام الفن الأدبي ، زاد الشعر التصويري زيادة كبيرة ، بعد أن لم يجد أبو تمام ما يصلح للاختيار في باب الأوصاف حتى يذكره في ديوان الحماسة إلا بضعة عشر بيتاً . وكان شعراء العرب القدماء قد اختصروا دائماً في وصف الطبيعة المحيطة بهم بنوع خاص ، وكانوا منذ القدم يذكرون شيئاً من وصفها في شعر الشراب ، وخصوصا في وصف الأيام الممطرة المُدْجِنة التي كان يحلو لهم فيها الشراب عادة ؛ أما الشعراء المتأخرون فقد جاءوا في هذا الباب بأدق التشبيهات ؛ فيقول ابن الرومي مثلا[1] :

يومُنا للنديم يومُ سرور والتذاذٌ ونعمــةٌ وابتهاجُ

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠ .

ذو سماء كأدكن الخز قد غيـــمت وأرض كأخضر الديباج

ويقول الوزير أبو محمد المهلبي[1] :

يـوم كـأن سمـاءه شبـه الحصان الأبرش
وكـأن زهـرة روضه فرشت بأحسن مفرش
فسماؤه دكـن الخزوز وأرضه حصـر الوشي

وكان القدماء يفضلون الشراب في الليل أو عند طلوع الفجر الأول ، في الوقت الذي قال فيه ابن المعتز[2] :

حـان ركـوع أبريـق لكأس ونادى الديك حيَّ على الصبوح

وكذلك قال أبو نواس في قصيدتين له شيئاً من هذا ، فمن ذلك[3]:

قد هتك الصبحُ ستورَ الدجى فـانحسرت أثوابـه الجـون
فـأصبحْ نداماك سخاميـة أتـى لهـا في دَنّهـا حـين

وبعد ذلك بنحو قرن نجد ابن المعتز قد جاء في هذا بالكثير المتنوع فمن ذلك قوله[4] :

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠ .
(٢) الديوان ج ٢ ص ٣٦ .
(٣) ديوان أبي نواس ص ٣٤٩ ؛ وقد افتتح ابو نواس إحدى خمرياته بما هو اكثر تواضعاً :

طـاب الزمـان وأورق الأشجار ومضى الشتاء وقـد أتى آذار
وكسى الربيع الأرض من أنواره وشيـا تحـار لحسنـه الأبصار(ص٢٩٠)

اما كلامه بعد ذلك عن الجنان الخضراء وغناء الأطيار فلا يتمشى مع بقية القصيدة ، ولعله من وضع المتأخرين ؛ ومن هذا القبيل ما نسبه المسعودي (مروج الذهب ج ٨ ص ٤٠٧ - ٤٠٩) لأبي نواس من قتال بين الأزهار في قصيدة له ؛ فهو لا يوجد في الديوان ، واصله يرجع إلى المتأخرين .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٧ .

قم يـا نديمي نصطبح بسواد   قد كاد يبدو الصبح أو هو باد
وأرى الثريا في السماء كأنهـا   قـدم تبدّت في ثيـاب حداد

وقوله[1] :

قد بدت فوق الهلال كرته   كهامة الأسود شابت لحيته

على أنه في عصر ابن المعتز نفسه بدأ الناس ينصرفون عن الشراب في هذا الوقت الغريب ، وابن المعتز يصفه أحيانا بعدم الملاءمة ، فمن ذلك قوله[2] :

إذا أردت الشرب عند الفجر   والنجم في لجـة ليل يسري
وكان بـرد بالنسيم يرتعـد   وريقه على الثنايا قـد جمد
وللغـلام ضجـرة وهمهمـه   وشتمة في صـدره مجمجمه
يمشي بلا رجل مـن النعاس   ويدفق الكاس على الجلاس
أعجل مـن مسواكه وزينته   وهيئة تنظـر حسن صورته
فجاءهـم بفسـوة اللحـاف   محمولة في الثوب والأعطاف
فـأي فضل للصبوح يعرف   على الغبوق والظلام مسرف

وعند ابن المعتز نفسه نجد الشعور بجمال الطبيعة والتمتع به يظهر قوياً في الخمريات ؛ فقد بدأ أصحاب الشراب يتمتعون بجمال الجنان والأشجار ، ويشربون بين الورد والنرجس والجلّنار والأقحوان وغناء الطيور ، وذلك كله في الربيع « وموسم الحياة »[3] .

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٠ .
(٢) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٣ .
(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٤ ، ٥١ ، ١١٠ – ١١١ .

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري نبغ شاعران شاميان ، وكانا صديقين ، فأنشآ قصائد تغنّيا فيها بالبساتين وما لها من جمال داني القطوف متنوع النواحي يخلب الألباب ، وبلغا بذلك الشعر إلى الذروة .

أما أولهما فهو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري[1] . ولد هذا الشاعر بأنطاكية ، وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدولة[2] . ويدل لقبه ، « الصنوبري » ، على أنه هو أو أباه كان يتجر في خشب الصنوبر[3] . ولما كان المخروط الشكل يسمى الصنوبري تشبيهاً له بحمل شجرة الصنوبر[4] ، فقد يجوز أن يكون هذا الشاعر لقب بهذا اللقب على سبيل الإشارة إلى صفته وصورته . وله لقب آخر هو « الصيني » ، وليس في هذا ما يدعونا إلى الظن بأنه ذهب إلى الصين ؛ فقد كان بالكوفة مثلا رجل" يسمى الصيني ، لأنه كان يتجر إلى الصين ، فنُسب إليها[5] . وقد مات الصنوبري في عام ٣٣٤ هـ ـــ ٩٤٥ م[6] ، وهو يناهز الخمسين على الأقل[7] . ونعرف من حياته أنه كان صديقاً

---

(١) هكذا في الفهرست ص ١٦٨ ، وعند أبي المحاسن (ج ٢ ص ٣١٢ تحت عام ٣٣٤) : احمد بن محمد بن الحسن الضبي الحلبي ؛ وعند ياقوت (ج ٢ ص ٣١١) : محمد بن مرار، وعند الكتبي (ج ١ ص ٦١) : أحمد بن محمد .

(٢) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) يذكر ابن حوقل (ص ١٢١) أنه كان على شط البحر مكان يعرف بحصن التينات فيه مقطع لخشب الصنوبر الذي كان ينقل إلى مصر والشام والثغور . ويقول الشريف الادريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق طبعة براندل ص ٢٣) إنه كان لبيروت غيضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبيها تتصل إلى جبل لبنان ، وتكسير هذه الغيضة اثنا عشر ميلا في مثلها .

(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٢٠٧ .

(٥) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٢ .

(٧) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٦٥ .

للشاعر كُشاجِم ، وأن كشاجم وصفه بأنه « بحر" ما له شط"[١] » ، وأنه طلب يد ابنته[٢] ، وعزاه عن فقد ابنة أخرى له تُوفِّيت بكراً[٣] .

وقد تغنى كثيراً بذكر حلب والرقّة ، وهما أكبر بلدين كانا مقرّاً لسيف الدولة . على أنه سكن الرُّها ، وكان يجتمع في دكان ورّاق يقال له سعد بكثير من أدباء الشام ومصر والعراق[٤] . وكانت له بمدينة حلب حديقة بها قصر فخم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج[٥] ، ولذلك يسمى الحلبي . وكان الصنوبري صغيراً فلم يَنَل مكانا في كتاب الأغاني ، وكان مسنّاً فلم يَنَلْ مكانا في يتيمة الدهر ؛ ولذلك بقي ديوانه مفرقا ، ولم يوجد منه إلاّ أجزاء صغيرة ؛ وإنْ كان الصولي قد رتّبه على حروف الهجاء ، وجمعه في مائتي ورقة[٦] ؛ فلا بد أن تُجمع بقاياه من كل ناحية . يقول الصنوبري في وصف سرير من الشقيق أحاط به ورد أبيض[٧] :

قد أحدق الورد بالشقيق خلال بستانك الأنيق
كأن حوله وجوه مستشرقات إلى حريق

ويقول[٨] :

وكأنّ مُحْمَرّ الشقيـ ـق إذا تصوّب أو تصعّد

(١) ديوان كشاجم طبعة بيروت ١٢١٣ هـ ، ص ١١٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٧٤ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٧١ وما بعدها .
(٤) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣ .
(٥) ديوان كشاجم ص ٧٤ .
(٦) الفهرست ص ١٦٨ .
(٧) كتاب الديارات ص ١٩٧ .
(٨) ريحانة الألباب للخفاجي ص ٢٥٦ .

أعـلام يـاقوت نثشر ن على بساط مـن زبرجـد

ويقول[1] :

ياريم قومي الآن،ويحك!فانظري ما للرُبى قـد أظهرت إعجابهـا
كانت محاسن وجههـا محجوبة فالآن قد كشف الربيع حجابهـا
ورد بدا يحكي الخدود ونرجس يحكي العيون إذا رأت أحبابهـا
وثيـاب باقلاءٍ يشـبه نورُه بلقَ الحمـام مشيلة أذنابهـا
والسرو تحسبه العيون غوانيـا قد شمرت عن سوقها أثوابَهـا
وكأن إحداهن من نفح الصبـا خودٌ تلاعب موهنا أترابهـا
لو كنت أملك للرياض صـيانة يومـا لما وطيء اللئام ترابهـا

ويعتبر الصنوبريُّ النرجس ملكا للأزهـار ، فمـن قولـه في النرجس[2] :

أرَأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهن وسط المجلس
درر تشقّق عـن يواقيت علـى قضب الزمرد فوق بسط السندس
أجفـان كافـور حففن بأعـين من زعفـران ناعمـات الملمس
فكأنهـا أقمـار ليـل أحدقت بشموس أفق فوق غصـن أملس

والنرجس هو أعظم أزهـار الشام ، وهو الذي يجعل مراعيهـا بيضاء ناصعة[3] .

---

(1) فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ٦١ ؛ وكتاب من غاب عنه المطرب للثعالبي ، طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ ، ص ٢٥ .

(2) فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ٦١ طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(3) رحلة ناصر خسرو (سفر نامه) ص ٣٩ من ترجمة شيفر (Schefer) . بعـد ذلك يذكرنا ناصر خسرو بجزيرة النرجس التي في طرابلس الشام .

وكذلك وصف هذا الشاعر معركة بين الأزهار فقال[1] :

خجل الوردُ حين لاحظه النر ... جسُ من حسنه وغار البهار
فَعَلَتْ ذاك حمرة" وعَلَتْ ذا ... صفرة" واعترى البهارَ اصفرارُ
وغدا الأُقحوان يضحك عجباً ... عن ثنايا لثامهن نضار
ثم نمّ النمّام واستمع السو ... سن لما أُذيعت الأسرار
عندها أبرز الشقيق خدودا ... صار فيها من لطمه آثار
سكبت فوقها دموع من الطل ... كما تسكب الدموع الغزار
فاكتسى البنفسج الغض أثوا ... ب حداد دخانها الاصطبار
وأضرّ السقام بالياسمين الغض حتى آذى به الإضرار
ثم نادى الخيري في سائر الزهر فوافاه جحفل جرّار
فاستجاشوا على محاربة النر ... جس بالجحفل الذي لا يبار
فأتوا في جواشن سابغات ... تحت سجف من العجاج يثار
ثم لما رأيت ذا النرجس الغ ... ض ضعيفاً ما إن لديه انتصار
لم أزل أعمل التلطّف للور ... د حذاراً أن يَغلب النوّار
فجمعناهمو لدى مجلس فيـ ... ـه تغني الأطيار والأوتار
لو ترى ذا وذا لقلت خدود ... تدمن اللحظ حولها الأبصار

---

(1) فوات الوفيات ج ١ ص ٦١ ؛ وينسب المسعودي (ج ٨ ص ٤٠٧) لأبي نواس قصيدة يصف فيها قتالا بين الزهور حيث نجد الزهور ، الحمراء مثل الورد والجلنار وتفاح لبنان تحارب الأزهار الصفراء مثل النرجس والبهار والاترج . وهذه النسبة لا يمكن أن تكون صحيحة لأسباب يقتضيها النقد الداخلي . ولا نجد هذه القصيدة في نسخة الديوان التي طبعت ببيروت ، ولا يمكن أن تكون هذه القصيدة من قول الصنوبري للذكر باطرنجي فيها ، ولأن الورد فيها يفضل على النرجس .

وفي القرن الثالث وصف البحتري بركة في دار الخلافة فقال :

تنصبّ فيها وفود الماء مُعْجَلةً كالخيل خارجةً من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها لِبُعد ما بين قاصيها ودانيها
يَعُمْن فيها بأوساط مجنحة كالطير تنقضّ في جو خوافيها[1]

والآن نجد الصنوبري يشبه بركة بموضع يصفه، تشبيها لا يخلو من تطرف ومبالغة ، فيقول[2] :

هي الجو من رقة غير أن مكان الطيور يطير السمك

ولكن لما كان الصنوبري شاعراً وصّافاً للجنان فهو يقول في تلك القصيدة :

وقد نظم الزهرُ نظم النجوم فمفترق النظم أو مشتبك

وكان الصنوبري ، وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي ، يجمع إلى ذلك ولوعاً شديداً بالسماء والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، فهو يقول في إحدى أغاني الربيع[3] :

إن كان في الصيف ريحانٌ وفاكهة والأرض مستوقد والجو تنّور
وإن يكن في الخريف النخل مخترقاً فالأرض عريانة والجو مقرور

---

(١) ديوان البحتري ج ١ ص ١٧

(٢) الحصري على هامش العقد ج ١ ص ١٨٣ .

(٣) قارن الوفيات للكتبي ج ١ ص ٦١ ، ونثر النظم ص ١٤٥ .

وإن يكن في الشتاء الغيث متصلا فالأرض محصورة والجو مأسور
ما الدهر إلا الربيــع المستنير إذا جاء الربيع أتاك النوْر والنَّور
والأرض ياقوتة والجــو لؤلؤة والنبت فيروزج والمــاء بلّــور
تبارك الله ! ما أحلى الربيع ! فلا تغرر فقايِسُه بالصــيف مغرور
من شم طيب جنيات الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور

وكان أول من تغنى بالقصائد الثلجيات ، ومن ذلك قوله[1] :

ذهِّب كؤوســك يــا غــلا م فإنه يوم مفضَّض
والجــو يُجلى في البيــا ض وفي حليّ الدرّ يعرض
أتظن ذا ثلجــاً وذا ورد على الأغصان ينفض
ورد الــربيــع ملـــون والورد في كانون أبيض

وقد ترك الصنوبري آثاراً قوية في الأدب العربي ، وقد ظهر أول أثر له عند كشاجم[2] شريكه في الوطن وصديقه الحميم ؛ وقد عبّر كشاجم عن هذه الصداقة بقوله[3]:

أتنسى زمنــاً كنـــا به كالماء في الخمر
ألــيفيْن حليفــيْن عــلى الإيســار والعسر
مكبّيْن عــلى اللذّا ت في الصحو وفي الســكر

---

(١) نشر النظم للثعالبي طبعة دمشق ١٣٠٠ هـ ، ص ١٣٧ .

(٢) كان كشاجم شاعرا كاتباً ؛ وإلى جانب ذلك كان منجما وصاحب مطبخ لسيف الدولة ، (انظر ديوانه ويتيمة الدهر ج ٤ ص ١٥٧) .

(٣) ديوان كشاجم ص ٧٤ .

تــرى في فــلك الآدا ب كالشمس وكالبدر

وقد سار كشاجم في شعره على الطريق الذي رسمه صديقه الصنوبري ، فاقتدى به ، في التغني بملذات العــين ، فمن ذلــك قول كشاجم[1] :

أقبلت في غلالــة زرقــاء زرقة لقيت بجري المــاء
فتأملت في الغــلالة نهبـاً جسد النور في قميص الهواء
هي بــدر ، وإنّ أحسن لــون ظهــر البــدر فيــه لون السماء

وهو يصف مليحة في لباس حداد بقوله :

في حــداد كأنها وردة في بنفســج

ويقول في غلام :

كلف الفؤاد بشــادن أبصرتــه في مأتــم يبــكي بطــرف أدعج
ما زال يخمش خــده ببنانه حتى تنقّب ورد ببنفسج[2]

وقال يتغزّل في نهــر قويق بحلب[3] :

والأرض تكسى بزهر الر يــاض وشيــا معمــد
كــأن خــرّد عِينــا بهــا يضاحكن خــرّد
. . . . . .
وحمــرة في شقيــق وخضــرة في زبرجــد

(١) ديوان كشاجم ص ٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٢١ ، ٢٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٨ وما بعدها .

وأقحوان كعقد من لؤلؤ قد تبدّد
والنرجس الغض يرنو إلى البهار المنضّد
كما أشار حبيب إلى حبيب بموعد
والنهر بين اعتدال من سيره وتأوّد
كأفعوان تلوّى ثم استوى وتمدد
كأن فيه سيوفاً مهنّدات تجرّد
فتارة هي تنضى وتارة هي تغمد
كأن لنيلوفر النهر فيه سراج توقد
طوراً تضيء وطوراً بشدة الريح تخمد

وهو يقول في وصف نيل مصر[1] :

كأن النيل حين أتى بمصر وفاض بها وكسرت التراع
وأحدق بالقرى من كل وجه سماوات كواكبها ضياع

وكذلك نظم قصيدة في وصف الثلج منها قصيدة أولها :

الثلج يسقط أم لجين يسبك أم ذا حصا الكافور ظل يفرك

على أنه في هذه القصيدة قال ما يدل على عدم انصقال الذوق ، ومن ذلك قوله في وصف الثلج :

راحت به الأرض الفضاء كأنها من كل ناحية بثغر تضحك[2]

(١) كتاب الديارات ص ١١٥ ا .
(٢) ديوان كشاجم ص ١٤٠ .

وكان لكشاجم كثير من المعجبين ، وقد قال أحدهم :

يا بؤس مـــن يُمنى بدمع ساجم   يهمي على حجب الفؤاد الواجم
لـــولا تعللـــه بكأس مدامـــة   ورسائل الصابي وشعر كشاجم[1]

وكان كشاجم يلقب في منتصف القرن الرابع الهجري « ريحانة أهل الأدب » في بلاد الموصل ؛ وكان الخالديّان : أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم شاعرين كبيرين في الموصل ؛ وكان بهذه المدينة من الشعراء السريّ بن أحمد الكندي المعروف بالرفّاء . وكلهم ــ رغم ما كان بينهم من تنابز وعداوة وكيد ــ كانوا يسيرون في طريق كشاجم ، وينهجون منهجه . وكان السريّ يشنّع على الخالديـَيْن ويغض منهما ؛ فكان ينسج ديوان كشاجم ، ويدسّ فيه أحسن شعر الخالديّيْن ، ليزيد من حجم ما ينسخه من شعر كشاجم ، ويـُظهر صدقَ ما يدعيه على الخالديَيْن من سرقة شعره ، ولذلك يقول الثعالبي : « فمن هذه الجهة وقعت في بعض النسخ من ديوان كشاجم أشعار" ليست في الأصول المشهورة منها ، وقد وجدتها كلها للخالديـَيْن »[2] .

وكان أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي (المتوفى عام ٣٩٤ هـ ــ ١٠٠٤ م) من أشعر أهل العراق ؛ وورد الموصل صبياً ، فوجد بهـــا أبا عثمان الخالدي وشيوخ الشعراء ، فعجبوا منه ، واتهموه بأن الشعر

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٤٤٠ ــ ٤٥١ . ومن رسائل الصابي رسالة بعث بها إلى الخالديين برّأ فيها نفسه مما ظناه به من مساعدة السري على عداوتهما والرضا بطعنه عليهما . وقال فيها أيضاً إن السريّ سأله استماع شعر مدحه به ، فلم يجبه إلى ذلك إلا بعد أن شرط عليه الا يعرض في ذلك ذكر للخالدين بسوء ولا غمز . ويذكر الصابي أيضاً أن السري أحضر قطعة من شعره فيها أشعار للخالديين،فأخرج ما عنده من نسخ لشعرهما،وناظر السري عليها ليثبت أنها ليست له : انظر رسائل الصابي مخطوط ليدن ص ٣٤ ا ــ ٣٥ ب .

ليس له ، فاتخذ الخالديُّ دعوة ، وجمع الشعراء ، وحضر السلامي معهم ؛ فلما توسّطوا الشراب أخذوا في مُلاحاته والتفتيش على قدر بضاعته ، فلم يلبثوا حتى جاء مطر شديد وبَرَدٌ ستر الأرض ، فألقى أبو عثمان نارنجاً كان بين أيديهم على ذلك البَرَد ، وقال : يا أصحابنا هل لكم في أن نصف هذا ، فقال السلامي ارتجالاً[1] .

لله درّ الخالديّ الأوحد النَدْب الخطير
أهدى لماء المزن عند جموده نار السعير
حتى إذا صدر العتا ب إليه عن حنق الصدور
بعثت إليه بعذره من خاطري أبدى السرور
لا تعذلوه فإنه أهدى الخدود إلى الثغور

وقال أحد الخالديين في وصف الفجر[2] :

أرعى النجوم كأنها في أفقها زهر الأقاحي في رياض بنفسج
والمشتري وسط السماء تخاله وسناه مثل الزئبق المترجرج
مسمار تبر أصفر ركبته في فص خاتم فضة فيروزج
وتمايل الجوزاء يحكي في الدجى ميلانَ شارب قهوة لم تمزج
وتنقبت بخفيف غيم أبيض هي فيه بين تخفز وتبرج
كتنفس الحسناء في المرآة إذ كملت محاسنها ولم تتزوج

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٥١٤ .

ويقول أيضاً[1] :

ومـدامة صـفراء في قـارورة زرقـاء تحملها يـد بيضاء
فالراح شمس والحباب كواكب والكف قطـب والإناء سمـاء

وكان الوزير المهلَّبي شاعراً في مرتبة أرقى من مرتبة الطبقة الوسطى من الشعراء ؛ وقد أنشأ مجلسـاً حافلا للأدباء ، وكان يحب الطبيعة والشراب ، فنشر طريقة الصنوبري ببغداد . ويحدّثنا الصاحب ابن عباد في كتاب الروزنامجة ، وهو يوميات رحلته إلى بغداد ، أن الوزير المهلبي كان كثير الإنشاد لشعر الصنوبري[2] ؛ بل نجد المهلبي ينسج على منوال أستاذه ، فيصف الثلج ، وهو من الأعاجيب ببغداد ، ومن ذلك قوله[3] :

الورد بين مضمّخ ومضرّج والزهـر بين مكلّل ومتوّج
والثلج يهبط كالنثار ، فقم بنا ! نلتذّ بابنـة كرمـة لم تمـزج

وكذلك يقول القاضي التنوخي ــ وكان مـن ندماء المهلّبي ــ متأثراً بطريقة الصنوبري في وصف امرأة مسها خجل ، وقد بدت في رداء مُعَصْفر[4] :

لم أَنسَ شمس الضحى تطالعني ونحن من رقبـة عـلى فـرق
وجفـن عيني بدمعـه شرق لمـا بـدت في معصفـر شرق

---

(١) نفس المصدر ص ٥١٩ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠ ؛ وتجد قصيدة أخرى للمهلبي في كتاب من غاب عنه المطرب للثعالبي ، طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ ، ص ٤٨ .

(٤) الارشاد لياقوت ج ٤ ص ٣٣٨ .

كأنــه أدمعي ووجنتهــا لمــا رمتنا الوشاة بالحدق
ثم تغطت بكمهــا خجــلا كالشمس غابت في حمرة الشفق

ويقول[1] :

لم أنس دجلة والدجى متصوّب والبدر في أفق الســماء مغــرب
فكــأنهــا فيــه بســاط أزرق وكأنــه فيهــا طــراز مذهب

وإذا وجدنا سيف الدولة صاحب حلب يشبه نار الكانون والرماد بوجنة عذراء مسها خجل فاستترت بحجاب أشهب ، فهو يرى ذلك بعين الصنوبري[2] . وكذلك الواثقي يتأثر بالصنوبري حين يصف نار فحم الغضا بقوله[3] :

وليــلة شــاب بهــا المفــرق قــد جمــد النــاظــر والمنطق
كأنمــا فحم الغضــا بيننــا والنــار فيه ذهب محــرق
أو ســبج في ذهب أحمــر بينهــا نيلوفــر أزرق

ولما قال الصاحب بن عبّاد بخراسان أواخر القرن الرابع في الثلج :

هات المدامــة يا غــلام معجــلا فالنفس في قيــد الهوى مأثورة
أو ما تــرى كانون ينشــر ورده وكأنمــا الدنيــا به كافورة

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٩ والارشاد ج ٥ ص ٣٣٥ .

(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ :

كأنمــا النــار والرمــاد معــا وضوؤهــا في ظلامــه يحجــب
وجنــة عذراء مسهــا خجــل فاستترت تحت عنبر أشهب

(٣) اليتيمة ج ٤ ص ١١٣ .

لاحظ أبو بكر الخوارزمي أن هذه وأمثالها من الثلجيات كلهـا عيال على قول الصنوبري[1] .

وكان الشريف أبو الحسن العقيلي بمصر حوالي عـام ٤٠٠ هـ يمثّل طريقة الصنوبري في الوصف ، وكان من أكبر المبرزين في هـذا الباب ، « وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا يمدح أحداً »[2] ، ومن شعره[3] :

ونهر من الأنهار ألقت يد الصبا عليـه شـقيقاً نـاره تتضـرّم
كأن ابيضاض الماء تحت احمراره صفيحةسيف قد جرى فوقها الدم

وقد أُهمـل وصف المسموعات إهمـالا شديداً ؛ فمثلا وصف السلامي الشاعر (المتوفى عام ٣٩٤ هـ ــ ١٠٠٤ م) السِكْر المبنّي بشيراز من غير أن يذكر شيئاً عن خرير المياه أو صوتها[4] ؛ ولم أجد من هذا القبيل إلا مثالا في شعر للأمير البويهي عز الدولة ، وهو قوله في سياق قصيدة له[5] ، وصف فيها مجلساً على شاطيء الدجلة :

والمـاء ما بين الغصـون مصفق مثـل القيان رقصن حول الزامر

وفي أواخر القرن الرابـع الهجري أولع الأدباء بوصف جميـع الأشياء على اختلافها ، فنجد وصف الميزاب إلى جانب وصف الشاعر صورته في المرآة[6] ، وذلك إرضاءً لرغبة الناس في المُستَحدَث .

---

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٩٥ .
(٢) المغرب لابن سعيد ص ٤٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٧٨ .
(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .
(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٥ .
(٦) كما فعل القصار الشاعر المعروف بصريع الدلاء المتوفى عام ٤١٠ هـ . انظر تتمة اليتيمة للثعالبي مخطوط فيينا رقم ٦٦٨ ص ٢٨ ب (؟) .

وقد وصف المأموني الشاعر ببخارى جميع أصناف الأطعمة من جبن وزيتون والسمك المشوي وماء الخردل والبيض المفلق والفالوذج والهريسة وغيرها كثير[1]. وقال أبو العباس الفضل بن علي الأسفراييني من كور نيسابور في وصف شمعة نصبت في بركة :

وشمعة وسط أيمن البرك تميس في الماء ميس مرتبك
كأنها البدر في السماء سرى فحار في أوجه الفلك

وقال في فوّارة أقلت تفاحة :

وفوارة سائل ماؤها بتفاحة مثل خد العشيق
كمنفخة من رقيق الزجا ج تدار بها كرة من عقيق[2]

وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب الشاعر المصري (المتوفى عام ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م) في وصف الهرمين[3] :

أنظر إلى الهرمين إذ برزا للعين في علو وفي صعد
وكأنما الأرض العريضة قد ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الثديين بارزة تدعو الإله لفرقة الولد
فأجابها بالنيل يشبعها ريّا وينقذها من الكمد

ومما هو عظيم الدلالة أننا لا نجد في الشعر العربي مكانا

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٩٤ – ١١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٣١٦ .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٢١ .

للمكدّين الطوّافين قبل القرن الرابع ، فمن ذلك قول الأحنف العكبري مفتخرا[1] .

علـى أنـي بحمـد اللـه	في بيـت مـن المجـد
بإخـواني بني سـاسا	ن أهل الجـد والجد
لهـم أرض خراسـا	ن فقاشان إلى الهنـد
إلى الروم إلى الزنـج	إلى البلغـار والسند
إذ مـا أعوز الطـرق	على الطراق والجنـد
حـذاراً من أعاديهـم	من الأعراب والكـرد
قطعنـا ذلك النهـج	بلا سيف ولا غمد
ومـن خاف أعاديـه	بنا في الروع يستعدي

وقد دخل في الأدب على أيدي المكدّين شعر حر مُزْهِر ترنموا به ، كما دخل الشعر العاطفي الغنائي المرح الذي لا تكلّف فيه . وأكثر شعراء المكدّين وظريفهم هو الأحنف العكبري ، من مدينـة عكبرى بالعراق ، وهو لم يعبأ في خمرياته بوصف شيء من جمال الطبيعة الذي يلتذ منه الشعراء ، فمن قوله[2] :

شربـت بمـاخور	عـلى دفّ وطنبـور
وصوت الطبـل كردم	وصـوت الناي طلّير
فصرنا من حمى البيت	كأنـا وسـط تنّور

---

(1) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ .

(2) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٨٧ ، ويروى عن الخليفة المعتمد انه قال :

ويمضي الأمير أبـو أحمـد ويضرب بالطبل كردم كدم

(انظر كتاب الديارات ص ٤٢ ب) .

وصرنا من أذى الصفع كمثل العمي والعور
لقد أصبحت مخموراً ولكن أيّ مخمور

وقال يصف آلام المكدّين[1] :

عشت في ذلّة وقلة مال واغتراب في معشر أنذال
بالأماني أقول لا بالمعاني فغذائي حلاوة الآمال
لي رزق يقول بالوقف في الرأي ورجل تقول بالاعتزال

وقال :

العنكبوت بنت بيتاً على وهن تأوي إليه ومالي مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن وليس لي مثلها إلف ولا سكن

ولا نجد في هذا الشعر صناعة لفظية ولا زخرفة ولا عبارات من التي تجري مجرى الأمثال أو الحكم . هذا هو الأسلوب الذي جرى عليه الأدب الفرنسي من عهد ڤيلون Villon إلى عهد فرلينVerlaine . وقد جرى على هذه الطريقة الشاعر محمد بن عبد العزيز السوسي ، أحد شياطين الإنس ؛ فقد قال قصيدة تربي على أربعمائة بيت ، وصف فيها حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات وقد افتتحها بقوله :

الحمد لله ! ليس لي بختُ ولا ثيابٌ يضمّها تخت[2]

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٨٦ ، وكتاب الاعجاز للثعالبي ص ٢٣٦ ، وكتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للمؤلف نفسه ص ٣٤٢ .

(٢) تجد القصيدة كاملة في اليتيمة ج ٣ ص ٢٣٧ .

وإلى جانب هذا الشاعر نجد الشعراء الشعبيين الذين ظهروا في مدن العراق الكبرى مثل أبي الحسن محمد بن لَنكَك البصري ، « وما أشبه شعره في الملاحة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلا بشعر كنّيه أبي الحسن بن فارس ... إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع ، فأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح وينجح[1] » ؛ وابن سكرة الذي كان شاعراً متّسع الباع ، إذ يقال إن ديوانه يربي على خمسين ألف بيت ، منها أكثر من عشرة آلاف بيت قالها في قينة سوداء يقال لها خمرة[2] .

وكان أكبر هؤلاء الشعراء الشعبيين غير مدافع ابن الحجاج الذي كان ببغداد ، وتوفي عام ٣٩١ هـ ــ ١٠٠١ م[3] . وكان نحيفاً ولذلك يقول[4] :

لا تخافي عليّ دقّة كشحي   لا تكال الرجال بالقفزان

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١١٦ ــ ١١٧ ؛ وقد جمع ابن لنكك ديوان نصر بن أحمد الخبزارزي البصري الشاعر المتوفي عام ٣٣٠ هـ ــ ٩٤١ م (المنتظم لابن الجوزي ص ٧٠ ب) ؛ وكانت أشعار الخبزارزي قصائد قصيرة في الغزل ، وكانت حرفته خبز الأرز ، فكان يخبز وينشد أشعاره والناس يزدحمون عليه ليسمعوها ؛ وكان معظمها في الغلمان ، وكان أحداث البصرة يتنافسون في ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته (يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٣٢) . ويقول المسعودي عام ٣٣٣ هـ ــ ٩٤٤ م .(المروج ج ٨ ص ٣٧٤) «وأكثر الغناء المحدث في وقتنا من شعره » . وكان الخبز ارزي محبوباً حتى بعد موته .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) هو ابو عبد الله الحسين بن أحمد ؛ توفي في طريق النيل بالعراق ، وهو عائد منها ، في ٢٧جمادى الآخرة (وفي كتاب الوزراء ص ٤٣٠ لسبع بقين من سنة ٣٩١ هـ) ، ودفن إلى جانب قبر جعفر الصادق محبة منه للشيعة ؛ وقد أمر أن يكتب على قبره : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد (سورة الكهف آية ١٧) . انظر الهمداني مخطوط باريس ص ٢٤٠ ب (أ). وكان يسكن سوق يحيى ، وقد تغنى بها في شعره (انظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٩٥).

(٤) اليتيمة ج ٢ ص ٢٤٢ .

وقد قال مدافعاً عن نفسه ، لما خرج هارباً من غُرَمائه[1] :

هربت من وطني إلى بلد قد صفر الجوع فيه منقاري
يقول قوم : فرّ الخسيس ، ولو كان فتى كان غير فرار
لا عيب لا عيب في الفرار فقد فرَّ نبي الهدى إلى الغار

ويظهر أنه قال في ذلك الوقت العصيب هذين البيتين الآتيين مفتخراً[2] :

قد قلت لما غدا مدحي،فما شكروا وراح ذمي ، فما بالوا ولا شعروا
عليَّ نحت القوافي من معادنها وما عليَّ إذا لم تفهم البقر

وكان ابن الحجاج لسخفه ورداءة لسانه مَخْشي الجانب ، مقضي الحاجة ، مقبول الشفاعة ؛ ولم يزل أمره يتزايد حتى حصّل الأموال ، وصار من أهل الجاه ؛ وقد قال ابن الحجاج نفسه لبعض الرؤساء ، حين كتب إليه يذكر أن سخفه جاوز التناهي :

سيدي ! سخفي الذي قد صار يأتي بالدواهي
أنت تدري أنه يد فع عن مالي وجاهي[3]

وقد كان ابن الحجاج من أولاد العمال ، واشتغل بالكتابة في أول أمره ، ثم ضمن فرائض الصدقات بسقي الفرات ، وصار أخيراً محتسباً

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١١ ؛ وديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد (مرغانة) نسخة المؤلف ص ٢٥٨ من ج ١٠ .

على مدينة بغداد . ولشدّ ما حسده ابن سكرة ، زميله في المذهب الشعري ، لأنه كان أقل نجاحاً من ابن الحجاج[1] .

وكان ابن الحجاج في قصائده يستعمل عبارات المكدّين وأهل الشطارة[2] . وقد أتاح هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستبشع في المدن الشرقية ، فرفع هذا الفحش رأسه بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربية وأخرجته من الأدب العربي ؛ لأن الذي كان يسيطر على النزعة الأدبية هم البدو الذين هم أكثر عفة واعتدالا[3] . وما أشبه ابن الحجاج برجل كانت تقيده سلطة خارجية ، فتحرر منها وانطلق في السخف . وكان أساس مبالغته في ذلك أنه أراد أن يتخذ من الإسراف في الفحش طريقاً لمعارضة الشعراء الآخرين الذين كانوا يعالجون في شعرهم الموضوعات الحسنة ؛ وهو يقول[4] :

وشعري سخفة لا بد منها   فقد طبنا وزال الاحتشام
وهل دار تكون بلا كنيف   فيمكن عاقلا فيها المقام

وهو يقول :

تراني ساكناً حانوت عطر   فإنْ أنشدتُ ثار لك الكنيف

(١) ديوان ابن الحجاج ج١٠ ص ٢٤٠،وكتاب الوزراء ص ٤٣٠ واليتيمة ج٢ ص ٢١٩ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) ولو أراد الانسان أن يفحص عن أصل هؤلاء المجان الذين يجاهرون بالفحش لوجد أكثرهم يقال عنه مثل ما قيل عن ابن الراوندي (المتوفى عام ٢٩٨ هـ - ٩١١ م) : الماجن المنسوب إلى الهزل والزندقة ، وكان أبوه يهوديا فأسلم (أبو المحاسن ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ليدن) .

(٤) اليتيمة ج ٢ ص ٢١٤ .

ومن قوله :

ومن كل يحوي العطرَ دكان شعره   فإني كناس وشعري مخرج

ولهذا جاء في كتاب في الحسبة لمؤلف متأخر ما يقضي بمنع الصبيان من حفظ أشعار ابن الحجاج والنظر فيها وبضربهم على ذلك[1] . ولكن يظهر أن ابن الحجاج لم يلحقه عند معاصريه ضرر بسبب ذكره للمقاذر وإفصاحه عن السخف والفحش والمجون . فمثلا كان الشريف الرضي نقيب العلويين وأكبر أصحاب المكانة في الدولة العباسية من أكبر المعجبين بابن الحجاج والمتعصبين له ؛ وقد رثاه بقصيدة ، واختار من شعره السليم أشياء كثيرة . وقد حمل إليه الخليفة الفاطمي ، صاحبُ مصر عن مديح مدحه به ألف دينار مغربية على سبيل الصلة[2] . ويُحكى أنه كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين . وقد سأل الهنكري مُغَنّي سيف الدولة ابن الحجاج أن يصنع شعراً ليغنّي به بين يدي سيده ، فألّف له شيئاً[3] . ويقول ابن الحجاج نفسه[4] :

لو جدّ شعري رأيتَ فيه   كواكب الليل كيف تسري
وإنما هزله مجون   يمشي به في المعاش أمري

وكان ابن الحجاج لا يبني جُلّ أقواله إلا على سخف ، « ولم يُرَ كاقتداره على ما يريده من المعاني مع سلامة الألفاظ وعذوبتها » ؛ وكان لا يبالي بالوزن والقافية ؛ وقد حوى ديوانه كثيراً من الكلمات غير

(١) مجلة المشرق السنة العاشرة ص ١٠٨٥ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٤٣٠ ، وديوان ابن الحجاج ج ١٠ ص ٢٣٧ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢٢٦ .
(٤) نفس المصدر ص ٢١٣ .

المعروفة أخذها من لغة العامة ببغداد في القرن الرابع الهجري[1] . وكان يعرف النماذج الشعرية المأثورة ، غير أنه يتجاهلها ويعارضها معارضة سخرية وهزل ، فمما قاله عند موت سبكتكين :

واستي تبكي بفرد عين لفقد عيني سبكتكين

إلى أن قال :

ما لكنيف دفنت فيه لا زال يُسقى غيث البطون[2]

ولكنا نرى بين حين وآخر من خلال هذا الضباب الذي يتكون من السخف والمجون معاني وألفاظاً مثل كواكب الليل ، ونستطيع أن ندرك لماذا كان معاصرو هذا الماجن يعدونه شاعراً كبيراً .

أما المتنبي الذي يرجع أصله إلى العراق أيضاً ، والذي نشأ في الشام ، فنجده يتمسك بطريقة العرب القدماء ، خلافاً لهؤلاء الشعراء[3] المحدثين .

---

(١) ومن أسف أنها لم تشرح إلا شرحاً جزئياً وذلك في نسخة الديوان المحفوظة بالمتحف البريطاني .

(٢) ديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد ص ٨٠ ؛ ومخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٣٤٢ ص ٦١ – ٦٢ .

(٣) وكذلك كان الشاعران الشاميان أبو تمام (المتوفى عام ٢٣٠ هـ – ٨٤٥ م) والبحتري (المتوفى عام ٢٨٤ هـ – ٨٩٧ م) محافظين ، وقد نهجا طريق أسلافهما من شعراء دمشق وهم الفرزدق وجرير والأخطل . على أنه قد بلغ من الحس الشعري عند البحتري أنه قال : إن ابا نواس أشعر من مسلم بن الوليد ، لأنه يتصرف في كل طريق ، إن شاء جد وإن شاء هزل . ومسلم يلزم طريقاً لا يتعداه ؛ فقيل له إن ثعلباً لا يوافقه فقال : ليس هذا من علم ثعلب واضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله، وإنما يعرف الشعر من دفع إلي مضايقه؛ (انظر : Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie S. 164, Anm. 4) على أنه كان بالشام شاعر مشهور هو أبو حامد أحمد بن الأنطاكي المعروف بابن الرقعمق المتوفى عام ٣٩٦ هـ . وقد تصرف بالشعر الجزل في أنواع الجد والهزل ، وكان بالشام كابن الحجاج في العراق (يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣٨ – ٢٦١) ؛ انظر للاستزادة من أخباره معاهد التنصيص مخطوط برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥٦ أ .

كان أولئك الشعراء واقعيين في نزعتهم الشعرية ، فكانوا يتغنون بما يرونه ويحسونه ويشاهدونه ؛ أما المتنبي فهو مثال للأستاذ العالم الذي يستهويه المعنى الكلي ؛ فمن ذلك أن رجلا خرج للصيد مرة ، وكان معه كلب فطرد به ظبياً ، ولم يكن معه صقر ، فاستحسن صيد الكلب ؛ وقال للمتنبي : وَدِدْنا يا أبا الطيب لو كنت معنا ! فقال له : أنا قليل الرغبة في مثل هذا ؛ فقال له الرجل : إنما اشتهيت أن تراه ، فتستحسنه ، وتقول فيه شيئاً ؛ فأجاب المتنبي إنه يستطيع أن يفعل ذلك من غير أن يحضر الصيد أو يرى الكلب ؛ وقال قصيدة وصف بها الكلب وسرعته ، على الطريقة المأثورة[1] .

وكان المتنبي كثير الأخذ من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر في شعر المحدثين[2] . وقد عاداه شعراء العراق كابن سكرة وابن لنكك[3]، وابن الحجاج[4] ، وعملوا على ثلبه والتماجن به والتنادر عليه ؛ وقد انتهى إلينا وصف محاورة جرت بينه وبين أحد الشعراء لما ورد المتنبي مدينة السلام . وتدل هذه المحاورة على سوء ما وقع بين المتنبي شاعر الملوك وبين أدباء بغداد ؛ ذلك أن المتنبي قدم إلى مدينة السلام ، وقد التحف رداء الكبر ، وصعّر خده ؛ فذهب إليه الحاتمي الشاعر ، فوجده يلبس سبعة أقبية ، كل قباء منها لون ، مع أن الوقت كان أحرّ أيام الصيف وأخلقها بتخفيف اللبس ؛ فأعرض المتنبي عنه ، وتجاهله ، ولم

(١) ديوان المتنبي طبعة القاهرة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٨ م ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٩٨ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٤) ديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد ص ٢٧٠ .

يسأله عن قصده ، ثم كلمه الحاتمي وأغلظ له القول[1] .

وكذلك كان أبو فراس الشاعر الشامي (المتوفى عام ٣٥٧ هـ ـــ ٩٩٨ م) ينسج على منوال القدماء ، لم يحد عن ذلك قط . وأغرب ما نراه فيه قلة تعرضه في قصائده ، أو بالأحرى أنه لم يرد أن يتعرض في قصائده ، لذكر الحروب الشعواء التي كانت ناشبة في غرب المملكة الإسلامية ؛ ونظراً لأنه كان ابن خال سيف الدولة الأمير الحمداني ، فلا بد أن يكون قد ذاق الكثير من أثر حوادث ذلك العصر ، وإن كان الكثير من شعره في الفخر ليس إلا خيالا لا حقيقة وراءه . وقد يستحيل على من لم يكن ملما بحوادث ذلك العصر أن يستنبط من قصائده أن الروم والمسلمين والنصارى كانوا يتحاربون بجيوش جرّارة مسلحين بأكمل سلاح حربي عرفه ذلك العصر ؛ ولا يزيد وصفه لهذه الحروب الكبيرة في شعره عما يمكن أن يقال في وصف قتال بين قبيلتين من البدو . ولا أرى في القصائد التي قالها في سجنه ببلاد الروم إلا أنها نثر مسجوع؛ وإذا وجدنا من يبالغ في امتداحها من المؤلفين كالصاحب والثعالبي فهذا برهان جديد على ضعف الفارق بين الكاتب والشاعر .

وقد ولد الشريف الرضي عام ٣٦١ هـ ـــ ٩٧٠ م ببغداد ؛ وكان في الثلاثين من عمره ، لما مات ابن الحجاج ؛ وكان الرضي شاعراً عظيما ،

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٥٠٥ وما بعدها ؛ وطراز المجالس للخفاجي طبعة مصر ١٨٩٤ م ، ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها واليتيمة ج ١ ص ٨٥ ؛ وقد ترك أبو العلاء الشاعر الشامي مدينة بغداد في عام ٤٠٠ هـ ، وذلك لأن الرضي طعن في المتنبي ومدحه أبو العلاء ، فأخرجه الرضي من الغرفة (انظر مقدمة مرجليوث لرسائل أبي العلاء ص ٢٨)، وقد ألف أبو العلاء شرحا كبيراً لأشعار المتنبي سماه كتاب العلائق والغصون انظر : Kremer, SWA, 117, S. 89 .

وقد اختار من شعر ابن الحجاج كتاباً سماه الحسن من شعر الحسين[1].
وكان الشريف الرضي سيّداً كبيراً انحدر من شجرة عظيمة عريقة النسب، فلم يستطع مخالفة التقاليد والنزول إلى ما نزل إليه ابن الحجاج من إسفاف ومعالجة لنواحي الحياة التي لا تليق بالرضي ؛ فقد كان أبوه نقيباً للعلويين جميعاً ، فلما مات في سنة ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م تولى الرضي منصب أبيه وجميع ما كان يتقلده ويتعهد به إليه ، وإن لم يكن الشريف أكبر إخوته . وكانت داره مثال الأبهة في المظهر ، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم سماها دار العلم ، وهيأ لهم فيها ما يحتاجون إليه[2] . وكان الرضي مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً ، وقد رفض مرة هدية من وزير[3] ؛ وكان فخوراً بأنه قاضٍ على من تحت أمره من العلويين ؛ وكان ينسب إلى الإفراط في معاقبة الجاني منهم ، وله في ذلك حكايات مشهورة ؛ منها أن امرأة علوية شكت إليه زوجها ، وأنه يقامر بما يتحصل له من حرفة يعانيها ، وأن له أطفالا ، وهو ذو عيلة وحاجة ؛ وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت ،فاستحضر الرجل ، وأمر به فبُطح ، وأمر بضربه ؛ فما زال يضربه ، والمرأة تنتظر أن يكف ، والأمر يزيد ، حتى بلغ ضربه مائة خشبة ، فصاحت المرأة : وايتْمَ أولادي ! كيف تكون صورتنا إذا مات ! فكلمها الشريف بكلام فظّ ، وقال : ظَنَنْتِ أنكِ تشكينه إلى المعلم[4] ؟ وكان الشريف الرضي أول عظيم من عظماء العلويين ألقى سلاح النضال وغير لباس السواد بلباس البياض على الرسم العباسي

(١) ديوان الرضي طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ ، ص ٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢ ، ٣ .
(٤) ديوان الشريف الرضي ص ٣ و ص ٩٢٩ .

للعمال ورجال الخلافة تاركا الشعار الذي كان يلبسه آباؤه بكبرياء يوازي ما كانوا يشعرون به من حزن . وهو يشير في بعض شعره إلى أن حذره راجع إلى شيء من الكآبة والهم التي انطوت عليه نفسه ، فهو يقول مثلا[1] :

أروم انتصافي مـــن رجال أباعد ونفسي أعدى لي من الناس أجمع

ويقول :

إذالم تكن نفسُ الفتى من صديقه فلا يحدثن في خلة الغير مطلبـا

ويقول :

وقالوا : تعلّل ! إنما العيش نومة تقضى ، ويمضي طارقُ الهم أجمع
ولو كان نوماً ســاكناً لحمــدته ولكنه نوم مروع مُفَزَّع

ولم يكن يخرج من فم هذا الرجل النبيل حقيقة كلمة واحدة من الكلمات القبيحة التي يتلفظ بها العامة ، والتي نرى مثلها عند إبراهيم الصابي صاحب ديوان الرسائل وعند الوزير المهلّبي ، وعند الوزير ابن عياد . وإذا كان غيره من الشعراء قد استباحوا لأنفسهم في الذم كل قبيح فإننا لا نجد للشريف الرضي في باب الهجاء أقوى من ذمه لمغنّ بارد قبيح الوجه ، وهو[2] :

تغفى بمنظــره العيون إذا بــدا وتقيء عند غنائه الأســماع

(١) ديوان الرضي ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، وكان الشريف لا ينشد شعره إلا للخلفاء ، حتى قال أعداؤه لبهاء الدولة إنه يتكبر عليه بترك الانشاد بين يديه (الديوان ص ٩٥٤) . ومما يجب أن يلاحظ من أسباب كآبته أنه ولد لأبيه وهو في الخامسة والستين من العمر .

(٢) ديوان الرضي ص ٥٠٤ .

. . . .

أشهى الينـــا من غنـــائك مسمعاً   زجـــل الضراغـــم بينهن قـــراع

وإذا كنا نجد رجلا كالشريف الرضي قد كلف نفسه مشقة قراءة ديوان ابن الحجاج وانتخاب أشعاره الخالية من السخف والمجون ، ثم ألف مرثية لهذا الشاعر[1] فإن في ذلك شرفاً لهذين الرجلين معاً . على أن الرضي كان أكثر ميلا إلى المتنبي ، لأن ابن جنّي صاحب الشرح لديوان المتنبي كان أستاذه ؛ وهو يقول الشعر في كل ما كان يقرض الشعرَ فيه الشعراء المتمسكون بمذهب القدماء في ذلك العصر كالتهنئة بالنيروز ، وعيد الفصح ، وبشهر رمضان ، وبانتهاء شهر الصوم ، وبالمهرجان ، وبالتهنئة بمولد بنت أو ولد ، وبمدح الخلفاء والسلاطين والوزراء ، وبرثاء من يموت من العظماء أو من المقربين إليه ، وخصوصاً برثاء الحسين في عيد وفاته ، وهو يوم عاشوراء . وهو يفتخر بأهل بيته وبالأشراف ، ويشكو الزمان والشيب . وقد شكى المشيب وهو صغير ، كما جرى عرف الشعراء ؛ ولحسن الحظ حلق الشريف مقدّم رأسه مرة وفاء بيمين ، فوجد شعراً أبيض ، وكان إذ ذاك في العشرين من العمر ، فكان هذا على الأقل سبب شخصي يبرر له أن يبدأ الكلام في المشيب[2] .

---

(١) الديوان ص ٨٦٢ — ٨٦٤ .

(٢) ويروى مثل هذا عن ابي فراس الأمير الشامي الشاعر ، وقد لوحظ انه اخذ ذلك من ابي نواس . اما ابيات ابي فراس فهي : (نقلا عن كتاب Dvorak : Abu Firas (1895, S. 141 .

عذيري من طوالع في عذاري   ومـن رد الشباب المستعـار

وثـوب كنـت ألبسه أنيـق   أجـرر ذيلـه بـين الجواري

وما زادت على العشرين سني   فما عذري المشيب إلى عذاري

ويعتبر الشريف الرضي في تاريخ الأدب العربي سيد أصحاب المراثي[1] ، وهو يفعل ذلك متبعاً للطريقة المأثورة تماماً من غير تعرض لشخص المرثي ، وهذا غريب ومما لا يكاد يصدق .

وفي سنة ٣٩٢ هـ ـ ١٠٠٢ م فقد الشريف الرضي أستاذه وصديقه ابن جنّي اللغوي المشهور وقد بدأ رثاءه له بالشكوى من الفناء ، وهو يقول[2] :

كأنا قذى يرمي به السيل كلما ... تطاوح مـا بين الربى والأبارق

ثم يمضي مكثراً من تساؤله أين ؟ مثل قوله :

فأين الملوك الأقدمون تساندوا ... إلى جـذم أحساب كرام المعارق

. . . .

وبعد هذا يذكر ما امتاز به الفقيد من المواهب فيقول :

فمن لأوابي القول يبلو عراكهـا ... ويحذفها حذف النبـال الموارق
إذا صاح في أعقابها اضطردت له ... ثواني بالأعنـاق طـرد الوسايق
وسوّمهـا ملس المتون كأنهـا ... نزائع مـن آل الوجيـه ولاحق
تغلغل في أعقابهن وسـومه ... بأبقى بقـاء من وسـوم الأيانق
ومن للمعاني في الأكمـة ألقيت ... إلى باقـر غيب المعـاني وفاتق
يطوح في أثنائهـا بضميره ... مرير القوى ولاّج تلك المضايق
تسنم أعلى طودهـا غير عاثـر ... وجاوز أقصى ضحضها غير زالق

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٣٠٨ .
(٢) ديوان الشريف الرضي ص ٥٦٤ .

وهنا ينتهي كلام الشريف الرضي عن صفات المرثي ؛ أما بقية القصيدة فهو مما يصلح أن يقال في كل رثاء ٠

ورغم أن الشريف الرضي كان يقيم ببغداد عاصمة المملكة ، وكان عالما هادئاً ، فإنه تجاوز حياة المدن ، ومضى في شعر الفروسية الخيالي من كلام في الحرب والصحراء والجمال وكرام الخيل ٠

على أن الكثير من شعره ثمرة لتجربته الخاصة أحس به إحساساً عميقاً ، وعبر عنه تعبيراً خاصا به ، بحيث نستطيع أن نستشف من وراء هذه الأشعار التي تجري على نسق واحد أنه تلميذ لابن الحجاج ٠ ومن غرر قصائد الشريف الرضي القصيدة التي ألقاها في مجلس الخليفة القادر، حينما جلس يحتفل بالحجيج من أهل خراسان ومطلعها[1] :

لمن الحدوج تهزّهن الأينُق ... والركب يطفو في السراب ويغرق

يقطعن أعراض العقيق فَمُشئِم ... يحدو ركائبه الغرام ومُعرق

أبقوا أسيراً بعدهم لا يفتدى ... مما يجن وطالباً لا يلحق

يهفو الولوع به فيطرف طرفه ... ويزيد جولان الدموع فيطرق

ومن أروع قصائده قوله في النسيب[2] بامرأة جميلة في قافلة تسير ليلا :

طلعت والليل مشتمل ... سابغ الأذيال والأزر

من خصاصات الغبيط ، وقد ... غرّد الحادي على أقر

(١) ديوان الشريف الرضي ص ٥٤١ ٠

(٢) نفس المصدر المتقدم ص ٣٩٤ ٠

ورقاب القــوم مائلة من بقايــا نشوة السهر

فاســتقاموا في رحالهــم يتبعون الضوء بالنظر

فامترينــا ، ثم قلت لهــم : ليس هــذا مطلــع القمــر

وهكذا نجد الصنوبري والمتنبي وابن الحجاج والشريف الرضي يقفون جنباً لجنب في القرن الرابع الهجري ، وكل واحد منهم يشبه في الناحية التي نبغ فيها قِمّةً تشرف على كل القرون التالية للأدب العربي.

*

(تمت فصول المجلد الأول)

الفهارس

فهرست الموضوعات

الفصل الثالث : الامــراء ٤٥ ــ ٧٤

الفصل الرابع: اليهود والنصارى ٧٥ — ١١٨

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس: الشيعــة ١١٩ ــ ١٤٦

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس: الادارة ١٤٧ ــ ١٦٧

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع: الوزارة والوزراء ١٦٨ ـ ٢٠٦

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن : المسائل المالية ٢٠٧ ــ ٢٥٤

الفصل التاسع: رسوم دار الخلافة ٢٥٥ ـ ٢٧٨

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني عشر : العلمــاء ٣١٩ — ٣٥٠

الموضوع	الصفحة
تزيين الكتب عند المانوية وأصحاب الحلاّج ، زخرفة خطابات الملوك وعهودهم	٣٢٧ — ٣٢٨
تأسيس دور العلم والكتب للطلبة	٣٢٩ — ٣٣٢
التدريس في المساجد	٣٣٢ — ٣٣٣
كثرة طلاب الفقة	٣٣٣ — ٣٣٤
الإمـــلاء	٣٣٤ — ٣٣٦
نشأة المدارس ، نيسابور	٣٣٦ — ٣٣٧
وصف الدرس	٣٣٧ — ٣٣٨
احترام علم الحديث	٣٣٨ — ٣٤٠
السن عند التصدي للتدريس أو سماع الحديث	٣٤٠ — ٣٤١
حرفة النسخ ، حرفة التعليم	٣٤٢ — ٣٤٦
الفقهاء والعلماء من أهل الأرزاق	٣٤٧
العلماء والصناعة	٣٤٧ — ٣٤٩
ألقاب العلماء ، خصال بعض العلماء	٣٤٩ — ٣٥٠

الفصل الثالث عشر : علوم الدين ٣٥١ ـ ٣٨٦

الموضوع	الصفحة
تحرر علم الكلام من الفقه ، عداء الصوفية للفقه وللعلم الدنيوي : ابن خفيف ، الحلاج ، الجنيد	٣٥١ — ٣٥٣
دراسة القرآن والحديث ، رواية الحديث دون لقاء حلول دراسة الكتب محل الأسفار : ابن يونس الصفدي ، ابن مندة ، السرخسي ، الغزالي ، أبو الفرج الأصفهاني	٣٥٣ — ٣٥٥
شأن علماء الحديث وسعة حفظهم	٣٥٥ — ٣٥٦

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع عشر : المذاهب الفقهية ٣٨٧ — ٣٩٥

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس عشر : القضــاة ٣٩٦ ـ ٤٣٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الشريف الرضي سيد أصحاب المراثي ، رثاؤه لابن جني	٥٠٧ — ٥٠٨
شعره في الفروسية ، تأثير ابن الحجاج في شعره ، شذرات من غرر قصائده ، الشريف الرضي أحد أربعة	٥٠٨ — ٥٠٩

* * *

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

(ي)

* * *

فهرست المُدُن وَالأماكن

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ل)

(م)

(ن)